المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ترحال فى الجزيرة العربية

يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين



تأليف: جون لويس بوركهارت

ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن

مراجعة: محمد صابر عرب

1211

أحد الكتب القيمة التى ألفها واحد من أدق الرحالة، وأكثرهم علماً، فضلاً عن أنه أيضاً من الرحالة المحدثين الذين يشيعون الأنس والود فيما يكتبون.

الكتاب عبارة عن تاريخ للحجاز فى العام 1810 الميلادى، أو إن شئت فقل: إنه تاريخ للأرض المقدسة والمسلمين، وهذه المنطقة لم تكن معروفة فى أوروبا فى زمن بوركهارت – كما يشمل الكتاب أيضاً وصفاً لمدينة مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع.

والكتاب يثير فضول قارئه إلى أبعد حد ممكن وبخاصة إذا ما عرفنا أن المؤلف أقام فى تلك المدن مدعياً أنه مسلم، بين أناس كان يعلم عنهم عدم وجود أحد من الرحالة يستطيع أن يكتب أى شىء عنهم.

وصف بوركهارت لكل من جدة ومكة إنما هو وصف موسوعى، وهو الثمرة الطيبة لعين متأنية وفاحصة لم تغمض مطلقاً عن الاهتمام بكل ما لا يتعلق بالبشر.



تصميم الغلاف: نسرين كتك

ترحال فى الجزيرة العربية

(الجزء الثانى)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد: ١٢١١
- ترحال في الجزيرة العربية ج٢
- جون لويس بوركهارت
- صبري محمد حسن
- محمد صابر عرب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

Travels in Arabia

Comprehending an account of those

territories in Hedaz which the Mohammedans regaard

as sacred

Vol . II

by John Lewis Burchordt

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

ترحال فى الجزيرة العربية

يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين

(الجزء الثانى)

تـأليـف : جون لويس بوركهارت

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن

مـراجـعـة : محمد صابر عرب



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بوركهارت ، جون لويس
- ترحال في الجزيرة العربية ، يتضمن تاريخ مناطق الحجاز المقدسة عند المسلمين ، تأليف : جون لويس بوركهارت ، ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن ، مراجعة : محمد صابر عرب
- ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٧
٢٩٢ ص ، ج ٢ ، ٢٤ سم
١ - شبه الجزيرة العربية - تاريخ
(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)
(ب) عرب ، محمد صابر (مراجع)
(جـ) العنوان
٩٥٣,٠٠١

رقم الإيداع ٢٠٠٧/١٤٣٦٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-388-X
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الحج

يتواصل مرور الأزمان مع استمرار مجيء الحجاج من سائر أنحاء العالم الإسلامي كل عام بأعداد كبيرة ؛ ابتغاء زيارة أماكن الحجاز المقدسة . عدم الاكتراث المتزايد بالدين، والمصروفات الزائدة للرحلة يمنعان قسمًا كبيراً من المسلمين من العمل بنصوص القرآن التي تنص على حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، حتى ولو لمرة واحدة في العمر كله . أما أولئك الذين يضطرون إلى البقاء في أوطانهم ، فالشرع يسمح لهم بأن ينيبوا عنهم من يدعو لهم ، ولكن أولئك الذين يعملون بهذه النصيحة قليلون جداً ، أو قد يتفادون ذلك عن طريق إعطاء بضعة دولارات لحاج من الحجاج ، الذين يأخذون عمولات مماثلة من أشخاص عدة ، لكي يدعوا لهم عقب الصلوات التي يؤدونها في الأماكن المقدسة . في زمن الحماس الإسلامي كان الناس يتحملون المصاعب ومشاق الرحلة ابتغاء زيادة الأجر ، إلى حد أن الكثيرين من هؤلاء الحجاج كانوا ينضمون إلى القوافل طمعًا في القيام برحلة الحج كلها عن طريق البر ، لكن في الوقت الحالي لا يلتحق السواد الأعظم من الحجاج بالقوافل ، أو بالأحرى قوافل الحج، وإنما يصلون إلى جدة بطريق البحر قادمين إليها من مصر أو من الخليج الفارسي ، يزاد على ذلك أن بعض الدوافع الرئيسية وراء هذه الرحلة هو الاتجار والتكسب .

في عام ١٨١٤ م ، وصل عدد كبير من الحجاج إلى مكة ، قبل موسم الحج بثلاثة أشهر أو أربعة . مسألة صيام رمضان في مكة (المكرمة) حافز كبير لمن يستطيعون إليه السبيل ، ولذلك تراهم يعجلون بالوصول إلى مكة ، ليطيلوا مقامهم فيها . في غضون الوقت المحدد لوصول قوافل الحج المنتظمة ، كان هناك ما لا يقل عن أربعة آلاف حاج تركي ، جاءوا بطريق البحر ، وكانوا متجمعين فعلاً في مكة (المكرمة) ،

وربما كان نصف هذا العدد من أصقاع بعيدة من العالم الإسلامي . من بين قوافل الحج المنتظمة التي يتراوح عددها بين خمس قوافل وست قوافل اعتادت الوصول إلى مكة قبل أيام قلائل من الحج ، لم يظهر هذا العام سوى قافلتين ؛ هاتان القافلتان كانتا من سوريا ومن مصر ، كانت القافلة المصرية مكونة من أناس ينتمون إلى حاشية قائد الحج هو وقواته ، ولم يأت أحد من الحجاج عن طريق البر على الرغم من سلامة الطريق وأمنه .

كانت القافلة السورية هي الأقوى دوماً ، منذ زمن الخلافة ، يوم أن كان الخلفاء شخصياً يرافقون الحجاج من بغداد إلى مكة . تبدأ القافلة السورية من القسطنطينية وينضم إليها حجاج شمالي آسيا أثناء مرورها عبر الأناضول وسوريا إلى أن تصل إلى دمشق ، التي تمضي فيها أسابيع عدة . وعلى امتداد الطريق من القسطنطينية إلى دمشق ، يعمل الجميع على راحة القافلة ، وسلامتها ، وترافقها قوات الحكام من بلد إلى آخر ، وقد قام السلاطين السابقون ببناء النُّزل والخانات في كل محطة من المحطات ، وزودوها بأسبلة المياه ، لكي تفيد منها القافلة أثناء مرورها الذي كان يحظى بحفاوة كبيرة وفرح شديد . في دمشق يجري الاستعداد لرحلة تستمر ثلاثين يوماً عبر صحراء المدينة (المنورة) ، يزاد على ذلك أن الإبل التي تنقل القافلة إلى هذه المسافة يتعين استبدالها ؛ والسبب في ذلك أن الجمل الأناضولي لا يقوى على تحمل متاعب رحلة من هذا القبيل . يضاف إلى ذلك أن مدن القسم الشرقي من سوريا كلها تقدم إبلها لهذا الغرض ؛ ولذلك يتعاقد كبار شيوخ البدو في المناطق الحدودية ، مع حكومة دمشق على أعداد كبيرة من هذه الإبل . هذا يعني أن تلك الإبل تكون بأعداد كبيرة جداً ، حتى وإن كان المسافرون مع هذه القافلة قليلي العدد ، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا من ناحية تلك الإبل التي تستخدم في حمل الماء ، وحمل التموينات المطلوبة للحجاج ، والجنود ، والخيول ، ومن الناحية الأخرى تلك الإبل الإضافية التي يجري إحضارها لاستعواض الإبل التي قد تنفق على الطريق ، والتي تستخدم في جلب العلف اليومي الذي تحتاجه الإبل ونقله ، هذا بالإضافة أيضاً إلى

نقل وحمل المؤن والتموينات المخزَّنة فى القلاع التى على طريق الحج ، لتكون بمثابة التموينات اللازمة لرحلة العودة . وينتبه البدو إلى عدم زيادة حمولة الجمل الواحد ، الأمر الذى يستلزم أيضًا زيادة عدد الإبل . فى عام ١٨١٤ م ، على الرغم من أن القافلة لم تكن تضم أكثر من أربعة آلاف أو خمسة آلاف شخص ، بما فى ذلك الجنود والخدم ، إلا أنها كانت تضم خمسة عشر ألف جمل (*) .

القافلة السورية منظمة تنظيمًا جيدًا ، على الرغم من – كما هو الحال فى شئون الحكم الشرقى – وجود كثير من الإساءات والاستثناءات . يقوم باشا دمشق أو أحد كبار ضباطه بمرافقة القافلة وهو الذى يعطى إشارة التخييم والبدء عن طريق طلقة نارية يطلقها من بندقيته. أثناء السير تتصدر القافلة قوة من الخيالة تمشى فى المقدمة، وقوة أخرى تسير فى مؤخرة القافلة ، لالتقاط أولئك الذين يضلون الطريق ، ويجرى تمييز الحجاج بعضهم عن بعض ، عن طريق تجمع كل جماعة بحيث لا يفارقون بعضهم بعضًا ، وكل جماعة من هذه الجماعات تعرف معرفة جيدة مكانها الثابت الذى لا يتغير فى القافلة ، ويتحدد ذلك المكان فى ضوء الموقع الجغرافى الذى تجىء منه هذه

(*) يقول الفاسى إن أم الخليفة المعتصم بالله ، آخر الخلفاء العباسيين ، عندما قامت بأداء فريضة الحج فى عام ٦٣١ هـ كانت قافلتها تضم مائة وعشرين جملاً ، وعندما قام سليمان بن عبد الملك بأداء فريضة الحج فى عام ٩٧ هـ ، استخدم تسعمائة جمل لنقل الملابس فقط . وتجدر الملاحظة هنا أن أحداً من خلفاء العثمانيين فى القسطنطينية لم يؤد فريضة الحج بشخصه. وقد أنفق الخليفة المهدى أبو عبد الله محمد ، فى رحلة حجه فى عام ١٦٠ هـ ثلاثين مليون درهم . كان الرجل يحمل معه عدداً هائلاً من الألبسة لتوزيعها على سبيل الهدايا ، كما بنى الخليفة المهدى أيضًا منازل فاخرة فى كل محطة من المحطات من بغداد إلى مكة ، وأمر بتأثيثها تأثيثًا جيداً ، كما أمر الرجل أيضًا بإقامة العلامات الإرشادية ، التى توضح المسافات على طول الطريق . وكان أول خليفة يحمل معه الثلج لتبريد الشربات على الطريق ، وقد حذا حذوه كثير من الخلفاء الذين جاءوا بعده . أما هارون الرشيد الذى أدى فريضة الحج تسع مرات ، فقد أنفق فى واحدة منها مبلغ مليون وخمسين ألف دينار على شكل هدايا للمكيين والفقراء من الحجاج . والمملوك نصير الدين أبو المعالى ، سلطان مصر ، أخذ معه وهو يؤدى فريضة الحج فى عام ٧١٩ هـ ، خمسمائة جمل لنقل السكر والحلوى فقط ، ومائتين وثمانين جملاً لنقل الرمان ، واللوز ، والفواكه الأخرى، وفى حملة حفظ الطعام كان لدى نصير الدين أبو المعالى ألف إوزّة وثلاثة آلاف دجاجة . (راجع المقريزى " من حج من الخلفاء ")

الجماعات . وعندما تخيم هذه الجماعات ، فإنها تراعي وتلتزم بالنظام المفروض عليها ؛ هذا يعني أن أولئك الذين يأتون من حلب على سبيل المثال يكونون مجاورين لأولئك الذين جاءوا من حمص .. إلخ . هذه القاعدة أمر ضروري تجنباً لحدوث الفوضى أثناء المسير الليلي (*) .

جرت العادة أن يتعاقد الحجاج على الرحلة مع واحد من المُقَوِّمين ؛ والمقوِّم هو واحد من أولئك الذين يتعهدون بتوفير الإبل والمؤن والتموينات المطلوبة للحج . والمقوم الواحد يتولى أمر عدد من الحجاج يتردد بين عشرين حاجًا وثلاثين حاجًا ، والمتعهد هو الذي يوفر الخيام ويوفر على الحجاج متاعب الطريق ومشاقه ، هذا يعني أن المقوِّم هو الذي يقوم على أمر الخيام ، وإعداد القهوة ، وتوفير الماء ، وإعداد الفطور والغذاء اللازمين للحجاج، وبذلك لا يشارك الحجاج على أي نحو من الأنحاء في هذه الأمور. وإذا ما نفق جمل من الإبل تعين على المقوِّم الإتيان بغيره ، وبغض النظر عن عدم توفر التموينات على الطريق ، فإن المقوِّم هو المسئول عن توفير الوجبات المطلوبة للحجاج . في عام ١٨١٤ م ، كان أجر المقوِّم ، بما في ذلك الطعام يقدر بحوالي مائة وخمسين دولاراً من دمشق إلى المدينة المنورة ، يضاف إليها خمسين دولاراً أخرى من المدينة (المنورة) إلى مكة (المكرمة) . يدفع المقوِّم من هذا المبلغ حوالي ستين دولاراً للجمَّال الذي يقتاد الجمل أثناء السير في الليل ، وهذا احتياط ضروري في مثل هذه القوافل الكبيرة ، تحاشياً لنوم الراكب أثناء السفر ، الأمر الذي يجعل الجمل يسير على هواه ويخرج عن خط السير المحدد . يتلقى المقوِّم علاوة على الأجر المحدد ، بعض الهدايا من الحجاج . وعند العودة إلى سوريا ، يكون المبلغ أقل ، نظراً لعودة عدد كبير من الإبل بلا أحمال .

(*) في كتاب بوركهارت المعنون " ترحال في سوريا " يجد القارئ في صفحة ٢٤٢ (النص الإنجليزي) المزيد من المعلومات عن قافلة الحج ، وفي ملحق ذلك الكتاب (الملحق رقم ٣) يجد القارئ أيضًا وصفًا للطريق بين دمشق ومكة . (المعد)

قلة قليلة من المسافرين هم الذين يؤثرون القيام بالرحلة على مسئوليتهم الخاصة ، أو باستعمال إبلهم الخاصة ؛ والسبب في ذلك أن مثل هؤلاء الناس إذا لم يحمهم الجنود أو رئيس القافلة ، قد يجدون بعض المصاعب بسبب سوء معاملة المقوِّمين على المساقى ، أو إن شئت فقل : أماكن السقيا ، وأثناء السير ؛ هذا يعنى أن هؤلاء المقوِّمين يحاولون بشتى الطرق ، عرقلة السفر بغير طريقهم ، الأمر الذى يجعل من الرحلة التى من هذا القبيل حكرًا على الحجاج الأثرياء ، الذين لديهم المقدرة على تشكيل جماعات خاصة بهم تضم ما بين أربعين حاجًا وخمسين حاجًا .

توقد الشعلات أثناء الليل ، ويجرى قطع المسافة اليومية فيما بين الساعة الثالثة عصرًا وبعد شروق الشمس بساعة أو ساعتين من اليوم التالى . والبدو الذين يحملون التموين لا يتحركون إلا أثناء النهار فقط ، وفى مقدمة القافلة ، التى يتجاوزون مخيمها فى الصباح ، ثم يجرى بعد ذلك تجاوز هؤلاء البدو، ثم تتجاوز القافلة فى الليلة التالية ، وهم فى مكان راحتهم . والرحلة مع بدو المؤن والتموينات أسهل من السير مع القافلة الرئيسية ؛ نظرًا لأن بدو التموينات يحظون براحة ليلية منتظمة ، لكن طابع هؤلاء البدو السيئ هو الذى يمنع الحجاج من اصطحابهم .

فى كل مسقى من المساقى التى على الطريق ، توجد قلعة صغيرة وخزان كبير ، تُسقَى منه الإبل . هذه القلاع تقوم على حراستها مجموعات صغيرة ، تظل طوال العام تحرس المؤن المخزَّنة فى تلك القلاع . شيوخ القبائل يلتقون القافلة عند هذه المساقى ، والمعروف أن هذه المساقى مملوكة للبدو ، ويحصل الشيوخ فى تلك اللقاءات على الإتاوة المحددة . الماء وفير على الطريق ؛ هذه المساقى أو المحطات لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى مسافة تزيد على مسير إحدى عشرة ساعة أو اثنتى عشرة ، وفى فصل الشتاء يتوفر الكثير من برك مياه المطر ، يضاف إلى ذلك أن الحجاج الذين يحملون صناديق فوق ظهور الإبل ، أو على سرج الإبل الشبيهة بالهودج ، قد ينامون فى الليل ، ويمضون الرحلة بلا مضايقات ، لكن هؤلاء الفقراء ، أو أولئك الذين تتملكهم رغبة الحصول على مبلغ كبير من المال يرضون بالسير مع القافلة سيرًا على الأقدام ، لكى يعملوا خدمًا ، ولذلك يموت الكثيرون منهم على الطريق بسبب التعب .

القافلة المصرية التى تبدأ من القاهرة ، تخضع للقواعد والنظم نفسها التى تسير عليها القافلة السورية ، لكن يندر أن تتساوى مع القافلة السورية من حيث العدد ؛ نظراً لأنها لا تضم سوى المصريين فقط ، علاوة على الحرس العسكرى المرافق . الطريق الممتد بطول ساحل البحر الأحمر ، يمر عبر أراضى القبائل البدوية المحبة للحرب، التى تحاول فى معظم الأحيان اقتطاع أو عزل جزء من القافلة عن طريق القوة. يضاف إلى ذلك أن المساقى تكاد تكون شحيحة على هذا الطريق وذلك على العكس من الطريق الآخر ؛ المسافة بين بئر وأخرى تصل إلى ثلاثة أيام فى معظم الأحيان ، ولكن هذه الآبار وفيرة المياه رغم ندرتها، ومن بين هذه الآبار لا يوجد سوى بئرين أو ثلاثة، هى التى مياهها مالحة . فى عام ١٨١٤م كانت القافلة المصرية مكونة من الجنود فقط ، مع المجموعة الخاصة بالمحمل ، وبعض الموظفين العموميين ؛ الحجاج المصريين كلهم يؤثرون السفر عن طريق السويس . فى عام ١٨١٦ م ، التحق بعض أعيان القاهرة بقافلة الحج ، وكان الواحد من هؤلاء الأعيان يصاحبه حوالى مائة وعشرة جمال ، يستعملها فى نقل أمتعته وحاشيته ، كما كانت له أيضاً ثمانى خيام ، ولابد أن مصروفات هذا الرجل فى الذهاب والإياب وصلت إلى ما يقرب من عشرة آلاف جنيه . كان ضمن هذه القافلة أيضاً خمسمائة فلاح ، معهم نساؤهم جاءوا من الوجه القبلى والوجه البحرى ، والذين كانوا لا يخشون الصحراء وأخطارها ومتاعبها أكثر من خشيتهم للبحر وأخطاره . شاهدت مع هؤلاء الفلاحين مجموعة من النساء الشعبيات والبنات الراقصات ، اللاتى كانت خيامهن ومعداتهن من بين أعظم الخيام والمعدات فى القافلة . هناك مجموعة من الحاجّات السوريات من هذا المستوى نفسه يرافقن القافلة السورية أيضاً .

توقف الحج الفارسى فى التوقيت نفسه الذى أوقف الوهابيون فيه الحج السورى . هذا الحج الفارسى كان يأتى عن طريق بغداد ، ثم يمر عبر نجد قاصداً مكة المكرمة ، وبعد أن أبرم عبد الله بن سعود معاهدة سلام مع طوسون باشا فى عام ١٨١٥ م ، استأنف الحج الفارسى عبوره للصحراء ، مروراً بالدرعية دون اعتراض أو مضايقات ،

لكنه طوال رحلة مقدارها مسير أربعة أيام إلى مكة كان يتعرض للهجوم من جانب بنى الشمر ، تلك القبيلة التي ظلت على الحياد أثناء الحرب التى دارت بين طوسون باشا والوهابيين . وهنا كانت القافلة تعود إلى الدرعية ، ومن خلال وساطة سعود كان يجرى استعادة البضائع التى جرى سلبها ونهبها ، وكان سعود يرسل جماعة من أتباعه لمرافقة القافلة إلى المدينة المقدسة .

كان من عادة عرب العجيل فى بغداد أن يرافقوا القافلة الفارسية . لما كان أفراد القافلة معروفين بأنهم من الشيعة ، فقد كانوا يتعرضون لمصاعب كثيرة على الطريق ؛ فقد كان سعود يجبى منهم ضريبة ثقيلة يطلق عليها اسم ضريبة الرؤوس أو الأعناق ، وكان الشريف غالب فى مكة (المكرمة) يفعل الشيء نفسه ، بل إنها وصلت فى السنوات التى تلت ذلك إلى ثلاثين سكوينًا (*) على الرأس الواحدة . معروف أن الحجاج الفارسيين كلهم من الأغنياء ، ولا يعانى أحد من الحجاج ذلك الذى يعانيه هؤلاء الحجاج الفارسيون على طريق الحج . أعداد كبيرة من هؤلاء الحجاج يأتون عن طريق البحر ، وهم يركبون البحر من البصرة إلى المخا ، وإذا ما صادفوا الريح التجارية واصلوا إبحارهم إلى جدة ، وإذا لم تهب عليهم تلك الرياح قسموا أنفسهم على شكل قافلة ويصلون عن طريق البر الممتد بطول ساحل اليمن . فى عام ١٨١٤ م ، عندما كنت أؤدى فريضة الحج ، كانت تلك القلة القليلة من الحجاج الفارسيين قد وصلت قادمة من بغداد إلى سوريا ، وتبعت القافلة السورية ، ويصحبتهم جمالة بغداديون .

يجدر أن نلاحظ هنا أن الفارسيين لم يكن مسموحًا لهم دومًا بالمجيء إلى المدينة المقدسة ؛ بحجة أنهم مهرطقين ألداء ، يخفون معتقداتهم أثناء الحج فقط ، وذلك من باب عدم الإساءة إلى السنة . فى عام ١٨٦٤ م ، أى بعد إعادة بناء المسجد الحرام بسنوات قلائل ، أمر السلطان مراد الرابع بعدم السماح للحجاج الشيعة بأداء فريضة

(*) السكوين : نقد ذهبى إيطالى وتركى قديم . (المترجم)

الحج أو الدخول إلى بيت الله الحرام. جرى الالتزام بذلك الأمر سنوات عدة، لكن المال الذى كان ينفقه الفرس سرعان ما أعاد فتح الطريق إلى عرفات والكعبة . ونحن نعرف من المؤرخ العصمى ، أن شيعيًا أميت حيًا على الخازوق لأنه رفض التخلى عن مذهبه .

ظلت قافلة الحج المغربية غير منتظمة طوال سنوات كثيرة . هـذه القافلة عـادة ما يصحبها واحد من أقارب ملك مراكش (المغرب) ، والقافلة تبدأ من محل إقامة ذلك القريب ، وتتقدم على شكل مسيرات بطيئة فى اتجاه تونس وطرابلس ، لتصحب معها المزيد من الحجاج من المناطق التى تمر خلالها . طريق هذه القافلة من ناحية طرابلس، يسير محاذيًا لشواطئ سيرتيس إلى أن تصل إلى درنة ، ومن درنة بمحاذاة الساحل إلى مصر ، مرورًا بالإسكندرية ، أو تسير فى اتجاه بحيرات النطرون قاصدة القاهرة مباشرة ، لتستأنف منها السير فى طريق الحج المعتاد . هذه القافلة ، وهى فى طريق عودتها من مكة ، تقوم دومًا بزيارة المدينة (المنورة) ، التى لا يزورها الحج المصرى مطلقًا ، وقد تمر هذه القافلة أثناء عودتها فى بعض الأحيان وصولاً إلى القدس . مجموعة صغيرة من القوات هى التى ترافق القافلة المغربية ، لكن حجاج هذه القافلة يكونون مسلحين تسليحًا جيدًا ، وعلى استعداد للدفاع عن أنفسهم ، أما القافلتان الأخريان فلا يقاتل أحد منهم سوى الحرس المرافق لهما .

مرت آخر قافلة مغربية عبر الأراضى المصرية فى عام ١٨١١م ، وسمح لهم الوهابيون بزيارة مكة ، بعد أن تأكدوا أنهم أقلعوا عن الممارسات المشينة التى كانوا يسمون بها كلاً من المصريين والسوريين ، ولكن القافلة ألمت بها مصائب كثيرة فى طريق عودتها ، من جانب أعدائها من ناحية ، وافتقارها من ناحية ثانية إلى المرشدين، والتموينات ، الأمر الذى أسفر عن وفاة الكثيرين من أفراد هذه القافلة . حجاج البربر يأتون حاليًا عن طريق البحر من الإسكندرية ، ثم يبحرون بعد ذلك من السويس بواقع خمسين حاجًا أو مائة حاج فى المرة الواحدة . وعلى الرغم من أن هؤلاء الحجاج البربر يرتدون ملابس بسيطة تنم عن الفقر فإنهم يحملون معهم من المال

ما يكفى احتياجاتهم ، وقلة قليلة من هؤلاء البربر هم الذين يمارسون الشحاذة ، وأنا لم أر من هذه الفئة سوى مجموعة صغيرة جداً ، وهم عبارة عن عرب من درعة فى الجانب الجنوبى الشرقى من جبل أطلس ؛ هذه المجموعة انضمت إلى القافلة المصرية عن طريق البر فى شهر سبتمبر من العام ١٨١٦ ، وقد أبلغونى أنهم حصلوا على ترخيص مجانى بالمرور عن طريق البحر من تونس إلى الإسكندرية . كان واحد من هذه المجموعة من بدو البربر ، الذين كان مخيمهم يبعد ، عندما غادره ، مسير عشرين يوما عن مدينة تمبكتو فى قافلة المغربين (المغاربة أو المغربيين) جرت العادة أن يكون فيها بعض المواطنين من جزيرة جربة ، الذين تدور حولهم شكوك قوية بأنهم من شيعة علىٍّ ﷺ؛ كما يتركز البعض منهم فى كثير من الأحيان ، فى القاهرة ، إذ يسكنون المنطقة التى تدعى منطقة طولون ، ويحافظون تماماً على عزل أنفسهم عن سائر المغربيين المقيمين فى المدينة . لكن الغالبية العظمى من القافلة تكون مكونة من أفراد من المملكة المغربية .

وأنا أعتقد أن ألفى حاج هو أعلى رقم يمكن أن يصل إليه عدد الحجاج البربر . كانت القوافل الأخيرة تضم ما بين ستة آلاف وثمانية آلاف رجل .

جرت العادة أن تصل إلى مكة قافلتان يمنيتان ، كانتا تأتيان عن طريق البر فى الأزمان السابقة . كان الناس يطلقون على القافلة الأولى من هاتين القافلتين اسم : الحج القبصى ، الذى كان يبدأ من مدينة صعدة فى اليمن ، ويشق طريقه عبر الجبال إلى الطائف ، ومنها إلى مكة . ويمكن العثور على اثنين من يوميات هذه القافلة مع بعض الملاحظات الخاصة بها فى ملاحق هذا الكتاب . القافلة اليمنية الثانية ، التى شكلها المواطنون اليمنيون ، والمواطنون الفارسيون ، وكذلك المواطنون الهنود الذين كانوا يصلون إلى موانئ اليمن ، كانت تسير محاذية للساحل ، وقد توقفت تلك القافلة فى حوالى عام ١٨٠٢ م ، ولم يجر تشكيلها بعد ذلك . كانت تلك القافلة ، ذات يوم ، واحدة من القوافل الكبيرة ، العامرة بالتجارة وتحمل كميات كبيرة من البن ،

وكانت تشرف أحيانًا بوجود أئمة اليمن على رأسها . القافلة اليمنية ، شأنها شأن القافلتين السورية والمصرية ، كان لها مكان محدد بالقرب من مكة ، وكانت تنصب فيه خيامها . وقد جرى بناء خزان كبير من الحجر فى هذا المكان لكى يستخدم فى إمداد القافلة بالماء .

لقد اطلعت على طريق لقافلة حج هندية ، رأيت هذا الطريق موقعًا على شكل مسار فى خرائط عدة ، وأن ذلك الطريق كان يبدأ من مدينة مسقط ، مرورًا بنجد إلى مكة ؛ لكنى لم أستطع الحصول على أية معلومات خاصة بهذه القافلة ، ومع ذلك ، فإن مسألة وجود هذه القافلة في الأزمان السابقة ، ورد ذكرها عند المؤرخ العصمى . أما هؤلاء الذين سألتهم عن هذه القافلة ، فلم يؤكدوا لى ورود قافلة من هذا القبيل على أذهانهم ، لكنى أرى أن الشحاذين الهنود ، والفارسيين ، وكذلك الشحاذين العرب ، كانوا يجيئون ، فى زمن السلم ، من هذا الطريق على شكل جماعات صغيرة .

قبل قيام كبير الأشراف سرور ، بكسر شوكة الأشراف الآخرين ، كان أولئك الأشراف يجبون من كل القوافل التى تأتى إلى مكة مبالغ كبيرة ، علاوة على الصُرَّة التى كانت مخصصة لأولئك الأشراف . كان أولئك الأشراف ، إذا ما علموا باقتراب وصول قافلة من القوافل ، يخرجون من مكة ومعهم أتباعهم المسلمين ، وأصدقاؤهم من البدو ، وكانوا يتناقشون طوال أيام مع قادة القوافل قبل الاتفاق على مبلغ الإتاوة .

ونحن هنا يجب أن نضيف إلى القوافل سالفة الذكر تلك المجموعات البدوية الكبيرة التى تلجأ إلى مكة ، فى وقت السلم ، وافدة عليها من سائر أنحاء الصحراء ؛ والسبب في ذلك أن لقب حاج يحظى بكثير من الاحترام من البدو قليلى التدين ، ونجد ترسل بدوها لأداء فريضة الحج شأنها فى ذلك شأن بدو الجنوب أيضًا . عندما كان الوهابيون قابضين على زمام السلطة فى مكة ، كانت جحافل من هؤلاء البدو يأتون إلى سهل عرفات ، لسبب رئيسى وليس لأى سبب آخر ، ربما كان التعبير عن ولائهم

للرئيس الوهابى ، الذى عرف عنه ، بأنه ، كـان يحب أن يرى أعرابه مـتـجـمـعين فى عرفات . فى عام ١٨١١م قام الوهابيون بأداء فريضة الحج لآخر مرة ، أى بعد الهزيمة الأولى لطوسون بك بوقت قصير فى منطقة الجديدة ؛ كان بصحبة الوهابيين فى تلك المرة عدد كبير من البدو وبخاصة القحطان ، والعسير ، مع بعض آخر من بدو المناطق الصحراوية الداخلية ، وكان يجرى بيع المسلوبات والمسروقات والغنائم التى أخـذها الوهابيون من الجيش التركى ، للمكيين فى سوق عرفات . وأنا هنا يجب أن أشير إلى أن على بك العباسى ، قد وقع فى خطأ جسيم فيما يتعلق بعدد الوهابيين الذين رآهم يدخلون مكة فى ذلك الوقت، أى فى زمن الحج؛ فقد ظن على بك العباسى أن الوهابيين جاءوا للاستيلاء على المدينة ، وراح يتباهى بأنه كان موجوداً أثناء استيلاء الوهابيين عـلى مكة فى المرة الأولى ، فى الوقت الذى بوسع أى طفل من أطفال مكة أن يقول لعـلى بك العباسى إن ذلك الحادث وقـع قبـل ثلاث سنـوات مـن مجيئـه إلى مكة ، أو بالأحرى إلى منطقة الحجاز .

فى الوقت الراهن ، يأتى السـواد الأعظـم مـن الحجـاج - كما سبق أن قلت - عن طريق البحر إلى جدة ، أما هؤلاء الذين يأتون من الشمال فيبحرون من السويس أو القصير قاصدين جدة ومعهم عدد كبير من الحجاج البربر ، وكثير من الحجاج الأتراك القادمين من الأناضول ، ومن تركيا الأوروبية ، وكثير من الحجاج السوريين ، وعدد كبير من الدراويش الذين يفـدون من بلاد فـارس ، ومـن بعض المناطـق التى يرويها نهر إندوس (*) . يزاد على ذلك أن فقر الحالة الملاحية فى البحر الأحمر ، والذى تصـادف مع الطلب المتزايد عـلى السـفـن اللازمـة لنقل مؤن وتموينات إعـاشة جيش الحجاز ، يزيد من تأرجح عملية المرور وعدم ثباتها؛ الأمر الذى كان يضيع الفرص على

(*) أحد الأنهار الكبيرة فى شبه القارة الهندية ، يصل طوله إلى حوالى ١٧٠٠ ميل ، وينبع من سلسلة جبال كيلاس فى الهيمالايا فى جنوب غرب التبت . هذا النهر ينساب من الشمال إلى الغرب تحت اسم سنج خمباب ، ثم ينساب بعد ذلك فى اتجاه شمالى غرب خلال كشمير بين سلسلتى جبال لاداخ وزسكر .

الحجاج فى بعض الأحيان ، ويصلون متأخرين عن موعد الحج، وقد حدث ذلك لإحدى الجماعات فى عام ١٨١٤م ، التى وصلت إلى مكة بعد فوات موعد الحج بثلاثة أيام ، نظرًا لاحتجاز هذه الجماعة طيلة ثلاثة أيام فى ميناء السويس . أضف إلى ذلك أن حال السفن السيئ ، وازدحامها لا يمكن أن يضفى على هذه الرحلة شيئًا من الراحة على الحجاج ، وعلى العكس من ذلك فقد فرض محمد على باشا ضريبة على الحجاج ، تحت مسمى عقد المرور إلى جدة نظير مبلغ مرتفع (وقد بلغت الضريبة فى عام ١٨١٤م ثمانية عشر دولارًا على الرأس الواحدة) ، وذلك عن طريق واليه فى السويس الذى كان يوزع هذه العقود على ظهور السفن العربية ، ولم يكن يدفع لأصحاب السفن من ذلك المبلغ سوى ستة دولارات فقط عن الرأس الواحد . فى الماضى كان الحجاج مسموحًا لهم بأن يأخذوا معهم من السويس ، كمية كبيرة من المؤن حسبما يريدون، لكى يبيعوا جزءًا منها بعد الحج مقابل ربح مجزٍ ؛ لكن الحجاج، فى الوقت الراهن ، لا يسمح لهم إلا بما يكفى استهلاكهم فقط طوال فترة الحج ، يزاد على ذلك، أن مسألة حمل الحجاج لمؤنهم وتمويناتهم معهم ، وبخاصة الزبد ، والدقيق ، والبسكويت ، والسمك المملح الذى يشترونه بأسعار رخيصة من مصر ، طوال هذه المدة هى التى جعلت الحجاج يفضلون رحلة البحر على رحلة البر ؛ وسبب ذلك أن من يسافرون بطريق البر يضطرون إلى شراء تمويناتهم من مكة ، حيث الأسعار العالية جداً .

إذا ما وصل الحجاج الأجانب إلى القاهرة ، ولم يجدوا سفنًا راسية فى ميناء السويس ، فقد جرت العادة أن يواصلوا الإبحار فى النيل إلى أن يصلوا إلى قنا ، ومن قنا يعبرون الصحراء وصولاً إلى القصير ، والرحلة من القصير إلى جدة قصيرة جداً . وعند العودة من الحجاز يفضل السواد الأعظم من الحجاج الأتراك ذلك المسار . مواطنو الوجه القبلى يعودون عن طريق القصير ، وهذا هو ما يفعله كثير من الحجاج الزنوج ، بعد أن يسيروا بطول الساحل النيلى من سنار إلى قنا . والأجر الذى يدفعه الحاج من القصير إلى جدة يقدر بحوالى ستة إلى ثمانية دولارات.

في أواخر أيام المماليك ، وعندما كانوا يحتلون أو يسيطرون على الوجه القبلي ، في الوقت الذى كان محمد على فيه قد غزا الوجه البحرى ، كان الكثيرون من الحجاج الأتراك ، الذين انتقلوا إلى الحجاز بأعداد صغيرة ، على الرغم من وقوعه تحت السيطرة الوهابية ، يلقون معاملة سيئة على أيدى المماليك عند عودتهم إلى مصر ، كان المماليك يجردون هؤلاء الحجاج الأتراك من أشيائهم ومن ملابسهم ، بل يقتلونهم أحيانًا أثناء إبحارهم فى النيل . كان السفاح اليونانى ، المدعو حسان بك اليهودى ، يتفاخر بأنه هو نفسه قتل خمسمائة من هؤلاء الحجاج الأتراك. هذه المذابح التى أقيمت لهؤلاء الحجاج الذين لا ذنب لهم ولا جريرة ، هى التى أعطت محمد على باشا ذريعة لقتل المماليك فى مذبحة القلعة .

بعض آخر من الحجاج يأتون عن طريق البحر قادمين من اليمن ، ومن جزر الهند الشرقية ، وبخاصة من المسلمين الهندوس ، ومن مسلمى الملايو ، ومنهم أيضًا بعض الكشميريين ، وأناس آخرون من جوزيرات ، ومنهم أيضًا بعض الفرس ، وأيضًا بعض حجاج الخليج الفارسى ؛ كما يفد عن طريق البحر أيضًا بعض حجاج البصرة ، ومسقط ، وعُمان ، وحضرموت ؛ فضلاً عن أولئك الذين يأتون من المدينة (المنورة) ومن ممباسا، الذين يندرجون تحت اسم أهل السواحل، أو بالأحرى الساحل المستوى ، يضاف إلى ذلك المسلمون الأحباش ، وكثير من الحجاج الزنوج الذين يأتون من الطريق نفسه . وهنا نجد أن كل المسلمين الذين يعيشون على سواحل المحيط ، يتأكدون خلال موسم الحج ، من وجود سفينة تبحر من أحد الموانئ المجاورة قاصدة البحر الأحمر ، لكن السواد الأعظم من حجاج الساحل يأتون عن طريق رحلات الأسطول الهندى المنتظمة فى شهر مايو ، ويبقون فى مكة أو المدينة (المنورة) إلى أن يدخل موسم الحج ، الذين يرحلون بعد أدائه مباشرة على ظهر السفن الوطنية من ميناء جدة إلى اليمن ، التى يبقون فيها إلى أن يبدأ هبوب الرياح التجارية فيبدءون فى تجاوز باب المندب. جموع كبيرة من الشحاذين يفدون من البلاد سالفة الذكر على مكة، وهم يسافرون على حساب المحسنين فى بلادهم ، أو قد يدفع الأجر عنهم أولئك الذين

يستخدمونهم معينين وخادمين لهم فى أداء فريضة الحج ، لكنهم عندما يصلون إلى الحجاز يعتمدون كلية على إحسان الحجاج الآخرين ، وعلى الصدقات التى يجمعونها ، والتى لابد أن تكون كافية لإعادتهم إلى بلادهم .

قلة قليلة من الحجاج ، باستثناء المتسولين منهم ، يصلون إلى الحجاز دون أن يحضروا معهم بعض منتجات بلادهم لكى يبيعونها ، وهذه الملاحظة تنطبق أيضًا على التجار ، الذين يعتبرون الاتجار هدفًا رئيسيًا من أهداف أدائهم للحج ، شأنهم فى ذلك شأن من يحجون بدافع من الحماس الدينى ؛ وسبب ذلك عند من يحجون بدافع من الحماس الدينى ، هو أن الربح الذى يجنونه من بيع هذه المجموعات الصغيرة من السلع المحلية فى مكة ، يقلل إلى حد ما ، التكاليف الباهظة للرحلة . المغربيون (المغاربة) على سبيل المثال ، يحضرون طرابيشهم الحمراء وعباءاتهم الصوفية ، والأتراك الأوروبيون يحضرون معهم الأحذية ، والشباشب ، والخردوات المعدنية ، والأقمشة المطرزة ، والمسكّرات ، والكهرمان ، والحلى الصغيرة أوروبية الصنع ، وأكياس النقود والحافظات المصنوعة من الحرير.. إلخ، أما أتراك الأناضول فيحضرون معهم السجاد ، والحرير ، والشيلان المصنوعة من صوف الأنجورا ، أما الفرس فيحضرون معهم الشيلان الكشميرية والغتر المصنوعة من الحرير ، ولكن الأفغان يحضرون معهم المساويك ، التى يطلق الناس عليها اسم المساويك القطرية ، التى يصنعونها من الأغصان الإسفنجية لشجرة تنمو فى بخارى ، كما يحضرون معهم أيضًا الخرز الذى يصنعونه من حجر أصفر يشبه الصابون ، كما يُحضرون معهم أيضاً شيلانًا سادة خشنة ، يصنعونها فى بلادهم ، أما الهنود فيجلبون معهم المنتجات المتعددة التى تنتجها بلادهم الواسعة الثرية ، أما حجاج اليمن فيحضرون معهم الثعابين والأفاعى ، التى تعد من مستلزمات الشيش والغلايين الفارسية ، كما يجلبون معهم أيضًا النعال ، ومصنوعات جلدية أخرى متباينة، والأفارقة يحضرون معهم سلعًا مختلفة تناسب تجارة العبيد. ومع ذلك ، يخيب ظن الحجاج فى كثير من الأحيان فى الآمال التى يعلقونها على هذا الكسب ؛ والسبب فى ذلك ، أن احتياج هؤلاء الناس إلى

النقود يدفعهم إلى بيع مقتنياتهم الصغيرة الثمينة بأسعار مخفضة وفي مزاد علني يضطرهم إلى قبول أسعار شديدة التدني .

الزنوج أو التكارنة ، كما يسميهم الناس هنا ، هم الوحيدون ، من بين كل الحجاج الفقراء الذين يصلون إلى الحجاز ، الذين لهم طابع في الشحاذة أكثر احتراماً في هذا النوع من الصناعة ؛ هذا يعني أن أفراد الطبقة الفقيرة من الهنود يتحولون إلى شحاذين عقب نزولهم إلى أرض جدة . كثير من السوريين والمصريين يمتهنون هذه المهنة نفسها ، لكن الزنوج لا ينحون هذا المنحى . وسبق أن قلت في تقرير من التقارير إن الزنوج ، أو بالأحرى التكارنة يصلون إلى الحجاز عن طريق المرافئ الثلاثة : مصوّع ، وسواكن ، والقصير . هؤلاء الزنوج الذين يأتون عن طريق سنار والحبشة إلى ميناء مصوع ، يكونون كلهم من الفقراء المعدمين . ومبلغ دولار واحد يكفي لنقل هؤلاء المعدمين من مصوّع إلى ساحل اليمن ، وهم غالبًا ما ينزلون في ميناء الحديَّدة . وفي الحديدة ينتظر أولئك الزنوج وصول أعداد كبيرة من أبناء جلدتهم ، لكي يشكل الجميع قافلة صغيرة ، ثم يبدءون بعد ذلك في الصعود إلى جبال اليمن ، الممتدة بطول الوديان الخصبة ، التي يسكنها عرب كرماء ، ويروحون يستجدونهم مصاريف الطريق إلى جدة أو مكة (*) . هؤلاء الفقراء المعدمين إذا ما أثرى الواحد منهم وأصبح في حوزته دولارين ، استطاع أن ينتقل بهما من مصوع إلى جدة مباشرة ، التي يلتقون فيها مع أبناء جلدتهم الذين يكونون قد وصلوا إلى جدة عن طريق كل من سواكن أو القصير . هؤلاء التكارنة يؤجرون أنفسهم فور وصولهم إلى جدة أو مكة ؛ بعض منهم يعمل شيَّالاً في نقل البضائع والقمح من السفن إلى المخازن ، وبعض آخر يعمل

(*) في العام ١٨١٣ الميلادي ، سلكت جماعة من هؤلاء التكارنة تقدر بحوالي ستين تكرونيًا ، هذا الطريق نفسه ، وظن عرب هذه الجبال الذين هم من الوهابيين ، الذين شاهدوا مرارًا العبيد السود بين الجنود الأتراك ، ظنوا أن الحجاج السود يعملون لحساب الأتراك ، ومنعًا لهذه الجماعة من المرور دون التعرض لها ، أضلوا هؤلاء التكارنة عن طريقهم ، وقتلوا الكثيرين منهم .

فى تنظيف الأحواش ، وجلب الحطب من الجبال المجاورة ، وأهل جدة ومكة يعتمدون اعتمادًا تامًا على هؤلاء التكارنة في جلب ذلك الحطب ؛ نظرًا لأن الفقراء من أهل جدة وأهــل مكة لا يقومون بهذا العمل ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يحصل على أربعة قروش كل يوم نظير القيام بهذه المهمة . فى مكة يصنع هؤلاء التكارنة مدافئ أو وجارات صغيرة من الطين ، (يسمونها كانون) ويدهنونها باللونين الأصفر والأحمر ، والحجاج يشترون هذه المواقد ، أو بالأحرى الوجارات ، ويستعملونها فى غلى أوانى القهوة ، بعض ثالث من هؤلاء التكارنة يصنع سلالاً صغيرة ، وحصيرًا من سعف النخيل ، أو يقوم بإعداد وتحضير الشراب المُسْكِر الذى يسمونه البوظة ، وبعض رابع من هؤلاء الزنوج يخدم فى مجال السقاية، بمعنى أنهم يعملون سقائين وجالبى مياه . خلاصة القول : إنه فى حال الاحتياج إلى العمل اليدوى يجرى جلب تكرونى من السوق للقيام بهذا العمل . هؤلاء التكارنة إذا ما مرض أحدهم سهر رفاقه على رعايته وقسموا مصروفاته فيما بينهم . وأنا لم أر أحدًا من هؤلاء التكارنة يستجدى الناس إحسانًا ، اللهم إلا باستثناء الأيام الأولى لوصوله ، أى قبل تمكنه من الحصول على العمل . ومن مكة يسافر هؤلاء التكارنة إلى المدينة (المنورة) بطريق البحر من ميناء ينبع ، وفى المدينة المنورة يعمل هؤلاء الناس فى جلب حطب الوقود أيضًا . واقع الأمر ، أنهم يمكن أن يقعوا فى حيص بيص إذا لم يتمكنوا من الحصول على خدمات الأعمال المضنية التى يقوم بها هؤلاء الزنوج . وقد استمر هؤلاء التكارنة فى أداء فريضة الحج طوال فترة الغزو الوهابى ، ويقال إن سعود كان يقدر هؤلاء التكارنة تقديرًا خاصًا (*) .

هؤلاء الزنوج يعودون بعد الحج وزيارات مكة إلى جدة ليستأنفوا العمل من جديد، إلى أن تتهيأ لهم فرصة الإبحار إلى سواكن ؛ نظرًا لأن قلة قليلة من هؤلاء الزنوج هم

(*) يقول المقريزى عن الخلفاء الذين أدوا الحج فى العام ٧٢٤ الهجرى : إن ملكًا زنجيًا يدعى موسى وصل إلى القاهرة وهو فى طريقه إلى مكة ، واستقبله قلاوون سلطان مصر استقبالاً طيبًا ، وكان بصحبة ذلك الملك - على حد قول المقريزى - أربعة عشر ألف أمَة منتقاة .

الذين يعودون عن طريق الحبشة ، وهم عندما يغادرون الحجاز تكون بحوزتهم جميعًا مبالغ كبيرة ، وفروها عن طريق العمل ، ليشتروا بها بعض الأشياء الصغيرة ، أو يستعينون بها، في أضعف الأحوال، في إعاشة أنفسهم عندما يصلون إلى سواكن ، وبذلك تكون رحلة عودتهم أيسر من رحلة الذهاب التى لاقوا فيها مشقة كبيرة ، ثم يواصلون بعد ذلك مسيرهم إلى بلدانهم عن طريق شندى وكردفان . عدد كبير من هؤلاء الزنوج ينتشرون بعد أداء فريضة الحج في سائر أنحاء الجزيرة العربية ، ويزورون المسجد الأقصى فى القدس ، أو مقام (سيدنا) إبراهيم فى حبرون ، وبذلك يتغيب هؤلاء الزنوج عن أوطانهم سنوات طوال ، يعيشون خلالها على ناتج العمل الذى يؤدونه أو يقومون به .

لقد غاب عن ذهن المحسنين تأسيس مؤسسة تعمل على تسهيل أداء هؤلاء الزنوج الفقراء لفريضة الحج وكذلك الهنود الفقراء ، أو حتى لتسهيل نقل هؤلاء الحجاج الفقراء عبر الخليج الفارسى إلى الحجاز ؛ هذا النقل لا يكلف الفقير سوى دولار واحد أو دولارين يشكلان عبئًا ثقيلاً على كل فقير من هؤلاء الفقراء من الزنوج أو الهنود . هؤلاء الحجاج الفقراء يصلون إلى موانئ الجانب الإفريقى من الخليج ، بعد أن يكونوا قد أنفقوا ذلك القليل الذى أخذوه معهم من أوطانهم ، أو يكون قد سُرِق منهم على الطريق أثناء الرحلة ، وعندما يكتشفون أو يجدون أنفسهم عاجزين عن كسب ما يمكنهم من دفع أجر عبور البحر الأحمر ، يضطرون إلى انتظار عودة رفاقهم الأثرياء من الحجاز ، ليقوموا بدفع أجر العبور بدلاً عنهم على سبيل الإحسان .

فقراء الهنود على العكس من ذلك تمامًا من حيث المظهر والمخبر ؛ وجوه هؤلاء الحجاج الهنود الفقراء توحى ببؤس لا يتصوره عقل ؛ إذ يبدو عليهم الضعف وفقدان الأمل . أجسام هؤلاء الهنود تبدو كأنها لا تقوى على تحمل مجرد لفحة الهواء ، وأصواتهم ضعيفة وخافتة وواهنة ، وهم جديرون بأن يرثى لهم الناس ، اللهم إلا إذا أثبتت الخبرة اليومية أنهم تنشرح صدورهم لظهورهم على هذا الحال ، الذى يضمن لهم الحصول على الصدقات من المحسنين وأهل الخير ، ويكفيهم مؤونة العمل والمشقة .

شوارع مكة تعج بالهنود الذين من هذا القبيل ، أشد هؤلاء الهنود بؤسًا يستجدون المارة ويتوسلون إليهم ، وهم رقود على ظهورهم فى منتصف الشارع ، وهم يحاصرون أبواب المساجد بصورة دائمة، والبعض منهم يجعلون المقاهى وأسبلة الماء مقاصد لهم ، ولا يستطيع أى أحد من الحجاج ابتياع شىء من التموينات فى الأسواق دون مضايقات من هؤلاء الهنود الذين يطلبون أو يشحذون شيئًا من هذه التموينات . شاهدت بعضًا منهم والذين يكثر وجودهم فى شمال الهند وبلاد فارس ؛ كان واحد من هؤلاء الشحاذين يضع ذراعه فوق رأسه مباشرة ، وقد ثبته على هذا الوضع منذ فترة من الزمن ، الأمر الذى يتعذر وضعه فى أى موضع آخر غير هذا الموضع ، ومن شدة الفضول الذى استثاره لدىَّ ، صدقت أن تلك الشخصيات يندر أن تشق طريقها إلى الحجاز .

الدراويش من مختلف المذاهب والطرق فى سائر أنحاء الإمبراطورية التركية يمكن العثور على البعض منهم بين الحجاج . الكثيرون منهم معتوهون ، أو يتظاهرون بالعته فى أضعف الأحوال ، الأمر الذى يجعل الحجاج يحترمونهم احترامًا كبيرًا من ناحية ويملأون جيوبهم بالمال من ناحية أخرى . يبلغ سلوك بعض هؤلاء الدراويش من العنف والمكر حدًا يجعل الحجاج الميالين إلى فعل الخير يعطونهم شيئًا من المال عن طيب خاطر بغية الهرب والفكاك منهم . هؤلاء الدراويش يأتون فى أغلب الأحيان من بلاد أخر ؛ إذ نجد بين العرب أنفسهم قلة قليلة من هؤلاء المجانين ، ولكنهم يقلون بين العرب عنهم فى بلاد الشرق الأخرى . مصر ، بصفة خاصة عامرة بعدد كبير من هؤلاء الدراويش ، بل إن كل قرية من قرى وادى النيل فيها بعض المساليب ، أو إن شئت فقل المجانين ، الذين ينظر السكان إليهم باعتبارهم ملّهمين ، وأنهم مباركون من السماء (*) .

(*) فى العام ١٨١٢ الميلادى ، شرفت الأقلية المسيحية فى قوص ، فى الوجه القبلى ، بوجود شاب كان يمشى فى الأسواق عاريًا تمامًا ، ولكن مسلمى هذا البلد ، عندما ازداد غيظهم من ذلك الشاب ، أمسكوا به فى إحدى الليالى وحولوه إلى ولىٍّ مسلم عن طريق إجراء الختان له .

وصــول الأجانب والغـرباء من سـائر أنحـاء العالم الإسـلامى بدءًا من تمبكتو إلى سـمرقند . ومن جورجـيـا إلى بورنيو ، هـو الذى يجـعل من جدة هدفًـا مـبـتـغى لعـينى الرحـال الأوروبى الفضـولى ، الذى يسـتطيع عن طريق تقديم المساعدة والعون للحجاج الفقراء ، وإنفاق مـبلغ صـغـير على المؤن والتـموينات المطلوبة لهم، جذْب أعداد كبيرة منهم إلى منزله الذى يقيم فيه ، وقد يحصل على معلومات كثيرة عن كثير من الأجزاء والأماكن البعيدة وغير المعروفة فى كل من آسيا وإفريقيا. كل هؤلاء الغرباء، باستثناء الطبـقـات العليـا من المكيـين، يؤجـرون منازلهم أثناء الحج ، ويطلبـون مـن مـسـتـأجـر البـاطـن أجرًا عــن أسابيع أو أشـهـر قليلة يعادل ما يدفعونه للمالك عن عام كامل . وأنا شـخـصـيًا ، دفعت أجـرة عن غرفـة واحدة ومطبخ صـغـير ومكان أو ملحق صـغـير لخادمـى ، خمـسـة عـشر دولارًا ، عن مـدة سـتـة أسـابيـع ، هذا المبلغ يسـاوى إجمـالى القيمـة الإيجارية للمنزل بكامله عن عام واحد ، وكان يتعين علىَّ دفع هذا المبلغ لو أنى استأجرت هذا السكن خلال الأربعة عشر يومًا السابقة للحج أو التالية له. كان البيت الذى استـأجـرت فيـه ذلك السكن مـقسـمًا إلى مـسـاكن عدة، وكان مُؤجَّرًا كله لحـجاج متباينين بمبلغ مـائة وعشرين دولارًا ، بعد أن رضـى صـاحب المنزل لنفسـه العيش فى سكن وضيع يرفض الغرباء السكنى أو الإقامة فيه .

بعض الذين يأتون إلى مكة بأعـداد كـبـيـرة قـبل القـافلة ، يكونون من التـجـار المحترفين ، وآخرون كثيرون يحضرون مـعـهم بعض البضـائع الصـغيرة طلبًا لبيعها ، الأمر الذى يجـعلهم يتخلصـون منها بلا تعب أو مـشـقـة . من هنا يقـضـى هؤلاء الناس الفترة السـابقة للحج فـى مـتـعة وسـرور ، بعـيدًا عن الهموم والمخاوف فـى فـراغ ممتع ومريح على حد قول الآسيويين . ونحن إذا ما استثنينا أفراد الطبقة الراقية جدًا ، نجد أن الـحجاج يعيشـون مع بعضـهم البـعض عيشـة حرية ومسـاواة ، وهـم لا يلجأون إلى استـخدام الخدم إلا فى قليل من الأحـيـان ، بل إن الكثـيرين منهم لا يسـتعملون الخدم مطلقًا ، ويقـسـمون مـختلف الأعـمـال المنزلية فيمـا بينهم ، مـثل إحضـار التـموينات من السوق وطهو الطعـام ، على الرغم من اعتياد الحجاج على اسـتـخدام الخدم فى هذه

الأغراض في بلادهم. هذا يعني أن المتاعب والمشاق التي يكابدها الحجاج أثناء السفر، تجعل من هذه الفترة فترة تمتع بين أهل الشرق كما هو الحال عند الأوروبيين، يضاف إلى ذلك أن وجودهم في مكة يولّد السعادة في داخلهم ، في حين تَزيد قراءة القرآن ، هي والتدخين في الشوارع أو المقاهي ، وكذلك الصلاة وتجانب أطراف الحديث داخل الحرم المكي ، كل ذلك يَزيد من تفاخر الحجاج بقربهم من بيت الله الحرام ، كما يزيد أيضًا من المكارم والتشريفات التي يحظى بها لقب الحاج طوال بقية الحياة ، يزاد على ذلك إشباع المشاعر والعواطف الدينية وكذلك الآمال المستقبلية ، التي لها تأثيرها على الحجاج. والحجاج الذين يجيئون عن طريق القوافل يزجون وقتهم بطريقة مختلفة تمامًا، هؤلاء الحجاج بعد أن ينتهوا من رحلتهم المضنية يتعين عليهم القيام بالاحتفائيات المتعبة التي تتمثل في زيارة الكعبة والعمرة ، وبعد ذلك مباشرة يعجلون بالذهاب إلى عرفات ثم مكة ، ومع شدة الإرهاق الناجم عن الرحلة يتعرضون لهواء جبال الحجاز الذي لا يحميهم منه سوى ملابس الإحرام الخفيفة ، ثم يعودون بعد ذلك إلى مكة ، ولا يكون أمامهم سوى أيام قلائل يستجمعون قوتهم خلالها ، والقيام بزيارة بيت الله مرات عدة ، وبعدها تبدأ القافلة رحلة العودة ، ويتحول الحج كله إلى محاكمة قاسية للقوة الجسدية ، وسلسلة مستمرة من المتاعب والحرمان . ومع ذلك ، فإن هذا الأسلوب من أساليب زيارة هذه المدينة المقدسة (مكة) ، في رأي كثير من أهل العلم المسلمين ، الذين يظنون أن طول الإقامة في الحجاز، وبغض النظر عن حسن النية، لا يفيد العقيدة الحقة كثيرًا ؛ نظرًا لأن النظر يوميًا إلى الأماكن المقدسة يقلل ويضعف من الانطباع الذي يحدث في نفوس الزائرين عندما يشاهدون بيت الله للمرة الأولى ، وعلى الرغم من تناقص الحماس الإسلامي بشكل عام ، فإن هناك أيضًا بعض المسلمين الذين لا يزال إيمانهم يدفعهم إلى زيارة الأماكن المقدسة مرارًا . تعرفت على بعض الأتراك الذين كانوا يقيمون في القاهرة ، والذين كانوا يؤدون فريضة الحج كل عام ، على الرغم من وجود الأماكن المقدسة في أيدي الوهابيين ، وكانوا يسافرون لأداء الحج عن طريق ميناء القصير في مصر . يضاف إلى ذلك ، أن هناك قلة قليلة من الناس يقيمون في مكة بصفة دائمة ، أملاً في أن يمضوا ما تبقى من حياتهم في أعمال التقوى

والابتعاد عن الدنيا . أثناء مقامي في مكة وصل إليهـــا أحـــد أعيان الأتراك قادمًا مـن القسطنطينيـة ؛ كان ذلك الرجـل يعمـل قهـوجي باشا مـع السلطان سليم ، وقد سمح له الحاكم الجليل الحالي بالذهاب إلى مكة على أمل أن يتوفاه الله في تلك الأراضي المقدسة ، وقد أعلن عن وصول ذلك الرجل عن طريق الهبات الأميرية التي قدمها للمسجد الحرام .

القافلة السورية والقافلة المصرية تصلان دومًا في مواعيد محددة ، وعادة ما يكون ذلك قبل يوم أو يومين من الصعود إلى جبل عرفات . القافلتان تمران على منطقة بدر ، إما في اليوم نفسه ، وإما بفاصل يوم واحد فقط . والقافلة السورية تأتي من المدينة (المنورة) في حين تأتي القافلة المصرية من ينبع النخل ، وتسلكان طريقهما من بدر إلى مكة ، بفارق مسافة قصير فيما بينهما . وفي اليوم الخامس من شهر ذي الحجة من العام ١٢٢٩ الهجري ، المصادف لليوم الحادي والعشرين من شهر نوفمبر من عام ١٨١٤ م ، أعلن أحد مقوِّمي القافلة السورية عن وصول القافلة ، بعد أن وصل جريا إلى مكة ، أملاً في الحصول على الجائزة المخصصة للسباق في مثل هذه المناسبة ، أو لمن يحمل أول أنباء وصول هذه القافلة بسلام . وكانت أصوات الدهماء العالية ترافق ذلك السباق إلى بيت والي المدينة ، الذي نفق عنده حصان ذلك السباق فور وصوله إلى المكان . كان خبر وصول القافلة مهمًا جدًا ؛ نظرًا لأن الناس لم يسمعوا شيئًا عن تلك القافلة ، بل كانت هناك شائعات عن مهاجمة البدو لتلك القافلة وسلبها ونهبها عندما كانت على الطريق المؤدي إلى شمال المدينة (المنورة) ، بعد ذلك بساعتين ، بدأ أناس كثيرون من أفراد القافلة يصلون إلى مكة ، وعندما دخل الليل كانت القافلة قد وصلت بكاملها ، ونصبت خيامها ، وباشا دمشق على رأسها ، في سهل الشيخ محمود .

وصلت القافلة المصرية في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، وجرى إرسال الأمتعة والإبل إلى المكان المعتاد لتخييم الحج المصري ، في المعابدة ، ولكن المحمل ، أو إن شئت فقل الجمل الموقر ، فقد بقي في الشيخ محمود ، حتى يمكن له أن ينطلق

من الشيخ محمود ، في موكب اليوم التالي ، متجولاً في سائر أنحاء مدينة مكة. ويصل محمد على باشا ، بصورة مفاجئة في صباح ذلك اليوم قادماً من الطائف لأداء الحج ، وللتفتيش على الخيالة التي جاءت برفقة القافلة المصرية ، والتي كانت بمثابة دعم زاد آمال الرجل في الانتصار على الوهابيين . كان محمد على يرتدي ملابس إحرام غاية في الأناقة ؛ إذ كان يلف شالاً كشميرياً ناصع البياض حول وسطه، وآخر ناصع البياض أيضاً حول كتفيه ، كان رأس الرجل عارياً ، لكن كان هناك ضابط يحمل شمسية يظلل بها ذلك الرأس ويحميه من الشمس أثناء تجوال محمد على باشا وهو راكب جواده في شوارع مكة . في صباح هذا اليوم نفسه ، ارتدى الحجاج المقيمون في مكة ملابس الإحرام في منازلهم ، متبعين في ذلك الطقوس المعتادة ، في مسألة الصعود إلى عرفات ، وعند الظهر تجمع الجميع في المسجد ، حيث ألقيت خطبة قصيرة بهذه المناسبة . كان الحجاج الذين جاءوا مع القافلة قد ارتدوا ملابس الإحرام في عصفان ، التي تبعد عن مكة مسير محطتين ، لكن عدداً كبيراً من هؤلاء الحجاج وبخاصة الخدم والجمّالة لم يخلعوا ملابسهم المعتادة ، بل ظهروا في عرفات وهم يرتدون هذه الملابس ، دون أن يتسبب ذلك في إحداث شيء من القلق أو المفاجآت. المكان هنا خال من الشرطة الدينية أو شرطة التفتيش ، وكل إنسان هنا يفعل ذلك الذي يمليه عليه ضميره فيما يتصل بمراعاة أحكام الشريعة أو عدم مراعاتها .

يسود المدينة في ذلك المساء نشاط مهتاج وصاخب . كان الجميع منشغلين بالاستعداد للصعود إلى عرفات ، راح الحجاج السوريون يبحثون عن المساكن المخصصة لهم ، ويتساءلون عن أحوال الأسواق ، ويقومون بزياراتهم الأولى للكعبة . غادر بعض الباعة الجائلين ، ومعهم أصحاب المحلات الصغيرة ليقيموا لأنفسهم محلات في عرفات ، ويستعدوا لوصول الحجاج . قام بعض الجمّالة المصريين والسوريين باقتياد إبلهم غير المحملة عبر الشوارع وهم يعرضون تأجير تلك الإبل لمن يريد الصعود إلى عرفات . كان سعر استئجار الإبل في ذلك العام معتدلاً تماماً ؛ نظراً لوفرة دواب الحمل بأعداد كبيرة ، وقد استأجرت اثنين من هذه الإبل لرحلة مدتها أربعة أيام إلى عرفات ثم العودة منها ، نظير ثلاث دولارات .

في اليوم الثامن من ذي الحجة ، وفي الصباح الباكر ، مر الحج السوري على شكل موكب خلال شوارع المدينة ، ويصحبته كل الجنود المرافقين له للحراسة ، في حين كان المحمل يتقدم موكب الحج . كان الحج السوري قد ترك أمتعته كلها في الشيخ محمود ، فيما عدا الخيام التي سيجري نصبها في عرفات . كان السواد الأعظم من الحجاج يركبون داخل شبريات ، التي هي نوع من الهوادج التي توضع على ظهور الإبل ، لكن الأعيان هم وباشا دمشق كانوا يركبون في تختاروانات ؛ والتختا روان عبارة عن صندوق مغلق يحمله جملان ، أحدهما في الأمام والثاني في الخلف ، والتختا روان عبارة عن نقالة مريحة باستثناء أنه يحتاج إلى سلم نقالي للصعود إليه والنزول منه . ويجري تزيين رأس الجملين باستعمال الريش والشراريب ، والأجراس ، لكن رءوس الإبل المتدلية نحو الأسفل، توضح مدى الإرهاق الذي أصابها بسبب الرحلة. بينما كانت تلك الإبل تمر في الشوارع ، التي كانت عامرة ومزدحمة بأناس من مختلف الطبقات ، كانوا يحيُّون القافلة بالهتافات والثناء والإعجاب . كانت الموسيقى العسكرية الخاصة بباشا دمشق ، والمكونة من حوالي عشرة أفراد يركبون الخيول ، تتقدم " تختا روان " الباشا ، والتختا روان الفاخر الذي كانت تركب فيه نساء الباشا ، والذي كان يسترعي الانتباه بصورة خاصة .

جاء الموكب المصري عقب مرور الموكب السوري مباشرة ، وكان مكونًا من المحمل (نظرًا لأن القافلتين لكل منهما محمل خاص بها) ، ثم بعد ذلك الشبريات التي كان يركب فيها الموظفون العموميون الذين يصاحبون الحج بصورة دائمة ، ولم أر حاجًا واحدًا ضمن هذا الموكب . وقد نال المظهر الجميل للجنود المرافقين للموكب ، هو والمحمل الرائع الفخم ، وكذلك مظاهر الأبهة المحيطة بأمير الحج ، الذي كان قائدًا للخيالة الأتراك ، والذي كان يدعى دلهيس ، نال كل ذلك إعجاب المكيين ، وكثيرًا من علامات الاستحسان ، مثلما حدث مع الموكب الذي سبق الموكب المصري . واصلت القافلتان سيرهما إلى عرفات بلا توقف .

قبل دخول وقت الظهيرة كان الحجاج كلهم ، الذين يقيمون في مكة منذ مدة ، قد ركبوا إبلهم أيضًا ، وازدحمت بهم شوارع مكة وهم يمشون في موكب الحج ، وانضم إليهم السواد الأعظم من سكان مكة ، الذين اعتادوا الذهاب كل عام إلى عرفات ،

كما انضم إلى ذلك الركب أيضاً بعض من أهل جدة الذين كانوا يتجمعون فى مكة منذ فترة قصيرة . وتبقى بوابات جدة مغلقة طوال خمسة أيام أو ستة بعد أن يهجرها هذا العدد الكبير من السكان .

غادرت سكنى ماشياً على قدميَّ ، وبعد ظهر ذلك اليوم ، وبصحبة رفيق وعبد ركبنا جملين ، استأجرتهما من جمَّال سورى ، من مواطنى بلدة حمص . هناك اعتقاد مفاده أن ثواب الرحلة التى تقدر بمسير ست ساعات إلى عرفات يكون أكبر وأجزى إذا ما قطعها الحاج سيراً على الأقدام ، وبخاصة عندما يكون حافى القدمين . فعل كثير من الحجاج ذلك الشيء ، أى صعدوا إلى عرفة سيراً على الأقدام وهم حفاة ، وأنا فضلت ذلك نظراً لأنى عشت حياة ثبات وقلة حركة طوال بضعة أشهر . أمضينا ساعات عدة قبل أن نصل إلى الحدود الخارجية للمدينة فى المنطقة الواقعة خلف المعابدة ، كانت هناك أعداد كبيرة من الإبل ، ووقعت أحداث كثيرة ؛ كان من بين الحجاج المرتدين ملابس الإحرام طائفة جالسة تقرأ القرآن وهم راكبون جمالهم ، بعض آخر من هؤلاء الحجاج كان يلهج بالدعاء بصوت عال ، بعض ثالث كانوا يلعنون جمَّاليهم ويسبونهم ، ويتشاجرون مع القريبين منهم الذين كانوا يزاحمونهم على الطريق . خلف المدينة ، يبدأ الطريق فى الاتساع ، ومضينا خلال الوديان ، فى مسيرة بطيئة ، مدة ساعتين ، إلى أن وصلنا وادى منى الذى حدث تزاحم شديد عند مدخله الضيق. الشرع ينص على أن الحاج يتعين عليه تمضية خمس صلوات فى منى؛ إذ كان محمد ﷺ يفعل الشيء نفسه ، ويبقى فى منى إلى صباح اليوم التالى ، إلى أن يصلى العصر ، والمغرب ، والعشاء ، ثم صلاة فجر اليوم التالى . وقد أدى الارتباك الناتج عن التأخير فى الطريق إلى إهمال هذا الشرط إلى حد ما فى الماضى ، وأصبح الحاج اليوم يمر بمنى وهو فى طريقه إلى عرفات .

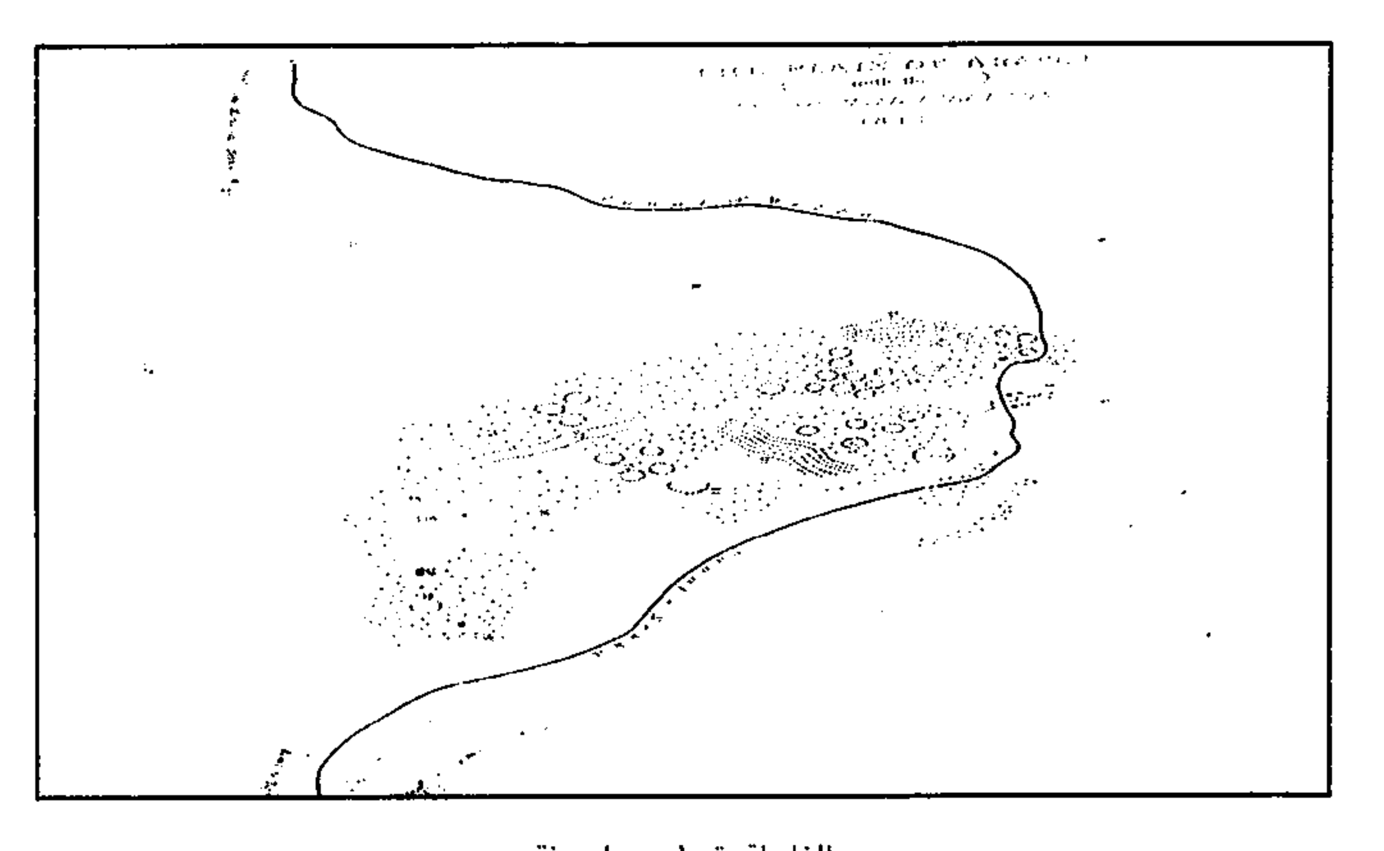
قبل منى شاهدنا عن يميننا مسجد مزدلفة ، الذى قصده كثير من الحجاج لأداء صلاة العصر وصلاة المغرب ، ولكن القافلة واصلت مسيرها . خلف مزدلفة ، دخلنا الجبل من جديد عن طريق الممر الذى يطلقون عليه اسم المأزومين ، على الجانب الشرقى الذى انطلقنا منه إلى جبل عرفات . فى هذا المكان يمر الحجاج بين عمودين يسميان العلمين ، وعندما يصل الحجاج إلى مقربة من المناطق المجاورة لعرفات ،

يتفرقون فوق السهل بحثًا عن أماكن التخييم . وصلت المخيم بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس ، لكن الشاردين الآخرين لم يصلوا إلا بعد منتصف الليل ، وشاهدت النيران التى شبها الحجاج على رقعة من الأرض يصل طولها إلى ثلاثة أميال أو أربعة ، وكانت هناك ثريات ساطعة تضىء مصابيحها سائر أنحاء المخيم الخاص بمحمد على باشا ، وسليمان باشا ، وأمير الحج فى القافلة المصرية . شاهدت الحجاج وهم يتجولون بين الخيام بحثًا عن رفاقهم ، الذين تاهوا منهم على الطريق ، ولم تهدأ الضوضاء أو يقل ذلك الارتباك إلا بعد مضى ساعات عدة . نامت قلة قليلة من الناس أثناء الليل ، وبقى المتقون ساهرين طوال الليل يدعون الله ويسبحونه وهم يترنمون بأصوات عالية ، وبخاصة أهل المخيم السورى ، فى حين شكل المكيون أنفسهم على شكل جماعات ، وهم يرددون الأذكار الربانية التى يطلقون عليها اسم الجوق ، ويصحبون التغنى بها بالتصفيق بالأيدى ، وبقيت المقاهى المنتشرة على سهل عرفة مزدحمة بالزبائن طوال الليل .

كان الليل حالك الظلام وباردًا وتساقطت على الناس حبات المطر، وكنت قد شكلت لنفسى مكانًا للراحة عن طريق سجادة كبيرة ربطتها فى الجزء الخلفى من خيمة أحد المكيين، ورحت أتجول طوال القسم الأكبر من الليل ، كنت قد أسلمت نفسى للنوم، عندما سمعت طلقتين من بندقيتين ، واحدة منهما فى الحج السورى والثانية فى الحج المصرى ، تعلنان دخول فجر يوم الحج ، وتدعوان المؤمنين إلى الاستعداد لأداء صلاة الصبح .

ولتوضيح الرواية التالية ، أرفق هنا مخططًا لسهل عرفات ، والأرقام والعلامات الموضحة فى ذلك المخطط على النحو التالى (*) :

(*) ١ - جبل عرفات . ٢ - المكان الذى صلى فيه محمد ﷺ عند قمة الجبل . ٣ - حلبة الخطيب . ٤ - موضع سيدنا أدم. ٥ - جامع الصخرة. ٦ - وادى أماه . ٧ - خيمة زوجة محمد على باشا. ٨ - القافلة المصرية. ٩- خيمة محمد على باشا. ١٠- مخيم خيالة محمد على. ١١- القافلة السورية. ١٢- خيمة سليمان باشا . ١٣- مخيم خيالة سليمان باشا . ١٤- خيمة عائلة الجيلانى . ١٥- مخيم كبار شخصيات مكة والحجاج الأتراك الذين لم يجيئوا بصحبة القافلة . ١٦- مخيم الهنود ومكان الطبقة الدنيا الذى يحمل الرمز b ، وقافلة اليمن المكية ، والمكان الذى اضطررت إلى التخييم فيه . ١٧- السوق . (انظر الخارطة رقم (١) : سهل عرفة) .



الخارطة رقم ١ : سهل عرفة

مع شروق شمس اليوم التاسع من شهر ذى الحجة يخرج كل حاج من خيمته ، ليتمشى فى سهل عرفة ويلقى نظرة على الجماهير الحاشدة المتجمعة فوق السهل . شوارع طويلة من الخيام ، مجهزة للعمل كأسواق شرقية ، تبيع كل أنواع المؤن والتموينات . كان الخيالة المصريون والخيالة السوريون قد جرى تسريحهم بواسطة رؤسائهم فى الصباح الباكر، فى حين كانت آلاف الجمال ترعى العشب الجاف الموجود فى سائر أنحاء المخيم . صعدت جبل عرفات لكى أتمتع منها بمنظر أكثر وضوحاً وتميزاً للوادى بكامله . هذا التل الجرانيتى الذى يطلقون عليه أيضاً اسم جبل الرحمة يرتفع فى الناحية الشمالية الشرقية من سهل عرفات بالقرب من الجبال التى هو جزء منها ولكن يفصله عنها واد صخرى ، وسهل عرفة يتردد محيطه بين ميل واحد ، وميل ونصف الميل ، وأجناب السهل محددة ، كما أن قمة السهل يصل ارتفاعها إلى حوالى مائتى قدم فوق مستوى السهل . على الجانب الشرقى نجد أن السلم الحجرى العريض يؤدى إلى قمة السهل ، كما نجد فى الجانب الغربى أيضاً ممراً عريضاً غير ممهد ، فوق كتل من الجرانيت الغشيم الذى يستر انحدار السهل . بعد أن ارتقيت حوالى أربعين درجة من درجات ذلك السلم العريض ، عثرت على بقعة تنحدر قليلاً إلى الشمال ، ويطلقون عليها اسم موضع سيدنا آدم ، أو إن شئت فقل : المكان الذى كان يدعو فيه سيدنا آدم ، والناس يقولون: إن أبا البشر كان يتوقف فى ذلك المكان برهة وهو يدعو الله (سبحانه وتعالى) ، والحديث الشريف يقول : إن (سيدنا) جبريل علم آدم أول مرة كيف يعبد خالقه (سبحانه وتعالى) ، وهناك لوح من الرخام ، عليه نقش حديث، مثبت على جانب الجبل. وبعد أن ارتقيت السلم إلى الدرجة الستين ، وصلت إلى حلبة ممهدة على الجانب الأيمن ، على جزء مستوٍ من التل ، يقف عليها الخطيب ، وهو يخطب فى الحجاج فى عصر ذلك اليوم ، على النحو الذى سأوضحه فيما بعد . عند هذا الارتفاع ، تتسع درجات السلم وتسهل على نحو يتمكن معه الحصان أو الجمل من الصعود ، لكن فى الارتفاعات الأعلى من ذلك تصبح تلك الدرجات أكثر انحداراً وغير مستوية ، وعند قمة السهل يتضح المكان الذى اعتاد سيدنا محمد ﷺ

الجلوس فيه أثناء الحج ؛ كان هناك مسجد صغير من قبل في هذا الموضع ، ولكن الوهابيين دمروا ذلك المسجد ، وقد جرت العادة أن يصلى الحجاج ركعتين في هذا المكان ، من باب التحية لعرفات . هذا الدرج هو والقمة مغطيان بالفتر والمناديل لاستقبال أو تلقى العطايا الناجمة عن التقوى والورع ، وكل أسرة من الأسر المكية ، أو البدو المنتمين إلى قريش لهم مكان محدد لهذا الغرض . وقمة السهل تستحوذ على منظر مترام فريد ، وتناولت البوصلة لكى أرصد بعض الزوايا ولكن الزحام الشديد حال بينى وبين ما أريد . فى أقصى الطرف الغربى من السهل شاهدت بير بازان والعلمين ، وعلى مقربة من منى فى اتجاه الجنوب ، يقع المسجد الذى يسمونه مسجد نمرة ، أو بالأحرى جامع سيدنا إبراهيم ﷺ ، وفى الجنوب الشرقى ، يوجد منزل صغير جرت العادة أن يقيم فيه شريف مكة أثناء الحج . وتمتد من هذا المكان أرض صخرية مستوية مرتفعة داخل السهل متجهة صوب جبل عرفات . وعلى الجانب الشرقى من الجبل ، وبالقرب من سفحه ، توجد أنقاض مسجد صغير ، مبنى على أرض صخرية، ويطلق عليه اسم جامع الصخرات، الذى صلى فيه سيدنا محمد ﷺ ، والذى يؤدى المسلمون فيه أربع ركعات تأسيًا بالنبى ﷺ ، وتنتشر فوق السهل خزانات عدة مبطنة بالحجر ؛ اثنان أو ثلاثة من هذه الخزانات تقع بالقرب من سفح جبل عرفات ، وهناك أيضًا بعض هذه الخزانات المائية بالقرب من منزل الأشراف ، هذه الخزانات تُملأ من المجرى المائى الدقيق الذى يزود مكة كلها بالماء ، والذى يبعد مصدره مسير ساعة ونصف الساعة عن هذا المكان ، فى الجبال الشرقية . هذا المجرى مكشوف هنا فى سهل عرفة لكى يفيد منه الناس (الحجاج) ويجرى توجيهه حول الجوانب الثلاثة للجبال مرورًا بموضع سيدنا آدم (*) .

(*) نقلاً عن قطب الدين ؛ نجد أن ساحل عرفات كله كان منزرعًا فى أواخر القرن السادس عشر .

من قمة جبل عرفات استطعت إحصاء ، حــوالى ثلاثة آلاف خيمة كانت منتشرة فى سائر أنحاء السهل ، كان ثلثا هذا العدد من الخيام خاص بالحجاج وقوافلهم ، ولحاشية محمد على باشا وجنوده ، أما الثلث المتبقى فكان يخص عرب الشريف ، والحجاج البدو ، وأهل مكة وجدة . هذه الجماهير الحاشدة كان القسم الأكبر منها بلا خيام مثلى تمامًا . كانت القافلتان قد خيمتا بلا نظام إلى حد بعيد ، هذا يعنى أن كل جماعة من الحجاج أو الجنــود كانت قد نصبت خيامها على شكل دوائر كبيرة أو على شكل دواوير ، وضعوا إبلهم فى منتصفها . كان السهل يحتوى على ما بين عشرين ألف جمل وخمسة وعشرين ألفًا ، منتشرة فى أجزاء مختلفة ؛ كان من بين هذا العدد حوالى اثنى عشر ألف جمل تابعة لقافلة الحج السورية ، وحوالى خمسة آلاف جمل أو ستة آلاف تابعة لقافلة الحج المصرية ، إضافة إلى ثلاثة آلاف جمل أخرى اشتراها محمد على باشا من البدو فى الصحراء السورية ، وأحضرها إلى مكة مع قافلة الحج المصرية ، لنقل الحجاج إلى هذا المكان ، قبل استعمالها فى نقل مؤن الجيش إلى الطائف .

كانت قافلة الحج السورى مخيمة على الجانب الجنوبى الغربى من الجبل ، فى حين كانت قافلة الحج المصرى مخيمة على الجانب الجنوبى الشرقى من الجبل نفسه . كانت قوات البدو مخيمة حول منزل الشريف يحيى ، وبجوار هذا المنزل كان أهل الحجاز مخيمين . كانت قافلتا اليمن قد اعتادتا التخييم فى هذا المكان وتجعلان منه محطة لهما . كان لمحمد على باشا ، هو وسليمان باشا دمشق ، ومعهما ضباط عدة ، خيام غاية فى الروعة والجمال ، ولكن أجمل جميلات تلك الخيام كانت خيمة زوجة محمد على باشا ، أو إن شئت فقل : أم طوسون باشا وإبراهيم باشا ، التى كانت قد وصلت مؤخرًا قادمة من القاهرة لأداء فريضة الحج ، وبصحبتها معدات ومستلزمات ملكية بحق وحقيقة ، واستلزم الأمر استعمال خمسمائة جمل لنقل أمتعتها من جدة إلى

مكة . واقع الأمر إن خيمة زوجة محمد على باشا كانت مخيمًا مكونًا من حوالى عشر خيام متباينة الأحجام ، تنزل فيها النساء المرافقات لها ، وكانت الخيمة كلها محاطة بسور من قماش الكتان ، ونقدر محيطه بحوالى ثمانمائة خطوة ، وكان يحرس مدخل هذه الخيمة بعض الطواشية الذين يرتدون ملابس رائعة . داخل هذا المسوَّر كانت تنصب خيام الرجال الذين يدخلون ضمن حاشيتها الكبيرة . هذا التطريز الجميل الذى يزين ذلك القصر الكتانى من الخارج ، وكذلك الألوان المتباينة التى فى كل جزء أو ركن من أركان هذا القصر ، كل ذلك كان يشكل شيئًا ذكرنى ببعض الأوصاف الواردة فى ثنايا حكايات ألف ليلة وليلة . لم يبرز من بين حاشيات الحجاج الأثرياء ، أو من بين أهل مكة ، أحد مثل عائلة الجيلانى ، ذلك التاجر الذى نُصبت خيمته على شكل نصف دائرة ، وكانت تضارع من حيث الجمال والأبهة خيمة محمد على باشا ، وخيمة سليمان باشا ، كما كانت تتفوق تمامًا على خيمة الشريف يحيى . فى أجزاء أخرى من بلاد الشرق، قد يجرُّ التاجر الثرى الهلاك على نفسه ، إذا ما راح يستعرض ثراءه فى حضرة باشا من الباشوات ، لكن الجيلانى لم يتخل عن التقاليد التى تعلمها المكيون فى ظل الحكم القديم ، وبخاصة زمن الشريف غالب ، الذى لم يحدث أن مارس ضغطًا على أى فرد من الأفراد ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء التجار يعتمدون حاليًا على وعود محمد على باشا، التى تقضى باحترامه لثرواتهم وممتلكاتهم.

ويتكرر طوال الفترة الصباحية إطلاق دانات المدافع التى جلبها كل من محمد على وسليمان باشا معهما . قلة قليلة فقط من الحجاج هم الذين اتخذوا لأنفسهم مناطق خيموا فيها على جبل عرفات نفسه ، وبخاصة فى المناطق التى يتوفر فيها بعض التجاويف الصغيرة أو الصخور المعلقة التى قد تحميهم من أشعة الشمس . هناك اعتقاد عام فى الشرق ، يزكيه الحجاج عندما يعودون إلى أوطانهم ، مفاده أن الحجاج فى ذلك اليوم ، يكونون جميعًا فوق جبل عرفات ، وأن الجبل له خاصية المعجزات ، وأنه يتمدد ويتسع فى ذلك اليوم، لكى يتسع عند قمته ليضم عددًا غير محدود من المؤمنين .

الشريعة تنص على أن الوقفة ، أو مكان الحج ، ينبغى أن تكون علـى جبل عرفات ، لكن الشـرع بحكم الضـرورة ينـص أيضًـا على أن السـهل فى الأرض المجـاورة مباشرة لجبل عرفات يمكن اعتباره أيضًا داخلاً فى مصطلح " الجبل " أو بالأحرى جبل عرفات .

وأنا شخصيًا ، قدرت عدد الأفراد المتجمعين بما يصل إلى حوالى سبعين ألف نسمة ، وكان طول المخيم يتراوح بين ثلاثة أميال وأربعة أميال أما عرضه فكان يتردد بين ميل واحد وميلين تقريبًا . وليس هناك مكان فى الدنيا كلها ، صغير على هذا النحو ، ويضم هذه اللغات المتباينة ؛ تعرفت حوالى أربعين لغة من هذه اللغات ، ولا يخامرنى أى شك فى وجود عدد من اللغات أكبر بكثير من العدد الذى أحصيته . وقد بدا الأمر لى كأنى وضعت داخل معبد مقدس لا يضم سوى المسافرين والمترحلين ، ولم يسبق لى قبل الآن الإحساس بهذه الرغبة الشديدة فى اختراق أعماق فجوات بلدان كثير من هؤلاء الأشخاص الذين أراهم الآن أمامى ، متخيلاً أنى لا يمكن أن أواجه أية صعوبات فى الوصول إلى بلادهم ، وذلك على العكس من المصاعب التى خبروها ومروا بها فى رحلاتهم التى قطعوها وصولاً إلى هذا المكان .

الذهن عندما ينشغل بهذا العدد الهائل من الموضوعات ، يجعل الوقت يمضى سريعًا ؛ كل ما فعلته هو أنى نزلت من جبل عرفات ، ورحت أتجول فى سائر أنحاء المخيم لفترة قصيرة ؛ كنت أتجول هنا وهناك وأدخل فى حوارات مع الحجاج ؛ باحثًا فى المخيم السورى عن بعض أصدقائى ، وكنت أتجول أيضًا بين البدو السوريين ؛ بحثًا وتصيدًا لأخبار عن صحرائهم، إلى أن انقضت فترة الظهيرة . الصلاة يجب أن تؤدى داخل أو بالقرب من مسجد نمرة ، وهو المكان الذى لجأ إليه محمد على باشا وسليمان باشا تحقيقًا لهذا الهدف . القسم الأكبر من الحجاج يتحللون من مراعاة هذا الطقس ، كما يتغاضى الكثيرون منهم عن صلاة الظهر تمامًا ؛ والسبب فى ذلك أن الناس فى عرفة لا يشغلون أنفسهم بمسألة ما إذا كان جيرانهم يواظبون أو لا يواظبون على أداء

الطقوس المحددة . بعد الظهر ، يتعين على الحجاج الاغتسال وتطهير البدن ، عن طريق الوضوء الكامل حسبما هو منصوص عليه في الشرع ، وهو ما يسمى الغسل ، الذي نُصبت من أجله خيام عدة في السهل ، لكن الجو كان ملبداً بالغيوم ، وبارداً إلى حد ما ، الأمر الذي أقنع تسعة أعشار الحجاج ، الذين كانوا يرتعشون تحت ملابس الإحرام الخفيفة ، بالتغاضي عن طقس الغسل هذا ، والاستغناء عنه بالوضوء المعتاد . دخل وقت العصر (حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر) وهو الوقت المحدد لحدوث ذلك الطقس من طقوس الحج ، الذي من أجله جاء هذا الجمع كله إلى هذا المكان . وهنا همَّ الحجاج وراحوا يتجهون صوب جبل عرفات ، وغطوا جوانبه من القمة إلى القاع ، وفي التوقيت المحدد للعصر صعد الواعظ ، أو بالأحرى الخطيب ووقف على الحلبة التي على الجبل ، وراح يخطب في الجموع. هذه الخطبة التي تستمر إلى غروب الشمس تشكل الطقس المقدس من طقوس الحج ، والذي يطلقون عليه اسم خطبة الوقفة ، وأي حاج حتى إن كان قد زار أماكن مكة المقدسة كلها ، لا يمكن أن يقال له حاج إلا إذا كان حاضراً لخطبة الوقفة هذه على جبل عرفات ، وبعد الانتهاء من صلاة العصر يبدأ تقويض الخيام ، وحزم الأشياء كلها ، وتبدأ القوافل عملية التحميل ، ويبدأ الحجاج في ركوب الإبل ، ويتزاحمون في سائر أنحاء جبل عرفات ، لكي يكونوا على مقربة من الخطيب ، إذ يكفي أن يكون الحجاج على مقربة من الخطيب . هذا هو محمد على باشا ، وسليمان باشا ، وقد وقف الخيالة من خلفهما على شكل سريتين ، بحيث كان موقعهما في مؤخرة صفوف إبل الحجاج المتراصة ، وكان أهل الحجاز قد انضموا إلى هذا العدد الغفير من الحجاج ، وراح الجميع ينصتون في خشوع واحترام إلى أن تنتهي خطبة الوقفة . كان الشريف يحيى يجلس على بعد مسافة كبيرة من الخطيب ، ومعه مجموعة حرسه الصغيرة ، التي كان جنودها يتميزون عما حولهم ، لأنهم كانوا يحملون بيارق خضراء اللون يضعونها أمامهم، وشق المحملان، اللذان يحمل كل منهما البيرق المميز لقافلته، طريقهما بصعوبة بالغة عبر صفوف الإبل التي كانت تحيط

بالجانبين الجنوبي والشرقي من التل المقابل للخطيب ، واتخذا لهما مكانًا أسفل الحلبة المواجهة لهما مباشرة في حين كان الحرس يحيطون بهما . (*)

كان الخطيب، أو بالأحرى الواعظ، الذي عادة ما يكون هو قاضي مكة، راكبًا على جمل أنيق جرى اقتياده إلى الحلبة عن طريق السلم، والموروث يقول إن محمداً ﷺ كان يجلس دومًا وهو يتحدث إلى أتباعه ، وهذا هو ما يفعله الخلفاء اقتداءً به ﷺ عندما يأتون للحج ، والذين بدأوا اعتبارًا من ذلك التاريخ يتحدثون إلى رعاياهم حديثًا شخصيًا مباشرًا . ومع ذلك لم يستطع أتراك القسطنطينية ، الذين لم يعتادوا ركوب الإبل ، المحافظة على جلستهم مثلما كان يفعل النبي البدوي القوي ؛ نظرًا لأن ركوب

(*) المحمل (الذي قدم له دي أوليسون D'olisson وصفًا دقيقًا) عبارة عن إطار خشبي عالٍ مجوف ، على شكل مخروط ، وله قمة هرمية الشكل مغطاة بستارة من الحرير الفاخر ومزينة بريش النعام ، وفيها كتاب صغير فيه دعوات وأوراد ، موضوع في منتصف هذه القمة هرمية الشكل ، وملفوف في قطعة من الحرير . (الوصف الذي أورده هنا مأخوذ عن المحمل المصري .) والمحمل أثناء السير يكون بمثابة البيرق الشريف للقافلة ، وعند عودة القافلة المصرية ، يجري عرض الكتاب في مسجد الحسين ، في القاهرة ، يقوم رجال الطبقات الدنيا ونساؤهم بتقبيله، ويطلبون البركة بأن يروحوا يحكُّون وجوههم في هذا الكتاب . محمل القاهرة لا يوضع فيه أي كتاب آخر غير كتاب الدعوات . وقد أعلن الوهابيون أن هذا الطقس ضرب من ضروب عبادة الأصنام ، ويتعارض مع الدين الحقيقي ، وأن هذا الطقس كان سببًا من الأسباب الرئيسية التي جعلتهم يعترضون القافلة ويمنعون وصولها إلى مكة ، وقالوا : إن الأمويين والعباسيين لم يكن لهم محمل في قرون الإسلام الأولى . وهذا هو المقريزي في حديثه عن " الخلفاء والسلاطين الذين أدوا فريضة الحج بشخصهم " يقول : إن الظاهر بيبرس البندقداري ، سلطان مصر ، كان أول من أدخل مسألة المحمل هذه في عام ٦٧٠ هـ على وجه التقريب . واعتبارًا من ذلك التاريخ ، أصبح السلاطين الذين كانوا يرسلون قوافلهم إلى مكة ، يعدون مسألة المحمل هذه علامة وإشارة إلى جلالتهم . جاء أول محمل من اليمن في العام ٩٦٠ هـ ، وفي العام ١٠٤٩ هـ ، جاء المؤيد بالله ، ملك وإمام اليمن – الذي كان يعتنق المذهب الزيدي – جاء إلى جبل عرفات ومعه محمل، يضاف إلى ذلك أن قوافل بغداد، ودمشق ، والقاهرة ، كانت كل واحدة منها تجيء ومعها محمل . وفي العام ٧٣٠ هـ أحضرت القافلة البغدادية المحمل على ظهر فيل (راجع العصمي) . وأنا أرى أن هذه العادة نشأت عن بيرق القتال عند البدو ، الذي يسمونه مركب ، والذي سبق أن أشرت إليه في ملاحظاتي عن البدو ، والذي يشبه المحمل من حيث إنه إطار خشبي موضوع فوق جمل .

الجمل يكون غير مريح ، فذلك يضطر التركي إلى النزول عن الجمل . والخطيب يقرأ خطبته من كتاب مكتوب باللغة العربية ، يمسكه بين يديه ، وبعد مضى ساعة يتوقف الخطيب خمس دقائق ويرفع ذراعيه يطلب الرحمة والبركة من العلى (القدير) ؛ فى حين تروح الجموع المحيطة به ، ومن أمامه تلوح بأطراف ملابس الإحرام فوق الرءوس ، ويزلزلون الهواء وهم يصيحون قائلين : " لبيك اللهم لبيك " ، أثناء هذا التلويح بأطراف ملابس الإحرام ، يبدو جانب الجبل ، المكتظ بالناس الذين يرتدون ملابس الإحرام البيضاء ، كأنه شلال من شلالات المياه ، فى حين تبدو المظلات الخضراء التى يرفعها راكبو الإبل فوق رءوسهم ، كما لو كانت سهلاً أخضر .

طوال الخطبة التى دامت ما يقرب من ثلاث ساعات كان الحجاج يشاهدون القاضى وهو يجفف أو يمسح دموعه دومًا بمنديل ؛ لأن الشرع ينص على أن يجهش الخطيب خوفًا من الله وطمعًا فى رحمته ، ويضيف أنه كلما اغرورقت عيناه بالدموع وسالت على خديه فتلك إشارة إلى رحمة الله به ، وإرهاص بقبول دعائه . كان الحجاج الذين يحيطون بى ويقفون بالقرب منى ، على صخور الجرانيت الكبيرة التى تغطى جوانب جبل عرفات ، يبدون لى كأنهم واقعون تحت تأثيرات أمور متباينة . البعض منهم ، ومعظمهم من الأجانب ، كانوا يصيحون ويبكون بصوت عال ، وهم يضربون صدورهم بأيديهم ويعترفون بالخطأ أمام الله ، آخرون (وهؤلاء أقل عدداً من السابقين) كانوا يقفون فى صمت تأملى عميق ، وتعبد ، وقد اغرورقت أعينهم بالدموع . فى ذات الوقت كان الكثيرون من مواطنى الحجاز ، هم وكثير من الجنود الأتراك يتسامرون ويمزحون ، وبينما كان الآخرون يلوحون بأطراف ملابس إحرامهم ، كان أولئك الجنود يأتون حركات عنيفة كما لو كانوا يسخرون مما يحدث . لاحظت فوق التل الذى فى الخلف جماعات عدة من العرب ومن الجنود الذين كانوا يدخنون "شياشيهم" فى هدوء ، وفى تجويف قريب لاحظت امرأة كانت تبيع القهوة ، بينما راح زائروها يقاطعون جو التقوى والورع السائد بين الحجاج، عن طريق الضوضاء والضحك بصوت عال . كان هناك عدد كبير من البشر الذين كانوا مرتدين ملابسهم العادية . وقبيل انتهاء الخطبة كان القسم الأكبر من الجمع يبدون مرهقين ومهمومين ، بل إن الكثيرين منهم

نزلوا من فوق الجبل قبل أن ينتهى الخطيب من خطبته . ومع ذلك ، ينبغى أن نلاحظ هنا أن الجموع التى تجمعت فوق الجبل قبل أن ينتهى الخطيب من خطبته ، كانت فى معظمها من الطبقات الدنيا ، أما الحجاج أصحاب المقامات العالية فقد كانوا راكبين إبلهم أو خيولهم فى السهل .

أخيرًا مالت الشمس إلى الغروب خلف الجبال الغربية ، وعندها أغلق القاضى كتابه ، واستمع إلى التلبية الأخيرة ، وتدافعت الحشود نازلة من الجبل ، ومغادرة عرفات . والشرع ينصح بالتعجيل فى النزول ، ولذلك يحول الكثيرون النزول من عرفة إلى سباق ، وهم يطلقون على هذا السباق اسم " الدَّعدفة من عرفات " (وهو ما يطلق عليه حاليًا النفرة من عرفات) . فى الأزمان الماضية وعندما كانت القافلتان المصرية والسورية متوازنتان تقريبًا ، كانت تقع حوادث دامية كل عام بين القافلتين ، عندما تحاول كل منهما سباق الأخرى ، لتضع محملها قبل محمل القافلة الأخرى ، الشىء نفسه كان يحدث عندما كان المحملان يتقدمان صوب الحلبة مع بداية الخطبة ؛ الأمر الذى أدى إلى وفاة مائتى إنسان فى زعم ذلك الذى يظنون أنه تشريف خاص بالقوافل . سلطة محمد على باشا هى السائدة فى الوقت الراهن ، ولذلك يكشف الحجاج السوريون عن تواضع كبير فى هذا الشأن .

هذه هى القوافل الموحدة بل والحجاج جميعهم يتحركون إلى الأمام عبر السهل ؛ بعد أن طويت الخيام استعدادًا للنفرة . بدأ الحجاج يمرون على العلمين اللذين يتعين عليهم المرور عبرهما أثناء العودة ، وحل الليل قبل أن يدخل الحجاج المنحدر الذى يسمونه المأزومين . أضيئت شعلات لا تعد ولا تحصى ، وكانت هناك أربع وعشرون شعلة تتقدم كل باشا ، وكان شرر النار يتطاير من تلك الشعلات عبر السهل . كانت دانات المدفعية مستمرة وأصواتها تدوى فى كل مكان ، وراح الجنود يطلقون نيران بنادقهم ، وكانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف فى مقدمة الموكب ، وكانت صواريخ الألعاب النارية تطلق بواسطة ضباط الباشا ، فضلاً عن الصواريخ والألعاب النارية التى كان يطلقها بعض الحجاج، فى حين كان الحج يسير بسرعة عالية وفى غير نظام،

وسط الضوضاء التي تصم الآذان ، وبخاصة أثناء المرور خلال المأزومين ، التي تؤدي إلى مزدلفة ، التي حل عليها جميع الحجاج بعد مسير دام ساعتين . في مزدلفة لم يتبع النظام في مسألة التخييم ، وكان كل واحد يخيم في أول مكان يلاقيه ، ولم يجر نصب أية خيام فيما عدا خيام الباشوات وحاشيتهم ، وأمام خيام الباشوات أضيئت المصابيح على شكل عقود عالية ، وظلت مشتعلة طوال الليل ، وتواصل إطلاق دانات المدافع بلا انقطاع .

خلال الفوضى التي لا يمكن وصفها والتي تنتج عن نفرة الحجيج من عرفات ، تضيع من كثير من الحجاج إبلهم ، وتراهم هنا وهم ينادون بصوت عال على جمَّالتهم ، وهم يبحثون عنهم في أرجاء السهل ، وأنا شخصيًا كنت من بين هؤلاء الذين كانوا ينادون بصوت عال على جمَّالتهم ، وأنا عندما ذهبت إلى جبل عرفات أمرت جمَّالي وعبدي أن يكونا مستعدين في المكان الذي كانا فيه ، إلى أن أعود لهما بعد غروب الشمس ، لكنهما عندما رأيا - عقب انصرافي عنهما - الجمال المحملة الأخرى وهي تتجه نحو الجبل حذوًا حذوها ، وعندما عدت إلى المكان الذي تركتهما فيه لم أعثر عليهما . وهنا اضطررت إلى النزول إلى مزدلفة سيرًا على الأقدام ، حيث نمت فيها على الرمل وتغطيت بملابس الإحرام ، بعد أن قمت بالبحث عن رفاقي ساعات عدة .

في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ، أو بالأحرى في يوم العيد الذي يسمونه نهار الضحية ، أو نهار النحر ، يوقظ مدفع الصباح الحجاج قبل طلوع الفجر . ومع انبلاج أول خيوط النهار يتخذ القاضي مكانه على الحلبة المرتفعة التي تطوق جامع مزدلفة، والتي يسمونها المشعر الحرام، ويبدأ في إلقاء خطبة شبيهة بالخطبة التي ألقاها في اليوم السابق . كان الحجيج يحيطون بالمسجد من كل جانب ومعهم شعلات مشتعلة ، ويتابعون الخطبة وهم يلبون أيضًا قائلين : "لبيك اللهم لبيك" لكن على الرغم من أن هذه الخطبة تعد إحدى الطقوس الرئيسية في الحج ، فإن عددًا كبيرًا من الحجاج بقوا إلى جوار أمتعتهم ، ولم يحضروا تلك الخطبة . هذه الخطبة لم تكن طويلة جدًا ؛ إذ استمرت من طلوع الفجر إلى شروق الشمس ، وهذه الفترة الزمنية أقصر

بطبيعة الحال فى هذه البلاد عنها فى بلادنا الشمالية . صلاة العيد يؤديها المجتمع كله طبقًا لطقوسها وتقاليدها . مع شروق الشمس ، وعندما تبدأ أشعتها تتخلل السماء الملبدة بالغيوم ، يتحرك الحجاج على شكل مسيرة بطيئة الخطى فى اتجاه وادى منى ، التى تبعد عن هنا مسافة مسير ساعة واحدة .

عندما يصل الحجاج إلى وادى منى تقوم كل جماعة أو أمة بالتخييم فى المكان الذى اعتادت التخييم فيه من قبل خلال مواسم الحج السابقة. بعد أن يتخلص الحجاج من أمتعتهم يسارعون إلى رمى الجمار . يُقال إن إبراهام أو إبراهيم عندما عاد من عرفات ووصل إلى وادى منى وضع الشيطان - أو إن شئت فقل إبليس - نفسه أمام سيدنا إبراهيم فى مدخل الوادى ، لكى يمنعه من المرور ، وعندما نصح جبريل أبا الأنبياء بإلقاء الأحجار على إبليس ، وهو ما فعله (سيدنا) إبراهيم بالفعل ، وبعد أن قذفه بالأحجار سبع مرات تراجع إبليس ، وعندما وصل (سيدنا) إبراهيم إلى منتصف الوادى ، ظهر له إبليس مرة ثانية ، ثم ظهر له مرة أخيرة فى الطرف الغربى من الوادى ، ولفظه (سيدنا) إبراهيم بأن ألقى عليه العدد نفسه من الجمار . ونقلاً عن المؤرخ الأزرقى ، كان العرب الوثنيون يؤبنون هذا التقليد بإلقاء أحجار فى هذا الوادى عندما كانوا يعودون من الحج ، ثم أقاموا بعد ذلك سبعة أصنام فى منى ، كان منها صنم واحد فى كل موضع من المواضع التى ظهر فيها الشيطان ، وكانوا يلقون على كل واحد منها ثلاث حصوات . لكن محمدا ﷺ الذى جعل الجمار ركنًا أساسيًا من أركان الحج ، هو الذى زاد عدد الحصى من ثلاث حصوات إلى سبع حصوات. عند مدخل الوادى فى اتجاه المزدلفة، يوجد عمود حجرى غشيم، أو بالأحرى مذبح يتردد ارتفاعه بين ستة أقدام وسبعة ، فى منتصف الشارع ، يجرى رمى الجمار السبعة الأولى عليه ، باعتبار أن ذلك هو الموقع الأول الذى ظهر فيه إبليس أول مرة (لسيدنا) إبراهيم ، وفى اتجاه منتصف الوادى يوجد نصب مماثل، وفى الطرف الغربى من الوادى يوجد جدار من الحجر ، جرى صنعه لخدمة الغرض نفسه . تزاحم الحجاج فى موجات متتالية حول النصب الأول الذى يسمونه "الجمرة الأولى" ، وألقى كل حاج

على تلك الجمـرة سبع حصـوات متتاليـة ؛ ثم انتقـل الحجاج بعـد ذلك إلى المكانين أو الموقعين الثاني والثالث اللذين يطلقون عليهما اسم (" الجمرة الأوسط والجمرة السفلى " أو قد يقولون لهما "جمرة العقبة أو الأقصى ") . وقد كرر الحجاج الرمى نفسه على هاتين العقبتين . والحجاج عند رمى الجمار يقولون: " بسم الله ، الله أكبر ، (بمعنى أننا نفعل ذلك درءاً للشيطان وجنوده) . " والجمار المستخدمة فى هذا الرمى تكون الواحدة منها فى حجم حبة الفول أو ما يقرب منها ؛ ويُنْصح الحجاج بجمع هذه الحجارة من مزدلفة ، لكن بوسعهم أيضاً التقاط هذه الجمار من منى أيضاً ، كما أن أناساً كثيرين يقال إنهم يخالفون الشرع عندما يجمعون الحصى نفسه الذى سبق استعماله من قبل .

بعد الانتهاء من رمى الجمار ، يقوم الحجاج بذبح الأضحيات التى يحضرونها معهم ، يضاف إلى ذلك أن المسلمين جميعهم حيثما كانوا فى العالم ، يتعين عليهم ذبح الأضحيات فى ذلك الموعد . كانت هذه المناسبة تحتوى على ما يتردد بين ستة آلاف رأس وثمانية آلاف رأس من الغنم والماعز ، أحضرها البدو (الذين كانوا يطلبون أثماناً مرتفعة لها) . مسألة الأضحية نفسها لا تنطوى على أية طقوس غير توجيه رأس الأضحية ، عند ذبحها ، ناحية القبلة أو الكعبة ، وأن يردد من يقوم بالذبح العبارة التى تقول : "بسم الله الرحمن الرحيم ، الله أكبر ! " ويمكن ذبح هذه الأضحية فى أى مكان من وادى منى ؛ لكن المكان المفضل هو تلك الصخرة الناعمة الموجودة فى الطرف الغربى من وادى منى ، التى جرى فيها ذبح آلاف عدة من الأضحيات خلال ربع ساعة (*) .

بعد الذبح ، يرسل الحجاج فى طلب الحلاقين ، أو قد يذهبون إلى محلاتهم ، التى جرى إنشاؤها بالقرب من مكان الذبح ، ويصل عدد محلات الحلاقة فى هذا المكان إلى حوالى ثلاثين محلاً أو أربعين. ويحلق الحجاج رءوسهم، ما عدا أتباع المذهب الشافعى،

(*) يروى قطب الدين أن الخليفة المقتدر عندما أدى الحج فى العام ٣٥٠ الهجرى ، ضحى فى ذلك اليوم بأربعين ألف جمل وبقرة ، وخمسين ألف رأس من الغنم . وإلى يومنا هذا لا يزال الأثرياء من الناس يضحون بالإبل . والشرع يبيح الذبح بالوكالة .

الذين يحلقون هنا ربع الرأس فقط ، ويبقون على الأرباع الثلاثة المتبقية إلى ما بعد زيارة الكعبة والعودة من مكة . ويخلعون ملابس الإحرام ويرتدون ملابسهم المعتادة ، ومن استطاع يلبس ثيابًا جديدة ، نظرًا لأن ذلك يكون يوم عيد . وبذلك تكون فريضة الحج قد اكتملت ، ويهنئ الحجاج بعضهم بعضًا ، ويرجون من الله قبول ذلك الحج قائلين : " تقبل الله ! " ، كنت أسمع هذه العبارة تتردد في كل مكان ، وكان الجميع يبدو عليهم الرضا والقناعة ، لكن ذلك لم يكن حالي ؛ نظرًا لأن الجهود التي بذلتها في البحث عن إبلي باءت كلها بالفشل ؛ بسبب الجماهير الحاشدة التي كانت تملأ الوادي، يضاف إلى ذلك أن الحجاج الأخرين كانوا قد ارتدوا ملابسهم المعتادة في حين رحت أنا أتجول بحثًا عن إبلي مرتديًا ملابس الإحرام ، ومن حسن الطالع ، أن كيس نقودي، الذي كنت أعلقه في عنقي ، طبقًا لأعراف الحج (معروف أن ملابس الإحرام ليس بها جيوب) ، مكنني من شراء خروف للأضحية ، ودفع أجر الحلاق . لم أعثر على رفاقي وإبلي إلا بعد غروب الشمس ، عندما وجدتهم مخيمين على الجبل الشمالي ، وكانوا ينتظرونني بقلق بالغ في ذلك المكان .

يبقى الحجاج مدة يومين في منى . وعند ظهر أو منتصف نهار اليوم الحادي عشر من ذي الحجة ، يجري رمي سبع حصوات صغار على كل نصب من النصب الثلاثة التي ظهر الشيطان فيها ، ويفعل الحجاج الشيء نفسه في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة ، وبذلك يصبح إجمالي عدد الحصوات التي تلقى في الأيام الثلاثة إلى ثلاث وستين حصوة بواقع إحدى وعشرين حصوة عن اليوم الواحد ، موزعة بواقع سبع حصوات لكل جمرة من الجمرات الثلاث . كثير من الحجاج يجهلون المغزى الحقيقي للشرع في هذا الصدد ، شأنهم في ذلك شأن جهلهم بكثير من طقوس الحج الأخرى ، قد يبكرون برمي الجمار التي يتعين رميها عند وقت الزوال ، أو قد يرمون عددًا أقل من العدد المنصوص عليه . بعد الرمي الأخير الذي يصادف اليوم الثاني عشر من ذي الحجة يعود الحجاج إلى مكة في فترة العصر .

منى (*) عبارة عن وادٍ ضيق ، يمتد على شكل خط مستقيم من الغرب إلى الشرق، مسافة ألف وخمسمائة خطوة من حيث الطول ، ويتباين عرضه من مكان لمكان وتحيط به من الجانبين صخور جرانيتية جرداء منحدرة على امتداد منتصف الوادى ، على الجانبين ، يوجد صف من البنايات ، القسم الأكبر منه عبارة عن خرائب ، هذه البنايات من ممتلكات المكيين أو البدو، أقصد بدو قريش، وهذه البنايات يجرى تأجيرها بواسطة المكيين أو البدو ، أو قد يشغلونها طوال أيام الحج الثلاثة ، ثم تترك خالية بقية العام ، وهى الفترة التى لا يسكن أحد خلالها فى منى مطلقًا . بعض هذه البنايات عبارة عن بنايات من الحجر ومكونة من طابقين ، لكن المرمم من تلك البنايات لا يزيد على عشر بنايات بأى حال من الأحوال . فى أقصى الطرف الشرقى من الوادى ، يوجد منزل جيد ، مملوك للشريف الحاكم فى مكة ، ويقيم الرجل فيه طوال أيام الحج الثلاثة . هذا المنزل كان مشغولاً فى ذلك الحين بواسطة زوجات محمد على ؛ فقد عاد الشريف يحيى إلى مكة فور تحلله من ملابس الإحرام ، وكثير من الحجاج يحذون حذو الشريف يحيى ، إذ يعودون إلى مكة على الفور عقب التحلل من ملابس الإحرام ، لكن مهمة هؤلاء الحجاج تتمثل فى العودة إلى منى عند ظهر اليوم الحادى عشر أو الثانى عشر من شهر ذى الحجة ، لكى يرموا الجمار ، لأن إهمال هذا المنسك يجعل الحج ناقصًا وغير مكتمل . والحجاج يمضون بقية هذين اليومين فى أى مكان يروق لهم . وفى مساء يوم الأضحية يعود الحجاج التجار إلى مكة لكى يفكوا ويعرضوا البضاعة التى جلبوها معهم .

فى البرحة الواسعة التى بين منزل الشريف يحيى ومساكن المكيين يقع المسجد الذى يطلقون عليه اسم مسجد الخيف ، هذا المسجد عبارة عن بناية جيدة من الحجر ، وميدان هذا المسجد الفسيح مربع الشكل يحيط به سور عال متين . فى منتصف هذا الميدان توجد عين عامة عليها قبة ، وفى الجانب الغربى حيث يوجد المحراب ،

(*) يقال إن الاسم منى مأخوذ عن آدم ﷺ الذى قال أثناء مقامه فى الوادى ، عندما طلب الله إليه أن يسأله الفضل فرد قائلاً : " أتمنى الجنة " . وبالتالى أخذ هذا المكان اسمه من تلك العبارة . بعض آخر من الناس يقولون : إن الاسم مشتق ، أو مأخوذ من الدم الذى يراق فى يوم الأضحية .

يوجد بهو يضم ثلاثة صفوف من الأعمدة . والمسجد واحد من المساجد القديمة جداً ، وقد أعيد إنشاؤه حديثًا فى عام ٥٥٩ هـ ، وصلاح الدين الأيوبى هو الذى أعاد إنشاء ذلك المسجد ، ولكن قايتباى حاكم مصر هو الذى أعاد بناءه على الشكل الذى هو عليه حاليًا ، وكان ذلك فى عام ٨٧٤ هـ . يقول الفاسى : إن محمدا ﷺ استقبل الوحى مرات عدة عند سفح الجبل الموجود خلف هذا المسجد ، وإن (سيدنا) آدم عليه السلام دفن فى هذا المسجد . بالقرب من مسجد الخيف يوجد خزان للماء ، ونقلاً عن قطب الدين ، فإن هذا الخزان ، أو السبيل جرى إنشاؤه بواسطة قايتباى ، كان ذلك السبيل جافًا تمامًا ، وكان هناك سبيل جاف آخر كانت القافلة السورية تخيم بالقرب منه . افتقار وادى منى إلى الماء يضع أمام الحجاج الفقراء صعابًا كثيرة ؛ كان يجرى جلب بعض الماء من مزدلفة ، أو من خزان مقام خلف وادى منى ، على الطريق المؤدى إلى مكة ، وكانت القربة تملأ نظير أربعة قروش ، وفى زمن الفاسى ، كان هناك خمسة عشر بئراً مالحة المياه فى منى (*) ، ويبدو أن الماء يمكن العثور عليه على أعماق محددة فى سائر أنحاء مكة والمنطقة المحيطة بها ، والمخطط الأرضى المرفق (الخارطة رقم ٢) يوضح ذلك الذى تجدر ملاحظته فى بلدة أو قرية منى .

(*) فى هذا المخطط الرمز ١- hg يشير إلى منزل الشريف . ٢- خيمة محمد على باشا . ٣- خيالة محمد على باشا . ٤- القافلة المصرية . ٥- خيام سليمان باشا وحاشيته . ٦- خيمة أحمد بك قائد الخيالة السورية . ٧- القافلة السورية . ٨- الخيالة السورية . ٩- الجامع الذى يطلق عليه اسم "جامع الخيف" . ١٠- مستودعات أو خزانات مياه كانت جافة فى ذلك الوقت . ١١- مخيم فقراء الهنود ، وفقراء اليمن والزنوج . ١٢- خيام المقاهى . ١٣- بيوت مهدمة يسكنها أهل مكة . ١٤- أول نصب لإبليس (الجمرة الكبرى) . ١٥- منزل الجيلانى التاجر . ١٦- صف من الدكاكين . ١٧- الجمرة الوسطى (النصب الثانى لإبليس) . ١٨- منزل قاضى مكة . ١٩- بهو ذو عقود به دكاكين على الجانبين. ٢٠- مسجد مدمر. ٢١- دكان كبير كان العبيد الأحباش معروضين فيه للبيع. ٢٢- منزل سقّاط أحد التجار الأثرياء فى مكة . ٢٣- مخيم الحجاج الأتراك والبدو، والحجازيين (الأرض كلها هنا غير مستوية وصخرية) . ٢٤- الجمرة الثالثة (أو نصب إبليس الثالث) . ٢٥- صف من دكاكين الحلاقين . ٢٦- الصخرة التى كانت تذبح عليها الأضحيات . ٢٧- درج ممهد على الطريق المؤدى إلى مكة . ٢٨- منزل صغير من منازل الشريف ، يتحلل فيه من ملابس الإحرام . ٢٩- المكان الذى استعد فيه إبراهيم للتضحية بولده وبالقرب منه المكان الذى ولد فيه إسماعيل عليه السلام . ٣٠- جبل زبير .



الخارطة رقم ٢ : مخطط وادي منى ومخيم الحجاج في العام ١٨١٤

منزل الجيلانى أفضل المنازل فى منى ، كان يزدحم دومًا بالزائرين الذين كان يعاملهم معاملة سخيــة وطيبــة . كان منزل القاضى ومنــازل عائلات السقَّاط الغنيــة قريبة من بيت الجيلانى ، وعلى الجانب نفسه من الطريق ، كانت هناك صالة ضيقة طويلة جرى مؤخرًا ترميمها وتجهيزها ، حيث كان يعرض فيها حوالى خمسون من أصحاب الدكاكين الأتراك ومن المكيين بضائعهم . منازل الصف الشمالى كلها مخربة ومهدمة تقريبًا . صف الدكاكين (رقم ١٦) كان مفتوحًا وبلا أبواب . كانت هناك أيضًا مظلات كثيرة جرى إنشاؤها أو نصبها فى وسط الشارع ، وكانت تبيع الأطعمة بكميات وفيرة ، لكن بأسعار عالية .

عند منحدر الجبل فى الناحية اليسرى، والذى يطلقون عليه جبل الزبير ، يوجد مكان يزوره الحجاج ، هذا المكان ، على حد بعض الروايات ، هو المكان الذى دعا فيه إبراهيم ربه أن يسمح له بالتضحية بولده . فى هذا المكان توجد صخرة جرانيتية مشقوقة إلى نصفين ، بفعل سقوط السكين الذى كان فى يد (سيدنا) إبراهيم ، فى اللحظة التى ظهر له (سيدنا) جبريل وأراه الكبش بالقرب منه ، وبعد أن لمس السكين الصخرة انشقت إلى قسمين ؛ ولذلك فإنه من باب تأبين هذه الأضحية يتعين على المؤمنين بعد الانتهاء من الحج ، أن يذبحوا أضحياتهم . لا يتفق المعلقون على الشريعة حول الشخصية التى أراد (سيدنا) إبراهيم التضحية بها ؛ البعض يقولون إنه (سيدنا) يعقوب ، لكن الغالبية تقول : إنه (سيدنا) إسماعيل . وإلى جوار هذه الصخرة مباشرة يوجد تجويف صغير ، يتسع لحوالى أربعة أشخاص أو خمسة ، ويقال إن (ستنا) هاجر قد ولدت فيه (سيدنا) إسماعيل ، وهذا يتعارض تعارضًا صريحًا مع الحديث النبوى الذى يقول : إن (سيدنا) إسماعيل ولد فى سوريا ، وإن أمه هاجر حملته إلى الحجاز ، عندما كان طفلاً يتغذى من صدرها ، لكن التجويف الصغير يدل دلالة واضحة على استبدال منى بسوريا باعتبارها محلاً لميلاد أبى البدو ، وبخاصة أن هذا المكان يدر كثيرًا من عطايا الإحسان على المكيين ، الذين يتحلقون حول المكان ناشرين فيه مناديلهم . وفى المنطقة التى ينتهى الوادى عندها من ناحية مكة ، يوجد منزل صغير للشريف يحيى ، لكى يذبح فيه أضحيته ، ويتحلل فيه من ملابس الإحرام . وقد ذكر أن هناك مسجدًا يسمى مسجد العشرة ، والذى اعتاد

محمد ﷺ الصلاة فيه ؛ هذا المسجد ، قيل إنه يقع في واد جانبي يؤدي إلى جبل النور ، لكني لم أزر هذا المسجد . ونقلاً عن الأزرقي هناك مسجد آخر يدعى مسجد الكبش ، يقع بالقرب من التجويف سالف الذكر ، أما الفاسي فيقول : إنه كان هناك مسجد فيما بين النصب الأول والنصب الثاني لإبليس ، وربما كان ذلك المسجد هو الذي يحمل الرقم ٢٠ في المخطط أو بالأحرى (الخارطة رقم ٢) .

في وادي منى أو في سهل عرفات يحدد لكل قسم من الحجاج المكان الذي يتعين على أفراده التخييم فيه ، لكن المساحة هنا في وادي منى أضيق بكثير من سهل عرفات . الحج المصري ينزل بالقرب من بيت الشريف يحيى ، في المكان الذي نصب فيه محمد علي باشا خيمته ، لتكون بجوار خيالته . كانت هناك قربتان كبيرتان مصنوعتان من الجلد ومملوءتان بالماء بصفة مستمرة ، وموضوعتان أمام خيمته لاستعمال الحجاج . وعلى بعد مسافة قصيرة من هذه الخيمة ، وفي ناحية مسجد الخيف ، نُصبت خيمة سليمان باشا دمشق ، الذي كان خيالته مخيمين على الجانب المقابل من الطريق ، وأمام خيمته كانت هناك عشر قطع من مدافع الميدان التي أحضرها معه من دمشق . كانت ذخيرة سليمان باشا قد انفجرت أثناء سيره في الطريق ، عندما توقفت القافلة في بدر ، وترتب على ذلك الحادث وفاة خمسين فرداً ، لكن محمد علي باشا زوده بذخيرة جديدة ، وراحت المدافع تنطلق في معظم الأحيان ، وكان هناك أيضًا اثنا عشر مدفعًا ميدانيًا موضوعة أمام خيمة محمد علي باشا . كان القسم الأكبر من الحجاج قد خيموا بلا نظام فوق السهل الصخري غير المستوى خلف القرية من الناحية الشمالية . كانت خيام المكيين مرتبة ترتيبًا جيداً ، ولما كان الوقت وقت عيد فقد كان الرجال والنساء والأطفال مرتدين أبهى ثيابهم . عندما أرخى الليل سدوله ، لم يجرؤ الناس على النوم ، تخوفًا من اللصوص الذين يكثر وجودهم في وادي منى ، وكان أحد الحجاج قد جرت سرقته في الليلة السابقة، فقد سرق اللصوص منه ثلاثمائة دولار ، كما سرق البدو من عرفات عدداً كبيراً من الإبل ، وجرى مطاردة اثنين من اللصوص وتم الإمساك بهما ، وجرى إحضارهما أمام محمد علي باشا في منى ، وحكم بقطع رأسيهما ، وبقيت جثتيهما بلا رأسين أمام خيمته طوال أيام ثلاثة ، وعليهما حارس يمنع أصدقاءهما من أخذ الجثتين . العروض التي من هذا القبيل

لا تثير الرعب أو الاشمئزاز في صدور العثمانيين ، بل إن تكرار مثل هذه العروض يغلظ مشاعر العثماني ، وتجعله لا يستشعر عواطف الرحمة والعطف والشفقة . سمعت بدويًا ، وربما كان من أصدقاء القتيلين، عندما كان يقف بالقرب من البدو ، وهو يتعجب قائلاً : " يرحمهما الله ؛ ولكن لعل الله لا يرحم من قتلهما ! " .

كان الشارع الذي يمتد بطول وادي مني ، قد تحول إلى سوق ، وسوق شرقية ؛ كل بوصة من الأرض غير المبنية تحولت إلى مظلة أو حوانيت صغيرة ، بناها أصحابها من الحصير ، أو إلى خيام صغيرة ، جرى تجهيزها على شكل دكاكين . كانت هناك مؤن وتموينات، وسلع من كل الأنواع، جرى إحضارها من مكة إلى وادي مني، وعلى العكس مما يجري في بعض البلاد الإسلامية ، التي تتوقف التجارة فيها في أيام الأعياد ، نجد هنا التجار كلهم، وأصحاب الدكاكين، والوسطاء ، كلهم مشغولون في عملية البيع والشراء . هؤلاء هم التجار الذين جاءوا مع القافلة السورية ، بدءوا مساوماتهم لشراء البضاعة الهندية ، وراحوا يعرضون عينات من السلع التي جلبوها معهم ، والتي كانت مخزنة في مكة . هذا عدد آخر من الحجاج الفقراء ، يصيحون وهم ينادون على بضائعهم الصغيرة ، وهم يحملونها على رءوسهم ويدورون بها في الشوارع ، ونظراً لأن المعاملات المالية والتجارية كانت مقصورة على وادي مني ، فإن اختلاط الشعوب ، واختلاط العادات ، واختلاط السلع ، كان يعد مسألة واضحة وأكثر بروزًا مما هي عليه في مكة (*) .

(*) هذا الحج عند العرب قبل الإسلام كان ، كما هو الحال في كل الأزمان السابقة ، مرتبطًا بسوق كبيرة كانت تعقد في مكة . كانوا يزورون في الشهور السابقة للحج بعض الأسواق المجاورة الأخرى ، وبخاصة سوق عكاظ ، أو بالأحرى سوق قبيلة كنانة ، وسوق المدينة وسوق ذو المجاز ، وأسواق قبيلة هذيل ، وأسواق الحسا ، أو بالأحرى أسواق بني Beni لازد . وبعد أن يمضوا وقتهم في التمتع في تلك الأسواق يعودون إلى الحج في عرفات ، ثم بعد ذلك يعودون إلى مكة ، التي كانت تنعقد فيها سوق كبيرة أخرى (راجع الأزرقي) . أما في عرفات وفي مني ، وعلى العكس من ذلك فقد كان أولئك العرب الوثنيون يمتنعون عن التجارة طوال أيام تجولهم في هذين المكانين ، وأثناء أدائهم للطقوس المقدسة ، ولكن القرآن نهى عن ذلك ، وسمح في آية من آيات السورة رقم ٢ بالاتجار حتى في أيام الحج ، أو شيء من هذا القبيل . (راجع الفاسي)

في عصر اليوم الأول من أيام منى ، تبادل محمد على باشا الزيارات مع سليمان باشا ، وكانت خيالة الرجلين تستعرض أمام خيمتيهما . أمام خيمة سليمان باشا ، كان هناك حوالى أربعون سمبارك (ويصح فيه أيضًا زمبورك) يشدون الانتباه : هؤلاء السمبارك هم رجال المدفعية ، المحمولون على إبل ، ومن أمام كل واحد منهم وصلة متراوحة تمكن من تحريك المدفع بسهولة؛ هذه الوصلة المتراوحة تدور على محور مثبت في مقدمة سرج الجمل . هذا يعنى أن هؤلاء السمبارك يستطيعون إطلاق نيران مدافعهم وهم ركوب ، وأثناء خبب الإبل، ويتحمل الجمل فى هدوء الصدمة الناتجة عن إطلاق المدفع . كانت الخيالة السورية مكونة من حوالى ألف وخمسمائة رجل ، السواد الأعظم منهم من أهل دلهى ، ولم يكن مع الخيالة جندى واحد من المشاة ، وفى هذا اليوم يظهر سليمان باشا ومعه حاشية شديدة الألمعية ؛ كان الحرس الخاص لسليمان باشا يرتدون زيًا مطرزًا مصنوعًا من قماش لامع موشًّى بالذهب ، وكانوا جميعهم ركوب على الرغم من أن فرس الباشا لم يكن مختلفا أبدًا عن خيولهم . وبعد أن تبادل محمد على باشا ، وسليمان باشا الزيارات ، حذا ضباطهما حذوهما ، وسمح لهم بتقبيل أيدى الباشوات ، وهم يتسلمون منهما العطايا المالية ، كل حسب رتبته . كما قام القاضى ، وأغنياء تجار مكة ، وكبار الشخصيات بين الحجاج بتقديم فروض الطاعة والولاء لكل من محمد على باشا وسليمان باشا ، وقد استغرقت كل زيارة من تلك الزيارات خمس دقائق تقريبًا . يزاد على ذلك، كان هناك جمع كبير من الناس ، قد تجمع على شكل شبه دائرة حول خيمتى الباشايين مفتوحتى البابين ، لمشاهدة طلعة الباشوات البهية. فى فترة العصر، تقدمت مجموعة من الحجاج الزنوج ، بقيادة واحد منهم ، وشقوا طريقهم خلال الحشد الجماهيرى ، واتجهوا مباشرة ناحية سليمان باشا ، (الذى كان جالسًا يدخن على انفراد فى الجزء الخلفى من الخيمة) وتشجعوا وألقوا عليه التحية ، وتمنوا له السعادة والحج المقبول ، وحصلوا مقابل ذلك على شىء من العملات الذهبية . وقام هؤلاء الزنوج بعمل التجربة نفسها مع محمد على باشا، لكنهم حصلوا فى المقابل على ضربات على ظهورهم من ضباط محمد على ، كان من بين الأشياء التى استرعت انتباه الجموع الكبيرة ذلك الحنطور الخاص بزوجة

محمد على باشا ، والذى كان يقف فى مدخل بيت الشريف . كانت تلك الزوجة قد نقلت ذلك الحنطور على ظهر المركب الشراعي إلى جدة ، ثم استقلته من جدة إلى مكة وعرفات ، وكان ذلك الحنطور يخفى شخصها تمامًا ؛ كان حصانان يجران ذلك الحنطور ، وقد شاهده الناس مرارًا بعد ذلك فى شوارع مكة .

كان الوادى كله عامرًا بالأضواء أثناء الليل؛ إذ كان كل منزل وكل خيمة مضاءة ؛ كانت الأضواء ساطعة أمام خيمة محمد على باشا وأمام خيمة سليمان باشا، فى حين شب البدو نيرانهم على قمم الجبال. واستمرت الضوضاء الناتجة عن دانات المدافع طوال الليل، وجرى تقديم عروض الألعاب النارية ، وأطلق المكيون صواريخ الألعاب النارية .

مضى ثانى أيام العيد فى منى مثل اليوم الأول تمامًا ، لكن رائحة جثث الأغنام المتحللة فى بعض أنحاء الوادى كانت لا تطاق ، والسبب فى ذلك أن قلة قليلة من الحجاج الأثرياء هم الذين يستطيعون استهلاك لحوم الأضحيات التى يذبحونها ، يضاف إلى ذلك أن أتباع المذهب الحنفى لا يسمح لهم إلا بأكل ثمن الضحية فقط . هذا يعنى أن القسم الأكبر من الأضحية يذهب لفقراء الحجاج ، أما أحشاء الضحية وأمعائها فيجرى الإلقاء بها فى سائر أنحاء الوادى وفى الشارع . وكان يجرى استخدام الزنوج والهنود فى تقطيع اللحم إلى قطع صغيرة ، وتقديده لكى يستعملوه فى رحلة العودة (*) .

(*) كانت تلك هي القاعدة المتبعة فى القرن السادس عشر ، أثناء حكم السلاطين لمصر ، وقد سرت هذه القاعدة أيضًا على سلاطين القسطنطينية ، وكانت تلك القاعدة تقضى بتزويد فقراء الحجاج بالطعام فى وادى منى على حساب الخزانة الملكية . وقد تميز العرب الوثنيون أثناء الحج بكرمهم السخى ، كما أن الكثيرين من هؤلاء البدو ، عندما كانوا يقومون بأداء فريضة الحج ، كان يجرى استقبالهم وإكرام وفادتهم من قبل الخيام التى يمرون عليها ؛ هؤلاء البدو يكونون مستعدين من قبل لمثل هذه الاستقبالات ، بتجهيز كميات كبيرة من الطعام . (راجع قطب الدين) . من بين العجائب التى تميز وادى منى عن الوديان الأخرى ، على حد قول المؤرخ الفاسى ، أن وادى منى يمدد أبعاده بين الحين والآخر لكى يستوعب أى عدد من الحجاج ، إلى حد أن النسور فى يوم الأضحية لا تجرؤ على حمل الحملان المذبوحة ، تاركة إياها للحجاج الفقراء ، وأنا على الرغم من كثرة كميات اللحم النيئ ، فإن الذباب لا يضايق أحدًا من زوار وادى منى . وأنا أقول إن هذه الملاحظة الأخيرة غير دقيقة فقد خبرت بنفسى وجود الذباب فى وادى منى .

اليوم أدى كثير من الحجاج صلواتهم فى مسجد الخيف ، الذى وجدته مزدحمًا بالهنود الذين اتخذوا من أركانه مقامًا لهم . كان رصيف الشارع عامرًا بالجيف المتناثرة ، وعلى الحبال المنتشرة بين الأعمدة كان الناس يعلقون قطع اللحم طلبًا لتقديدها . كان المنظر والرائحة يثيران الاشمئزاز ، وبدا علىَّ كثير من الاندهاش جراء السماح بمثل هذه الممارسات . على العموم ، يرى كثير من الحجاج الأجانب كثيرًا من الممارسات غير المحسوبة الأمر الذى لا يوحى لهؤلاء المكيين بإضفاء المزيد من الاحترام والتقدير على الأماكن المقدسة فى دينهم ، وعلى الرغم من أن بعض المكيين يحتفظون بحماسهم الدينى كاملاً ، فإن بعضًا آخر منهم يفقدون هذا الحماس بسبب ذلك الذى يشاهدونه فى موسم الحج . فقدان هذا الاحترام للدين ، هو والممارسات المخزية التى يضفى عليها تكرارها شيئًا من الشرعية فى المدينة المقدسة ، هما اللذان يمكن أن نعزى إليهما تلك الأمثال التى تصف الحجاج بقلة التدين ، وبعدم الوثوق فى أشخاصهم ، وذلك على العكس من الناس الآخرين . لكن أرضنا المسيحية المقدسة معرضة لشىء من الانتقاد كذلك ، جراء بعض الممارسات التى من هذا القبيل . السواد الأعظم من المسلمين المتشددين يقرون وجود مثل هذا الشر ، ويعربون عن ندمهم لوجوده ، ويؤكدون أنهم أصحاب بصيرة أو أكثر إخلاصًا من شاتوبرياند ذلك الحاج المسيحى (*) .

عند ظهر اليوم الثانى عشر من شهر ذى الحجة ، وعقب رمى الإحدى والعشرين حصوة الأخيرة مباشرة ، غادر الحجاج وادى منى ، وعادوا عن طريق الوادى إلى مكة (المكرمة) ، وهم يرفعون أرواحهم المعنوية بترديد الأغانى والأهازيج ، والحوارات الطويلة والضحك ؛ وذلك على العكس من الوجوم الذى كان يخيم على الجميع وهم يتقدمون صوب هذا المكان قبل أربعة أيام . والحجاج عندما يصلون إلى مكة يتعين

(*) ربما كانت دوافع مونس شاتوبرياند دوافع سياسية عندما أورد فى مذكراته اليومية صورة زاهية الألوان عن فلسطين وقساوستها ، لكنه بوصفه رحالاً لابد من توجيه اللوم إليه فى ابتعاده عن الحقيقة ، وإساءة تصويره تمامًا للحقائق التى حصل عليها عن طريق الملاحظة .

عليهم زيارة الكعبة ، التي يكون قد جرى تغطيتها بالكسوة الجديدة التي جرى إحضارها من القاهرة ، ويطوف الحجاج سبعة أشواط حول الكعبة ، ثم يقومون بعد ذلك بالسعى بين الصفا والمروة . وهذا الطواف يطلق عليه اسم طواف الإفاضة . ثم يرتدى الحاج ملابس الإحرام بعد ذلك لزيارة العمرة وبعد العودة من العمرة ، يقوم الحاج بالطواف والسعى ، وبذلك يكون الحج قد انتهى .

من هنا يتضح أن النسك الرئيسية التى ينطوى عليها الحج هى : ١) ارتداء ملابس الإحرام . ٢) حضور خطبة عرفات اعتباراً من عصر اليوم التاسع من ذى الحجة إلى غروب الشمس . ٣) حضور خطبة مماثلة فى مزدلفة ، عند شروق شمس اليوم العاشر من ذى الحجة . ٤) فى الأيام العاشر والحادى عشر والثانى عشر من ذى الحجة ، يجرى رمى إحدى وعشرين حصوة كل يوم ، بواقع سبع حصوات على كل نصب من نُصب الشيطان الثلاثة فى وادى منى . ٥) ذبح أضحية فى منى ، أو استبدالها بالصوم فى فترة لاحقة إذا ما كان الحاج فقيراً . ٦) عقب العودة إلى مكة ، يقوم الحاج بزيارة الكعبة والعمرة . والشرع له كثير من المفارقات اللطيفة ، كما يزيد أيضاً عدد القواعد التى يسترشد بها الحاج فى كل خطواته ، إلى الحد الذى يجعل قلة قليلة من الحجاج هم الذين ينفذونها ويواظبون عليها ، ولكن نظراً لعدم وجود سلطة لمراقبة الطقوس والنسك أثناء أداء فريضة الحج ، فإن كل حاج من الحجاج يكون سيد نفسه ، ويطلق على نفسه لقب حاج ، سواء أدى أو لم يؤدِ تلك النسك أداء ملتزماً . يكفى الحاج أن يكون حاضراً على جبل عرفات فى الوقت المحدد لذلك ، وهذه هى أقل المفارقات ، لكن الزيارة وحدها لمكة لا تعطى الزائر حق إطلاق لقب حاج على نفسه ، يزاد على ذلك أن إطلاق الرجل لهذا اللقب على نفسه فى غياب بعض المظاهر يعرضه للسخرية والانتقاد ، يزاد على ذلك ، أن مكة على العكس من القدس ، لا تصدر صكوكًا رسمية بالحج ، لكن كثيراً من الناس يشترون بعض الرسوم الصغيرة لمدينة مكة ، ومناطق أخرى منها ، ومرفق بها شهادة من أربعة أشخاص أن حملة هذه الرسوم هم حجاج حقيقيون، وإذا ما صادف اليوم التاسع من ذى الحجة ، أو بالأحرى يوم الوقفة أن يكون جمعة ، فذلك يكون من باب حظ الحجاج وسعدهم .

بعض الحجاج يتطلعون إلى الحصول على لقب " خادم المسجد " أو بالأحرى خادم الجامع ، وهذا يكلف الحاج مبلغ ثلاثين دولارًا ، ونظير هذا المبلغ ، يحصل الحاج على ورقة ، تضفى هذا اللقب على طالبها ، ويتسلمها المشترى موقعة من كل من الشريف والقاضى . ومسألة السماح ، حتى للمسيحيين بالحصول على امتياز تسميتهم باسم خدم المسجد ، مسألة شائعة ويعرفها الجميع ، والذين يسعون إلى شرف الحصول على هذه الشهادة هم السكان الإغريق الذين يسكنون جزر الأرخبيل وشواطئها ، وهذه الشهادة لها قيمتها واحترامها عند السواد الأعظم من المغربيين المتشددين عندما يأسر القراصنة من البربر هؤلاء اليونانيين . لقد شاهدت قبطانًا يونانيًا يحصل على شهادة من هذا القبيل لقاء مائتى دولار ؛ كان ذلك اليونانى يقود قاربًا من قوارب " الدهو " الخاصة بمحمد على باشا ، وهو حاليًا فى طريق عودته إلى بلده ، كان الرجل يشعر بالسعادة والرضا لأن هذه الشهادة سوف تؤمن أية سفينة من السفن التى سيقودها بعد ذلك فى الأرخبيل من أخطار القراصنة . لقب خادم هذا ، كانت له فى الأزمان السابقة أهمية أكثر من أهميته الحالية ، وأنا أقرأ عند كثير من مؤرخى مكة (المكرمة) كثيرًا عن الشخصيات العظيمة التى تضيف ذلك اللقب إلى أسمائها .

بعد عودة الحج من منى يتحول الشارع الرئيسى فى مكة إلى مكان يصعب أو يستحيل تجاوزه بسبب الجماهير الحاشدة المتجمعة فيه ، وهنا يقوم تجار الحج السورى باستئجار بعض الدكاكين ، ويستفيدون منها إلى أقصى حد خلال فترة قصيرة ، يحصلون عليها على سبيل الهدية لكى ينجزوا معاملاتهم التجارية . من هذا الشارع يقوم الحجاج بشراء المؤن والتموينات اللازمة لرحلة العودة ؛ وهنا نجد أن السعى إلى المكسب يتملك العقول كلها ، من الأكابر إلى الأصاغر . جرت العادة أن تغادر قافلتان مكة (المكرمة) فى اليوم الثالث والعشرين من ذى الحجة ، بعد أن تكونا قد أمضيتا عشرة أيام فى المدينة . فى بعض الأحيان يجرى التغلب على قائدى هاتين القافلتين بواسطة التجار ، الذين يدفعون ثمنًا عاليًا ، لقاء تأخير انطلاق القافلة أيامًا

قلائل ، لكن التجار لم يلجأوا إلى هذه الحيلة فى هذا العام ، نظراً لقيام محمد على باشا بتأخير قيام القافلة ، بحكم أنه كان يستعد لتجريد حملته على الوهابيين ، مما جعله يفكر فى استخدام حوالى اثنى عشر ألف جمل من الحج السورى للقيام برحلتين إلى جدة ، ثم رحلة إلى الطائف لنقل المؤن والتموينات . فيما يتعلق بالقافلة المصرية ، التى سبق أن قلت إنها كانت خلواً من الحجاج ، فقد احتجزها محمد على باشا بكاملها ، وأصدر أوامره للخيالة كلهم ، وللإبل التى رافقت القافلة ، بالمشاركة والمساعدة فى الحملة المنتظرة . وأعيد المحمل عن طريق البحر إلى مدينة السويس ، وهذا أمر لم يحدث من قبل ، وبذلك لم تغادر القافلة السورية مكة قبل اليوم التاسع والعشرين من شهر ذى الحجة ، وقد أدى العمل المستمر الذى قامت به إبل القافلة السورية ، إلى إضعاف تلك الإبل تماماً ، الأمر الذى أسفر عن نفوق أعداد كبيرة من تلك الإبل على الطريق أثناء رحلة العودة عبر الصحراء . يضاف إلى ذلك أن الإبل غير المحملة التى كانت تغادر مكة (المكرمة) قاصدة جدة على مدار الساعة ، سهلت الرحلة على أولئك الحجاج الذين كانوا يودون العودة إلى بلادهم عن طريق البحر .

بعد أن بلغنى أن الدعم المالى الذى طلبته من القاهرة عندما وصلت إلى جدة ، وصل بالفعل إلى جدة ، ركبت جملاً أثناء الليل قاصداً جدة التى بقيت فيها حوالى ستة أيام أو سبعة ، وشاهدت فى ذات الوقت أولئك الحجاج الذين كانوا يتوافدون على جدة يومياً عائدين من مكة ، وكانوا يخيمون فى سائر أنحاء جدة ، التى أصبحت مزدحمة تماماً مثلما كانت مكة من قبل . من بين السفن التى كانت فى الميناء ، تنتظر ركوب الحجاج على ظهورها ، كانت هناك سفينة تجارية وصلت مؤخراً قادمة من بومباى ، وكانت مملوكة لأحد البيوت الفارسية فى منطقة الرياسة ، وكان يقودها قبطان إنجليزى الذى قصد جدة على العكس من الرياح التجارية فى تلك الفترة المتأخرة من ذلك الموسم . أمضيت ساعات لطيفة بصحبة القبطان بوج ، على ظهر سفينته ، وندمت لأن مشاغلى حتمت علىَّ الافتراق عن هذا القبطان . كان أوروبيان آخران قد وصلا إلى جدة فى ذلك التاريخ أيضاً ، عن طريق القاهرة ؛ أولهما رجل إنجليزى كان متجهاً

إلى الهند ، أما الثانى فكان طبيباً ألمانياً ، من مواليد هانوفر ، كما كان باروناً أيضاً ، وقد أدى سوء طالعه وحظوظه النكدة إلى مغادرة الرجل لوطنه ، وفى رأسه فكرة ممارسة الطبابة فى جدة ، أو مواصلة سيره إلى مدينة المخا فى اليمن ، لكنه لم يكن قد عقد العزم على شيء محدد ، يزاد على ذلك أن الرجل كان صاحب فكر مستقل وشخصية مستقلة لا تقبل النصح أو المساعدة . تركت هذا الرجل في جدة عندما عدت إلى مكة ، وعرفت بعد ذلك أنه توفى فى شهر مارس فى جدة بسبب الطاعون ، وأن اليونانيين فى جدة هم الذين دفنوه فى إحدى الجزر فى الميناء .

عندما عدت إلى مكة ، فى حوالى اليوم الثامن أو التاسع من شهر ديسمبر ، لم أر الجماهير أو الحشود البشرية التى سبق أن رأيتها هناك ، لكن أعداد الشحاذين تزايدت وتزايدت أيضًا متاعبهم ومضايقاتهم ، الأمر الذى دفع الكثيرين من الحجاج إلى البقاء فى منازلهم طوال اليوم ، تجنبًا لتلك المتاعب والمضايقات . هؤلاء الشحاذين كانوا يستجدون الناس الصدقات التى تمكنهم من العودة إلى بلادهم ، وقد تزايد عدد هؤلاء نظرًا للعدد الكبير من الحجاج المحترمين الذين أنفقوا نقودهم أثناء الحج . كنت قد انتويت الالتحاق بالقافلة السورية عندما أعود إلى مكة ، إلى أن أصل المدينة (المنورة) ، وعليه ومن باب محاكاة بعض الحجاج السوريين الذين كانوا وصلوا مكة قبل وصول القافلة ، اتفقت مع بدوى من قبيلة حرب على استئجار اثنين من إبله ، وعلى الرغم من أن السواد الأعظم من الحجاج ، يقومون ، بعد أداء فريضة الحج ، بزيارة قبر محمد ﷺ فى المدينة المنورة فإنهم يرافقون القافلة السورية ، وذلك بالاتفاق مع بعض المقومين على تحمل كل مصاريف الطريق وأعبائه ، لكن يفضل لأسباب كثيرة ، السفر بصحبة البدو بدلاً من أهل الحضر ، وبخاصة فى الطرق التى تمر عبر أراضى البدو ، لكن وقع حادث حال بينى وبين التصرف على هذا النحو .

ولما كانت القافلة قد استعدت للرحيل في اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر ، فقد حزمت أشيائى فى الصباح ، وسمعت صوت المدفع ينطلق عند الظهر ، إعلانًا بأن سليمان باشا قد غادر سهل الشيخ محمود ، الذى كانت تخيم فيه القافلة ، ومع ذلك

لم يكن المرافقون لى قد جاءوا بعد . جريت فى اتجاه سهل الشيخ محمود ، عندما فهمت أن شائعة ، لا أعرف إن كانت صادقة أم كاذبة ، مفادها أن محمد على باشا كان ينتظر تجمع الإبل كلها فى الصباح فى السهل ، ثم يقوم بعد ذلك بالاستيلاء عليها كلها وإرسالها إلى الطائف ، الأمر الذى حدا بكثير من البدو إلى الهرب بإبلهم أثناء الليل ؛ كان واضحًا أن هؤلاء الذين سبق أن اتفقت معهم كانوا من بين أولئك الذين هربوا أثناء الليل ، وفى عجلة الرحيل وفوضاه يستحيل العثور على الإبل ، واضطررت بعد ذلك إلى العودة إلى مكة ، بصحبة كثير من المكيين ، الذين خاب أملهم بالطريقة نفسها .

فى لحظة انطلاق القافلة الدمشقية ، يقوم قائدها بتوزيع بعض المؤن والتموينات على الفقراء . كان سليمان باشا قد أعد لهذه المناسبة ما يقرب من حمولة مائتى جمل بالقرب من خيمته ، وبعد أن ركب سليمان باشا حصانه بعد الإشارة المتفق عليها ، قام المنتظرون بالاستيلاء على هذه الكمية من المؤن والتموينات ، وساد هرج ومرج وفوضى شديدة ، وقامت مجموعة من الزنوج المسلمين بالعصى والهراوات بالاستيلاء على القسم الأكبر من هذه المؤن والتموينات .

جرت العادة أن تتوقف قافلة الحج السورية مدة يومين أو ثلاثة، فى رحلة عودتها، فى وادى فاطمة ، الذى يعد المحطة الأولى بعد الانطلاق من مكة ، وذلك حتى يمكن إطلاق الإبل ترعى بعض الوقت فى المراعى الطيبة المجاورة للوادى ، لكن سليمان باشا الذى لم يكن يثق كثيرًا بمحمد على باشا ، ومن باب تخوفه من أن يطلب الرجل المزيد من إبل القافلة ، واصل المسير مسافة محطتين أخريين ، وبذلك يكون قد تجاوز وادى فاطمة ، وبذلك خيب الرجل آمال الكثيرين من أصحاب الدكاكين المكيين الذين كانوا يعقدون آمالهم على إقامة سوق للقافلة فى ذلك التوقيت . وقد أصاب الهذيان الباشا أثناء الرحلة ، وقد وُضع الرجل تحت حراسة ضباطه ، قبل وصوله إلى دمشق ، لكنه أفاق من ذلك الهذيان عندما وصل إلى دمشق ، غير أنه توفى بعد ذلك بفترة قصيرة .

اضطررت إلى البقاء في مكة شهراً كاملاً بعد رحيل الحج ، رحت أنتظر خلاله تهيؤ الفرصة التي تسنح لي بالسفر إلى المدينة المنورة . كان بوسعي السفر بسهولة عن طريق البحر من جدة إلى ينبع ، لكني فضلت الرحلة البرية . في تلك الفترة كان أهل الحجاز يستشعرون القلق من ناحية محمد علي باشا ، الذي كان يعد العدة للانطلاق من مكة ، بحملته التي يقودها هو شخصياً ضد الوهابيين . كان أهل الحجاز يعرفون أنه إذا ما فشلت حملة محمد علي ، فإن بدو الحجاز سيعودون إلى ممارساتهم المفضلة ويقطعون الطريق المؤدي إلى المناطق الداخلية ، في وجه الرحالة جميعهم ، وقد تعلم بدو الحجاز من التجارب التي مروا بها ، أن الوهابيين إذا ما استولوا على بلاد الحجاز مرة ثانية ، فإن مدينة مكة نفسها لا يمكن أن تنجو من السلب والنهب . كل هذه الاعتبارات أدت إلى تأخير القوافل المتجهة إلى المدينة المنورة . المعروف أن قافلة قوية تغادر مكة في اليوم الحادي عشر من شهر المحرم ، (الذي يصادف اليوم الثاني من شهر يناير من العام ١٨١٥ هذا العام) أي في اليوم التالي لفتح الكعبة ، الذي يصادف دوماً اليوم العاشر من شهر المحرم ، أو بالأحرى اليوم الذي يطلقون عليه اسم العاشور . في أواخر شهر ديسمبر ، أصاب السكان الذعر نتيجة لتقرير زائف عن وصول القوة الوهابية ، من ناحية الطريق الساحلي ، قادمة من الجنوب . وعقب الأيام الأولى من شهر يناير من عام ١٨١٥ م انطلق محمد علي باشا بحملته من مكة . والتقى الجيش الوهابي ، في بيسيل بعد ذلك بأربعة أيام ، في المنطقة المجاورة للطائف ، والتي أحرز فيها محمد علي باشا نصراً كاملاً سبق أن أوردت تفاصيله في موقع آخر من هذا الكتاب ، وما إن بلغ هذا الخبر مدينة مكة حتى قامت القافلة المتجهة إلى المدينة المنورة واستأنفت مسيرها في اليوم الخامس عشر من شهر يناير من العام ١٨١٥ الميلادي .

بعد رحيل الحج السوري، وبعد عودة القسم الأكبر من الحجاج المتبقين إلى جدة ، انتظاراً لفرصة تسنح لهم بالإبحار من جدة عائدين إلى بلادهم، بدت مكة كما لو كانت مدينة هجرها سكانها . ولم يتبق من دكاكينها سوى الربع فقط ، ولم يعد يرى في شوارع مكة حتى ولو مجرد حاج واحد من أولئك الحجاج الذين كان يتحتم على الماشي

فى الشـارع أن يشق طريقه عنوة عبـر هذه الجمـوع ، لم يتبق فى مكة سـوى بعض الشحـاذين الذين كـانوا يرفـعون أصـواتهم فى اتجـاه المنازل التى كانوا يظنون أنهـا مـازالت عـامرة بالسكان . كانت الزبالة والنفايات تغطى الشوارع ، ولم يكن أحد يود رفع هذه النفـايات . كانت أطراف المدينة عـامرة بجثث الإبل النافقة ، وكانت الرائحة المنبعـثة منها ، تجعل الهـواء نفاذًا وخـانقًـا حتى فى وسط المدينة ، الأمـر الذى أسـهم بالقطع فى انتشار الأمراض السائدة فى هذه المدينة . كانت جثث متعددة ملقاة بالقرب من مستودعات الحج ، وكان العرب الذين يسكنون فى هذه المنطقة من مكة لا يجرؤن على الخروج منها دون أن يدسوا فى أنوفـهم قطعًا صـغيرة من القطن ، وكانوا يحملون هذه القطع مربوطة إلى خيوط تتدلى من أعناقهم (*) . لم يكن ذلك نهاية المطاف ؛ نظرًا لأن المكيـين يبدءون فى ذلك الوقت نزح مـجارير وطرنشـات منـازلهم ، ويتكاسلون على نحـو يجـعلهم لا يحـملون تلك الفـضـلات الآدمـية إلى مـا وراء أطراف المدينة ، وإنما يكتفون بحفر حفرة فى الشارع ليضعوا فيها تلك الفضـلات الآدمية ، وغالبًا مـا تكون هذه الحفر أمـام أبواب المنازل ، ثم يغطون تلك الحفـر بطبقة من التراب والطين ، ومن السهولة بمكان تخيل النتائج التى يمكن أن تترتب على ذلك .

تبدأ فى ذلك الوقت احتفالات الختان ؛ إذ يجرى الاحتفال بهذه المناسبة بعد الحج مبـاشرة ، أى عندما يخلو المكيون لأنفسهم ، وقبل أن ينفق الناس المبالغ التى جمـعوها من مـوسم الحج ، لكنى شـاهدت طقوس أكـثر من موكب للمـختتنين . هذه أعـداد من الحجـاج ، الذين أصابهم الإعياء بسبب الطريق ، أو جراء الإصـابة بالبرد نتيجة ارتداء مـلابس الإحـرام ، كل هــؤلاء كـانوا عـاجـزين عن مـواصلة رحلة العـودة إلى بلادهـم ،

(*) العرب بشكل عام ، بل وحتى البدو أكثر حساسية من الأوروبيين لأقل قدر ممكن من الرائحة النفاذة ، ولعل هذا هو السبب الرئيسى وراء عدم دخول البدو أية بلدة من البلدان ، بدون كمامة أو لثام ، يضعونه على أنوفـهم . والعرب والبدو لديهم اعتقـاد مفاده أن الروائح الكريهة تؤثر على الصحة وذلك عن طريق الدخول من فتحتى الأنف إلى الرئتين ، ولعل هذا ، دونًا عن الإحساس الناتج عن تشمم الرائحة الكريهة ، هو السبب الرئيسى وراء تغطية البدو لأنوفهم بأطراف عمائمهم ، أثناء مرورهم فى الشوارع .

هذا يعنى أنهم يبقون فى مكة أملاً فى استعادة صحتهم وقوتهم ، لكنهم يلقون ربهم هنا فى أغلب الأحيان ، وإذا ما كان لهم رفيق أو قريب معهم ، فإنه يحمل معه متعلقات الميت ، نظير دفع أتعاب للقاضى والشريف باعتبارهما وارثى هذا الميت ، يضاف إلى ذلك أن هذه الموروثات تكون غير ذات بال . وأنا عندما غادرت مكة ، كان لا يزال فيها حوالى ألف حاج ، كان الكثيرون منهم يودون تمضية عام كامل فى المدينة المقدسة ، ويحضروا موسم الحج فى العام التالى ، بعض آخر من هؤلاء الحجاج يمددون إقامتهم لشهور قلائل فقط .

عند مغادرة مكة ، يجب القيام بطواف الوداع والسعى بين الصفا والمروة . والحجاج يقومون بهذين المنسكين عندما يستعدون للرحيل ، بعدها يركبون إبلهم ، وفى هذه اللحظة تكون فريضة الحج قد انتهت .

الرحلة من مكة إلى المدينة (المنورة)

فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٨١٥ م ، تركت مكة مع قافلة صغيرة من قوافل الحجاج المتجهين لزيارة قبر النبى ﷺ : كانت القافلة مكونة من خمسة عشر جملاً ، مملوكة لبعض بدو قبيلة الريشه وقبيلة زبيد : الذين يؤثرون مصاحبة إبلهم بأنفسهم ، أو يرسلوا معها عبيداً بدلاً عنهم . كنت قد استأجرت جملين أحدهما لنقلى والآخر لنقل عبدى ومعه أمتعتى وعفشى ، وكما هى عادة الحجازيين دفعت الأجر مقدمًا ، بواقع مائة وثمانين قرشًا للجمل الواحد . وقد صحبنى إلى خارج المدينة دليلى السياحى ، الذى كنت راضيًا عنه تمامًا ، على الرغم من عدم خلوه من الرذائل سالفة الذكر ، صحبنى الرجل إلى سهل الشيخ محمود ، الذى تجمعت فيه الإبل ، والذى انطلقت القافلة منه عند الساعة التاسعة مساء . الرحلة إلى المدينة شأنها شأن الرحلة من مكة إلى جدة ، تجرى أثناء الليل ، الأمر الذى يجعلها أكثر فائدة للمسافر ، لكنها فى فصل الشتاء تكون أقل راحة عن رحلات النهار .

بعد أن تقدمت القافلة مسير ساعة وربع الساعة (*) ، تجاوزنا منطقة العمرة ، والطريق في هذه المنطقة ممهد في بعض أجزائه باستعمال الأحجار الكبيرة ، وبخاصة في المطالع . مررنا خلال وديان من الرمل الثابت ، بين سلاسل غير منتظمة من التلال المنخفضة ، التي تنمو فيها بعض الأعشاب وبعض أشجار السنط . كان الطريق مستويًا ، باستثناء مسافات قصيرة قليلة منه .

بعد خمس ساعات من مغادرتنا مكة ، مررنا على مبنى مخرَّب يطلقون عليه اسم الميمونية ، يحتوى على رفات أحد الأولياء ، وكانت قبة هذا القبر قد دمرت بواسطة الوهابيين . يوجد بالقرب من هذا القبر بئر ماء يسر ، وبركة أو إن شئت فقل خزان مبني من الحجر ، وكان هناك منزل صغير ملحق بالقبر يستعمله المسافرون . خلال الساعات الست الأولى من سفرنا من مكة كان الطريق يتجه صوب الشمال الغربي ، إلى أن وصلنا إلى تل منحدر يتعذر على القوافل تجاوزه ، ولذلك يممنا وجهنا شطر أقصى الشمال الغربي إلى وادي فاطمة ، الذي وصلناه بعد مسير دام ثماني ساعات من مكة ، أي مع بزوغ خيوط الفجر الأولى .

في اليوم السادس عشر من شهر يناير . نزلنا في المكان الذي تستريح فيه قوافل الحج في اليوم السابق لوصول هذه القوافل إلى مكة ، وهذا المكان في جزء من أجزاء وادي فاطمة، ويطلقون عليه اسم وادي الجموم . وادي فاطمة عبارة عن أرض منخفضة ، تكثر فيها عيون الماء والآبار ، يمتد شرق شمال شرق إلى مسافة تقدر بمسير أربع ساعات أو خمس إلى أن يكاد يتصل بوادي الليمون . والناس يطلقون هنا على الطرف الغربي من وادي فاطمة اسم مدوع . وإلى الغرب من المكان الذي قصدناه للراحة ، نجد أن وادي فاطمة ينتهي بعد مسير ساعة ونصف الساعة ؛ إذ يبلغ إجمالي طول وادي فاطمة حوالي مسير ست ساعات. والجانب الغربي من وادي فاطمة هو بمثابة المزارع الرئيسية ، ومن الناحية الشرقية لا يزرع من الوادي سوى بعض المناطق

(*) كنت قد اشتريت ساعة من مكة ، كما حصلت أيضًا على بوصلة جيدة من السفينة الإنجليزية في جدة .

القليلة ؛ كان الوادى من ذلك الجانب يمثل سهلاً يصل عرضه إلى أميال عدة ، تغطيه الأعشاب ، وتحيط به من الجانبين تلال جرداء مرتفعة ، لكن الطرف الشرقى من الوادى يقال إنه متزرع زراعة جيدة . وادى فاطمة هذا له أسماء مختلفة فى كثير من أجزائه ، ولكن أهل جدة وأهل مكة يعرفون وادى فاطمة باسم الوادى ليس إلا . المؤرخون العرب يطلقون عليه اسم وادى مَر . وفيما بين وادى فاطمة وهدا ، (المحطة التى يطلق عليها هذا الاسم فى طريق جدة) يوجد المكانان اللذان يسميان السراوات والركانى . (راجع العصمى)

الأراضى المنزرعة من وادى فاطمة مكونة فى الأصل من أراضى النخيل ، التى تزود أسواق المدن المجاورة بالتمور ، وبالخضروات التى تنقل أثناء الليل فى قفف صغيرة على ظهور الحمير إلى مكة وجدة . كما يزرع القمح والشعير أيضاً بكميات صغيرة فى وادى فاطمة ، ولما كان الوادى عامراً بالمياه ، فذلك يرجع أنه أكثر إنتاجاً مما هو عليه فى الوقت الراهن ، ومع ذلك فإن أهل الحجاز لا يميلون عموماً إلى العمل اليدوى . بالقرب من المكان الذى نزلنا فيه ، يجرى نهير صغير ، ينساب من ناحية الشرق ، ويصل عرضه إلى حوالى ثلاثة أقدام وعمقه حوالى قدمين ويجرى فى مجرى تحت سطح التربة ، ومغلف بالحجر المكشوف أو غير المغطى لمسافة قصيرة ، وهذه هى المنطقة التى تأخذ القوافل منها احتياجاتها من الماء ، الذى هو أكثر فتوراً من ماء زمزم فى مكة ، كما أن مذاقه أفضل كثيراً من مذاق ماء زمزم . بالقرب من هذا النهير توجد بنايات إسلامية عدة مهدمة ، كما يوجد خان كبير أيضاً ، ونقلاً عن الفاسى ، كان يوجد من قبل فى هذه المنطقة مسجد اسمه مسجد الفتح. وفيما بين نخيل التمور توجد بعض أكواخ العرب ، يقيم فيها المزارعون الذين يعملون فى هذه الأرض ، وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى قبيلة اللهيّان ، وأكثر هؤلاء الناس ثراء ينتمون إلى قبيلة أشراف مكة ، الذين يطلق عليهم اسم ذوى بركات ، الذين يعيشون فى هذه المنطقة عيشة البدو فى خيام وأكواخ. هؤلاء المزارعون لديهم أعداد صغيرة من الماشية، وأبقار هؤلاء المزارعين صغيرة الحجم مثل أبقار أهل الحجاز ، ولكل بقرة منها سنام

على كتفها . ويتميز وادى فاطمة أيضًا بأشجار الحناء التى تنمو بأعداد كبيرة ، ولهذه الأشجار زهور جميلة طيبة الرائحة ، يجرى طحنها إلى مسحوق يستعمله أهل الشرق فى صبغ أكفهم وكعوب أقدامهم ، أو أظافر أصابعهم وأرجلهم . والحناء التى تجلب من وادى فاطمة يجرى بيعها الحجاج فى مكة فى أكياس صغيرة مصنوعة من الجلد ، ويصطحب بعض الحجاج شيئًا من هذه الحناء معهم إلى أوطانهم ، ليقدموها هدية لأقاربهم من النساء . وأنا أرى أن المرجح هو أن آل عاد الذين ورد ذكرهم عند بطليموس كانوا يسكنون هذا الوادى (وادى ، عاد) .

اكتشفنا فى المكان الذى توقفنا فيه جماعة تضم حوالى عشرين خادمًا وجمالاً ممن ينتمون إلى الجيش التركى فى مكة ، والذين غادروا هذا المكان سرًا هربًا من الخطر الذى فرضه محمد على باشا على الأشخاص الذين ينطبق عليهم وصف هؤلاء القوم . كانت هذه الجماعة بلا مؤن أو تموينات ، ولم يكن معهم من المال شىء ، لكنهم عندما علموا أن هناك قافلة سوف تتجه إلى المدينة (المنورة) ، رأوا أن بوسعهم مرافقة تلك القافلة إلى المدينة (المنورة) أيضًا . بعض أفراد هذه الجماعة ، وهم من المصريين ، كانوا يودون الذهاب إلى ينبع ، بعض آخر كانوا من السوريين ، رسموا خطة للعودة إلى بلادهم عبر الصحراء عن طريق الحجاز ، على أن يتسولوا طول الطريق فى مخيمات البدو ؛ نظرًا لأنهم لم يكن معهم من المال ما يدفعونه أجرًا لعودتهم عن طريق البحر إلى ميناء السويس .

غادرنا مكان توقفنا عند الساعة الثالثة بعد الظهر ، وبعد ما أنفقنا ساعة فى عبور الوادى قاصدين جانبه الشمالى ، ومن ذلك الجانب الشمالى ، بدأ طريق الحج الذى سلكناه ، يرتفع ارتفاعًا هينًا لينًا بين التلال ، عبر وديان مليئة بأشجار السنط ، فى اتجاه شمالى ٤٠ غربى . صخور هذه المنطقة كلها من الجرانيت الرمادى اللون وأحمر اللون أيضًا . وبعد مضى ساعتين ، وجدنا الأرض تتسع أمامنا ويقل عدد الأشجار ، وبدأ اتجاه الطريق يتحول إلى شمال غرب . وعند غروب الشمس ، كنت قد تقدمت قليلاً أمام القافلة ، ونظرًا لأنى كنت متعبًا ، فقد جلست أرضًا ورحت أنتظر

وصول القافلة ، وفجأة زحف عليّ خمسة من البدو من الأدغال المحيطة بي وخطفوا فجأة عصاي ، سلاحي الوحيد ، التي كانت موضوعة على الأرض من خلفي . قال لي رئيسهم ، إنني بلا أدنى شك ، هارب من الجيش التركي ، وبالتالي فأنا جائزة لهم . لم أقاومهم ، لكني عندما وجدت أنهم أقل تصميمًا وتشدداً من البدو ، خلصت إلى أنهم خائفين إلى حد ما ، وهنا قلت لهم : إني حاج وإني تابع لقافلة كبيرة يرافقها بدو قبيلة حرب لحراستها ، قلت لهم ذلك على أمل أن ينتظروا قليلاً قبل أن يستوقفوني ، علهم يتأكدوا من حقيقة وصول القافلة ، وأخبرتهم أيضًا أن من الأفضل لهم ألا يمارسوا معي أي نوع من العنف ؛ نظراً لأن مرشدينا سوف يعرفون المعتدين ويبلغون عنهم ، وبذلك يمكن أن يطالهم عقاب من بيده الأمر ، تأكدت أنهم لم ينتووا إيذائي ، ولم يتملكني الخوف ، وبخاصة أني لم أكن أرتدي سوى لباس السفر ولم يكن معي من المال سوى بضعة دولارات ، هذا إذا ما بلغ السيل الزبى . قام أحدهم ، وهو رجل كبير السن ، بالنصح لهم بالانتظار قليلاً ؛ إذ ليس من اللياقة تحمل النتائج المترتبة على سرقة حاج من الحجاج . طوال هذا الحوار ، كنت أنظر قلقًا إلى قدوم القافلة ، لكن يبدو أن القافلة كانت قد توقفت مدة ربع الساعة ، حتى يتمكن المسافرون من أداء صلاة العشاء ، وهذا تقليد يومي، كنت أنا أجهله . جاء هذا التأخير في غير مصلحتي، وكنت أتوقع في كل لحظة ، أن يقوم هؤلاء اللصوص بتجريدي من ملابسي ، وهنا بدأنا نسمع وقع أقدام الإبل ، وهنا تراجع البدو فجأة مثلما جاءوا .

وعلى الرغم من أن الطريق من مكة إلى المدينة (المنورة) كان آمنًا على القوافل غير المسلحة ، التي من قبيل قافلتنا ، فإن من يضلون الطريق أو يشردون يكونون دومًا معرضين للأخطار ، ولولا الفزع والرعب ، الذي دب في قلوب البدو ، قبل أيام قلائل ، بسبب انتصار محمد علي باشا على الوهابيين ، لكنت قد عوقبت عقابًا شديداً على جرأتي على السير وحيداً . سرنا القسم الأكبر من الليل ، في سهل زلطي أكثر منه رملي ، تنمو فيه أشجار العشور بين أشجار السنط ، التي سبق أن أتيت على ذكرها في أسفاري في بلاد النوبة . هذا الجزء من البلاد يسميه الناس البركة ، وبعد سبع ساعات توقفنا في القارة .

اليوم السابع عشر من شهر يناير : نمنا ساعات قليلة أثناء الليل ، وهذا أمر نادر الحدوث في مثل هذه الرحلات . القارة عبارة عن سهل من الصوّان الأسود ، وفيه تلال منخفضة على بعد مسافة كبيرة في اتجاه الشرق ، كما أن في هذا السهل قلة قليلة من الأشجار الشوكية ، لكنه ليس فيه ماء . اندهشت كثيرا للشبه الكبير بين هذا السهل وبين الصحراء النوبية ، الواقعة إلى الجنوب من شقراء ، وعلى الرغم من أننا كنا في منتصف الشتاء فإن الحرارة كانت شديدة طوال فترة الصباح أثناء وجودنا في قارة . لم يكن لدى أى أحد من أفراد القافلة أية خيمة من الخيام ، وكنت أنا الوحيد الأكثر تعرضًا وانكشافا عن الآخرين ؛ إذ كان الآخرون راكبين إما في شبرية أو في شقدوف، وهما نوعان من سرُج الإبل المغطاة ، التى تحمى الناس بعض الشيء من أشعة الشمس ، سواء أكانتا فوق الجمل أم على الأرض ، والشبرية تتسع لشخص واحد، أما الشقدوف فيتسع لشخصين – كل واحد منهما على جانب من جانبى الجمل. لكنى كنت أفضل دومًا الركوب فوق الإبل المحملة ، من منطلق أن ذلك مريح أكثر ؛ إضافة إلى أن ذلك كان يضفى علىَّ المزيد من الطابع العربى ، فضلا عن أن ذلك يمكننى من الركوب والنزول دون عون من أحد ، ودون إيقاف الجمل ، وهذا أمر بالغ الصعوبة وبخاصة عندما يكون الجمل محملاً بشبرية أو شقدوف ، إذ يتعين أن يحافظ الراكبان على التوازن بصورة مستمرة .

في هذا اليوم وطدت معرفتى برفاقى في القافلة ؛ وسبب ذلك أن القوافل الصغيرة تحتم أن يكون الجميع على ود مع بعضهم البعض . كان أفراد القافلة من أهل جزيرة الملايو ، أو بالأحرى حسبما يطلق الناس عليهم في الشرق ، من جاوه ، ولكن يستثنى منهم تلك القلة القليلة التى من ساحل ملقا ، وكلهم من الرعايا البريطانيين ، ومواطنى سومطرة ، وجاوه ، وساحل ملبار . أهل الملايو ، يواظبون على الحج بصفة دائمة ، وغالبًا ما يحضرون معهم زوجاتهم ، اللاتى كان ثلاثة منهن ضمن قافلتنا الصغيرة . كثير من هؤلاء الناس يبقون سنوات عدة في مكة ، لدراسة القرآن والشريعة ،

وهم يعرفون بين الهنود فى الحجاز بأنهم هم الأكثر التزامًا ، بنسك أو بالأحرى بطقوس دينهم . قلة قليلة من أهل الملايو هؤلاء هم الذين يتكلمون العربية بطلاقة ، لكنهم جميعًا يقرأون القرآن ، بل إنهم حتى أثناء السفر يشغلون أنفسهم بدراسة القرآن وحفظه . وهم يقللون من مصاريف رحلة الحج عن طريق بيع العود ، وأفضل أنواع العود ، على حد قولهم ، هو ذلك الذى يطلقون عليه اسم الماوردى ، الذى يتكلف الرطل فى بلادهم ما بين ثلاثة دولارات وأربعة دولارات ، ويبيعونه فى مكة بما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين دولارًا للرطل الواحد . ملامح أهل الملايو العريضة وسماتهم الطويلة ، وجباههم البارزة ، وقامتهم القصيرة المتينة ، وأسنانهم المتحللة ، التى تتناقض تناقضًا تامًا مع أسنان العرب التى تشبه اللؤلؤ ، هذه الملامح تميز هؤلاء الناس فى كل مكان على الرغم من أنهم يرتدون الملابس التى يرتديها الهنود. أما نساؤهم اللاتى يتحركن بلا حجاب ، فيرتدين ثيابًا ومناديل (طراحات) من الحرير المقلم ، الذى يصنع فى بلاد الصين . أهل الملايو هؤلاء ، كانوا يبدون أصحاب عادات متأصلة وطبع هادئ ، لكنهم جشعون إلى حد بعيد ، وقد تبدى احتياجهم إلى الإحسان من خلال معاملتهم للهاربين المعدمين الذين انضموا إلى القافلة فى وادى فاطمة . عاش أهل الملايو هؤلاء ، طوال الرحلة على الأرز المسلوق فى الماء ، بلا أى زبد ، الذى يعد أمرًا نادرًا تمامًا فى الحجاز ، لكنهم كانوا يحبون ذلك الزبد ؛ وبسبب ذلك أن العديد منهم ، كانوا يرجون عبدى أن يعطيهم فى السر شيئًا من الزبد ، لكى يحيقوا به طبق الأرز المسلوق . ولما كان هؤلاء الناس من الأثرياء ، فإن الجشع وحده يكون هو السبب وراء تناول هذا النوع من الطعام ، لكنهم كانوا يعاقبون عقابًا شديدًا عندما يلعنهم البدو ، الذين كانوا يتوقعون ، بطبيعة الحال ، مشاركتهم طعامهم ، ولكنهم لم يكونوا يغلبوا أهل الملايو فى مسألة تناول ذلك الأرز المسلوق فى الماء . كانت أوعيتهم المصنوعة من النحاس الأحمر من إنتاج الصين ، وبدلاً من الإبريق الذى يستعمله أهل الشرق فى الغسل وفى الوضوء ، كانوا يحملون معهم أباريق الشاى الصينية .

طوال هذه الرحلة سنحت لي فرص كثيرة للوقوف على رأى أهل الملايو في الحكومة الإنجليزية وفي تصرفات الإنجليز ، الذين يشغلون في الوقت الحالي مناصب السادة بين أهل الملايو ، وقد اكتشف البريطانيون عداء أهل الملايو لهم عداء لدوداً ، وأن أهل الملايو كانوا ناقمين تماماً على سلوكيات البريطانيين وبخاصة شربهم للنبيذ ، فضلاً عن أن الجنسين عند الإنجليز يختلطان ببعضهما البعض في الاتصالات الاجتماعية ، ولم يوجه أحد منهم الاتهام إلى عدالة الحكومة التي كانوا يقارنونها بالقمع الذي يمارسه أمراؤهم الوطنيون ، وعلى الرغم من أن أهل الملايو كانوا يطلقون الكنى والنعوت نفسها على البريطانيين التي يطلقها المسلمون المتشددون في كل مكان على الأوروبيين ، فإنهم لم ينسوا أن يضيفوا : " ومع ذلك فإن حكمهم طيب " . ولقد استرقت السمع إلى كثير من هذه الحوارات ، التي كانت تدور بين الهنود في كل من جدة ومكة ، والتي كانت تدور أيضاً بين البحارة العرب الذين يتجرون مع بومباي وسورات ، وكان فحوى هذا الأمر كله يتمثل في كراهية المسلمين للإنجليز ، على الرغم من أنهم يحبون أسلوبهم في الحكم .

غادرنا مكان التوقف لنيل قسط من الراحة عند الساعة العاشرة مساء ، ورحنا نواصل المسير عبر سهل قارة ، في اتجاه الشمال ٤٠ غرب . وبعد انقضاء ثلاث ساعات مررنا بمبنى مهدم كان يستخدم من قبل في تزويد المسافرين بالماء . لم أر تلالاً في اتجاه الغرب ، على مدد شوفي . السهل في هذه المنطقة عامر بالأشجار الكبيرة والأعشاب الكثيفة . واصلنا المسير عبر السهل طيلة ست ساعات ، إلى أن وصلنا إلى نهاية هذا السهل ، وهنا يبدأ السهل في الصعود المتدرج نحو واد غابي متسع ؛ في هذا الوادي الغابي توجد بئر يسمونها بئر عصفان ، وهي بئر كبيرة وعميقة ، مبطنة بالحجر ، ينساب فيها ينبوع من الماء الطيب عند قاعها ، وهذه البئر محطة من محطات الحج . هنا طريق آخر يمتد من وادي فاطمة إلى عصفان ، إلى مسافة أربعة أميال في اتجاه الشرق . مررنا بتلك البئر دون توقف ، وهنا نجد أن السمهودى ، مؤرخ المدينة (المنورة) يأتي على ذكر قرية في عصفان ، فيها عين ماء يطلقون عليها اسم عوله ؛

هذا المكان ليس فيه أية قرى حاليًا . بعد مضى سبع ساعات يتبدى لنا ممر صاعد شديد الضيق بين الصخور ، لا يسمح سوى بمرور جمل واحد . أدت السيول التى تنهمر على هذا الممر الضيق فى فصل الشتاء إلى تدمير الطريق ، وامتلائه بالكتل الحجرية الكبيرة الحادة ، وفى هذه المنطقة يبدو طريق الحج كأنه معزول عن الصخر ، ولكن ظلمة الليل كانت حالكة على نحو لم يتمكن أحد معه من رؤية الأشياء رؤية واضحة . بعد مضى ثمانى ساعات وصلنا إلى قمة ذلك المنحدر ، حيث توجد بناية صغيرة ، وربما كانت تلك البناية قبرًا لشيخ (ولى) من الأولياء ، عند هذه البناية الصغيرة عبرنا سهلاً واسعًا ، رمليًا فى بعض أجزائه ، وصلصالى ورملى فى جزء آخر منه ، وتنمو فيه الأشجار والأعشاب . بعد أربع عشرة ساعة وقبيل طلوع الفجر ، مررنا بخيمة بدوى صغير ، بالقرب من قرية يسمونها خوليس . توقفنا مرات عدة وقفات قصيرة أثناء الليل ، وشببنا النار طلبًا لشىء من الدفء.

تقع قرية خوليس فى سهل واسع ، يرى الرائى بيارات النخيل فى أجزاء كثيرة منه ، كما أن فيه أيضًا حقولاً يزرع فيها الذرة ، والبامية ، والدُّخن . تتناثر فى هذا السهل هجر (كفور) عدة ، وهى تندرج ضمن الاسم خوليس ، أكبر هذه الهجر ، يطلق الناس عليها اسم السوق . وبالقرب من السوق هذه ينبع نهير صغير مثل النهر الذى فى وادى فاطمة ، ويجرى جمع ماء هذا النهر فى بركة صغيرة تقع خارج القرية ، وهى مدمرة الآن ، وتستعمل فى رى السهل . بالقرب من هذه البركة يوجد بعض أنقاض سبيل من الأسبلة (*) . استنادًا إلى قطب الدين ، نجد أن البركة هى والسبيل ، بناهما قايتباى سلطان مصر فى العام ٨٨٥ الهجرى . فى ذلك الوقت كان فى خوليس أمير خاص بها ، وهذا الأمير كان من الشخصيات القوية جداً فى الحجاز . شاهدت كثيراً من الماشية ، والأبقار ، والأغنام ، لكن العرب كانوا يشتكون من أن مزارعهم كانت تعانى من الجفاف ، لعدم سقوط المطر ، على الرغم من دخول

(*) السبيل عبارة عن مبنى صغير مفتوح ، عادة ما يكون بالقرب من عين من عيون المياه ، والمسافرون يؤدون الصلاة عند هذه الأسبلة ، وينالون قسطًا من الراحة .

فصل الأمطار تمامًا . ويبدو أن ماء النهير لم يكن كافيًا لرى المناطق الزراعية كلها ، إضافة إلى أن كمية المياه كانت أقل أيضًا مما هو مطلوب ؛ والسبب فى ذلك أن نصف هذه الكمية من المياه كانت تضيع بسبب الإهمال ، عن طريق التسرب من القنوات الضيقة .

قرية السوق تشمل حوالى خمسين منزلاً ، وكلها مبنية من الطين ، وهى بيوت منخفضة ، والشارع الرئيسى فى هذه القرية توجد على جانبيه مجموعة من الدكاكين التى يمتلكها أهل خوليس ، ويتردد عليها كل البدو المقيمين فى المناطق المجاورة . السلعة الرئيسية التى تباع فى خوليس هى التمر ، الذى تمتلئ به الدكاكين ، بعض الدكاكين الأخرى تبيع الذرة ، والشعير ، والعدس ، والبصل (والعدس والبصل يأتيان من مصر)، والأرز، وبعض السلع التموينية الأخرى ، لكن هذه الدكاكين لا تبيع القمح؛ نظرًا لأن بدو هذا الجزء من البلاد لا يستعملون هذا النوع من الحبوب ، كانت تلك الدكاكين تبيع أيضًا التوابل ، وقلة قليلة من العقاقير ، كما كانت تبيع أيضًا لحاء بعض الأشجار الذى كان يستخدم فى دبغ الجلود التى تستخدم فى صنع قراب الماء ، وفى تخليص الزبد من الحليب . لم يكن الحليب موجودًا فى تلك القرية مخافة أن يطلق على أحد من أهلها اسم بائع اللبن (الحليب) . بالقرب من النهر يوجد مسجد عتيق ، بالقرب من أشجار الجميز الضخمة ، وجدت فى ذلك المسجد حاجّين من دارفور جرى تجريدهما أو بالأحرى سلب حاجياتهما فى الليلة السابقة ، والقروش البسيطة التى كانت معهما ، وكانا قد كسباها يوم أن كانا فى مكة ، وقد حاول أحدهما الدفاع عن نفسه ، فأوسعوه ضربًا ، وهذان الدارفوريان يودان العودة إلى جدة ، وأن يحاولا استعادة ما خسراه عن طريق العمل أشهر عدة فى ذلك البلد . كان واحد من البدو الذين نهبوا هذين الدارفوريّين يدخن غليونه فى القرية ، لكنهما لم يكن لديهما دليل على تلك السرقة وذلك النهب والسلب ، الأمر الذى جعلهما عاجزين من مقاضاة الرجل . خوليس هى المقر الرئيسى لقبيلة زبيد العربية، وزبيد هذه فرع من بنى حرب، كما أن قرية خوليس تعد مقر إقامة شيخ زبيد . القسم الأكبر من زبيد هم من البدو ، يضاف

إلى ذلك أن الكثيرين من أولئك الذين يزرعون الأرض ، يمضـون جزءًا من العام فى خيام ينصبونها فى الصحراء ، مستهدفين بذلك رعى ماشيتهم على العشب البرى . ويختلط مع هذه القبيلة فى خوليس بعض العائلات القليلة من بنى عمر (ويصح فيه أيضًا عامر) (*) الذين هم فرع أخر من حرب .

قبل الغزو التركى ، كانت العملة المعتادة فى هذا السوق هى الذرة ، لكن فى هذه الأيام يتعامل الناس بالقروش والبارات . خوليس ، ترسل فى معظم الأحيان قوافل صغيرة إلى جدة ، التى تبعد عن هذا المكان رحلة تقدر بمسير يومين طويلين ، أو إن شئت فقل : ثلاث رحلات من رحلات القوافل . قيل لى إن الجبال المحيطة بقرية خوليس يسكنها البدو . وعلى بعد مسير حوالى ثلاث ساعات ، فى الاتجاه الشمالى الشرقى ، يوجد واد خصيب يسمونه وادى الخوار ، الشهير بمزارع الموز المتعددة ، الذى يجرى منه تزويد أسواق كل من مكة وجدة بهذا النوع من الثمار .

الثامن عشر من شهر يناير : بعد أن ملأنا قراب الماء ، واصلنا مسيرنا عند الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان اتجاه مسيرنا شمال ٢٠ شرق عبر سهل من السهول. وبعد مسير ساعتين وصلنا إلى تل عالٍ ، يطلقون عليه اسم ثنية خوليس ، وكان الجانب المنحدر من هذه الثنية مغطى تمامًا بالرمل ، الذى كانت إبلنا تمشى فيه بصعوبة بالغة . فوق قمة هذه الثنية شاهدنا بعض الأنقاض لمبان كبيرة متهدمة ، يضاف إلى ذلك أن الطريق على جانبى التل تحده الأسوار ، منعًا لتراكم الرمال . كان الطريق مغطى ببقايا جثث الإبل ، التى هى من مخلفات قوافل الحج فى الزمن الماضى . وعندما صعدنا الجانب الثانى ، ظهر أمامنا سهل فى اتجاه الشمال والشرق ، عند مدد الشوف . فى الاتجاه نحو شمال شرق شاهدنا جبالاً عالية ، تبعد عنا مسافة تقدر بما يتردد بين عشرين ميلاً وثلاثين ميلاً ، وبعد أن نزلنا فى السهل ، سرنا فى الاتجاه شمال ١٠ غرب ، وبعد ثلاث ساعات ونصف الساعة ، تحول السهل الزلطى إلى سهل رملى

(*) يجب عدم الخلط بين بنى عامر وعمر ، التى هى قبيلة أخرى من حرب .

عامر بأشجار الطرفاء (الأثل) ، التى تجود فى الرمال ، وفى المواسم شديدة الجفاف ، فى حين تنوى من حولها الحياة النباتية الأخرى : أشجار الطرفاء هذه لا تفقد خضرتها مطلقًا ، ومن بين الأشجار الأكثر شيوعًا فى صحراء الجزيرة العربية ، بدءًا من الفرات إلى مكة ، كما تكثر أشجار الطرفاء أيضًا فى الصحراء النوبية ، وأطراف الطرفاء الصغيرة تعد طعامًا ممتازًا للإبل . عند الساعة الرابعة والربع ، أو بالأحرى بعد مرور أربع ساعات وربع الساعة ، اكتشفنا أن الطريق تغطيه طبقة من الملح ، أو بالأحرى قشرة من الملح ، مما يدل على قرب المنطقة من البحر ، واعتبارًا من هذه المنطقة بدأ طريقنا يتشعب فى اتجاهات مختلفة .

طبقًا لما هو شائع فى الحجاز ، نجد أن الإبل تمشى فى صف واحد ، بحيث تربط الإبل التى فى الخلف فى أذيال الإبل التى تسير فى الأمام ، والعربى الذى يركب فى بداية القافلة هو المسئول عن قيادة القطيع ، لكنه فى كثير من الأحيان يروح فى النوم ، شأنه فى ذلك شأن رفاقه الذين يسيرون خلفه ، وهنا يسير الجمل الذى يحمله على هواه لا على هوى راكبه ، وغالبًا ما يسفر ذلك عن أن تضل القافلة طريقها . بعد مسير دام اثنتى عشرة ساعة ، نزلنا فى واحدة من محطات الحج التى يسمونها قلّية ، كما يطلقون عليها أيضًا اسم قبيبة . يزاد على ذلك أن كل بقعة فى سهول الجزيرة العربية لها اسم محدد ، ومثل هذه المناطق المحددة تحتاج إلى عينى البدوى وخبرته التى تميز منطقة صغيرة عن أخرى ، من هنا نجد أن مختلف أنواع العشب والمراعى فى تلك الأماكن تعد عونًا كبيرًا فى محاولة تمييز المواقع بعضها عن بعض ؛ والبدو عندما يودون ذكر منطقة من هذه المناطق أو موقعًا من هذه المواقع ، عند بعض رفاقهم ، عندما لا يكونون عارفين لاسم هذا الموقع ، يعمدون إلى الإشارة إلى تلك المنطقة أو الموقع بالأعشاب والنباتات التى تنمو فيه ، وهذا يتجلى فى أقوال البدو التى من قبيل : أبو شيح ، وأبو عجال ، إلخ .

بعد مسير ساعتين من المكان الذى نلنا فيه قسطًا من الراحة ، وفى اتجاه الشمال الشرقى ، يوجد ماء ، وبيارة نخيل صغيرة ، وبلغنى أن البحر يبعد عن هذه

المنطقة مسيراً يتردد بين ست ساعات إلى ثماني ساعات . وتواصلت رؤيتنا للجبال على امتداد يتراوح بين عشرين ميلاً وثلاثين ميلاً فى اتجاه الشرق ، قمم هذه الجبال كانت حادة ، تمثل قمماً منحدرة منعزلة . هذه الجبال تسكنها قبيلة عتيبة ، التى كانت تسكن فى القرن السابع عشر ، على حد قول العصمى ، وادى فاطمة . ظهرت فى الصباح بعض نساء البدو ، ومعهن قطعان تعد على أصابع اليد الواحدة من الأغنام والماعز الهزيلة ، التى كانت تبحث عن الأعشاب القليلة . لم يسقط المطر فى هذا السهل ، الأمر الذى أدى إلى ذبول كل أنوا ع العشب ، ومع ذلك لم يجرؤ هؤلاء البدو على البحث عن المرعى فى الأراضى المجاورة أو الجبال المجاورة ؛ والسبب فى ذلك أن هذه الأراضى وهذه الجبال لم تكن ضمن زمام الأراضى التابعة للقبيلة ، وهنا يجب أن نلاحظ أنه فى حال الجفاف، يقوم الرعاة بمراقبة حدود أراضى القبيلة مراقبة صارمة . خرجت بصحبة الأفراد من أهل الملايو لملاقاة هؤلاء النساء ، ونطلب منهن شيئًا من الحليب ؛ كان أهل الملايو قد أخذوا معهم نقوداً ليدفعوا ثمن الحليب ، أما أنا فكنت قد ملأت جيبى بالبسكويت للغرض نفسه . البدويات رفضن أخذ ثمن للحليب وقلن إنهن لم يعتدن بيع الحليب ، لكنى عندما أعطيتهن هدية من البسكويت، ملأن وعائى الخشبى بالحليب مقابل تلك الهدية . أثناء مرور الحج ، تتوافد هؤلاء البدويات من جميع النواحى لأنهن يعرفن ميول وعادات الجنود المصاحبين للقافلة ، لعمليات السلب والنهب .

اليوم التاسع عشر من شهر يناير . غادرنا قُلّية ، عند الساعة الواحدة والنصف مساء ، وواصلنا مسيرنا عبر السهل ، وفى غضون ثلاث ساعات ، وصلنا إلى مجموعة من التلال الخفيضة من الرمال المتحركة ، وبعد مضى أربع ساعات ، وصلنا إلى سهل حجرى، عبارة عن كتل من الصخر مبعثرة على الطريق، كان اتجاهنا شمال ٢٥ غرب ، وبعد انتهاء الساعة التاسعة ، توقفنا أثناء الليل بالقرب من قرية رابغ ؛ إذ كان طريقنا مستويًا طول الوقت . هناك ثلاث هجر أو أربع ، تفصلها عن بعضها البعض مسافات قصيرة ، لكنها تندرج تحت الاسم رابغ ؛ الهجرة الرئيسية من بين هذه الهجر ، شأنها شأن قرية خوليس ، تتميز باسم السوق الذى يضاف إلى اسمها . السهل المجاور لهذه

المنطقة زراعى ، وبذلك نجد أن بيارات النخيل تجعل من رابغ مكانًا مرموقًا على هذا الطريق . بعض أشجار التمر الهندى تنمو بين النخيل ، وكان ثمرها الأخضر ناضجًا ويسر الناظرين . تنمو فى مكة أيضًا أشجار قليلة من أشجار التمر الهندى ، وهذه الثمار ناضجة فى الوقت الحالى . كانت الأمطار قد سقطت هنا مؤخرًا ، وكانت الأرض محروثة فى سائر الأنحاء . محاريث هؤلاء العرب التى تجرها الثيران أو الإبل ، تشبه تلك المحاريث التى وصفها نيبور ، وأنا أعتقد أن هذه المحاريث من النوع الذى يستخدم فى الحجاز وفى اليمن (*) . تمتاز رابغ بأن فيها عددًا من الآبار ، وماء هذه الآبار كله صالح للشرب : قرب رابغ من البحر ، وقد علمت أنها تبعد عن البحر مسافة ستة أميال أو سبعة ، على الرغم من أن النخيل يحجب منظرها ، وهذا القرب هو الذى جعل كثيرًا من سفن البلاد تقصدها طلبًا للماء . بدو هذا الساحل من الصيادين المهرة ، وهم يحضرون الأسماك المملحة إلى رابغ من موانئ بعيدة ، ويمكن العثور على هذه الأسماك المملحة بكميات كبيرة فى السوق ، ويقبل أطقم بحارة السفن العربية على شراء هذا النوع من الأسماك ، ليستهلكوا قسمًا كبيرًا منه ، ثم ينقلوا الجزء المتبقى إلى مصر أو إلى جدة . سكان رابغ هم – كما سبق أن قلت – من قبيلتى عامر وزبيد ، مع التركيز على الزبيد . فى الجبال المقابلة ، فى الناحية الشرقية ، يعيش بنو عوف ، الذين هم قبيلة أخرى من قبيلة حرب ، والحجاج الذين يفدون بطريق البحر من مصر إلى جدة ، يتحتم عليهم الإحرام من المنطقة المقابلة لرابغ ، الأمر الذى يجعل الحجاج يُحْرمون إما على الشاطئ وإما على ظهر المركب .

وقع حادث هنا ، كشف عن غياب البر والإحسان تمامًا بين رفاقنا من أهل الملايو. كان هناك كثير من أهل الملايو الفقراء ، الذين عجزوا عن استئجار جمل يركبونه ، الأمر الذى جعلهم يتبعون رفاقهم سيرًا على الأقدام ، لكن نظرًا لطول رحلاتنا الليلية ،

(*) أنا لا يمكن أن أتصور السبب الذى جعل بطليموس يضع نهرًا فى الطريق ما بين مكة وينبع ؛ نظرًا لأنه لا يوجد نهر يصرف ماءه فى البحر فى أى مكان من الحجاز ، وفى فصل الشتاء تندفع سيول كثيرة نازلة من الجبال .

فقد وصل هؤلاء الفقراء بعد ساعة أو ساعتين من توقفنا فى فترة الصباح ، واليوم جرى إحضار واحد منهم بمصاحبة اثنين من بدو العوف ، وقالا لنا إنهما عثرا عليه ضالاً فى الصحراء ، وإنه وعدهما بعشرين قرشًا إذا ما أرشداه إلى القوافل ، وإنهما توقعا أن يدفع عنه أصدقاؤه هذا المبلغ ، والرجل يبدو لهما معدمًا وليس معه من النقود شيء . وعندما اكتشف هذان العوفيان أن أحداً منا لن يدفع هذا المبلغ أو حتى الجزء الأصغر منه ، وأن الجميع أنكروا معرفتهم لذلك الرجل ، الذى قالوا إنه التحق بالقافلة فى مكة دون أن يعرف أحد أقل القليل عنه ، وهنا صرح البدويان أنهما يتعين عليهما تجريده من الملابس التى يرتديها ، ويحتفظان به أسيراً عندهم فى خيامهم ، إلى أن تمر جماعة أخرى من أهل الملايو ، لعلهم يخلصونه ويدفعوا المبلغ ، وعندما كانت القافلة تهم بالتحرك ، أمسك البدويان بالرجل ، وحملاه إلى مسافة قريبة من الغابة . وأصيب الرجل بالرعب والفزع على نحو أفقده القدرة على الكلام ، وتركهما يقتادانه ، دون أدنى مقاومة من جانبه . لم يكن مرشدونا أنداداً للعوف ، والعوف يخشاهم الناس لطبيعتهم المحبة للحرب من ناحية والشراسة من الناحية الأخرى ، لم يكن هناك قاض فى قرية رابغ ، حتى يمكن اللجوء إليه ، وكان البدويان أصحاب حق شرعى على ذلك الرجل الذى أسراه . وأنا لو كنت قد دفعت المبلغ الذى يطلبه هذان البدويان لما كنت قد أتيت عملاً كبيراً من أعمال الكرم والبر ، لكنى كنت أرى أن هذا العمل واجب على رفاقنا من أبناء الملايو ، ولذلك حاولت جاهداً إقناعهـــم بدفع المبلغ . واقع الأمـر أنى لم ألتق أحداً غليظ القلب مثل هؤلاء الرجال ؛ فقد أعلنوا جميعهم أنهم لا يعرفون الرجل ، وأنهم ليسوا على استعداد لقبول أية نفقات إضافية من أجله . كانت الإبل مُحَمَّلة ، وركب الجميع وكان قائد القافلة على وشك السير ، وعندما انفجر التعيس موضوع الحوار معبراً عن أحزانه وآلامه . كنت أنتظر هذه اللحظة . واعتماداً على الاحترام الذى كنت أحظى به فى القافلة جراء الاعتقاد بأنى حاج من أولئك المقربين إلى محمد على باشا وجيشه ، واعتماداً أيضًا على حسن نية مرشدينا ، التى أرسيتها بفضل توزيع الأطعمة والأغذية عليهم من باب الكرم اعتباراً من لحظة مغادرتنا مكة ، تقدمت وأمسكت بجمل قائد القافلة ، وجعلته يبرك أرضًا ، وصحت متعجبًا بأن القافلة

يجب ألا تمضى قبل إطلاق سراح ذلك الرجل ، وهنا رحت أنتقل من جمل إلى جمل ، ورحت ألعن أهل الملايو ونساءهم تارة ، وأحيى البعض منهم تارة أخرى ، وحصلت من كل جمل من جمال أهل الملايو مبلغ عشرين بارة (أى ما يعادل ثلاث بنسات) ، وبعد صراع طويل جمعت عشرين قرشاً . أخذت هذا المبلغ إلى البدويين اللذين بقيا على بعد مسافة منا ومعهما الأسير ، ورحت أشرح لهما حاله التعيس وأتوسل إليهما بشرف قبيلتهما ، وحاولت إقناعهما أن يأخذا عشرة قروش ، وطبقًا للمعايير التركية كان من حقى أن أضع العشرة قروش الأخرى فى جيبى نظير تعبى ، لكنى أعطيت القروش العشرة لذلك الجاوى التعيس ، الأمر الذى كان له وقع ثقيل على بنى جلدة ذلك الرجل ، وترتب على ذلك أن قام أهل الملايو هؤلاء بنبذ هذا الرجل من جماعتهم ، وأصبح الرجل فى عهدتى إلى أن وصلنا المدينة (المنورة) ، وطوال إقامته فيها كنت أنوى تزويد هذا الرجل بأجر عودته إلى ينبع ، لكنى وقعت فريسة للمرض فور دخولى المدينة (المنورة) ، ولذلك لم أعرف ما حدث لهذا الرجل بعد ذلك .

كان عدد كبير من الحجاج قد راحوا يستجدون الناس إحساناً فى سوق قرية رابغ . هؤلاء الفقراء ، عندما يبدءون الرحلة من مكة إلى المدينة (المنورة) مع قافلة من القوافل الكبيرة ، يتخيلون أنهم قادرون على تحمل متاعب تلك الرحلة ، ويعلمون أيضاً أن السفر مع القافلة ، سيجعلهم يحصلون من الحجاج المحسنين على الطعام والماء ، لكن المسيرات الليلية الطويلة سرعان ما تهد قواهم ، وبالتالى يتأخرون فى الطريق ، وبعد كثير من التعطيل والحرمان يضطرون إلى مواصلة رحلتهم أملاً فى أن تتهيأ لهم فرص جديدة . هذا واحد من الأفغان انضم إلى قافلتنا ؛ كان رجلاً مسناً ، وقوته خارقة للعادة ، فقد قطع الطريق كله من كابول إلى مكة سيراً على الأقدام ، وعقد العزم على العودة بالطريقة نفسها . ندمت لأنه لم يكن يعرف العربية ، على الرغم من أنه كان رجلاً ذكيًا وألمعيًا ، وكان يمكن أن يعطينى بعض المعلومات المهمة عن بلده .

اليوم العشرون من شهر يناير ، غادرنا رابغ عند الساعة الرابعة بعد الظهر . كان طريقنا شمال ٨ غرب ، فى منطقة الصوان حالك السواد ، الذى تتخلله بعض التلال

الرملية ، التي كانت تنمو عليها أشجار قليلة العدد ، ونظراً لأننا لم نأخذ قسطاً من الراحة خلال اليومين الأخيرين، فقد غلبني النوم وأنا فوق جملي ، وهنا يمكنني القول ، إنه بعد ركوب استمر اثنتي عشرة ساعة ، في أرض عامرة بالتلال والرمال ، نزلنا عن دوابنا في مستورة ، التي هي واحدة من محطات الحج . في مستورة وجدت بئرين كبيرتين وعميقتين ، ومبطنتين بالحجر ، وتعطيان كمية غزيرة من المياه الصالحة الطيبة . بالقرب من هاتين البئرين شاهدت قبراً لولي من الأولياء يدعي الشيخ مادلي ، الذي قام الوهابيون بتدمير قبره . وعلى بعد حوالي عشرة أميال شرقي هذا القبر يوجد جبل عال ، يطلقون عليه جبل أيوب ، الذي تعلو قمته سلسلة الجبال الأخرى التي هو جزء منها ؛ وجبل أيوب هذا مغطى في بعض أجزائه بالأشجار . هذا الجبل تسكنه قبيلة عوف . الطريق بكامله من قلّيه إلى هذا المكان خطر بسبب حوادث السرقة التي يقترفها هؤلاء البدو ، يضاف إلى ذلك أن أية قافلة من القوافل لا تمر بهذا المكان دون أن تخسر بعض أحمالها أو شيئاً من إبلها . في زمن الوهابيين كان ذلك الطريق أمناً تماماً ؛ إذ كان شيوخ قبيلة حرب مسئولين عن أحداث السرقة التي تقع في أراضيهم. مع ذلك لم يستطع الوهابيون كسر شوكة قبيلة عوف في الجبال التي كانوا يعيشون فيها، والدليل على استقلال هؤلاء العوف يتجلى في الشعر الطويل، وذلك على العكس من المفهوم الوهابي الذي أرسى حكماً مفاده حلق شعر الرأس .

وجدنا عند بئري مستورة ، عدة قطعان من الإبل والأغنام التي كان الرعاة والراعيات العوفيات يسقينها من هاتين البئرين . اشتريت من هؤلاء الرعاة والراعيات حملاً صغيراً نظير بضعة قروش قليلة وشيء من التبغ ، وقسمت ذلك الحمل على مرشدينا وعلى أولئك الذين كانوا يرافقوننا سيراً على الأقدام . جاء المرافقون لنا من أهل الملايو يسألون عن نصيبهم ، وليفهموني أن البدو الذين كانوا معنا ، كفوني مؤونة الرد عليهم ، عندما قاموا بزجرهم وتأنيبهم . شاهدت قبوراً عدة بالقرب من البئرين ، وعرفت أن الوهابيين احترموا هذه القبور ؛ والسبب في ذلك أنهم لم يعتدوا على القبور الخالية من الزينة والبهرج .

اليوم الحادي والعشرون من شهر يناير . بدأنا مسيرنا عند الساعة الثالثة مساء . كان السهل الذى عبرناه إما من الصوان وإما فيه بعض المواقع الصلصالية الصالحة للزراعة ، وكانت وجهتنا صوب الشمال . بعد أن مضينا عبر السهل الرملى ، الذى تغطيه أشجار الأراك ، وأمضينا فى ذلك العبور حوالى ساعتين ونصف الساعة ، أصبح جبل أيوب يبعد عنا مسافة تقدر بحوالى ستة أميال ، ومن بعده تبدأ سلسلة من الجبال المنخفضة ، التى تمتد موازية للطريق . عندئذ تركنا طريق الحج الكبير ، الذى يبدأ عند هذه المنطقة ، فى الاتجاه الغربى ، لنواصل مسيرنا بعد ذلك فى اتجاه الجبال شمال ١٥ شرق لنصل بعد ذلك إلى صفراء سالكين إليها طريقا قريبا . وبعد مسير استمر ثلاث عشرة ساعة ، خلال أرض غير مستوية وعامرة بالتلال المنخفضة ، توقفنا قبيل طلوع النهار فى سهل رملى بالقرب من البئر التى يسمونها بير الشيخ ، ولعلنا لاحظنا ، أن مسيراتنا الليلية كانت طويلة جداً ، لكن معدل سير الإبل كان بطيئا جداً ؛ إذ كانت سرعة الإبل لا تزيد على ميلين فى الساعة الواحدة أو كل ساعتين وربع الساعة . بير الشيخ هذه عبارة عن بئر يصل عمقها إلى ما يتردد بين ثلاثين قدمًا وأربعين قدمًا ، وقطرها حوالى خمسة عشر قدما ومبطنة بالحجر الصلب ؛ هذه البئر من عمل هؤلاء الرجال الذين أحسوا بالقلق على راحة المسافرين إلى الأراضى المقدسة ، وذلك على العكس من الرؤساء الحاليين ، والحاج عندما يكون متعجلا يسلك هذا الطريق فى بعض الأحيان ، لكن جرت العادة أن يسافر الحاج عن طريق بدر، ذلك المكان الذى تتوالى عليه القافلتان المصرية والسورية، وهما فى طريقهما إلى مكة ، بفارق يوم واحد أو يومين على أكثر تقدير ، والمعروف أن موعدَى قيام هاتين القافلتين محدد . كنا فى هذه المرحلة قد اقتربنا من سلسلة الجبال الكبيرة ، التى كانت عن يميننا منذ أن تركنا خوليس ؛ سلسلة من هذه الجبال تقع على بعد أميال قليلة شمال بير الشيخ ، وتمتد ناحية الغرب فى اتجاه البحر ، وعند نهاية هذه السلسلة تقع بلدة بدر . التقينا بعض البدو عند بير الشيخ أيضًا ؛ هؤلاء البدو كانوا من قبيلة بنى سالم ، أو بالأحرى السوالمة . واشترى مرشدونا منهم خروفا شووه فى مجبة ؛ والمجبة عبارة

عن حفرة تحفر في الرمل ، وتبطن بأحجار صغيرة ، يجرى تسخينها ، ويوضع اللحم فوق هذه الأحجار ثم يغطى بعد ذلك بالجمار وجلد الخروف المبتل ثم تغلق بعد ذلك بالرمل والطين . وفي غضون ساعة ونصف الساعة ، يطهى اللحم وينضج ، وبذلك تصبح نكهته لذيذة نظراً لأنه لم يفقد شيئاً من عصارته .

اليوم الثانى والعشرون من شهر يناير . تركنا منطقة البئر عند الساعة الثالثة والنصف مساء . وكان اتجاهنا شمال ١٠ غرب وكان الطريق صاعداً إلى أرض غير مستوية ، وخلال ساعة ونصف الساعة دخلنا الجبال من منطقة الزاوية التى تشكل سلسلة الجبال سالفة الذكر ضلعاً من ضلعيها ، فى حين يشكل الفرع الآخر سالف الذكر ، والممتد ناحية بدر ، ضلعها الثانى . أما الجبل الشرقى الذى يمتد موازياً لهذه الزاوية ، فيطلق الناس عليه اسم جبل صبح ، وهؤلاء الصبح فرع من بنى حرب ؛ جبال الصبح هذه تحتوى على وديان خصبة كثيرة ، ينمو فيها نخيل التمور ، كما تزرع فيها أيضاً الذرة . في هذه المنطقة يمكن العثور على شجرة البلسم المكية ، كما توجد فى هذه المنطقة أيضاً شجرة السنا مكى ، أو بالأحرى شجرة السنا العربية ، التى تصدرها القافلة السورية ، ويجرى الحصول عليها من هذه المنطقة فقط . والناس هنا يصفون المرور خلال الأجزاء الداخلية من هذا الجبل ، بأنه شديد الخطورة ، ويعجز الوهابيون عن فرضه على المقيمين . وقد انسحبت أسر عدة من قبائل حرب الأخرى إلى هذه الجبال ، وأخذوا معهم ماشيتهم وحاجياتهم كلها ، ليكونوا بعيدين عن متناول سلطة ابن سعود وسلطانه . وإذا كان بدو الحجاز كلهم قد خضعوا للممتلكات الوهابية ، فإن الصبح هم القبيلة الوحيدة التى نجحت فى الدفاع عن أراضيها ، وأكدت استقلالها .

بعد مسير دام ست ساعات ونصف الساعة ، بدأ الطريق يصعد بين تلال صخرية منخفضة، وبعد مضى سبع ساعات ونصف الساعة دخلنا وادى زجاج ، الذى هو واد صاعد صعوداً هيناً ليناً ، وعامر بالصخور المفككة السائبة ، وعامر بأشجار السنط . ازداد هذا الوادى ضيقاً مع مواصلة سيرنا فيه ، وازداد الشُّعْب انحداراً وصعوبة على

الإبل ، وبعد مضى ثلاث عشرة ساعة ، دخلنا أرضًا مستوية فى أعلى ذلك الوادى ، وبعدها دخلنا وادى الصفراء ، القريب من القرية التى تحمل الاسم نفسه ، والذى نزلنا فيه طلبًا لقسط من الراحة .

اليوم الثالث والعشرون من شهر يناير . نظرًا لأن إبلنا كانت متعبة ، لعدم عثورها على شىء من الغذاء على الطريق ، وعلى الرغم من إطلاقها ترعى طوال فترة الصباح كلها، الأمر الذى جعل الكثير من هذه الإبل تهدد بالانهيار والنفوق ، على الرغم من كل ذلك توقف الجمالة هنا فترة النهار كلها . والصفراء شأنها شأن القرى الأخرى عبارة عن سوق لكل القبائل المحيطة بها ؛ كانت قرية الصفراء مبنية على منحدر الجبل وفى الوادى الضيق ، تاركة بذلك متسعًا لبيارات النخيل التى بجانبى القرية . هناك نهير غزير المياه ينساب نازلاً إلى الوادى ، ومياه هذا النهير موزعة بين أشجار النخيل ، كما تروى هذه المياه أيضًا بعض الحقول المزروعة فى الأجزاء المتسعة من ثنيات والتواءات ذلك الوادى . القمح ، والذرة ، والشعير ، والدخن تزرع فى هذا الوادى ، كما يزرع الناس هنا بعض الخضروات مثل الباذنجان ، والملوخية ، وكذلك البصل والفجل، كما تكثر فى هذا الوادى أيضًا أشجار الكروم، والليمون وكذلك أشجار الموز . والتربة رملية فى سائر أنحاء هذا الوادى لكن الرى يزيد من خصوبتها ، وقد سقطت على الوادى أمطار غزيرة منذ ثلاثة أيام ، اعتبارًا من يوم وجودنا فى هذا الوادى ، وكان لا يزال هناك سيل كبير ينساب عرضه حوالى عشرين قدمًا وعمقه حوالى ثلاثة أقدام أو أربعة . وتمتد بيارات نخيل التمور حوالى أربعة أميال ، وهذه البيارات مملوكة لسكان قرية صفراء ، هم والبدو المجاورين لهم ، الذين يجعلون البعض منهم ، أو إن شئت فقل : العمال العرب ، مسئولين عن رى هذه الأراضى ، على أن يعودوا هم إلى هذه الأراضى عندما ينضج محصول التمر . ونخيل التمر ينتقل من شخص إلى آخر على سبيل التجارة ، ويباع بالواحدة ، يزاد على ذلك أن المهر الذى يدفع لولى العروس البكر عند الزواج منها ، يكون على شكل عدد من النخيل . والنخيل ينمو فى الرمال العميقة التى يجرى جمعها من الأجزاء الوسطى من الوادى ، ويجرى تكويم هذه

الرمال حول جذور النخلة ، ويتعين تجديد تلك الرمال سنويًا ؛ نظرًا لأن السيول عادة ما تجرف ذلك الرمل في كل عام . كل بيارة صغيرة من بيارات النخيل تكون محاطة بسور من الطين أو الحجر ، والزراع يسكنون هجرًا (قرى صغيرة) متعددة ، أو إن شئت فقل : بيوتًا منعزلة ، تنتشر بين النخيل والأشجار ؛ هذه البيوت عادة ما تكون منخفضة وتشتمل دومًا على غرفتين ، وفناء صغير للماشية . هذه البساتين فيها كثير من عيون الماء الجارية ، وكثير من الآبار ، والنهير الوحيد هنا ينبع من بيارة قريبة من السوق ، وهناك مسجد صغير مبني بجوار هذا النبع ، المظلل بعدد صغير من أشجار الكستناء بنية اللون . وأنا لم أر غير هذه الأشجار في الحجاز ، يزاد على ذلك أن ماء النبع كان مالحًا لكنه أقل ملوحة من ماء كل من خوليص ورابغ .

سكان هذا الوادي ، الذي يذيع اسمه في سائر أنحاء الحجاز لوفرة تموره ، هم من قبيلة بني سالم ، أكثر فروع قبيلة حرب عددًا من ناحية السكان ، وهم شأنهم شأن غالبية قبائل الحجاز ، جزء منهم من البدو والجزء الآخر من السكان المستقرين ؛ هؤلاء السكان المستقرين يبقون في منازلهم وبساتينهم طوال العام ، على الرغم من أنهم يلبسون لباس إخوانهم الذين يعيشون في الخيام ويحيون حياتهم. كان الرئيس الوهابي على علم بأهمية هذه المحطة ، وبعد أن نجح الرجل بعد طول عناء في كسر شوكة بني حرب ، الذين كانوا يمتلكون مفتاح شمال الحجاز (*) ، أحس أن من الضروري تركيز انتباهه واهتمامه على هذا الوادي ، ولذلك بنى الوهابيون دشما ، أو إن شئت فقل أبراجا متعددة هناك وجعل جباة متحصلاته يقيمون في تلك الأبراج ، كما كانوا يحتفظون في هذه الأبراج بالضرائب التي يجبونها من الوادي . هؤلاء البدو جميعهم كانوا على عداء مع النظام الوهابي ، وعلى الرغم من تخلصهم من نير الوهابيين حاليا

(*) ساعده المُضَيَّان في هذا العمل ، وكان المضيان هذا من قبل شيخا لقبيلة حرب ، وقد حرمه الجيزي ، أحد منافسيه من هذا المنصب ، وقد جرى بعد ذلك إلقاء القبض بطريق الغدر على المضيان بواسطة الأتراك في المدينة (المنورة)، وجرى إعدامه في القسطنطينية ، وقام محافظ المدينة المنورة التركي بقتل الجيزي ، أحد أصدقاء محمد علي باشا ، عندما راح يتباهى بخدماته التي قدمها للأتراك .

فإنهم يرمونهم بكثير من التوبيخ والتأنيب ، مثلما يمتدحهم أهل مكة . قبل مجيء الوهابيين لم يكن بنو حرب يعرفون سيداً لهم ، ولم يحدث أن فُرض على ما تنتجه أراضيهم أى نوع من أنواع الضرائب ، والمؤكد أن شريف مكة كانت له سيادة اسمية على بنى حرب ، لكن واقع الأمر أن بنى حرب كانوا مستقلين استقلالاً تامًا ، كما أن شيوخهم كانوا يساندون ويؤيدون آراء الشريف مادامت تلك الآراء فى مصلحتهم ولفائدتهم ، أو تعود بالخير على بنى حرب . بنو حرب يشكون حاليا من الضرائب الباهظة التى يفرضها عليهم الوهابيون ، ويقولون إنهم ، علاوة على النقود التى يضطرون إلى دفعها لخزانة سعود ، فإن شيخ شيوخ الوهابيين فى الحجاز ، والمدعو عثمان المضايفة ، يقوم هو الآخر بتحصيل مبالغ أخرى إضافية كبيرة منهم . وأنا أشك فى صدق هذه المعلومة ؛ لأنى أعلم أن الرئيس الوهابى كان يهتم بصورة خاصة بمنع قيام موظفيه بمثل هذه الأعمال الظالمة ، كما كان يعاقب كل من يرتكب هذه الأعمال . أبلغونى أيضا أن الوهابيين لم يفرضوا ضرائب على البساتين والمزارع وحدها ، وإنما فرضوا أيضا ضريبة على الماء المستخدم فى رى هذه المزارع والبساتين ، وكانت هذه الضريبة تدفع كل عام .

لباس أهل قرية الصفراء مكون من قميص ، وسروال من الخام الهندى الخشن اللون ، ومن فوق ذلك يلبسون عباءة من قماش خفيف ، هى من النوع نفسه الذى يلبسه البدو فى منطقة الفرات ، بالقرب من حلب ، كما تشبه أيضا اللباس الذى يرتديه بنو حرب كلهم ، وبخاصة أولئك الذين استقروا منهم ، هذا فى الوقت الذى يرتدى فيه بدو القبيلة عباءة بنية اللون مقلّمة بأقلام بيضاء . الأرباح التى يجنيها بنو حرب من مرور القوافل من ناحية ، ومن المعاملات الصغيرة التى يقومون بها : يبدو أنها كان لها تأثير سيئ على طبيعة بنى حرب ؛ والسبب فى ذلك أن بنى حرب يغشون ويخدعون كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، ومع ذلك فإنهم ليسوا محرومين من المواساة أو الكرم مع الفقراء من الحجاج ، الذين يحاولون أثناء مرورهم عبر أراضيهم ، الحصول من دكاكين بنى حرب على القسم الأكبر من احتياجاتهم الغذائية اليومية . التقينا هنا عدداً كبيراً من الحجاج الفقراء الذين كانوا فى طريقهم إلى المدينة (المنورة) ، ولم يكن معهم

ما يقيم أودهم سوى ذلك الذى كان يحصلون عليه من كرم البدو على الطريق . لم تكن هذه أول مرة أتأمل فيها الإساءة إلى كرم الخلفاء والسلاطين العظام السابقين ، وبخاصة أن هؤلاء الخلفاء والسلاطين أثْروا كلاً من مكة والمدينة (المنورة) ، وأنفقوا مبالغ باهظة من أجل مرور قوافل الحج الكبيرة عبر الأراضى المقدسة ، ولكنهم أهملوا تماماً مسألة توفير الراحة والأمن لعدد كبير من فقراء الحجاج الذين يترحلون بصورة مستمرة فى سائر أنحاء البلاد . لو أنشئوا ستة منازل من منازل الخير والإحسان فى المسافة ما بين مكة والمدينة ، وخصصوا لها هبة سنوية تقدر ببضعة آلاف من الدولارات ، لجاء ذلك بمثابة خدمة واقعية لمسألة الدين ، وذلك على العكس من المبالغ الكبيرة التى ينفقونها على إطعام العاطلين ، أو فى المظاهر الاستعراضية . هذا الطريق الممتد فيما بين مكة والمدينة (المنورة) لا يوجد به خان (لوكاندة) ، ولم يفعلوا شيئًا من أجل إراحة المسافرين، اللهم باستثناء مسألة ترميم الآبار وصيانتها. والشىء الوحيد الذى يعد من أعمال الإحسان من بين أعمال الملوك الذين أثْروا مكة (المكرمة) ، والذى سجله المؤرخون ، يتمثل فى إنشاء مستشفى فى مكة فى عام ٦١٨ هـ ، وذلك بناء على أمر من المؤيد ، سلطان مصر . ولا أثر لذلك المستشفى فى الوقت الحاضر .

فى شارع السوق فى قرية الصفراء ، والذى يطلقون عليه اسم سوق الصفراء ، تعد التمور هى السلعة الوحيدة المعروضة للبيع ، ورطل التمر الذى يباع فى مكة بخمس وعشرين بارة ، يباع هنا بعشر بارات فى سوق الصفراء . عسل النحل المعبأ فى قراب مصنوعة من جلود الأغنام ، يشكل سلعة أخرى من السلع التى تباع فى هذا السوق ، يزاد علـى ذلك أن الجبال المجاورة عامرة بخلايا النحل . فى هذه المناطق التى تشتهر بتردد النحل عليها ، يقوم البدو بوضع خلايا من الخشب على الأرض ، ولكن النحل يندر أن يخطئ هذه الخلايا . والعسل هنا من أجود الأنواع ، وقد شاهدت صنفًا من هذا العسل كان أبيض ورائقًا وشفافًا كما لو كان ماء . العقاقير والتوابل ، وكذلك بعض العطور ، التى يغرم بها بدو هـذه المناطق ، يمكن أيضًا شراؤها من سوق الصفراء .

قرية الصفراء ، وقرية بدر هما القريتان أو بالأحرى المكانان الوحيدان في الحجاز اللذان يمكن فيهما الحصول على بلسم مكة ، أو إن شئت فقل : البلسان ، بحاله النقية . والشجرة التي يجرى منها الحصول على هذا البلسم ، تنمو في الجبال المجاورة لهذين المكانين ، وبخاصة فوق جبل صبح ، وهم يطلقون على هذا البلسم هنا اسم بشيم العرب . قيل لي إن ارتفاع هذه الشجرة يتردد بين عشرة أقدام وخمسة عشر قدماً ، وإن ساقها ناعم ، ولحاءها رقيق . في منتصف الصيف ، يجرى إحداث خدوش صغيرة في ذلك اللحاء ، ويجرى جمع العصارة التي تنتج عن ذلك باستعمال ظفر الإصبع الإبهام ، ويجرى وضعها في وعاء ، ويبدو أن هذا النوع من الصمغ عبارة عن صنفين؛ صنف منهما أبيض، والصنف الثاني لونه خليط من البياض والصفرة ، والصنف الأول هو الأعلى قيمة ، وقد شاهدت هنا بعضا من هذا الصنف الثاني من البلسم ، موضوعاً في قربة صغيرة مصنوعة من جلد الغنم ، يستخدمها البدو في جلب ذلك البلسم إلى السوق ؛ والبلسم له رائحة نفاذة مثل رائحة زيت الترابنتينا ، إضافة إلى أن له طعماً لاذعاً ، وأهل الصفراء عادة ما يغشون البلسم بخلطه بزيت السمسم ، والزفت ، وعندما يختبرون نقاء البلسم ، يغمسون إصبعاً فيه ثم يحاولون إشعال النار في ذلك السائل ، وإذا ما اشتعل ذلك البلسم واحترق دون أن يترك أثراً في الإصبع ، قالوا إنه من نوعية ممتازة، أما إذا ترتب على ذلك إحراق الإصبع، قالوا: إنه مغشوش . وأنا أذكر أني قرأت في أسفار بروس ، عن طريقة لاختبار نوعية البلسم ، وذلك عن طريق إسقاط قطرة من البلسم في كوب مليء بالماء ، والنوع الجيد من البلسم ينزل إلى قاع الكوب، أما النوع الرديء فيذوب في الماء ويطفو على السطح. أجريت هذه التجربة التي لم تكن معروفة للناس هنا ، واكتشفت أن القطرة طفت فوق سطح الماء ، أجريت أيضاً تجربتم على إصبع واحد من البدو ، الذي ندم على تهوره وطيشه . وهنا اعتبرت البلسم الذي يبيعه الناس هنا مغشوشاً ؛ كانت كثافة البلسم هنا أقل من كثافة عسل النحل . كنت أود شراء شيء من هذا البلسم ، لكن لا لغتي ولا دكاكين الصفراء أسعفاني في الحصول على قارورة أضع فيها ذلك الشيء من البلسم ، يضاف إلى ذلك أن القربة الكاملة كانت غالية الثمن عليّ، والبدو الذين يجلبون البلسم إلى هذا المكان ،

عــادة مـا يطلبــون دولارين أو ثلاثة دولارات ثمنًا للرطل الواحد مــن هــذا البلسم ، إذا ما كان نقيًا ، ويقوم أهل الصفراء ببيع البلسم مرة ثانية لحجاج القافلة الكبيرة بسعر يتردد بين ثمانية دولارات واثنى عشر دولارًا للرطل الواحد من البلسم المغشوش . والفرس هم الذين يشترون ذلك البلسم .

البلسم (البلسان) الذى يباع فى كل من جدة ومكة ، اللتان يجلب منهما إلى القاهرة ، يجرى غشه مرات عدة ، وإذا لم يفلح أحد الحجاج فى العثور على بعض البدو الذين يشترى منهم هذا البلسان مباشرة ، ضاع أمله وتبدد فى الحصول على البلسم النقى . طبقات الحجاج الأثرياء ، يضعون قطرة من البلسم فى أول فنجال قهوة يشربونه فى الصباح اعتقادًا منهم أن هذا البلسم من المقويات أو المنشطات . وبذور الشجرة التى يحصل الناس منها على البلسم ، يستعملها الناس فى الحجاز لإحداث الإجهاض عند النساء .

تجب الإشارة هنا ، إلى عرف خاص بمسألة الدية ، فى قبيلة بنى سالم ؛ والدية هى الغرامة التى تدفع لأهل القتيل (وقد تصل هنا إلى حوالى ثمانمائة دولار) ، وتقبلها أسرة القتيل ، والذى يدفع هذه الدية هو القاتل وأسرته ، وأقاربه ، والقاتل شخصيًا يدفع ثلث الدية ، أما الأقارب فيدفعون الثلثين ، وهذا الإجراء على حد علمى لا يسرى فى أى مكان آخر فى الصحراء .

جرت مشادة طويلة بين مرشدينا من البدو وأهل الملايو المرافقين لنا ؛ كان المرشدون قد دخلوا لشراء جملين من السوق ، ليحلا محل جملين آخرين لا يصلحان لمواصلة الرحلة ، ولكن نظرًا لعدم وجود نقود كافية لشراء الجملين ، فقد طلبوا من أهل الملايو تقديم يد العون والمساعدة فى هذا الشأن ، ورجوهم أن يقرضوهم عشرة دولارات يتم سدادها عند الوصول إلى المدينة (المنورة) ، ورفض أهل الملايو تقديم هذه المساعدة ، ونظرًا للضغط عليهم والإلحاح الشديد طلبوا منى التوسط لصالحهم ، لكن البدو أخذوا المبلغ منهم غصبًا بالطريقة التى سبق أن لجأت إليها أنا فى مناسبة سابقة ، وهنا ظهر كيس نقود ذلك الجاوى الذى كان يخبئه فى كيس من أكياس الأرز،

يحتمل أن يحتوى ذلك الكيس على ما يقرب من ثلاثمائة دولار . تخوف صاحب ذلك الكيس من هذا الاكتشاف ، كما تخوف أيضًا من أن يقتله العرب على الطريق طمعًا فى ذلك الكيس ، ولذلك ومن باب عقابه على بخله ، عمل البدو على إزعاجه بصورة مستمرة إلى أن وصلنا المدينة (المنورة) .

اليوم الرابع والعشرون من شهر يناير ، غادرنا سوق الصفراء (*) عند الساعة الثالثة مساء ، وسرنا فى الوادى ، الذى بدأ يتسع فى المنطقة الواقعة خلف السوق . خضرة النخيل والمزارع تتناقض تناقضًا تامًا وفريداً مع الجبال الجرداء التى على الجانبين . كان اتجاهنا شمال ١٠ شرق . اكتشفت هنا أن الصخر فى سائر أنحاء المنطقة مكون من صخور الثون حمراء اللون ، وتتخللها طبقات من الصخر نفسه ولكنه أخضر اللون ، وخلف قرية الجديدة التى تقع على ارتفاع قليل ، اكتشفت عند عودتى من المدينة المنورة نوعًا من صخور ، وعلى بعد مسير ساعة واحدة من السوق ، مررنا بقرية مشابهة للجديدة تدعى الخرمة ، التى تندرج ضمن وادى الصفراء . وبعد مضى ساعتين وصلنا إلى أنقاض عين ماء عامة (سبيل)، بالقرب من بئر شبه مملوءة بالماء . الوادى ينقسم فى هذه المنطقة إلى قسمين : أحدهما يسير فى الاتجاه الشمالى الغربى ، أما القسم الثانى الذى سرنا فيه ، فيتجه صوب أقصى الشمال الشرقى ، وبعد مضى ساعتين ونصف الساعة مررنا بكفر صغير يطلقون عليه اسم الدار الحمراء، وفيه بساتين النخيل والمزارع ، التى يسكنها الحواسب ، الذين هم فرع من قبيلة حرب ، وفى هذه المنطقة بنى الناس أبراجًا صغيرة متعددة للمراقبة ، فوق قمم الجبال المجاورة ، على جانبى الوادى ، بأوامر من عثمان المضايفة ، مستهدفًا بذلك تأمين هذا الشعب . عرضوا علينا كثيراً من الموز أثناء مرورنا خلال ذلك الوادى ، وبعد مضى ساعتين وثلاثة أرباع الساعة ، يبدأ الطريق فى الصعود ،

(*) مر أثناء الليل ، مراسل بريدى كردى ، راكبًا ناقة ، ويصحبته بدو عدة . مر هذا المراسل البريدى بقرية الصفراء ، كان الرجل قادمًا من مركز رئاسة محمد على ، وكان يحمل معلومات استخباراتية عن الاستيلاء على تربة ، إلى طوسون باشا فى المدينة (المنورة) .

وتتحول التربة التى كانت من قبيل الصفراء ومكونة من الزلط والرمل إلى تربة صخرية، وبعد مضى أربع ساعات وربع الساعة تجاوزنا القرية التى يسمونها موقد ، التى تنتج التمر هى الأخرى .

توقفنا فى موقد مدة ربع ساعة ، حيث أحاط بنا عدد كبير من السكان ، وعندما ركبت جملى ، اكتشفت نشل بعض الأشياء البسيطة من أمتعتى . هذا المنحدر يخشاه الحجاج ويخافونه بصفة خاصة ، ويروى الناس قصصاً عن سرقات يرتكبها العرب ، ويكاد العقل لا يصدق هذه القصص . العرب هنا يرتدون فى بعض الأحيان ، زى الجنود الأتراك ويقدمون أنفسهم للقافلة أثناء سيرها فى الليل ، وبهذه الطريقة استطاعوا ، فى العام الماضى ، سرقة واحد من أفضل خيول باشا دمشق ، الذى كان يقود القافلة السورية . جرت العادة أن يهجم هؤلاء العرب من الخلف على جمل الحاج النائم ، ويقفلون فمه باستعمال العباءة ، ويلقون لزملائهم من فوق ظهر الجمل ، الأشياء القيمة . وإذا ما اكتشف أمرهم فإنهم يخرجون خناجرهم ، ويستلونها ويشقون طريقاً لأنفسهم عنوة ؛ وسبب ذلك أنهم إذا ما ألقى القبض عليهم فسوف يحاسبون حساباً عسيراً . والعقاب المعتاد فى مثل هذه الحالات ، هو الموت على الخازوق ، ويكون ذلك بدء تحرك القافلة إلى المحطة التالية ، مخلفينهم وراءهم يلقون حتفهم على الخازوق ، أو تأكلهم الحيوانات الضارية . ومع ذلك ، فإن هذا العقاب المروّع لا يمنع الآخرين من ارتكاب الجرائم نفسها ؛ ولذلك نرى الأفراد من بين البدو يتباهون بأنهم شهيرون وخبراء فى سرقة الحجاج ؛ نظراً لأن الشخصية التى من هذا القبيل تكون بحاجة إلى قدر عال من الشجاعة والمهارة . واعتباراً من هذه المنطقة يبدأ طريقنا فى الاتجاه شمال ٢٠ شرق. فى هذه المنطقة يبدأ واد قاحل أجرد عرضه حوالى ثلاثمائة ياردة ، استسلمنا بعد مسير دام ست ساعات ونصف الساعة ، أمضيناها فى كثير من الانحناءات إلى أن وصلنا قرية الجديدة ، التى تقع فى نقطة يستقيم الطريق عندها ويبدأ فى الصعود المنحدر انحداراً شديداً . شاهدت عدداً كبيراً من النخيل على جانبى الوادى ، الذى يحمل اسم وادى الجديدة ، وينقسم إلى قرى عدة . سوق الجديدة يوجد بالقرب من المدخل الجنوبى ، وهذا السوق أكبر بكثير من سوق الصفراء ، لكنه يكاد

يكون خربًا فى هذه الأيام . واعتبارًا من هذه النقطة يبدأ الوادى فى الضيق ، ممتداً بين صخور منحدرة مسافة مسير حوالى ربع ساعة . فى هذا المكان جرت هزيمة حملة محمد على باشا فى عام ١٨١١ م ، التى جردها ولده طوسون بك على الوهابيين . كان الوهابيون يسيطرون على الجبال من الجانبين ، ولذلك كانت طلقات البنادق تمر عبر الوادى من الجانبين ، عندما كان الجيش التركى يحاول دون جدوى ، اجتياز ذلك المجاز . حضر هذه المعركة القسم الأكبر من شيوخ قبيلة حرب ، والشيخان الوهابيان الجنوبيان : عثمان المضايفة وتامى ، ومعهم اثنان من أولاد سعود .

عند الساعة السابعة والنصف ، أو بالأحرى بعد مرور سبع ساعات ونصف الساعة ، تجاوزنا قرية الخيف ، آخر قرى منطقة الجديدة ، وهنا شاهدنا أيضًا منازل عدة منعزلة عن بعضها ، مبعثرة على طول الوادى . كان فى المنطقة حوالى ثمانون خيمة من خيام الجنود الأتراك ، وكان الهدف من هذه الخيام هو حراسة هذا الممر الذى يعد من أهم المواقع فى الحجاز ؛ لأنه الطريق الوحيد الذى تتمكن القوافل ، عن طريقه ، من الوصول قادمة من مكة أو ينبع إلى المدينة (المنورة) . وقبيلة حرب جاهزة ، بحكم استعدادها للحرب ، للدفاع عن هذا الموقع . وحتى قبل الغزو الوهابى كانت قبيلة حرب تدخل بصورة مستمرة فى حرب مع القافلة السورية ، بل إن باشا الشام (الجزار باشا) جرى رفض مروره مرات عدة من هذا الموقع ، وأُجبر على أن يسلك طريق الحج الشرقى ، الذى يقع خلف سلسلة الجبال الكبيرة ، بدلاً من الخضوع لمطالب بنى حرب حتى يمكنه المرور عبر أراضيهم . يضاف إلى ذلك أن عبد الله باشا ، الذى قاد وترأس قافلة الحج شخصيًا ثمانى عشرة مرة إلى مكة ، اضطر إلى أن يسلك أيضًا الطريق الشرقى بدلاً من الخضوع لمطالب بنى حرب . وبنو حرب عندما يكونون على ود مع القافلة ، يصبح من حقهم الحصول على ضريبة مرور كبيرة يجرى تحصيلها فى منطقة الجديدة .

تبدت لى صفراء أفضل من الناحية السكانية عن الجديدة ، كما أن منازلها كانت أيضًا أكثر عدداً من منازل الجديدة . وأنا عندما أتحدث عن هذا الممر (الشُّعب) ،

أجد أن العرب عادة ما يجمعون بين الاسمين ويقولون : " وادى الصفراء والجديدة " . هذا الوادى يتسع فى المنطقة الواقعة خلف الخيف ، ويشكل عدداً كبيراً من الانحناءات . كانت قافلتنا فى خوف مستمر من اللصوص ، الأمر الذى يجعلنا نصحو الليل بطوله ، على الرغم من أن برودة الجو الشديدة كانت تحول بيننا وبين النوم . كان اتجاهنا بدءاً من الخيف ، صوب شمال ٤٠ شرق، وعند الساعة الثانية عشرة ، وبعد أن بدأنا الصعود خلال الوادى، دخلنا سهلاً، يقع وسط الجبال، طوله حوالى عشرة أميال، ويطلقون عليه اسم النازية ، ونزلنا فى ذلك السهل طلباً لقسط من الراحة .

اليوم الخامس والعشرون من شهر يناير . بقينا مخيمين فى سهل النازية طوال النهار ، كان بعض المسافرين قد أعلمونا عن وقوع بعض الاضطرابات على الطريق الذى ننتوى السير فيه ، والتى لم نكتشف كذبها وعدم صدقها إلا فى اليوم التالى . الصخور المحيطة بهذا السهل جرانيتية فى بعض أجزائها ومن الحجر الجيرى فى أجزائها الأخرى ، وهذا السهل عليه غطاء كثيف من أشجار السنط . والماء الجيد موجود على جانب الجبال ولكنه ليس موجوداً فى السهل نفسه . كان بنو سالم الذين ينتمى إليهم سكان الجديدة يرعون قطعانهم فى هذا السهل ، كان الناس مشغولين هنا بجمع العلف اللازم لإبلهم والذى يحصلون عليه من أشجار السنط ، ومن أجل هذا الغرض كان الناس يفردون حصيراً من القش تحت الشجرة ويروحون يضربون أغصانها بعصى طويلة ، مما يسفرعن سقوط الأوراق الغضة الطرية من أعراف الأغصان ، هذه الأوراق تعد من أفضل الأعلاف التى تقدم للإبل . رأيت هذه الأوراق تباع فى سوق الصفراء باستعمال المكيال . تبادلنا مع سكان السهل البسكويت نظير شىء من الحليب ، وقد أعطانى أحد البدو شيئا من الزبد الطازج مقابل جرعة صغيرة من الدواء أعطيته إياها .

اليوم السادس والعشرون من شهر يناير . بدأنا سيرنا عند الساعة الثامنة مساء، وبعد مسير ساعة ونصف الساعة وصلنا إلى الجبل . يصل عرض ذلك السهل حوالى ستة أميال . ودخلنا منطقة ذلك الجبل من الاتجاه شمال ٥٠ شرق . فى هذا السهل

لا تشكل الصخور المختلطة المكونة من الجرانيت والحجر الجيرى أية طبقات منتظمة . مررنا بعد ذلك عبر منحدر قصير ، وبعد مضى ساعتين ونصف الساعة ، دخلنا سهلاً صغيراً يطلقون عليه اسم شعب الحال ، ويقع بين الجبال ، التى كان فيها مخيمات بدوية عدة . وبعد مضى خمس ساعات ، دخلنا واديًا واسعًا ، يمتد على شكل خط مستقيم ، ويغطيه الرمل الأبيض . كان الليل بارداً ، وكان القمر ساطعًا سطوعًا جميلاً ، وهنا تقدمت للسير فى مقدمة القافلة ، التى كانت بطيئة الخطى ، وسرعان ما وجدتنى أتقدم دون أن أستشعر ذلك التقدم ، إلى أن وجدت نفسى على بعد مسافة كبيرة من القافلة ، وعندما وجدت أن القافلة لم تظهر بعد ، جلست أرضا تحت شجرة من الأشجار ، وكنت على وشك شب النار ، عندما بدأت تتناهى إلىَّ أصوات أقدام الخيول المقبلة علىَّ . ظللت مختبئًا خلف الشجرة ، وسرعان ما رأيت بعض البدو يمرون علىَّ ومظهرهم يوحى بكثير من الشك . بعد أن انتظرت القافلة فترة طويلة ، ومع عجزى عن تعليل تأخرها ، تراجعت قليلا ووجدت الإبل واقفة تنال قسطا من الراحة ، ووجدت كل من كانوا على ظهور هذه الإبل نيام على الأرض ، أما المسافرون سيراً على الأقدام فكانوا لم يصلوا بعد إلى المحطة . حدث ذلك لنا مرات عدة طوال الرحلة . ذلك أن الجمل لم يسمع أصوات من حوله ، وإذا لم يستحثه الجمال ، فإنه يبطئ الخطى ، ثم يتوقف فى النهاية طلبا للراحة ، وإذا ما توقف الجمل القائد فجأة ، فعلت بقية الإبل الشىء نفسه . أيقظت العرب وواصلنا المسير . فى اليوم التالى ، علمنا أن بعض المسافرين جرى سلبهم ونهبهم على الطريق فى تلك الليلة – وكانت هذه الأخبار من أولئك الخيالة الذين مروا بى ، والذين تفرقوا عندما شاهدوا قافلة كبيرة قادمة .

الناس يسمون الوادى الذى كنا نسير فيه باسم وادى الشهداء ؛ إذ يقال إن عدداً كبيراً من أصحاب محمد ﷺ سقطوا قتلى فى المعارك؛ رفات هؤلاء الشهداء مغطى بأكوام من الحجارة فى أجزاء مختلفة من الوادى . كما نشاهد هنا أيضًا مقابر عدة لبعض الحجاج ، كما لاحظت أيضًا بعض الجدران المتهدمة ، التى تدل على مسجد قديم ، المكان هنا ليس فيه ماء . هذه محطة من محطات قافلة الحج . بعد مضى تسع ساعات خرجنا من هذا الوادى ، الذى يقع على مطلع هين لين ، ثم اتجهنا بعد ذلك

فى الاتجاه شرق شمال شرق ، وعبرنا أرضاً صخرية ، ثم دخلنا سهلاً واسعًا يسمونه الفريش ، حيث مرت علينا فى هذا المكان قافلتان صغيرتان قادمتان من المدينة (المنورة) قاصدتان ينبع ، وبعد مضى إحدى عشرة ساعة ونصف الساعة توقفنا لنيل قسط من الراحة .

سهل الفريش على حد قول المؤرخ العصمى ، كان مسرحًا لمعركة دموية فاصلة بين شريف مكة وقبيلتى ظافر وعنيزة فى عام ١٠٣٦ هـ . كانت قبيلة ظافر ، المستقرة حاليًا فى بلاد الرافدين ، فى اتجاه بغداد ، كانت ترعى قطعانها فى المنطقة المجاورة للمدينة (المنورة) .

اليوم السابع والعشرون من شهر يناير . الصخور فى هذه المنطقة كلها من الجرانيت الأحمر. ومرت علينا جماعة بدوية مكونة من نساء وأطفال ومعهم أيضاً خيام؛ هذه الجماعة البدوية تنتمى إلى قبيلة حرب ، فرع الحميدة ، وكانوا قد تركوا المنطقة العالية نظراً لعدم سقوط الأمطار ، وراحوا يبحثون عن مراعٍ فى الجبال المنخفضة . وبينما كنا مخيمين هبت علينا عاصفة هوجاء ، فيها رعد وبرق ، وانهمر المطر على إثرها ، ولما كانت تلك العاصفة قد أنذرتنا بطول وقتها ، ونظرًا أيضًا لأننا لم تكن معنا خيام ، فقد وجدنا أن من الأفضل لنا مواصلة السير . استأنفنا مسيرنا بعد الظهر ، واستمر المطر فى السقوط طوال بقية اليوم والليل بكامله ، وتضافر ذلك مع المناخ البارد فى هذه المناطق المرتفعة، الأمر الذى جعلنا جميعاً نستشعر ذلك البرد القارس . مر طريقنا صاعداً عبر وديان صخرية عامرة بالأشجار الشوكية ، هذا الوادى عبرته سيول عدة سرعان ما تشرّبها ، الأمر الذى جعلنا نعانى بعض المصاعب فى عبور هذا الوادى . بعد مسير ست ساعات وصلنا قمة هذه السلسلة الجبلية ، وعندما تبدى أمامنا السهل الشرقى الواسع ، مررنا بالعديد من التلال المنعزلة . الأرض هنا مغطاة بالصوان البنى والصوان أسود اللون . وبعد مرور تسع ساعات قطعنا مسافة فى الناحية الغربية من مزارع النخيل، وحول المنازل القليلة المبنية والتى يسمونها بير على . وبعد مضى عشر ساعات ، وعند منتصف الليل ، وبعد أن صفت السماء ، وبعد أن زال الصقيع والمطر ، وصلنا أمام بوابة المدينة (المنورة) . كانت البوابة مغلقة ، وتعين

علينا الانتظار لحين طلوع النهار ، وبذلك تنفتح البوابة . ونظراً لعجزى عن شب نار على الأرض فى حطب مبتل ، ونظراً أيضاً لأننا جميعاً كنا منقوعين فى ماء المطر ؛ فقد تسبب صقيع النهار فى زيادة آلامنا ومتاعبنا ، وربما كان ذلك هو السبب الرئيسى وراء إصابتى بالحمى التى ألمت بى فى هذا البلد ، والمعروف أنى كنت أتمتع بصحة جيدة طوال الرحلة .

دخلنا المدينة (المنورة) عند شروق الشمس فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير ، أى بعد ثلاثة عشر يوماً من مغادرة مكة ، توقفنا منها يومين على الطريق . معروف أن قافلة الحج تقطع هذه الرحلة فى أحد عشر يوماً ، وإذا ما كانت متعجلة فإنها تقطعها فى عشرة أيام .

البدو يطلقون على المنطقة الواقعة بين مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ، فى الناحية الغربية من الجبال ، اسم الجحفه ، الذى يعنى فى بعض الأحيان المنطقة الممتدة من مكة إلى بدر فقط .

المدينة (المنورة)

توقفت القافلة فى فناء كبير فى الضاحية التى يجرى فيها تنزيل الأحمال عن الإبل ، وفى الحال تفرق المسافرون مع هذه القافلة بحثاً عن مساكن يقيمون فيها . وبعون من المزوِّر، الذين هم طائفة من الرجال المحترفين ، شأنهم شأن الأدلاء فى مكة، عثرت بعد شىء من التعب ، على سكن طيب فى شارع السوق الرئيسى فى المدينة ، وكان ذلك السكن يبعد حوالى خمسين ياردة عن المسجد النبوى . نقلت متعلقاتى إلى ذلك السكن ، الذى زارنى فيه المزوِّر ، لكى يطلب منى زيارة الحرم النبوى وقبر محمد ﷺ ، وهنا فى المدينة المنورة ، كما فى مكة المكرمة يتعين على المسافر الذى يصل إلى المدينة المنورة القيام بهذه الزيارة ، قبل القيام بأى عمل من الأعمال .

المناسك هنا فى المدينة (المنورة) أسهل وأقصر منها فى مكة ، كما سيتضح لنا حالاً . خلال ربع ساعة فقط تمكنت من القيام بكل هذه المناسك ، وبعدها أصبحت حراً

في العودة إلى المنزل لترتيب أموري المنزلية . ساعدني المزوِّر في شراء بعض المؤن والتموينات ، التي لم نحصل عليها بسهولة ؛ كان طوسون باشا، حاكم المدينة (المنورة) قد قام بطرد البدو والجمَّالة الذين اعتادوا نقل المؤن والتموينات . هذا يعني أن الدقيق والزبد ، هاتان السلعتان الضروريتان في كل مطبخ من المطابخ الشرقية ، كان لابد من شرائهما قبل غروب الشمس ، على الرغم من عدم وجود هاتين السلعتين في السوق العامة ، لكني لم أستطع الحصول على الفحم النباتي إلا بعد ثلاثة أيام ، وبخاصة أن أهمية الفحم ظهرت واضحة جلية وأحسها الجميع خلال هذا الفصل البارد من العام .

وعندما بلغني أن يحيى أفندي ، طبيب طوسون باشا ، هو الشخص نفسه الذي سبق أن أخذ في شهر يوليو الماضي كمبيالتي المالية في جدة ، كان موجوداً في المدينة (المنورة) ، سارعت إلى زيارته في اليوم التالي ، وأطلعته على رسالة تسلمتها في مكة - قبل مغادرتي إياها إلى المدينة المنورة - من البنك الذي أتعامل معه في القاهرة ، تفيد سداد مبلغ الكمبيالة ، التي لم تصل أية أخبار عنها إلى يحيى أفندي نفسه .

كانت معرفتي بيحيى أفندي مفيدة لي تماماً في تلك المناسبة ، فقد أفادتني فيما أنا فيه حالياً . في الزيارة التي زارني إياها عقب زيارتي له مباشرة ، ألقى الرجل نظرة على مجموعة الأدوية الصغيرة التي كانت في حوزتي ، وهي الأدوية نفسها التي حملتها معي في رحلتي في بلاد النوبة ، والتي لم أستخدم أي شيء منها خلال هذه الرحلة ، وأنا لم أستعمل من هذه سوى بعض المطهرات عندما كنت في جدة ومكة ؛ هذا يعني أني كان معي نصف رطل من لحاء الشجر ضمن أدويتي . في ذلك الوقت كان هناك عدد كبير من رجال الباشا مصابين بالحمى ، يضاف إلى ذلك أن طوسون باشا نفسه كان بحال صحي لا يحسد عليه ، ولم يكن لدى طبيبه أدوية تكفي سوى عدد قليل جداً من هذه الحالات . رجاني الطبيب أن يأخذ اللحاء ، الذي أعطيته إياه لأني كنت في صحة جيدة ، واعتقدت أني قريب جداً من القاهرة (مصر) التي كنت آمل الوصول إليها في غضون شهرين . أنا حقيقة مدين ليحيى أفندي ببعض الأشياء الأخرى ، وكنت سعيداً لأني استطعت التعبير له عن شكري وامتناني . بعد يومين ندمت على مسألة الكرم هذه ؛ لأن الحمى داهمتني ، سرعان ما تحولت بعد ذلك إلى شيء خطير ، ونظراً لأن هذه الحمى كانت متقطعة ، فقد تمنيت لو أني تعاطيت دواء اللحاء ، لكني

عندما طلبت من يحيى أفندى شيئًا من ذلك اللحاء ، أفادنى بأنه كان قد وزع آخر جرعة منه ، وأحضر لى بدلاً من اللحاء بعض مسحوق الجنتيانا ، التى فقدت مفعولها منذ زمن طويل . تزايدت الحمى التى كنت أعانى منها ، وأصبحت مصحوبة بقىء فى الصباح وفى المساء ، وعرق شديد ، وعلى امتداد شهر كامل كان حالى سيئًا . ثبت أن الأدوية التى أخذتها كانت عديمة الجدوى ، وبعد أن بدأت فى تناول الأدوية الأخرى ، نظرًا لعدم وجود اللحاء ، التى كنت أحسب أنها تفيد فى علاج حالتى ، ونظرًا أيضًا لأن يحيى أفندى لم يكن يزورنى إلا نادرًا ، نظرًا لكل ذلك تركت مرضى للطبيعة . بعد الشهر الأول ، كانت هناك راحة مدتها أسبوع ، لو تمكنت خلاله من تعاطى دواء اللحاء لتغلبت على اضطراباتى بلا أدنى شك ، لكن الحمى انحسرت لتعاودنى على نحو أشد مما كانت عليه ، وتحولت إلى نوع جديد من الحمى مع استمرار القىء ، وأصبح القىء مصحوبًا بالإغماء فى بعض الأحيان وانتهى الأمر بأن خارت قواى تمامًا . وهنا أصبحت غير قادر على الحركة أو النهوض من فوق السجادة ، دون أن يساعدنى عبدى (خادمى) ، الذى تعود بحكم طبيعته على الاهتمام بالإبل والأشياء التى من هذا القبيل ، بدلاً من الاهتمام بإنسان أو سيده المريض .

كنت فى ذلك الوقت قد فقدت كل أمل فى العودة إلى مصر ، ولذلك بدأت أعد نفسى للوفاة هنا فى الحجاز . سيطر علىَّ الاكتئاب من خوف مفاده ، أنه لو قدر لنبأ وفاتى الوصول إلى إنجلترا ، فقد يؤدى ذلك إلى إدانة رحلتى بكاملها إلى الحجاز ، باعتبارها عملاً غير مسئول قام به رجل غير حصيف ، أو بالأحرى مبشر شديد الحماسة ، يزاد على ذلك أنى لم يكن لدىَّ كتب أو حتى جمعية يمكن أن تحول بينى وهذه الأفكار ، لم يكن بحوزتى سوى كتاب واحد ، مجرد نسخة من نسخ كتب الجيب ، لقصيدة جون ملتون ، ذلك الكتاب الذى سمح لى القبطان بوج ، عندما كنت فى جدة ، أن أخذه من مكتبته فى الكبينة التى يقيم فيها ، وأنا هنا لابد أن أعترف أن هذا الكتاب فى هذا الظرف بالذات كان يساوى رفًا بكامله من الكتب الأخرى . كانت صاحبة المسكن الذى كنت أنزل فيه ، وهى امرأة عجوز ، وربما كانت مصرية الأصل ، كانت قد دأبت طوال مقامى فى ذلك السكن ، على الكلام معى مدة نصف ساعة كل مساء ، دون أن يراها أحد من شرفة الطابق العلوى ، وكان مزوِّرى يزورنى بين الحين

والآخر ، على حد ظني من أجل ، الاستيلاء على شيء من أمتعتي بعد أن أموت . غادر يحيى أفندي - طبيب طوسون باشا - المدينة المنورة في شهر مارس ، بصحبة جيش طوسون باشا ، الذي تألّب على الوهابيين .

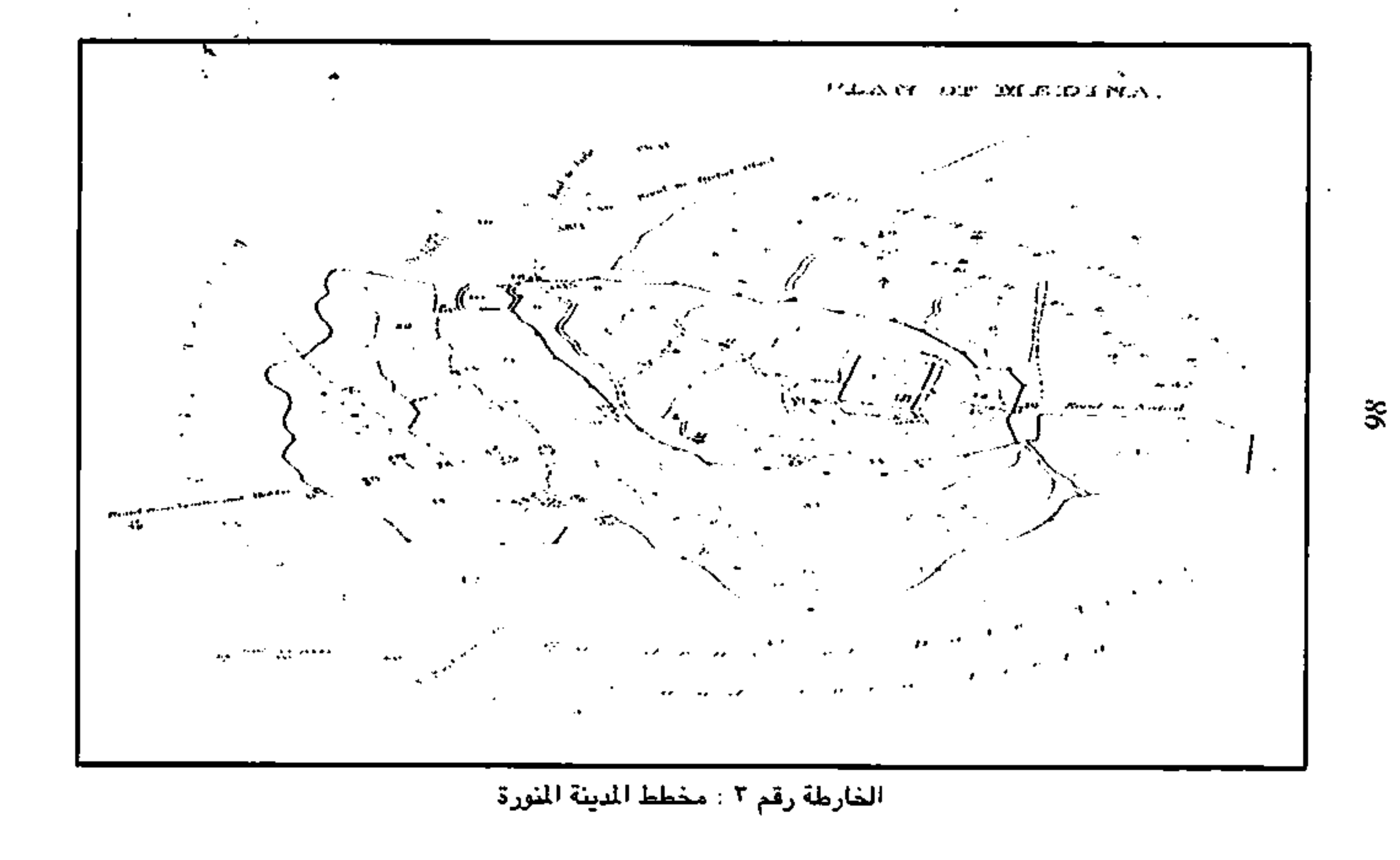
في أوائل شهر إبريل ، وضع الدفء حداً لمرضي ، لكني لم أستطع مغادرة المكان قبل أسبوعين ، وكانت كل نسمة تهددني بعودة الحمى من جديد . يضاف إلى ذلك أن مناخ البلد السيئ ، وماءه كريه المذاق ، وكذلك العدد الكبير من الأمراض المنتشرة في المدينة (المنورة) ، كل ذلك زاد من رغبتي في مغادرة المدينة . كان هدفي الرئيسي البقاء هنا في المدينة المنورة ، على أكثر تقدير ، مدة شهر ثم أصطحب بعض المرشدين من البدو وأعبر معهم الصحراء إلى مدينة العقبة عند نهاية البحر الأحمر ، على شكل خط أو مسار مباشر ، أصل عن طريقه بسهولة ويسر إلى القاهرة . كنت أود من هذا المسار زيارة بلدة الحجر ، على طريق الحج السوري ، حيث كنت أتوقع العثور على بقايا أثرية عتيقة ، لم يتطرق إلى وصفها أي رحال من الرحالة الذين سبقوني ، في حين كان الجزء الداخلي من البلاد مثاراً لكثير من الفضول والموضوعات البحثية الأخرى . ومع ذلك ، كان يستحيل عليَّ تماماً القيام بهذه الرحلة الداخلية وأنا في ظل ظروفي الصحية الحالية ؛ يضاف إلى ذلك ، أني لم أكن أتوقع أن تتحسن صحتي على نحو يمكنني من القيام برحلة من هذا القبيل . هذا يعني أيضاً أن استمرار تعرضي لذلك المناخ ، يعد أمراً غير مطلوب ، وأنا بطبعي كنت أتوق إلى تغيير الهواء ، اقتناعاً مني ، بأني إذا لم أفعل هذا الشيء فسوف يؤدي ذلك إلى معاودة الحمى لي . من هنا وجدتني أتخلى عن الرحلة التي عقدت العزم على القيام بها ، وعليه قررت الذهاب إلى ينبع ، على ساحل البحر ، ومنها السفر بالبحر إلى مصر ، وهذا القرار جاء بناء على الحال الذي كانت عليه حافظة نقودي ، التي أتى وجودي الطويل في المدينة (المنورة) على القسم الأكبر منها . وعندما أحسست بقدرتي على ركوب جمل من الجمال ، رحت أبحث عن توصيلة إلى ينبع ، وأبرمت عقداً مع بدوي ، شكل مع بعض رفاق له قافلة صغيرة بدأت تحركها من ذلك المكان في اليوم الحادي والعشرين من شهر إبريل ، كان ذلك في غضون ستة أيام من الأشهر الثلاثة التي انقضت على وصولي إلى المدينة المنورة ، أمضيت من هذه الأشهر الثلاثة ثمانية أسابيع ملتزماً وسادتي .

وصف المدينة المنورة

ملاحظاتي عن المدينة المنورة ليست كثيرة ؛ لو أني كنت بصحة جيدة لكنت قد زدت على هذه المعلومات والملاحظات ، لكن نظراً لأن المدينة (المنورة) غير معروفة تماماً للأوروبيين ، فقد تنطوي تلك الملاحظات على بعض المعلومات المقبولة . يضاف إلى ذلك أن مخطط المدينة رسمته بنفسي خلال الأيام الأولى من وصولي إليها ، وأنا على يقين من صدق تلك الرسومات وصحتها ، لكن لم تتهيأ لي فرصة تتبع تفاصيل هذا المخطط ، مثلما فعلت في مخطط مكة (المكرمة) . (انظر مخطط المدينة المنورة)(*) .

(*) شرح مخطط المدينة المنورة :

١ - المسجد الكبير المسمى الحرم . ٢ - قبر النبي محمد (ﷺ) . ٣ - منزل شيخ الحرم .
٤ - شارع السوق الرئيسي . ٥ - الشارع المسمى بالبلاط . ٦ - مدرسة عامة اسمها مدرسة المحمدية .
٧ - الشارع المسمى زقاق الطوال . ٨ - بيت القاضي . ٩ - أحياء مهدمة .
١٠ - القلعة . ١١ - حمام عمومي . ١٢ - مخزن قمح .
١٣ - حي بني حسين . ١٤ - حي الأجوات .
١٥ - سلم مؤدي إلى أجزاء مختلفة من القناة في أجزاء مختلفة من المدينة .
١٦ - أبيار ، تنساب مياه القناه في قيعانها . ١٧ - مدفن ، يسمى البقاع .
١٨ - بوابة : تسمى الباب الشامي . ١٩ - بوابة : تسمى الباب المصرى
٢٠ - دكاكين وأكواخ . ٢١ - الميدان المسمى المناخ : مكان توقف البدو والجنود .
٢٢ - حي من الضواحي يسمى الوجهه فيه حقول وبيوت مهدمة . ٢٣ - منزل الحاكم التركي .
٢٤ - وعاء مملوء من ماء القناة . ٢٥ - أفضل المنازل الخاصة في المدينة ، والتي تقيم فيها نساء الباشا .
٢٦ - المسجد المسمى مسجد عمر . ٢٧ - مسجد آخر .
٢٨ - جسر على مجرى السيل . ٢٩ - منزل الباشا ببستانه الكبير .
٣٠ - الشارع والحي المسمى العنبرية . ٣١ - البوابة المسماه باب العنبرية .
٣٢ - برج صغير مبني من جماجم الوهابيين الذين قتلوا عندما استولى الأتراك على المدينة .
٣٣ - حي الضواحي المسماه الساحة . ٣٤ - فناء كبير تتوقف فيه القوافل القادمة من مكة .
٣٥ - بوابة صغيرة تسمى باب القبة . ٣٦ - مجرى السيل .
٣٧ - أحياء فيها منازل وبساتين (أ) حي يدعى الشهرية . (ب) حي يدعى الحمدية .
٣٨ - مستودع مياه للحجاج السوريين . ٣٩ - أبيار مختلفة مالحة الماء .
٤٠ - مخيم قافلة الحج السورية . ٤١ - ضريح صغير يسم القريات .
٤٢ - بيارات نخيل وحقول على جوانب المدينة الثلاثة .



الخارطة رقم ٢ : مخطط المدينة المنورة

تقع المدينة (المنورة) على حافة الصحراء العربية الكبرى ، بالقرب من سلسلة الجبال التى تعبر هذه البلاد من الشمال إلى الجنوب ، وتعد استمراراً للبنان . سبق أن قلت فى مقالى عن الجزيرة العربية أن سلسلة الجبال الموجودة شرقى البحر الميت تمتد فى اتجاه العقبة ، ومن العقبة تمتد هذه السلسلة أيضاً بطول ساحل البحر الأحمر إلى أن تصل إلى اليمن ، وقد تقترب من البحر فى بعض الأحيان ، وفى بعض الأحيان الأخرى قد يفصلها عن البحر سهل يطلق العرب عليه اسم تهامة ، وهذا الاسم نفسه يطلقه أهل اليمن على جزء منه . ذكرت أيضاً فى المقال ، أن انحدار تلك الجبال من ناحية الشرق ، بطول نهر الأردن ، والبحر الميت ، والوادى الذى يطلقون عليه اسم وادى خرابة ، إلى أن يصل إلى العقبة يكون أقل من انحدار هذه السلسلة نفسها من الناحية الغربية ، ومن هنا يرتفع سهل الجزيرة العربية الكبير إلى ما فوق مستوى سطح البحر . وقد أبديت الملاحظة نفسها عندما ذهبت إلى الطائف ، بعد أن عبرت الجبل الذى يسمونه جبل قورة ، الذى هو جزء من تلك السلسلة ، وهذا الشىء نفسه يمكن ملاحظته فى المدينة (المنورة) ، أما الجبل الذى صعدناه أثناء مجيئنا من مكة ، عندما رأيناه أو شاهدناه من الساحل ، يشكل قمماً شديدة الارتفاع ، وعندما وصلنا السهل العلوى ، المجاور للمدينة المنورة ، ظهرت لنا تلك القمم عن يسارنا كما لو كانت تتلألأ ، هذا يعنى أن ارتفاع تلك الجبال فوق السهل الشرقى لا يتعدى ثلث ارتفاعها من ناحية شاطئ البحر الغربى .

الكثبان الأخيرة من تلك الجبال هى التى تلامس المدينة المنورة من الجانب الشمالى، على الجانب الآخر، أو بالأحرى الجانب الجنوبى ، نجد أن الأرض منبسطة ، على الرغم من أنها ليست سهلاً منبسطاً واحداً فى كل الأحوال . هناك فرع من هذه السلسلة يدعى جبل أحد يبرز بعض الشىء من بين هذه السلسلة فى السهل ، ويستمر لمدة مسير ساعة واحدة من المدينة (المنورة) ، فى الاتجاه شمال شمال شرق ثم شمال شرق (*) . بعد مسير ثمانى ساعات أو عشر ساعات (شرق ٦ شمال – شرق ٦ جنوب)

(*) فى هذه التباينات الزاوية لا يؤخذ انحراف إبرة البوصلة بعين الاعتبار .

نجد سلسلة من التلال المنخفضة ترتفع ناحية الشرق ، ويمتد عبرها الطريق المؤدى إلى نجد . هناك تلال أخرى مماثلة ، فى هذه المسافة نفسها ، موجودة فى الاتجاه الجنوبى الشرقى . والأرض على الناحية الجنوبية مستوية على مدد الشوف . وبعد مسير ساعة فى اتجاه الجنوب الغربى نجد أن المنازل مكونة بصفة عامة من طابقين ، ولها أسطح مستوية . ونظراً لعدم طلاء المنازل باللون الأبيض، ونظراً أيضاً لأن الأحجار المستعملة فى البناء من لون غامق ، فإن الشوارع تصطبغ بصبغة الحزن والوجوم ، والشوارع فى معظمها ضيقة جداً ، وعرضها لا يزيد بأى حال من الأحوال عن ثلاث خطوات أو أربع خطوات ، وقلة قليلة من الشوارع الرئيسية هى الممهدة باستعمال كتل حجرية كبيرة ، وهذا شىء يندر أن ينتظره أحد من الرحالة فى الجزيرة العربية . على العموم ، تعد المدينة المنورة واحدة من أجمل المدن التى شاهدتها فى الشرق ، هذا يعنى أن المدينة المنورة تجىء فى المرتبة الثانية بعد حلب . مظهر المدينة المنورة فى الوقت الحالى يوحى بأنها مهجورة أو مقفرة ، هذا يعنى أن بيوت المدينة المنورة أوشكت أو كادت تتحلل ؛ أصحاب هذه المنازل والبنايات الذين جنوا أرباحاً كبيرة من جموع الزوار الذين وصلوا إلى المدينة المنورة فى الأزمان السابقة على امتداد أيام العام الواحد ، هؤلاء الملاك يجدون الآن أن دخلهم قد نقص ، ويرفضون إصلاح أو ترميمات بناياتهم ، نظراً لأنهم يدركون أن نفقات إصلاح هذه المبانى وترميمها وتحسين حالها لا يمكن بأى حال من الأحوال تعويضه عن طريق القيمة الإيجارية لهذه المبانى . هذا يعنى أن زائر المدينة المنورة يشاهد هنا وهناك منازل وأسواراً بحاجة إلى الترميم والإصلاح ، وبالتالى يصبح مظهر المدينة المنورة غير مشجع شأنها فى ذلك شأن السواد الأعظم من مدن الشرق التى لا توحى فى الوقت الحالى إلا بصور خافتة عن ماضيها العظيم .

الشارع الرئيسى فى المدينة المنورة هو أوسع شوارعها ، وهو يصل بين بوابة القاهرة والحرم المدنى ، والسواد الأعظم من دكاكين المدينة المنورة فى هذا الشارع . هناك شارع مهم أيضاً يسمونه البلات ، وهو يمتد من المسجد النبوى إلى البوابة السورية ، لكن عدداً كبيراً من منازل هذا الشارع خربة أو مدمرة : هذا الشارع فيه

أيضًا بعض الحوانيت ، لكن هذه الدكاكين لا يوجد غيرها فى سائر أنحاء المدينة المنورة كلها . من هنا نجد المدينة المنورة مختلفة عن مكة (المكرمة) التى تعد كلها سوقًا متواصلاً . هذا يعنى أن مكة (المكرمة) هى الأكثر شبهًا بالمدن العربية عن المدينة المنورة ، التى هى أشبه بالمدن السورية . لم يكن أمامى متسع من الوقت لتتبع الأحياء المختلفة وزيارتها ، ولكنى سوف أورد هنا الأسماء التى يطلقها الناس هنا على هذه الأحياء .

الحى الذى يقع بين الشارعين الرئيسيين والذى يؤدى من البوابة المصرية والبوابة السورية إلى المسجد (الحرم) النبوى يضم كلاً من الساحة ، وكومة حشيفة ، والبلات ، وزقاق الطوال (هنا يقع مقام، أو بالأحرى منزل القاضى، كما أن هناك أيضًا بساتين عدة ملحقة بالمبانى الكبيرة ؛) وزقاق الضُّرَّة ، وسقيفة ساخى ، وزقاق البقر .

الأحيــاء الواقعة إلى الشمال من شارع البلات ، الممتد إلى الشمال من الحرم النبوى ، ويصل إلى بوابة الجومة هى : الحماطة ، زقاق الحبس ، وزقاق أنكينى ، وزقاق السماهدى ، وحارة الميده ، وحارة الشرشورة ، وزقاق البدو ، وحارة العجوات ، التى يعيش فيها طواشية الحرم .

الأحياء المتفرعة من بوابة الجومة ، على طول الأجزاء الجنوبية من المدينة، وإلى أن تصل إلى البوابة المصرية، وسوق الشارع الكبير هى: دروان ، الصالحية ، زقاق ياهو ، وحارة أحمد حيدر ، حارة بنى حسين ، كما تعيش قبيلة بنى حسين فى هذه المنطقة أيضًا ، حارة البسوغ ، حارة سقيفة ، الرصاص ، زقاق الزرندى ، زقاق الكبريت ، زقاق الحجامين ، حارة سيدى مالك ، التى يقع فيها منزل مالك بن أنس ، مؤسس المذهب المالكى ، وحارة القماشين .

هناك عدد قليل جدًا من المساكن الكبيرة، أو إن شئت فقل البنايات العامة ، تنتشر فى محيط المدينة المنورة . والحرم النبوى الذى يشتمل على قبر محمد ﷺ هو المسجد الوحيد ، وهناك مدرسة عامة ، يسمونها مدرسة الحمدية ، وهى تقع فى شارع البلات ، وهناك مدرسة أخرى، قريبة من المسجد ، الذى يعيش فيه شيخ الحرم ، وهناك

مخزن قمح كبير ، يضم فناء واسعًا ، في الحي الجنوبي من المدينة ، وهناك حمام (وهو الحمام الوحيد) لا يبعد كثيراً عن ذلك المخزن ، بني في عام ٩٧٣ هـ ، وقد بناه محمد باشا ، وزير السلطان سليمان، هذه هي البنايات العامة كلها التي لاحظتها (*) . لاحظت هذا الافتقار إلى الآثار العظيمة في مكة أيضًا . الواضح أن أهل الجزيرة العربية ، ليست لديهم الحاسة أو الذوق المعماري بشكل عام ، بل إن رؤساءهم يرضون في منازلهم بكل ما هو ضروري فقط والبقية الباقية من المباني العامة في مكة والمدينة (المنورة) هي من أعمال سلاطين مصر أو إسطنبول ، يضاف إلى ذلك أن النفقات السنوية الضرورية التي يتحملها هؤلاء السلاطين البعيدين من أجل عيون المدينتين المقدستين بلغت من الكبر حداً يصعب معه على هؤلاء السلاطين زيادة هذه المبالغ ، وبسبب الافتقار إلى البنايات العامة ، في المدينة ، يلجأ الناس إلى الاستعاضة عنها بعدد من المساكن الخصوصية ، التي لها حدائق صغيرة ، وفيها آبار للماء ، وتستخدم هذه المياه في الري ، كما تملأ بها الأحواض الرخامية ، التي يمضي حولها أصحاب هذه المنازل فترة الصيف ، وبخاصة في وقت الظهيرة عندما يتجمعون تحت المظلات حول هذه الأحواض المليئة بالماء .

القلعة التي أتيت على ذكرها ، محاطة بأسوار قوية ، وأبراج عدة صلبة عالية ، لم يسمحوا لي بدخول هذه القلعة ، عندما تقدمت ناحية بابها وطلبت ذلك ؛ هذه القلعة فيها متسع لإقامة ما يتردد بين ستمائة رجل وثمانمائة رجل ، وفيها غرف كثيرة ذات عقود ، وهذه الغرف مضادة للقنابل ، وإذا ما كانت بداخلها حامية جيدة ، وإذا ما كانت مزودة بالمؤن والتموينات تزويداً جيداً ، فقد يصعب على أية قوة من قوى الجزيرة العربيـة اختراقها ، نظراً لأنها مبنية فوق الصخر ، وهذا أمر لا يمكن إغفاله أو التقليل منه . هذه القلعة في مواجهة المدفعية الأوروبية تصبح شيئًا غير ذي بال . والقلعة تحتوي على بئر عميقة فيها ماء طيب . والمعلق على أبراج هذه القلعة في

(*) يأتي مؤرخ المدينة (المنورة) على ذكر عقالات عدة ، أو بالأحرى خانات عامة في هذه المدينة ، ولكني لم أر أيا من تلك الخانات أو العقالات ، ولا أظن أنها موجودة إلى الآن .

الوقت الحاضر مدفعان أو ثلاثة مدافع ، كما أن المدينة كلها ليس بها ما يزيد على عشرة مدافع هى التى تصلح للدفاع عن المدينة .

هناك بعض الضواحى التى تمتد فى الناحية الغربية والناحية الجنوبية من المدينة، وهذه الضواحى تغطى مساحة من الأرض أكبر من مساحة المدينة المنورة نفسها . هذه الضواحى تفصلها عن المدينة مساحة واسعة ، تضيق من ناحية الجنوب ، لكنها تتسع من ناحية الغرب ، من أمام بوابة القاهرة ، حيث تكون بمثابة مكان عام يطلقون عليه اسم المناخ ؛ هـذا الاسم معناه المكان الذى تتوقف فيه الإبل ، أو إن شئت فقل : المكان الذى تنوخ فيه الإبل ؛ وهـذا تفسير صحيح نظـراً لأن هـذا المكان يزدحـم دوماً بالإبل والبدو . هذا المكان فيه الكثير من الأكواخ والمظلات الصغيرة التى أقامها الناس هنا على شكل صفوف ، ويبيع الناس فيها المؤن والتموينات ، وبخاصة القمح ، والتمر ، والخضراوات ، والزبد ، وهناك أيضاً بعض المقاهى التى على شكل أكواخ ، والتى تغص بالزائرين طوال اليوم . جانب الضواحى المواجه للمناخ ليس له سور ، لكن من الناحية الخارجية ، أو بالأحرى فى الغرب وفى الجنوب ، نجد سوراً صغير الحجم وغير قوى ، وذلك على العكس من السور الداخلى فى المدينة . هذا السور مهدّم فى كثير من أجزائه ، وفى الناحية الجنوبية لا يجرى الدفاع عنه إلا من خلال بعض الأبراج الصغيرة . هناك أربع بوابات توصل من الضواحى إلى خارج البلد ؛ هذه البوابات عبارة عن أبواب صغيرة من الخشب ، وهى ليست أبواباً صلبة أو قوية ، ويستثنى من ذلك الباب المؤدى إلى بوابة القاهرة ، إذ يعد هذا الباب أفضل وأمتن صنعاً من بقية الأبواب .

يتكون القسم الأكبر من الضواحى من أحواش كبيرة ، مبنى من حولها شقق سكنية منخفضة ، فوق أرضية هذه الأحواش ، وهذه المساكن مفصولة عن بعضها البعض ببساتين ومزارع ؛ هذه الأحواش عبارة عن أفنية ، ولا يسكن هذه المساكن المنخفضة سوى الطبقات الدنيا من أهل المدينة ، وهم عبارة عن مجموعة من البدو الذين جاءوا واستقروا فى هذه المساكن ، كما يسكن فى هذه المساكن أيضاً هؤلاء البشر الذين يعملون فى مجال الزراعة . كل حوش من هذه الأحواش يحتوى على ما يتردد

بين ثلاثين أسرة وأربعين أسرة، وبذلك نجد أن هذه التجمعات تشكل كفوراً (هجراً) منعزلة ، كانت تستخدم في زمن الفوضى وعدم الاستقرار - في كثير من الأحيان - في الصراعات التي كانت تنشب بين هذه التجمعات . والمواشي يجرى وضعها في منتصف الأفنية ، التي يوجد بئر في منتصف كل واحد منها ، والبوابة الوحيدة للدخول يجرى غلقها بصورة منتظمة أثناء الليل . في الناحية الجنوبية وفي الناحية الشمالية الغربية من المدينة المنورة ، وداخل محيط سور المدينة ، نجد أن الأحياء أو الضواحي الموجودة داخل محيط السور ، مكونة من أفنية مماثلة أو متشابهة ، فيها بساتين واسعة فيما بين هذه الأفنية وخلفها . على الجانب الغربي ، وأمام بوابة القاهرة والمناخ مباشرة ، نجد أن الحي مكون من شوارع منتظمة وممهدة تمهيداً جيداً ، وفيها منازل شبيهة بالمنازل التي في داخل المدينة المنورة . الشارع الواسع الذي يطلقون عليه العمبرية ، يعبر هذا الجزء من الحي ، وفيه مبان جيدة على الجانبين . طوسون باشا يسكن في هذه المنطقة ، في منزل خاص ، وبالقرب من هذا المنزل الخاص، وفي أحسن منازل المدينة المنورة ، والمملوك للتاجر الثرى المدعو عبد الشكور ، كانت تقيم أم الباشا ، أو إن شئت فقل : زوجة محمد علي باشا ، ومعها نساؤه الخصوصيات اللاتي جئن مؤخراً لزيارة الرسول ﷺ .

الأحياء الرئيسية في الضواحي هي : حارة العمبرية ، حارة الوجهة ، حارة الساحة ، حارة أبو عيسى، حارة مصر ، حارة الطيار ، حارة نفيسة ، حارة الحمدية ، حارة الشهرية ، حارة الخيبرية ، حارة الجفر . كثير ممن يعيشون داخل المدينة المنورة لهم منازل صيفية في هذه الضواحي ، يمضون فيها شهراً أثناء موسم حصاد التمر . كل بستان من البساتين مسور بسور من الطين ، وفيه ممرات عدة ضيقة ، تكفي لمرور جمل واحد محمّل لعبور الضاحية في اتجاه واحد .

منطقة المناخ فيها مسجدان: أولهما يسمى مسجد علي، أو مسجد ابن عم النبي ، ويقال إن عمر هذا المسجد يرجع إلى زمن محمد ﷺ ، لكن بناء المسجد بالشكل الذي هو عليه حالياً ، يوضح أنه أعيد بناؤه في عام ٨٧٦ هـ ، ويقال إن محمداً ﷺ كان يصلي دوماً في ذلك المسجد ، وابتغاء لراحة السكان المقيمين في هذه الضواحي ،

والذين تبعد مساكنهم مسافة كبيرة عن الحرم النبوى ، فإن هذا المسجد تقام فيه صلاة الجمعة ، والمسجد الثانى هو مسجد عمر ﷺ وهو ملحق به مدرسة ، ويستعمل حاليًا مخزنًا أو مستودعًا ، وثكنات لبعض الجنود . ومؤرخ مكة (المكرمة) يطلق على كل مسجد من هذين المسجدين اسم مسجد الفتح ، وهو يسمى المسجد الأول باسم المسجد الأعلى ، نظرًا لوقوعه على أعلى جزء من أجزاء المدينة المنورة . هناك أيضًا مسجدان آخران : أحدهما يدعى مسجد على بكر ، والثانى مسجد ذباب ، كان فى هذه المنطقة فى القرن السادس عشر ؛ وكان المناخ فى ذلك الوقت يطلق عليه اسم جبل سوله ، وأهل الجزيرة العربية يطلقون الاسم " جبل " على أية بقعة تكون مرتفعة عن سطح الأرض . فى زمن ذلك المؤلف نفسه كان هناك حوالى خمسة عشر مسجدًا فى هذه المدينة والمنطقة المجاورة لها ، وهى كلها الآن عبارة عن أنقاض ؛ كما يورد المؤلف أيضًا أسماء وتواريخ سبعة وثلاثين مسجدًا آخر أنشئت فى أزمان إسلامية سابقة .

قيل لى إن المنزل الذى عاش فيه محمد ﷺ فى العميرية لا يزال موجودًا إلى يومنا هذا ، لكن كثيرين يشككون فى هذا الموروث ، إضافة إلى أن المنطقة لا يزورها أحد من الناس باعتبارها واحدة من بين الأماكن المقدسة . هنا ، فى هذه المنطقة ، لا توجد مبان قديمة ، كما هو الحال فى مكة . معلوم أن أمطار الشتاء ، وكذلك الجو المالح الرطب ، الذى يسود هذه المنطقة فى فصل الأمطار ، كفيل بتدمير المبانى ، يضاف إلى ذلك أن الأسمنت المستخدم فى إنشاء هذه المبانى من نوعية متدنية ، الأمر الذى يؤدى إلى تفكك الأحجار ، وتحلل الجدران بعد ذلك .

المدينة مزودة بالماء العذب عن طريق قناة تحت السطح، تجلب الماء من قرية قباء ، التى تبعد عن المدينة مسافة مسير ثلاثة أرباع الساعة ، فى اتجاه الجنوب ، وذلك على نفقة السلطان سليمان ، ولد السلطان سليم الأول . الماء متوفر فى أجزاء عدة من المدينة ، وهناك بعض السلالم المؤدية إلى القناة ، والتى يستخدمها السكان فى التزود بالماء ، لكنهم هنا ، وعلى العكس من سكان مكة ، لا يدفعون ثمنًا لذلك الماء . على حدود المناخ ، يوجد مستودع كبير ، مبطن بالأحجار ، ومملوء دومًا بالماء . وماء القناة يوجد على عمق يتردد بين عشرين قدمًا وخمسة وعشرين قدمًا تحت سطح الأرض ،

هـذا المـاء يرد من عيون عدة فى قرية قباء ، وعلى الرغم من أن طعمه غير مستسـاغ من النــوع السـيئ، هذا المـاء إذا مـا ترك مـدة نصف سـاعـة فى إناء ، فـإنه يغطى جوانب الإناء بقشرة نترية (*) بيضاء اللون ، ومن هنا فإن الأجانب الذين لم يعتادوا على ذلك الماء منذ مطلع سنوات الشبـاب ، يعانون ويشتكون من سـوء الهضم والتلبك المعوى الذى ينتـابهم جراء الشرب من ذلك الماء . هذا الماء فاتر نظراً لأن مصدره هو قرية قبـاء ، ولذلك يحتفظ بحرارته حتى عندمـا يصل إلى المدينة المنورة . هنـاك أيضًا كثير من الآبار المبعثرة فى سائر أنحاء المدينة المنورة ، كل بستـان فيـه بئر من هذه الآبار ، وتسـتخـدم ميـاه هذه البئر فى رى البسـتـان نفسـه ، ومن يحفـر الأرض إلى مسافة خمسة وعشرين قدمـًا أو ثلاثين قدمًا يعثر على الماء بكميات وفيرة . بعض الآبار ماؤها حلو سائغ للشاربين ، والبعض الآخر ماؤه مالح . وخصوبة الحقول والبساتين تتناسب مع نوعية مياه البئر فى أى مكان من الأماكن .

وفضلاً عن مياه الآبار والمجرى المائى ، نجد أن المدينة المنورة تستقبل ، فى فصل الشتاء كمية كبيرة من ماء السيل الذى يطلقون عليه اسم سيل المدينة (المنورة) ، أو إن شئت فقل سيل بطحان الذى يأتى من الجنوب إلى الشمـال مـاراً عبر ضـواحى المدينة المنورة وينتهى فى واد حجرى فى الناحية الشمالية الغربية . (**) وليلة واحدة من المطر كفيلة بملء مجرى ذلك السيل ، على الرغم من تناقص مقدار ذلك الماء تناقصًا سريعًا . هذا الجزء من الضـاحية الذى يطلق عليه اسـم العميرية ، عثرت فيـه على جسـر على شكل عقد من العقود يربط بين ضفتى الوادى ، ويصل عرض ذلك الجسر إلى ما يقرب من أربعين قدمًا . المناطق المجاورة لذلك الوادى عـامرة بالسـيول المماثلة للسيل سـالف الذكر ، وهذه السيول تملأ كثيراً من البرك والأراضى المنخفضة ، التى تبقى المياه فيها إلى دخول شـهور الصـيف ، هذه السـيـول ، هى والآبار ، تسـاهم فى توفيـر الماء فى الأجزاء المحيطة بالمدينة المنورة ، وبذلك تتفوق المدينة (المنورة) من حيث وفرة المياه ،

(*) بمعنى محتو على النيتروجين ثلاثى التكافؤ . (المترجم)

(**) السيول المجاورة كلها تنتهى فى الأرض المنخفضة الموجودة فى الجبال الغربية ، التى يطلقون عليها اسم الغابة ، وقد يسمونها أيضًا الزغابة . راجع السمهودى .

على سائر مدن الشمال كلها ، الأمر الذى ساعد على أن تصبح المدينة مستوطنه عربية كبيرة قبل أن تصبح مدينة مقدسة عند المسلمين ، بعد أن هاجر إليها محمد ﷺ وأقام فيها ، وتوفى فيها أيضًا ، والناس هنا يسمون المدينة (المنورة) مدينة النبى .

وفرة المياه فى المدينة المنورة أدت إلى التقليل من أهمية استعمال الخزانات الصغيرة فى البلدة ، وأنا لا أظن أن هناك أكثر من منزلين أو ثلاثة منازل هى التى فيها مثل هذه الخزانات الصغيرة ، وذلك على الرغم من أن جمع ماء المطر لاستعماله فى الشرب يعد أمرًا مطلوبًا ومرغوبًا فيه ، وبخاصة مياه السيول ، التى يفضلها الناس فى الشرب على مياه قباء النترية . فى موسم الأمطار الغزيرة يتحول المناخ الواقع بين الضواحى والمدينة إلى بحيرة كاملة ، وبذلك يغطى الماء المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من المدينة . والسكان يرحبون بهذه الفيضانات باعتبارها مؤشرًا من مؤشرات الوفرة والنعمة والخير ، لا من منطلق أن تلك المياه تروى نخيلهم ريًا غزيرًا وحسب ، وإنما لأنها تتسبب فى نشر الخضرة فى سائر أنحاء السهول البعيدة التى يسكنها البدو ، الذين تعتمد المدينة المنورة فى استهلاكها على ما تستورده من هؤلاء البدو ، من ماشية وزبد .

جوهرة المدينة (المنورة) الثمينة ، التى تضع هذه المدينة المقدسة على قدم المساواة تقريبًا مع مكة المكرمة ، بل وربما تفضيلها على مكة بعض الشىء ، من قبل كثير من الكتاب العرب (*)، تتمثل فى الحرم النبوى الذى يحتوى على قبر محمد ﷺ . المسجد النبوى شأنه شأن المسجد المكي ، يحمل أيضًا اسم الحرم ، من منطلق حرمته وعدم المساس به ، وأهل المدينة هم الذين يطلقون دومًا كلمة " الحرم " على المسجد النبوى ، فى حين يعرف الناس هذا المسجد فى الأماكن الأخرى غير المدينة (المنورة) باسم مسجد النبى ﷺ الذى كان أول مؤسس له . والمخطط الذى أولاه لذلك المسجد يوضح أن هذا المسجد يقع فى أقصى الطرف الشرقى من المدينة

(*) هذا يظهر بشكل واضح عند المالكية ، الذين يقولون : إن المدينة المنورة ، يتعين تكريمها على نحو أكبر من مكة.

(المنورة) ، وليس فى منتصفها ، وهذا على حد تعبير المؤرخين والجغرافيين العرب . وأبعاد المسجد النبوى أصغر من أبعاد المسجد المكى ؛ إذ يصل طول المسجد إلى مائة وخمس وستين خطوة ، وعرضه حوالى مائة وثلاثين خطوة ، ولكنه مبنى طبقًا للمخطط نفسه ، إذ هناك صحن كبير وواسع ، يحيط به من كل الجوانب أبهاء من الأعمدة المسقوفة ، مع وجود مبنى صغير فى منتصف الصحن .(*) أبهاء الأعمدة فى المسجد النبوى أقل انتظامًا عن مثيلاتها فى الحرم المكى ؛ إذ نجد أن صفوف الأعمدة تتساوى المسافات حولها من جميع الجوانب . فى الناحية الجنوبية من المسجد النبوى ، نجد أن بهو الأعمدة مكون من عشرة صفوف متتالية ، وفى الجانب الغربى من المسجد يوجد أربعة صفوف من أبهاء الأعمدة ، وفى الناحية الشمالية ، وجزء من الجانب الشرقى يوجد ثلاثة صفوف فقط من أبهاء الأعمدة . والأعمدة نفسها مختلفة الأحجام . فى الجانب الأيمن، الذى يشتمل على قبر النبى ﷺ ، والذى يشكل أقدس أجزاء المسجد، نجد أن الأبعاد بين الأعمدة أكبر منها فى أية منطقة أخرى من مناطق المسجد ، قطر العمود يصل إلى حوالى قدمين ونصف القدم . والأعمدة ليست لها مثلثات فى الأجزاء العليا منها ، ومحامل العمود تلامس الأرض . هذا التباين والذوق الفظ يتبدى أيضًا هنا كما هو فى المسجد المكى ، هذا يعنى أنه ليس هناك تشابه أو تماثل . والأعمدة فى الحرم النبوى من الحجر ، لكنها جميعها مغطاة بالجبس الأبيض ، ومن الصعوبة بمكان تحديد نوعية ذلك الجبس . وعلى ارتفاع ستة أقدام من الأرض ، نجد الأعمدة مرسوم عليها زهور ، ومزينة بالأرابيسك ، بطريقه فجة ، ويبدو أن الهدف من ذلك كان تعويض افتقار تلك الأعمدة إلى المثلثات العلوية . ومجموعة الأعمدة القريبة من بهو

(*) الأبعاد الواردة عند كل من نيبور هو وديهوسون ليست أبعادًا صحيحة، وقد يكونا قد أخذاها عن رسوم عربية قديمة . كنت قد عقدت العزم على تصحيح هذه الأرقام ، لكن مرضى هو الذى حال بينى وبين ذلك ؛ وأنا لست مضطرًا إلى إضافة بعد قد يكون من قبيل الذكريات . هناك من يحدد هذه الأبعاد تحديدًا مختلفًا تمامًا ، ويقول إنها تقدر بحوالى مائتين وأربعين رُمحًا من حيث الطول ، وحوالى مائة وستين رمحًا من حيث العرض من الجانب الجنوبى ، ومائة وثلاثين رمحًا من الجانب الأيسر . ويضيف أن المسجد يحتوى على حوالى مائتين وستة وتسعين عمودًا . وأنا لست متأكدًا ما إذا كان المسجد قد تغير تغييرًا جوهريًا منذ ذلك الوقت ، وبعد الحريق الذى نشب فيه فى عام ٨٨٦ هـ ، لكنى لا أظن أن المسجد قد تغير تغييرًا كبيرًا ، وأرى أن رواية هذا الرجل فيها قدر كبير من المبالغة .

الأعمدة يسميها الناس هنا الروضة ، وأعمدة الروضة مغلفة إلى منتصف ارتفاعها ببلاطات خضراء لامعة ، مزينة بنقوش الأرابيسك مختلفة الألوان ، هذه البلاطات تبدو كأنها من الفخار أو الخزف المجلوب من البندقية ، وهي من النوع نفسه المستخدم في تغطية الأفران في كل من ألمانيا وسويسرا .

سقف بهو الأعمدة مكون من عدد من القباب الصغيرة ، المطلية من الخارج باللون الأبيض ؛ شأنها في ذلك شأن الأعمدة التي في المسجد المكي . الجدران الداخلية مدهونة أيضًا باللون الأبيض ، اللهم باستثناء الجدار الجنوبي وجزء من الركن الجنوبي الشرقي، التي هي مغلفة ببلاطات من الرخام إلى قممها تقريبًا . توجد صفوف عدة من النقوش، على شكل أحرف كبيرة ، منقوشة بطول الجدار، بحيث تكون نقشًا فوق الآخر، وبذلك يكون لها تأثير كبير على الرخام الأبيض. الأرضية التي تقف عليها أبهاء الأعمدة من الناحيتين الغربية والشرقية وجزء من الناحية الشمالية ممهدة أو مرصوفة بمواد خشنة ، لكن القسم الآخر من الجانب الشمالي غير ممهد ، ومغطى بالرمل فقط ، وهذا هو أيضًا شأن الفناء أو الحوش الواسع كله . في الناحية الجنوبية ، حيث يسرف بنَّاء المسجد في الزينات ، نجد أن الأرضية مرصوفة بالرخام فيما بين أبهاء الأعمدة ، يضاف إلى ذلك أن المناطق القريبة من قبر محمد ﷺ مرصوفة بفسيفساء جميلة متقنة الصنعة ، مكونة بذلك واحدة من أبهى العينات أو الأنواع التي من هذا القبيل في الشرق كله . والمسجد له نوافذ كبيرة وعالية ، لها براويز من الزجاج (التي لم أر لها مثيلاً في الحجاز كله) ، هذه النوافذ تسمح بمرور الضوء من خلال الجدار الجنوبي ، زجاج بعض هذه النوافذ ملون . على الأجناب الأخرى ، توجد بعض النوافذ الصغيرة الأخرى التي تنتشر على طول الجدران الأخرى ، لكنها ليست لها براويز زجاجية .(*)

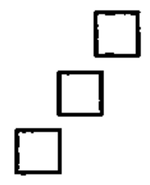
بالقرب من الركن الجنوبي الشرقي ، يوجد القبر الشهير ، منفصلاً عن سائر جدران المسجد ، بحيث يترك بينه وبين الجدار الجنوبي مسافة تقدر بحوالي خمسة وعشرين قدمًا ، ومسافة خمسة عشر قدمًا بين القبر والجدار الشرقي . والسور الذي

(*) يبدو أن فن تلوين الزجاج بألوان ثابتة لم يغب عن الشرق مطلقًا .

يحمي القبر من مبالغة الزائرين في الاقتراب منه ، يتخذ شكل المربع غير المنتظم طوله حوالى عشرين خطوة ، في وسط بهو الأعمدة ، ويدخل عدد كبير من أعمدة البهو ضمن هذا المسوَّر ؛ والمسور عبارة عن سور من الحديد ، مدهون باللون الأخضر ، يصل ارتفاعه إلى ثلثي ارتفاع الأعمدة المحيطة به ، وهذا السور يملأ الفراغات التي بين هذه الأعمدة ، حتى يمكن ترك الجزء العلوى من هذه الأعمدة بارزًا فوق ذلك المسور ، ومكشوف تمامًا . والقضبان الحديدية جيدة الصنعة وهي مجدولة مع بعضها بنقوش برونزية صفراء ، يحسبها الجاهل ذهبًا ، وهي ضيقة الجَدْل على نحو لا يمكِّن من رؤية الأجزاء الداخلية ، اللهم من خلال نوافذ صغيرة متعددة ، مساحة الواحدة منها ست بوصات مربعة ، مركبة في الجوانب الأربعة للسور الحديدى ، على ارتفاع يقدر بحوالى خمسة أقدام تقريبًا عن سطح الأرض . على الجانب الجنوبي من السور الحديدى ، حيث توجد اثنتان من هذه النوافذ ، يقف الزوار أمامهما وهم يدعون الله ، والقضبان الحديدية هنا مطلية بقشرة خفيفة من الفضة ، ومنقوش عليها " لا إله إلا الله ، الحق المبين" . هذه العبارة منقوشة بحروف من الفضة على المسور الحديدى من حول النوافذ . هذا المسور يدخله الناس من أربع بوابات ، ثلاث منها مقفولة بصورة دائمة ، وبوابة واحدة هي المفتوحة فقط ، صباحًا ومساءً للسماح بدخول الطواشية الذين يقومون بتنظيف الأرض وإضاءة المصابيح . كل بوابة من تلك البوابات لها اسمها الخاص ؛ فهذا باب النبى ، وهذا باب الرحمة ، وذلك باب التوبة ، وهذا أيضًا باب ستنا فاطمة . والتصريح بدخول هذا المسوَّر ، الذى يطلقون عليه اسم الحجرة ، لا يعطى إلا لكبار الشخصيات : من أمثال الباشوات ، أو رؤساء قوافل الحج ، ويكون بالمجان، لكن بوسع الناس الآخرين شراء هذا التصريح أو الحصول عليه من الطواشية نظير مبلغ من المال ، يتردد بين اثنى عشر دولارًا وخمسة عشر دولارًا ، يجرى توزيعها على سبيل الهدية بين الطواشية ، لكن قلة قليلة من الحجاج هم الذين يستطيعون الحصول على مثل هذا الأذن أو التصريح ، والسبب في ذلك أن الناس يعرفون أنهم لن يروا أكثر من ذلك الذى رأوه وهم ينظرون من بين قضبان النوافذ، التى تظل مفتوحة طول الوقت، وأنا نفسى لم أود لفت الانتباه إلا لمجرد إشباع فضولى وتطلعى . والذى يظهر من الداخل عبارة عن ستارة دائرية بينها وبين السور الحديدى ممشى أو ممر مكشوف

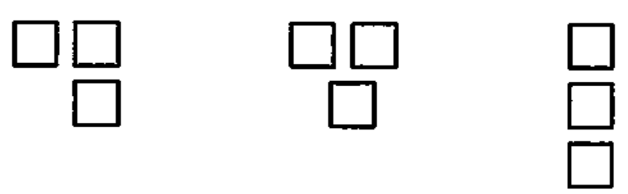
لا يزيد عرضه على خطوات قليلة . يتساوى ارتفاع الستارة بارتفاع الحاجز الحديدى ، لكنى لم أستطع أن أتبين من الأسفل ما إذا كانت الستارة مفتوحة من الأعلى مثل السور الحديدى . هناك غطاء (على حد قول الطواشية) من المادة نفسها المصنوعة منها الستارة ؛ هذه الستارة من الحرير الفخم متباين الألوان والمجدول مع ورود وأرابيسك فضى ، وفيها أيضًا مجموعة من النقوش المذهَّبة التى تمتد بطول المنطقة الوسطى من الستارة ، وهذا الغطاء شبيه بغطاء الكعبة . هذه الستارة لا يقل ارتفاعها عن ثلاثين قدمًا ، والستارة لها بوابة صغيرة فى الجانب الشمالى ، وهذه البوابة مغلقة بصورة دائمة ، ولا يسمح لأى شخص مهما كان بالدخول إلى هذا المكان المشرَّف ، اللهم باستثناء كبار الطواشية ، الذين يرعون هذا المكان ، والذين يقومون أثناء الليل ، بوضع الستارة الجديدة الواردة من إسطنبول ، كلما بليت أو تحللت الستارة القديمة ، أو عندما يعتلى العرش سلطان جديد . ويجرى إعادة الستائر القديمة إلى إسطنبول ، لتستخدم فى تغطية قبور السلاطين والأمراء . (*)

استنادًا إلى ما يقوله مؤرخ المدينة (المنورة) نجد أن الكسوة تغطى بناء مربع الشكل من الحجر الأسود ، محمول على عمودين ، وفى داخله قبر محمد ﷺ واثنين من صحابته وخلفائه وهما : أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه . وعلى حد معرفتى هنا فإن هذه المقابر مغطاة أيضًا بقماش ثمين فاخر ، وعلى شكل نعش أو تابوت ، مثل ذلك التابوت (المقام) الخاص (بسيدنا) إبراهيم فى الكعبة ، أو إن شئت فقل : الحرم المكى . والناس يقولون إنهم مدفونون على النحو التالى :



(*) راجع دهوسون . يقول مؤرخ المدينة المنورة : إن الستارة (الكسوة) كان يجرى تغييرها كل ست سنوات ، وإن الدخل الذى كان يأتى من قرى مصرية عديدة ، كان يخصص ويجنب فى القاهرة لاستخدامه فى صناعة هذه الستائر (الكسوة) .

هذا يعنى أن أكبر المقامات هو مقام محمد ﷺ والذى فوقه أبو بكر . والمؤرخ يقول : إن هذه المقابر عبارة عن حفر عميقة ، وإن التابوت الذى يحتوى على رفات محمد ﷺ مغلف بالفضة ، وعليه من أعلى شاهد من الرخام مكتوب عليه " بسم الله اللهم صلى عليه " . هذا يعنى أن هذه القبور الثلاثة لم تكن دومًا فى المكان الذى هى عليه حاليًا ، وهذا هو السمهودى يعدد مكان هذه القبور الثلاثة فى أزمان مختلفة على النحو التالى :



القصص السائدة فى أوروبا ، من أن قبر النبى ﷺ معلق فى الهواء ، لا أصل ولا وجود لها فى الحجاز ، ولم أسمع عن هذه القصص فى أى بلد آخر من بلاد الشرق ، وذلك على الرغم من أن أكثر الروايات مبالغة فى عجائب وثروات ذلك القبر تأتى على ألسنة هؤلاء الذين زاروا المدينة (المنورة) ، ويودون أن يزيدوا من أهميتهم عن طريق ترديد روايات خرافية لذلك الذى شاهدوه . كانت كنوز الحجاز من قبل تحفظ حول هذه القبور ، إما معلقة فى حبال من حرير ، مشدودة داخل المبنى ، وإما موضوعة داخل صناديق موضوعة على الأرض . وبين هذه الكنوز ، يأتى ذكر نسخة من القرآن بصفة خاصة ، ومكتوبة بالخط الكوفى ، جرى وضعها لتكون تذكارًا ثمينًا ، لأنها كانت من مقتنيات عثمان بن عفان . ويقال إن هذه النسخة لا تزال موجودة فى المدينة المنورة) ، لكننا نشك فى نجاة هذه النسخة من الحريق الذى دمر المسجد وأتى عليه. وأنا بدورى، قلت فى تاريخى عن الوهابيين : إن أعيان المدينة (المنورة) قاموا أثناء حصارها ، بالاستيلاء على كمية كبيرة من كنوزها وبخاصة الأوانى الذهبية ، متظاهرين بأن ذلك سيجرى توزيعه على الفقراء ، لكن هؤلاء الأعيان قاموا فى نهاية الأمر بتقسيم هذه الكنوز فيما بينهم . وعندما استولى سعود على المدينة (المنورة) دخل الحجرة بنفسه ، واخترق المنطقة الواقعة خلف الستار (الكسوة) ، واستولى على كل ثمين وغال فيها ،

كما باع سعود جزءاً من هذه الكنوز إلى شريف مكة ، وحمل الباقى معه إلى الدرعية . ومن بين الأشياء الثمينة التى أخذها سعود معه إلى الدرعية ، قطعة ثمينة جداً ، عبارة عن نجمة لامعة محاطة بالماس واللؤلؤ كانت معلقة فوق قبر النبى ﷺ مباشرة . والعرب يتكلمون دوماً عن هذه القطعة الثمينة، التى يطلقون عليها اسم الكوكب الدُّرى . فى هذا المكان كانت توضع كل أنواع الأوانى المرصعة بالجواهر ، وفى هذا المكان كانت توضع أيضاً الأقراط ، والأساور ، والعقود ، والزينات الأخرى ، التى ترد على سبيل الهدايا من سائر أنحاء الإمبراطورية التركية ، لكنها كان يجرى إحضارها بواسطة كبار الحجاج الذين يمرون على المدينة (المنورة) . والذى لاشك فيه أن ذلك كله كان يشكل مجموعة قيمة لكنها ليست صعبة أو عسيرة التقييم على العكس مما يتخيله بعض الناس . وقد قدر الشريف غالب ذلك الجزء الذى اشتراه بحوالى مائة ألف دولار ، ويقال إن أعيان المدينة المنورة نقلوا ما مقداره مائة وزنة من الأوانى الذهبية ، أى ما يساوى ما يتردد بين أربعين ألف دولار وخمسين ألف دولار ، ويقال إن ما أخذه معه سعود إلى الدرعية كان عبارة عن لؤلؤ ومرجان ، وإنه لم يكن يصل إلى قيمة ذلك الذى اشتراه الشريف غالب . هذا يعنى أن القيمة الإجمالية لهذه الأشياء الثمينة يمكن أن تقدر بحوالى ثلاثمائة ألف دولار . لم يكن للنقود وجود من هذه الإيداعات ؛ لأن الهدايا النقدية التى كانت تقدم للمسجد كان يجرى توزيعها على سدنته فى الحال . وهذا سبب وجيه يجعلنا نسلم بأن الهبات والعطايا التى قدمها المؤمنون على امتداد عصور طويلة وأزمان طويلة أيضاً ، وصلت قيمتها إلى ما هو أكبر بكثير مما سبق ذكره ، لكن قد يكون الأمر غريباً ، إذا لم يقم حكام المدينة (المنورة) ، أو رعاة القبر نفسه ، بالإغارة بين الحين والآخر على هذه الكنوز ، مثلما حدث مع علماء مكة ، قبل ثلاثمائة سنة ، عندما سرقوا مصابيح الكعبة المصنوعة من الذهب ، وأخرجوها من المسجد الحرام مخبئين إياها فى ثيابهم ، وذلك على حد قول المؤرخ قطب الدين .

طوسون باشا نفسه ، عندما وصل إلى المدينة (المنورة) راح يبحث عن الأوانى الذهبية ، التى قام أعيان المدينة (المنورة) ببيعها من جديد لبعض السكان ، ولم يجر صهرها ، وقد عثر طوسون باشا على أوانٍ متعددة ، واشتراها من أصحابها بمبلغ عشرة آلاف دولار ، وأعادها إلى مكانها السابق .

الأرض الواقعة بين الستارة والسور الحديدى ، هى وذلك الجزء من المسجد مرصعة بفسيفساء رخامية زاهية الألوان ؛ فى هذا المكان نجد الثريات الزجاجية معلقة حول الستارة ، وتجرى إضاءة تلك الثريات والمصابيح فى المساء وتظل مشتعلة طول الليل . والمسوَّر كله ، أو بالأحرى الحجرة ، مغطاة بقبة فاخرة ، ترتفع فوق مستوى القباب الأخرى التى تشكل سقف أبهاء الأعمدة ، ويراها الناس من مسافة بعيدة خارج المدينة المنورة ، وزوار المدينة المنورة ما إن يشاهدوا تلك القبة ، إلا ويبدأون فى ترديد بعض الأدعية ، وهذه القبة مغطاة بالرصاص على شكل كرة كبيرة ، ولها هلال متلألئ من الذهب ، (*) لكن الإنشاء والغطاء الرصاصى صَعَّب هذه المسألة ؛ فقد سقط اثنان من العمال من فوق السطح الناعم الأملس ، وقُذِف بهما إلى الأسفل قذفًا عنيفًا ، الأمر الذى أدى إلى إيقاف عملية التدمير ، وهذا الحادث يردده الناس على أنه معجزة من معجزات النبى لصالح مسجده .

بالقرب من ستارة الحجرة ، ولكن بمعزل عنها ، وعلى الرغم من وقوعه فى محيط المسور الحديدى ، الذى ينبغى أن نقر هنا ، بأنه ينحرف بعض الشىء هنا عن الشكل المربع ، يوجد قبر ستنا فاطمة ، ابنة محمد ﷺ ، وزوجة على بن أبى طالب رضي الله عنه ، وقبر ستنا فاطمة مكون من شىء يشبه النعش أو التابوت الذى يشكل مكعبًا من المكعبات ، والقبر مغطى بكسوة من القماش المطرز ، الخالى من أى نوع من الزينة . لكن هناك شىء من الاختلاف فى الرأى ، حول مسألة وجود رفات ستنا فاطمة هنا فى هذا المكان أم فى البقيع، والبقيع منطقة تقع خلف المدينة (المنورة). وإلى أن تجرى تسوية ذلك الخلاف أو الجدل ، فإن الحجاج يجرى إدخالهم إلى المكانين ، ويدفعون لذلك أجرين . على الجدار الشرقى من المسجد ، يوجد شباك صغير ، فى المكان الذى يُقال إن جبريل عليه السلام نزل عليه مراراً قادماً من السماء ، حاملاً الوحى إلى محمد ﷺ . هذه النافذة يسميها الناس مهبط جبريل .

(*) السلطان سليمان بن سليم هو الذى أمر أن تكون تلك الكرة والهلال من الذهب ، وجرى إرسالهما من إسطنبول إلى المدينة (المنورة) . القبة والمسجد كله بالشكل الذى هو عليه حاليًا ، بناهما قايتباى ، سلطان مصر ، فى الفترة من ٨٨١ هجرية إلى ٩٠٢ هجرية .

الحديث الشريف يقول : عندما ينطلق صوت البوق الأخير ، فذلك يعنى نزول عيسى من السماء إلى الأرض ، ويعلن على سكانها قيام القيامة ، ثم يموت عيسى بعد ذلك ، ويجرى دفنه فى الحجرة ، بجوار محمد ﷺ إلى أن يبعث الموتى من قبورهم ، ويبعث معهم كل من محمد ﷺ وعيسى عليه السلام ، ويصعدان إلى الملأ الأعلى ، ويؤمَرُ عيسى عليه السلام فى ذلك اليوم من قبل الله (سبحانه وتعالى) بفصل المؤمنين عن الكافرين . وطبقًا لهذا الحديث الشريف ، فإن البقعة المحددة من خلال الستارة فى الحجرة ، هى التى سيكون فيها قبر عيسى عليه السلام .

خارج المسوَّر الحديدى من الناحية اليسرى أو بالأحرى الناحية الشمالية ، وبالقرب من قبر ستنا فاطمة ، يوجد مقعد مربع فى المسجد ، يرتفع عن مستوى الأرض بحوالى أربعة أقدام ، ومربع آخر حوالى خمسة عشر قدمًا ، يطلق الناس عليه هنا اسم المائدة . طواشية المسجد يجلسون فى هذا المكان ، كما أن مجالس أعيان المدينة ، واجتماعاتهم الرئيسية تعقد فى هذا المكان .

هناك حاجز خشبى ارتفاعه حوالى ثمانية أقدام ، ومدهون بلون الأرابيسك ، ويمتد من الجانب الغربى للمسوَّر الحديدى عبر المسجد ، موازيًا للجدار الجنوبى ، مبتعداً عنه بحوالى خمسة وعشرين قدمًا ، لينتهى بالقرب من البوابة التى يطلقون عليها اسم باب السلام ، وبذلك يمتد ذلك الحاجز الخشبى من الحجرة عبر عرض المسجد كله تقريبًا . هذا الحاجز الخشبى فيه أبواب عدة صغيرة ، وهو يفصل المكان الشريف المسمى الروضة عن الممر العام الذى يجتازه الزائرون ، الذين يتعين عليهم بعد الدخول من باب السلام ، المرور إلى الأمام فى اتجاه الحجرة على امتداد الأعمدة الواقعة بين هذا الحاجز والجدار الجنوبى . بعد الحجرة ، أو إن شئت فقل : ذلك الجزء من بهو الأعمدة الجنوبى شمالى الحاجز ، والذى يعد أشرف أماكن أو أجزاء المسجد النبوى كله، والذى يطلق عليه اسم الروضة ، أى البستان أو الحديقة، أو إن شئت فقل : حديقة المؤمنين ، والذى أطلق هذا الاسم على هذا المكان هو محمد ﷺ ، الذى قال : " بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة " . ومنبر المسجد النبوى يقع

بالقرب من هذا الحاجز، أى فى منتصف المسافة بين الحجرة والجدار الغربى للمسجد، واسم الروضة ينطبق بصورة مباشرة على المسافة الواقعة بين المنبر والحجرة ، وذلك على الرغم من أن بهو الأعمدة الجنوبى كله من المسجد ، والذى يقع إلى الشمال من الحاجز، يندرج تحت هذه التسمية . هذه التسمية (الروضة) هى التى جعلت الناس يدهنون الأعمدة الواقعة داخل حدود هذه المساحة ، إلى ارتفاع خمسة أقدام أو ستة ، ويزينونها بالورود والأرابيسك ، من باب المساعدة على التخيل ، الذى لا يمكن له بغير ذلك ، اكتشاف الشبه الذى بين هذا المكان وجنات عدن . هناك محرابان ، يولى المصلون وجوههم شطرهما عند أداء الصلاة ، باعتبار أن هذين المحرابين هما الاتجاه الدقيق للكعبة المشرفة ؛ (*) هذان المحرابان على جانبى المنبر ، وهما والمنبر من المنمنمات وعلى درجة عالية جداً من الصنعة الجيدة المتقنة . محراب من هذين المحرابين جاء من مصر ، على سبيل الهدية للمسجد النبوى ، والذى أرسل هذا المحراب هو قايتباى ، أما المحراب الثانى فقد جاء من إسطنبول بأمر من السلطان سليمان بن سليم . أرضية الروضة مغطاة بعدد من البسط والسجاجيد الأنيقة ، التى جاءت من إسطنبول ؛ وكما هو الحال فى مكة ، نجد أن هذه البسط والسجاجيد هى الأشياء الوحيدة ذات القيمة فى المسجد ، وقد تصل القيمة الإجمالية لكل هذه البسط والسجاجيد إلى ما يقرب من ألف جنيه إنجليزى . والجزء العلوى من أبهاء الأعمدة مفروش بالحصير .

يتجمع المصلون على سجاد الروضة وبسطها ، نظراً لأن هذا المكان هو المكان المفضل لدى المصلين . أماكن الجلوس خالية من أى تمييز ، ومن حق كل إنسان أن يجلس فى المكان الذى يريده أو يبتغيه ، والمفهوم هنا ، أن الصف الأول القريب من الحاجز ، وكذلك الصفوف الأخرى التى تكون قريبة من الإمام ، تكون مخصصة للأعيان ، ولا يستطيع أحد ممن لا ينتمون إلى هذه الطبقة من الناس أن يقحم نفسه

(*) تغير المحراب إلى جنوب ١١ غرب ، (تغييراً ليس محسوباً) ، والناس هنا يعدون ذلك هو الاتجاه الدقيق لمكة (المكرمة) .

بالوجود في هذا المكان . مدخل الروضة ، بالقرب من باب السلام ، شكله رائع ؛ الألوان البهيجة موجودة في الجوانب كلها ، وهذه هي الأعمدة المزينة بالخزف ، وذاك سجاد فاخر ، وتلك هي نقوش وكتابات مذهبة على الجدار الجنوبي ، وهذه هي قضبان الحجرة اللامعة المتلألئة ، موجودة في الخلف تلفت الأنظار منذ البداية ، لكن بعد برهة قصيرة ، يتضح للناظر أن تلك مجرد أمور زينية بسيطة ولا تمثل ثروات حقيقية . ونحن إذا ما عرفنا أن الروضة ، تعد واحداً من أشرف الأماكن في العالم الإسلامي ، وأن الناس يحتفون بروعة الروضة ، وعظمتها ، وزيناتها ، وأنها يجرى تزيينها عن طريق الهبات والعطايا والتبرعات الدينية ، إذا ما عرفنا كل ذلك استطعنا الوقوف على حقائق هذا المظهر والشكل البسيط لتلك الروضة ؛ هذا المنظر لا يمكن مقارنته بأي ضريح من أضرحة الكنيسة الكاثوليكية الرائعة في أوروبا ، بل يمكن أن يكون ذلك دليل على أن التبرعات والعطايا الدينية عند المسلمين لا يمكن أن تتساوى أو تقاس بالتبرعات والعطايا التي يقدمها المسيحيون المتقون، ونحن إذا ما تغاضينا عن الظروف الأخرى ، التي تقوى العقيدة ، وذلك بغض النظر عن الخرافة والتطرف ، نجد أن المسلمين لا يميلون أو لا يغلب عليهم تقديم تضحيات كثيرة من أجل منشآتهم الدينية ، مثلما يفعل الكاثوليك ، أو حتى المسيحيين البروتستانت .

تتمثل طقوس زيارة المسجد النبوي فيما يلي : يتعين على الزائر في البداية ، قبل الدخول إلى المدينة (المنورة) ، تطهير نفسه عن طريق الوضوء ، والتطيب إن أمكن ، بنوع من الطيب زكي الرائحة . وعندما يقترب من الضريح ، يدعو ببعض الدعوات ، وإذا ما أراد الزائر زيارة قبر الرسول ﷺ قام المزوِّر باقتياده إلى باب السلام ، على أن يضع قدمه اليمنى أولاً على عتبة الباب ، وهذه عادة عامة متبعة في المساجد كلها ، لكن يجرى التركيز على هذه العادة هنا في المسجد النبوي ، ويبدأ الزائر في ترديد بعض الأدعية ، وهو يتقدم صوب الروضة (الشريفة) لأداء ركعتين فيها ، على سبيل التحية للمسجد ، وفي هاتين الركعتين يتلو (الزائر) (السورة رقم ١٠٩ والسورة رقم ١١٢) من القرآن . ثم ينتقل الزائر بعد ذلك من خلال باب من الأبواب الصغيرة الموجودة في حاجز الروضة ، متجهاً صوب السور الحديدي للحجرة ، ليقف

بعد ذلك أمام النافذة الغربية ، أو بالأحرى الركن الجنوبي من هذه النافذة ، ويرفع الزائر يديه أمام وجهه ويروح يقرئ محمدا ﷺ السلام قائلاً: "السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا رسول الله ، "ويروح الزائر يردد عشرين اسماً من أسماء محمد ﷺ ، على أن تسبق عبارة " السلام عليك " كل اسم من هذه الأسماء ، ثم يطلب الزائر بعد ذلك شفاعة الرسول له ، ثم يذكر بعد ذلك أسماء كل أقاربه وأصدقائه الذين يود أن يشملهم دعاؤه ؛ ولهذا السبب لا يتلقى أى أحد من سكان المدينة (المنورة) ، أية رسالة من الخارج دون أن يطلب منه صاحبها أن يأتى على ذكر اسمه أمام قبر النبى ﷺ . وإذا ما كان أحد يحج بالوكالة عن شخص آخر تعين عليه ذكر اسم الموكِّل أمام قبر النبى ﷺ . تستخدم فى هذا الدعاء عبارة ، تستخدم فى زيارة المزارات الطاهرة الأخرى فى المدينة (المنورة) ، لكن هذه العبارة بدت لى كأنها تلهم الزائر بالمشاعر الخيرية أو الإنسانية ، ومن بين الأدعية أيضًا دعاء يشتمل على " اللهم دمر أعداءنا وأجعل جهنم مثواهم " .

بعد هذه الأدعية ، يستحب أن يبقى الزائر دقائق معدودة ورأسه متكئ على النافذة ، وفى صمت ، ثم يخطو الزائر متجهًا إلى الوراء ، ويصلى ركعتين ، فى بهو الأعمدة القريب، والمقابل للسور الحديدى، ثم يقترب الزائر بعد ذلك من النافذة الثانية ، فى ذلك الجانب نفسه ، ليكون فى مواجهة قبر أبى بكر الصديق ، ويدعو بدعاء مماثل للدعاء الذى ردده عند النافذة الأولى (التى يسمونها شباك النبى) ويكون ترديد ذلك الدعاء من باب تكريم أبى بكر الصديق . ويتراجع الزائر إلى الوراء مرة ثانية إلى بهو الأعمدة ، ليدعو دعاءً قصيراً ، ثم يتجه صوب النافذة الثالثة التى على هذا الجانب من السور القضبانى الحديدى ، الذى هو مقابل لذلك الجزء من الستارة التى يقال إن قبر (سيدنا) عمر ﷺ موجود خلفها ، ويدعو الزائر دعاء مماثلاً للأدعية السابقة أيضًا، فى هذا المكان، وبعد الانتهاء من الدعاء يسير الزائر حول الركن الجنوبى الشرقى ، الذى يسمونه الحجرة ، ليقف أمام قبر ستنا فاطمة، وبعد أداء ركعتين يدعو بدعاء لفاطمة الزهراء . ثم يعود الزائر بعد ذلك إلى الروضة ، ليصلى ركعتين ويدعو دعاء بمناسبة مغادرة المسجد النبوى ، وبذلك تكتمل الزيارة ، التى تستغرق حوالى عشرين دقيقة .

فى كل مكان من أماكن الدعاء ، يجلس الناس وقد فرشوا المناديل لتلقى عطايا الزائرين ، التى هى فى حكم الصدقات وليست فى حكم ضريبة من الضرائب ، والزائر يجد صعوبة بالغة فى مغادرة المكان دون أن يدفع هذه الصدقة . وأمام شباك ستنا فاطمة تجلس مجموعة من النساء يتلقين فى مناديلهن عطايا وصدقات من هذا القبيل . يقف الطواشية فى الروضة ، أو إن شئت فقل سدنة المسجد النبوى ، ينتظرون انتهاء الزائر من طقوس الزيارة ، والانتهاء من صلاة الوداع (التحية) ، ويروحون يتمنون له السعادة بعد أن انتهى من الزيارة ، لكى يأخذوا نصيبهم من الصدقات ، يزاد على ذلك أن باب السلام يزدحم بالفقراء ، الذين يحاصرون الزائر ، عندما يغادر المسجد ، هذا هو البواب ينتظر نصيبه ، معتقداً أن ذلك حق من حقوقه . وقد كلفتنى هذه الزيارة حوالى خمسة عشر قرشًا ، وأعطيت دليلى عشرة قروش ، لكن كان بوسعى أداء هذه الزيارة بنصف هذا المبلغ فقط .

هذه الطقوس يمكن تكرارها مرات ومرات حسب رغبة الزائرين ، لكن قلة قليلة من الزائرين هى التى تقبل على ذلك ، باستثناء الوصول إلى المدينة (المنورة) ، وعندما تنعقد النية على مغادرة المدينة . ومع ذلك ، فقد جرت العادة أن يقوم الزائر بهذه الزيارة مرة واحدة كل يوم ، أو أن تكون هذه الزيارة إلى " شباك النبى " فى أضعف الأحوال، والدعاء هناك بدعاء خاص وقصير . هناك أيضًا قاعدة تقضى بعدم الجلوس فى المسجد ، لأداء صلاة من الصلوات اليومية المعتادة ، دون الدعاء للنبى ﷺ ، واليدين مرفوعتين أمام الوجه ولأعلى ، على أن يكون الوجه فى اتجاه القبر . هناك إجراءات عدة مماثلة أخرى تجرى مراعاتها فى كثير من مساجد الشرق ، التى تحتوى على مقابر أو أضرحة لبعض الأولياء . يؤكد علماء الدين الإسلامى أن الدعاء فى المدينة المنورة (فى مسجد النبى) يكون مقبولاً عند الله ، ولذلك يدعو هؤلاء العلماء المسلمين والمؤمنين إلى زيارة المسجد ، قائلين : إن دعوة واحدة أمام الحجرة تساوى ألف دعوة فى أى مسجد آخر ، ما عدا الحرم المكى .

سبق أن قلت : إن الجانبين الشمالي والشرقي ، وجزء من الجانب الغربي من المسجد جيدة البناء مثل الجانب الجنوبي تمامًا ، حيث توجد الحجرة والروضة . الأعمدة التي في هذه الأجزاء أرفع من الأعمدة الأخرى ، وليست جيدة الدهان مثل بقية الأعمدة ، يزاد على ذلك أن الأرضية خشنة ، كما أن الجدران المدهونة بالجبس لا تحمل أي نوع من النقوش الزينية ، اللهم باستثناء الجانب الشرقي ، حيث الصور المأخوذة عن مسجد السيدة صفية ، والرسوم المأخوذة عن مسجد السلطان أحمد ، ومسجد بايا زيد ، كل هذه الرسوم والزينات تسترعي الانتباه ؛ هذه الرسوم مرسومة بالألوان المائية ، على الجدار الأبيض ، دون أدنى اهتمام بالمنظور . كان الجانب الشمالي بكامله في ذلك الوقت تجري له أعمال الصيانة ، وجرى نزع الأرضية القديمة لاستبدالها بأرضية أفضل .

يزاد على ذلك أن الحوش المفتوح المسوَّر الواقع بين أبهاء الأعمدة ، غير ممهد ومغطى بالرمل والزلط . وفي وسط هذا الحوش أو الفناء ، يوجد مبنى صغير ، له سقف على شكل قبة ، يجري فيها الاحتفاظ بمصابيح المسجد ، وبالقرب من هذه القبة يوجد مسوَّر صغير من القضبان الخشبية المنخفضة ، وبداخله بعض النخيل ، الذي يعده المسلمون نخيلاً مقدسًا ، نظرًا لأن الناس يقولون : إن هذا النخيل جرى زرعه بواسطة ستنا فاطمة ، كما أن هناك نخلة أخرى لم يتبق منها إلى يومنا هذا سوى الجذع ، وأنا أرى أن هذه شجرة من أشجار اللوتس . بجوار هذه النخلة توجد بئر ، يسميها الناس بئر النبي ، وماء هـذه البئر مالح ، وربما كان ذلك السبب وراء عدم ذيوع صيت هـذه البئر كشيء مشرف . يقول السمهودي إن هذه البئر يسميها الناس الشامة .

في المساء تضاء المصابيح في سائر أنحاء أبهاء الأعمدة ، وفي الناحية الجنوبية بصفة خاصة ، حيث تكثر أعداد المصابيح في هذا الجانب عنها في الأجناب الأخرى ؛ هذه المصابيح تتدلى من قضبان حديدية ، تمتد من عمود إلى آخر . والطواشية هم وخدم المسجد يجري استخدامهم في إشعال هذه المصابيح ، ونظير هدية أو عطية

صغيرة يحصل عليها خدم المسجد ، فإنهم يسمحون للزوار بالمساعدة في إشعال المصابيح ، وهناك عدد كبير من الحجاج الأجانب يتطلعون إلى القيام بهذا العمل ، الذي يعتقدون أنه مأجور ، كما أن الطواشية يثنون ويمتدحون من يقومون بهذا العمل ، لكن لا يسمح للزوار بأي حال من الأحوال بالمشاركة في إشعال المصابيح التي توضع داخل الحجرة . على جوانب المنبر ، وعلى جوانب المحرابين ، يجري وضع شموع كبيرة ، ويصل سمك الواحدة منها إلى سمك جسم رجل من الرجال ، يصل طول الواحدة منها إلى اثني عشر قدما ، ويجري إشعال هذه الشموع في المساء باستعمال سلم نقال يجري إسناده عليها أو بالقرب منها . هذه الشموع تأتي من إسطنبول . كانت زوجة محمد علي باشا ، التي تصادف أن كانت في المدينة (المنورة) في ذلك الوقت ، قد أحضرت شموعا عدة من هذا القبيل على سبيل الهدية للمسجد ، وقد جرى نقل هذه الشموع الضخمة من ينبع إلى المدينة المنورة بصعوبة بالغة .

المسجد النبوي له أربع بوابات : ١) باب السلام ، وكان يسمى باب مروان (نقلا عن السمهودي) ، وفي الركن الجنوبي الشرقي ، يقع الباب الرئيسي ، الذي يضطر الزائر إلى الدخول منه عند زيارته الأولى ؛ وهذا الباب له مدخل عبارة عن عقد ، وهو أبهى بكثير من باب المسجد الحرام في مكة ، على الرغم من صغر حجمه قياسا على أي باب من أبواب المساجد التي شاهدتها في الشرق . جانبا هذا الباب مشغولان بالرخام والقراميد الخزفية مختلفة الألوان ، ومن فوق العقد توجد مجموعة من النقوش البارزة ، بأحرف مذهبة كبيرة ، فوق العقد وعلى جانبيه ، وهذه النقوش تضفي على الباب ومدخله منظراً يسترعي الانتباه . وأمام هذا الباب (البوابة) مباشرة توجد نافورة (حوض) صغيرة يجري ملؤها ، لكي يتوضأ المصلون منها ، إذا لم يفضلوا الوضوء في المسجد النبوي نفسه ، حيث يجري توافر الجرار المليئة بالماء ، والتي تستخدم في الوضوء . ٢) باب الرحمة ، وكان يسمى من قبل باب عتقة ، وهو في الحائط الغربي ، ويجري من خلال هذا الباب إدخال جثث الموتى إلى المسجد للصلاة عليها . ٣) باب الجبر ، وغالبا ما يطلق عليه اسم باب جبريل، ثم ٤) باب النساء ،

وهو موجود فى الحائط الشرقى ، وهو أقرب الأبواب إلى قبر ستنا فاطمة ، أما الباب الثانى فيوجد على بعد مسافة قصيرة بعد ذلك .

هناك بضع درجات من درج السلم تربط الشوارع المجاورة بالبوابات (الأبواب) ، والسبب فى ذلك أن منطقة المسجد أعلى مما حولها ، وذلك على العكس مما نراه فى مكة . تغلق أبواب المسجد النبوى بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس ، وذلك عن طريق فرد هذه الأبواب المبطنة بالحديد ، ولا يجرى فتح هذه الأبواب إلا قبل الفجر بساعة واحدة ، لكن أولئك الذين يودون الصلاة طول الليل فى المسجد ، يستطيعون الحصول على إذن بذلك من الطواشى القائم بالحراسة، والذى ينام بالقرب من الحجرة. وفى شهر رمضان يظل المسجد النبوى مفتوحا طول الليل .

توجد أبواب عدة فى الجانبين الشمالى الغربى والشمالى ، وهذه الأبواب تفتح على المسجد ، وهى خاصة ببعض المدارس الملحقة بالمسجد النبوى ، لكنها تخلت حاليا عن تميزها السابق . فى هذا الجانب يجلس الشيوخ المعلمون ويتحلق تلاميذهم حولهم على شكل دوائر ، حيث يقوم هؤلاء المعلمون بتعليم الصبية أسس مبادئ القراءة .

شرطة المسجد النبوى ، ومكتب غسل الحجرة ، والمبنى كله ، وكذلك مكتب إضاءة المصابيح إلخ ، كل هذه الأعمال يعهد بها إلى أربعين طواشيًا أو خمسين ، الذين تضمهم مؤسسة شبيهة بمؤسسة الطواشية فى بيت الله فى مكة (المكرمة) ، لكن الطواشية هنا أصحاب قيمة أكبر ؛ بمعنى أن الطواشية هنا يرتدون ملابس أكثر ثراء ، على الرغم من أن هذه الملابس هى من الطراز نفسه الذى يرتديه الطواشية فى الحرم المكى ؛ الطواشية فى المسجد النبوى عادة ما يلبسون شيلانًا من الكشمير ، وملابس من أفخر أنواع الحرير الهندى ، ويبدون كما لو كانوا شخصيات مهمة . هؤلاء الطواشية ، إذا ما مروا خلال السوق ، سارع الجميع إلى تقبيل أيديهم ، وهؤلاء الطواشية لهم نفوذ كبير على الشئون الداخلية فى المدينة (المنورة) ، وهم يتسلمون معاشات سنوية كبيرة تصلهم من إسطنبول عن طريق قافلة الحج السورية ؛

كما يحصل هؤلاء الطواشية على نصيب أيضا من الهبات والتبرعات التى تقدم للمسجد ، كما يتلقون هبات وعطايا من الحجاج الأثرياء ، هذا بالإضافة إلى ما يحصل عليه هؤلاء الطواشية من أتعاب من الزوار الذين يزورون الحجرة . هؤلاء الطواشية يعيشون سويًا فى واحد من أفخم أحياء المدينة (المنورة) ، ويقع فى الناحية الشرقية من المسجد ، ويقال إن منازلهم مؤثثة تأثيثا فاخرا أفخم بكثير من أثاث بقية سكان المدينة (المنورة) . والكبار من هؤلاء الطواشية يتزوجون من إماء سوداوات أو حبشيات .

الطواشية السود ، تراهم ضعفاء على العكس من طواشية أوروبا ، وملامحهم توحى بالخشونة الشديدة ، ولا تميز فيهم سوى العظام البارزة ، وأيدى هؤلاء الطواشية ، تشبه أيدى الهياكل العظمية ، ومظهرهم العام مثير للاشمئزاز الشديد . وهم يخفون ضعفهم باستعمال الملابس السميكة ، ومع ذلك تتبدى للرائى ملامحهم وسماتهم العظمية بشكل واضح ، وعلى نحو يتمكن معه من ينظر إليهم يعرفهم منذ الوهلة الأولى . صوت هؤلاء الطواشية لا يعتريه التغيير ، لكنه لا يمكن أن يصل إلى حد الشبه بصوت الأنثى ، وهذا الصوت ينال إعجاب الكثيرين من المغنين الإيطاليين .

كبير الطواشية يطلقون عليه اسم شيخ الحرم ، وهو أيضا شيخ الجامع ، كما أنه يعد أيضا الشخصية الرئيسية فى المدينة (المنورة) ؛ إذ إن مرتبته أعلى من مرتبة الأغا ، أو شيخ الطواشية في مكة (المكرمة) . رئيس أو شيخ الطواشية هذا ، يوفد من قبل إسطنبول ، وعادة ما يكون عضوا فى بلاد السنيور الكبير الذى يوفده إلى المدينة (المنورة) على سبيل العقاب أو النفى ، متبعا فى ذلك الأسلوب الذى يجرى اتباعه مع الباشوات عندما يرسلون إلى جدة . شيخ الحرم الحالى ، كان يشغل منصب الكسلار أجاسى، أو مسئول نساء الإمبراطور سليم، وتلك واحدة من الاتهامات الأولى الموجهة للبلاط . وأنا لا أستطيع القطع إن كانت شهرة وظيفته السابقة ، والتى يحتفظ بها أعيان الطرق طوال الحياة ، حتى عندما يجرى تجريدهم منها ، أم شهرة شيخ الحرم هى التى أكسبت هذا الرجل أهميته ، لكن الرجل كان دوما

يجرى تقديمه على طوسون باشا ، الذى كان يحمل رتبة باشا جدة ، وبثلاثة شرائط ، يزاد على ذلك ، أن طوسون باشا كان يقبل يد الشيخ عندما يلتقيه ، ولقد رأيته بعينى وهو يفعل ذلك فى المسجد . يزاد على ذلك أن شيخ الحرم هذا له بلاط يجرى تكوينه بالطريقة التى يجرى بها تكوين بلاط (حاشية) الباشا ، لكنها أقل عدداً من حاشية الباشا . وقد أورد دُهسون فى كتابه وصفًا دقيقًا لملابس شيخ الحرم : ملبس هذا الرجل مكون من بليس(*) جميل وفاخر، من فوق ثوب حريرى مطرز، وخنجر مرصع بالماس ، معلق فى وسطه ، وقبعة عالية على رأسه . كان لدى شيخ الحرم الحالى حوالى عشرة خيول ، وشيخ الحرم عندما يخرج ، يمشى أمامه بعض خدم المسجد ، أو إن شئت فقل : بعض فراشى المسجد ، المسلحين بهراوات غليظة .

كان الوهابيون يحترمون شخص شيخ الحرم ؛ عندما استولى سعود على المدينة (المنورة) ، سمح له ولعدد كبير من الطواشية ، بالانسحاب إلى ينبع ، ومعه زوجاته ، وأمتعته كلها ، وأشياءه الثمينة ، لكنه رفض استقبال شيخ آخر للحرم ، وهنا قام الطواشية باختيار واحد من بينهم ليكون رئيسا عليهم ، إلى أن تم بعد ثمانى سنوات ، إرسال شيخ الحرم الحالى عن طريق إسطنبول ، لكن نفوذ شيخ الحرم الحالى على شئون المدينة (المنورة) قلَّ إلى حد بعيد ، وتحول الرجل إلى مجرد ظل لما كان عليه .

أى واحد من طواشية المسجد النبوى يستاء ويتضايق إذا ما وصفه أحد بهذه الصفة ، واللقب المعتاد الذى يطلق على أى واحد من الطواشية هو " أغا " ، وكبير هؤلاء الأغاوات يحمل لقب " سعادتكم " ، شأنه شأن أى باشا من الباشاوات ، أو شريف مكة .

إلى جانب هؤلاء الطواشية ، يضم المسجد بين خدمه عدداً من سكان المدينة ؛ هذا النوع من الخدم يسمون فراشين ، وهذا الاسم يعنى أن مهمة هؤلاء الخدم ، هى المحافظة على نظافة المسجد ، وفرش البسط والسجاجيد . البعض منهم يحضرون إلى

(*) البليس : معطف أو سترة طويلة مبطنة أو مزركشة الأطراف بالفراء . (المترجم)

المسجد النبوى لإشعال المصابيح ، وتنظيف أرضية المسجد ، وذلك بالتعاون مع الطواشية ، بعض هؤلاء الأغاوات ليسوا سوى وظائف عاطلة ، يضاف إلى ذلك أن بعضًا من أهل المدينة (المنورة) ينتمون إلى هذه الفئة . وأنا ليس لدىَّ علم بطريقة الحصول على هذه الوظيفة ، لكنى أعتقد أنها تُشترى من شيخ الحرم . واسم كل فراش من الفراشين يدرج ضمن القائمة التى ترسل كل عام إلى إسطنبول ، والجميع يشاركون فى الهبات والعطايا التى تتلقاها المدينة (المنورة) من العاصمة من ناحية ، ومن الإمبراطورية التركية كلها ، من ناحية أخرى ، والتى يخصص جزء كبير منها للفراشين . قد يبدو أن وظيفة الفراش من الوظائف الوراثية ، أو أنها تنتقل من الأب إلى الابن . ويقدر عدد الفراشين بحوالى خمسمائة فراش ، لكن دهسون يقول إن زيادة عدد الفراشين جاء بناء على التذرع بذريعة تقسيم كل فئة إلى حصة النصف ، ثم إلى الثلث ، ثم إلى الثمن ، وما يتبقى بعد ذلك يعطى لمن يصبح عضوًا جديدًا بين هؤلاء الفراشين ؛ هذا اللقب (فراش) حصل عليه كثير من الحجاج الأجانب ، الذين ينتشرون فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، والذين يرون أن حملهم لذلك اللقب يعد من باب التكريم .

كثير من هؤلاء الفراشين يعملون أيضًا أدلاء ، كما يمارسون أيضًا مهنة الدعاء للغائب وهى مهنة مربحة جدًا . الحجاج الذين يجيئون إلى المدينة (المنورة) يتعرفون على بعض هؤلاء الفراشين ، ليكونوا مرشدين لهم فى الأماكن المقدسة . وعندما يعود هؤلاء الحجاج إلى أوطانهم ، تتكون لديهم قاعدة دينية ، يرسلون بمقتضاها مبلغًا من المال كل عام إلى هؤلاء الفراشين ، الذين يقومون بالدعاء لهم ، أمام شباك الحجرة وهذه المبالغ النقدية ، التى يجرى لفها فى أوراق صغيرة مختومة بالشمع ، وعليها عنوان المرسل إليه ، يجرى جمعها فى كل مقاطعة من مقاطعات الأناضول ، أو إن شئت فقل تركيا الأوروبية ، ليجرى إرسالها من الأناضول إلى المدينة (المنورة) بواسطة كاتب صرَّة إسطنبول ، الذى يرافق قافلة الحج ، ويرأس إدارتها المالية . بعض هؤلاء الفراشين يحتكرون مدنًا ومقاطعات بكاملها ، ويجرى تقديم مواطنى هذه البلدان

والمقاطعات ، الذين يمرون على المدينة (المنورة) ، إلى أولئك الفراشين عن طريق أبناء وطنهم . يزاد على ذلك أن مراسلي الحجاج الآخرين ينتشرون في سائر أنحاء الإمبراطورية ، والأرباح التي يجنيها هؤلاء الفراشين من هذه المهنة ، والتي تشبه الأرباح التي يجنيها القساوسة الروم الكاثوليك نظير القراءات والصلوات التي يقدمونها، تصل إلى مبالغ كبيرة جداً ؛ لقد بلغني أن بعض الفراشين الرئيسيين لدى الواحد منهم ما يتردد بين أربعمائة مراسل وخمسمائة مراسل موزعين أو منتشرين في سائر أنحاء تركيا ، وأن هذا الفراش يتلقى من كل واحد من هؤلاء المراسلين حافزاً ماليًا سنويًا لا يقل عن سكوين (*) بندقي واحد .

عدد الفراشين وعدد الأدلاء كبير جداً . يضاف إلى ذلك أن مهام العمل الذي يكلفون به يمكن أداؤه بسهولة كبيرة ، إلى حد أن القسم الأكبر من هؤلاء الفراشين والأدلاء يكادون يكونون عاطلين عن العمل . أثناء الحكم الوهابي ، توقفت بقاشيش وهدايا هؤلاء الفراشين ، ومع تناقص وصول الحجاج ، قلت تلك البقاشيش والعطايا إلى أدنى حد ممكن ، لذا بدأت الشكوى بسبب توقف البقاشيش والعطايا فترة طويلة من الزمن ، إلى حد أنه على الرغم من استعادة الاتصال عن طريق القوافل فإن الميل إلى تقديم ذلك البقشيش وتلك العطايا بدأ يخبو ويكاد يختفي تماماً .

الوهابيون يمنعهم مذهبهم من زيارة قبر النبي ﷺ ، أو الوقوف أمام الحجرة والدعاء بطلب شفاعته ﷺ . ولما كان محمد ﷺ عندهم مجرد إنسان فان ، فذلك يعني أن قبره عندهم لا يستحق أي قدر من التبجيل . يضاف إلى ذلك أن المذهب الوهابي الديني صارم ومتشدد ، الأمر الذي أغرى سعود بنقل كنوز الحجرة ، التي ظنوا أنها لا يجدر بها ولا تصلح ، من حيث الوقار والتواضع ، لتزيين أي قبر من القبور . ترك سعود القبر وحده دون مساس ، وراح فجأة ينفس عن مشاعر أهل الجزيرة العربية الوطنية من ناحية ، وعن وخزات ضميره من الناحية الأخرى ، ذلك الضمير

(*) يصح فيه أيضاً " زكشين " : وهو نقد ذهبي إيطالي وتركي قديم . (المترجم)

الذى لم يستطع تخليص نفسه من الانطباعات السابقة : لم يُزل سعود الغطاء القماشى المقصَّب عن القبر ، ولم يُزِل أيضًا الستارة التى تلف القبر . يُقال إن الأحلام أزعجته أو كفت يده عن المقدسات ، واحترم سعود أيضًا قبر ستنا فاطمة بالقدر نفسه ، لكنه من ناحية أخرى ، حطم وبلا استثناء ، بنايات المقبرة العامة كلها ، التى دُفن فيها الكثيرون من الصحابة والأولياء ، كما دمر شواهد القبور وأحجارها الزينية ، اعتقاداً من الرجل أن حجرًا بسيطًا يكفى تمامًا لستر جثمان الميت .

والوهابيون عندما يحرمون زيارة القبور، لم يعنوا مطلقًا وقف زيارة المسجد. هذا المبنى الذى بناه النبى ﷺ ، بعد هجرته الشريفة من مكة ، وهو الذى أرسى الأسس الأولى للإسلام ؛ لذا عده الوهابيون أهم وأقدس بقاع الأرض ، بعد بيت الله الحرام فى مكة . كان سعود قد أصدر فى مرة من المرات أوامره بعدم السماح للحجاج الأتراك ، الذين ظلوا يتوافدون من ينبع إلى قبر النبى ﷺ حتى بعد توقيف قوافل الحج المنتظمة ، بدخول المدينة المنورة ، وقد أمر سعود بذلك لمنع ما أسماه دعاءهم الوثنى ؛ وهذا الإجراء كان من الصعب تنفيذه دون استبعاد هؤلاء الحجاج أو الزوار من المسجد النبوى ، كان من رأى سعود أن ذلك المنع أو التحريم لا يصلح فرضه بالقوة ؛ ولذلك آثر سعود إبعاد الحجاج أو الزوار عن المدينة بحجة أن سلوك بعض الحجاج غير السوى هو الذى حتم القيام بهذا المنع . كان سعود نفسه ، ومعه أتباعه يقومون فى معظم الأحيان بزيارة المسجد الشريف ، وفى معاهدة السلام التى أبرمها عبد الله ، ولد سعود ، مع طوسون باشا فى عام ١٨١٥م، ورد النص صراحة على حتمية السماح للوهابيين بزيارة مسجد النبى ﷺ (وليس قبره) دون إزعاج أو مضايقة .

زيارة المسجد النبوى عند المسلمين المخلصين هى مجرد عمل من أعمال الحسنات ولا علاقة لها بمناسك الحج المفروضة على المؤمنين ، ولكن هذه الزيارة شأنها شأن زيارة المسجد الأقصى ، وزيارة قبر سيدنا إبراهيم فى حبرون ، هى من الأشياء المقبولة عند الله (سبحانه وتعالى) ، وأنها تمحو كثيرًا من الخطايا ، كما أنها تدخل الزائر ، فى الوقت نفسه ، ضمن شفاعة النبى للناس عند الله (سبحانه وتعالى) ،

ويقال إن من يصلى أربعين صلاة فى المسجد النبوى ينجو من عذاب جهنم . ونظراً لأن الرسل والقديسين يكونون أكثر تفضيلاً عند الإله (سبحانه وتعالى) نفسه ، الذى لا يقبل أى شيء غير الضمير النقى أو التوبة الخالصة ، وبذلك لا يكون من السهل إرضاؤه ؛ من هنا تصبح زيارة المدينة المنورة لها القيمة والقدر نفسه الذى لزيارة بيت الله فى مكة (المكرمة) ؛ من هنا يتوافد الزائرون وكلهم حماس وشغف على ضريح النبى ﷺ ، أكثر من تدافعهم على الكعبة (المشرفة) . وطوال العام تتوافد على المدينة المنورة جموع الزائرين من سائر أنحاء العالم الإسلامى ، عن طريق ينبع . ويبدو أن المقربين هم أكثر الناس حماساً لزيارة المسجد النبوى ؛ هؤلاء الزائرين الذين يحضرون إلى المدينة المنورة من بينهم من يرغب فى زيارة قبر الإمام مالك بن أنس وهو موجود فى المدينة المنورة ، ومالك هو مؤسس المذهب المالكى الذى يتبعه المغاربة . الحرم المكى تزوره الحاجّات يوميًا ، إذ إن لهن مكانًا خاصًا بهن فى الحرم ، وعلى العكس من ذلك ، هناك من يقول إن دخول النساء إلى المسجد النبوى يعد أمراً غير لائق . أما هؤلاء الذين يأتون إلى المدينة المنورة من بلاد بعيدة فيقمن بزيارة قبر الرسول ﷺ أثناء الليل ، بعد صلاة العشاء ، فى حين لا تجرؤ النساء المقيمات فى المدينة المنورة على الاقتراب حتى من عتبة المسجد ؛ قالت لى صاحبة المنزل العجوز ، التى كانت تعيش فى هذا المكان منذ خمسين عاماً ، مؤكدةً إنها لم تدخل محيط ذلك المكان سوى مرة واحدة فى حياتها كلها ، وإن النساء المنحلات هن اللاتى يجرؤن على أداء الصلاة فى ذلك المكان. على العموم، يندر أن ترى النساء فى المساجد فى الشرق، على الرغم من التصريح لهن بالدخول، ونحن لا نلتقى إلا نادراً سوى قلة قليلة من النساء اللاتى يذهبن إلى المساجد ، كما هو الحال فى مسجد الأزهر فى القاهرة ، حيث تذهب النساء ليشكرن الله العلى القدير ، على أفضاله عليهن . والنساء حتى فى بيوتهن يندر أن يؤدين الصلاة ، اللهم باستثناء النساء كبيرات السن ، يزاد على ذلك أن مسألة قيام المرأة بأداء الصلاة يعد إنجازاً غير طبيعى ، وكذلك حفظ المرأة عن ظهر قلب بعض سور القرآن. لما كانت المرأة فى الشرق تعد من المخلوقات المتدنية ، التى ينكر بعض علماء تفسير القرآن مسألة دخولهن الجنة ، فإن الأزواج لا يهتمون كثيراً

بمسألة مراعاتهن للطقوس الدينية ، كما أن الكثيرات منهن يستأن من هذه العملية ، لأنها ترفع النساء إلى مرتبة المساواة مع الرجل ، ويجب أن نلاحظ هنا ، أن المرأة يمكن أن تصبح زوجة سيئة ، إذا ما تجرأت على المطالبة بالاحترام الذى تستحقه جراء انتظامها فى الصلاة ومداومتها عليها .

هذا المسجد خلو من حمام الحمى ، وذلك على العكس من مكة المكرمة ، لكن كمية البسط والسجاجيد المفروشة فى المسجد النبوى ، والتى يجلس عليها أناس شديدى القذارة ، بجوار الحجاج الذين يرتدون أفضل الثياب ، لقد أصبح المسجد مكانًا مفضلاً لملايين من الحيوانات الأخرى الأقل ضررًا من الحمام ، والتى تشكل طاعونًا فظيعًا للزائرين ، الذين ينقلون هذه الحيوانات إلى منازلهم ، الأمر الذى يجعل هذه المنازل عامرة بالأمراض الطفيلية .

لما كان المسجد النبوى أصغر من المسجد المكى ، ولما كان المسجد النبوى يخضع أيضًا لنظام بوليسى صارم عن طريق الطواشية ، فإنه لا يعانى كثيرًا من الشحاذين والعاطلين الذين تقل أعدادهم فى المسجد النبوى . وهنا يجب أن نعترف بأن قبر محمد ﷺ ، يقذف كثيرًا من الرعب والخوف فى قلوب أهل المدينة المنورة ، كما يثير عندهم أيضًا الكثير من الاحترام والتوقير وذلك على العكس من الكعبة عند أهل مكة ؛ هذا الإحساس هو الذى يمنع أهل المدينة (المنورة) من الاقتراب من قبر النبى ﷺ وفى أذهانهم أفكار لاعبة ، أو لمجرد تمضية الوقت ؛ هذا يعنى أن الناس هنا فى المسجد النبوى يولونه المزيد من الوقار والتقدير ، وذلك على العكس من أولئك الذين يرتادون أو يزورون بيت الله الحرام .

وكما هو الحال فى مكة ، نجد هنا فى المدينة (المنورة) عددًا من الخطباء ، والأئمة ، والمؤذنين ، وبعض الأشخاص الآخرين المنتمين إلى هيئة العلماء ، ملحقين بالمسجد النبوى . يقال إن علماء المسجد النبوى أكثر علمًا من نظرائهم فى مكة ، وإن علماء الأزمان السابقة تركوا مؤلفات قيمة . ومع ذلك ، فإن ظاهر العلم هنا فى المدينة المنورة ، أقل مما هو فى مكة (المكرمة) . أثناء زيارتى للمسجد ، لم أر قط

أحداً من المواطنين في الوقت الراهن يدرس أي نوع من المعارف ، ولم أر سوى قلة قليلة من الحجاج الأتراك وهم يشرحون بعض الكتب مستخدمين في ذلك لغتهم الخاصة بهم ، ولا يستمع إليهم سوى قلة قليلة من رواد المسجد ، ويروحون يجمعون من المستمعين مبالغ من المال تعينهم على تكاليف رحلة العودة إلى وطنهم . وهذا هو طوسون باشا ، العضو الوحيد من بين أفراد أسرته الذي لا يعد من الموحدين المتشددين ، يداوم على حضور تلك المحاضرات ، وكان يجلس مع الأفراد الآخرين ضمن الدائرة التي ينتظمون فيها . قيل لي إن بعض المحاضرات العامة يجرى إلقاؤها في المدرسة التي يسمونها الحمدية ، لكني لم تتح لي فرصة تأكيد هذه الحقيقة . وأنا لا أظن أن في الإمبراطورية الإسلامية مدينة بحجم المدينة (المنورة) لا يجرى فيها إلقاء المحاضرات في المساجد ، يزاد على ذلك ، أن هناك دلائل على أن ذلك كان هو الحال التي كانت عليه المدينة المنورة ، في الأزمان السابقة ، وأن هذه الدلائل تتمثل في كثير من المنشآت الدينية التي أنشئت خصيصاً لهذا الغرض ، والتي لا يزال العلماء يحصلون على خبراتها وعطاياها دون القيام بالواجبات المطلوبة منهم .

الحرم ، أو إن شئت فقل : الحرم المدني ، شأنه شأن الحرم المكي ، له أوقاف كثيرة وسناهيات (*) كثيرة في سائر أنحاء الإمبراطورية التركية . دخل الحرم النبوي السنوي يجرى تقسيمه بين الطواشية ، والعلماء ، والفراشين . أما المصروفات اليومية الخاصة بالإضاءة والصيانة ، فتكون على حساب الجميع . فيما عدا الأشياء الثمينة الموجودة في الحجرة ، لا توجد أية كنوز مالية في المسجد ، وتلك ميزة مزدوجة عند أهل المدينة (المنورة)، الذين تحصل طائفة كبيرة منهم على دخل مريح ، في الوقت الذي يكون فيه أهل المدينة (المنورة) كلها في مأمن من الخطر والعراك الداخلي ، الذي كان يمكن أن يحدث لو علموا أن الاستيلاء على المسجد يمكن أن يعود عليهم بمبالغ كبيرة . لقد ولت وانتهت في الشرق تلك الأيام ، التي كان الناس فيها يضعون كنزاً ثميناً في مكان مقدس حماية لذلك الكنز من السرقة والسلب والنهب. هذا يعني أن أصغر المبالغ

(*) السُّناهية : بتشديد السين وضمها ، المرتب السنوي الذي يحصل الإنسان عليه مدى الحياة . (المترجم)

التى تأتى من المؤسسات العامة ، إنما يجرى إنفاقها على الفقراء ، أو فى أغراض البر والتقوى المخصصة لها ؛ هذه المبالغ تستخدم فى إشباع رغبات جماعة من المنافقين العاطلين، الذين ليس لهم فى اكتساب شىء من المعرفة السطحية ، سوى التطلع إلى المشاركة فى المكاسب غير الشرعية التى تئول إلى رعاة أو سدنة تلك المؤسسات .

المسجد النبوى ، شأنه شأن البنايات العامة ، فى سائر أنحاء الشرق يصعب الوصول إليه نظراً لوجود المساكن الخاصة على جميع الأجناب ، والهدف من ذلك هو ترك شارع واحد مفتوح ، فى بعض هذه الأجزاء ، وبين جدران المسجد ، فى حين نجد المنازل مبنية فى بعض الأماكن الأخرى ، فى مواجهة جدران المسجد ، بل وتخفيها أيضًا . هناك ثلاث مآذن أو خمس (لا أدرى بالضبط) مقامة على أجناب المبنى المختلفة ، ويقال إن واحدة من تلك المآذن الخمس ، تقع أو مبنية فى المكان نفسه الذى كان يقف عليه بلال الحبشى مؤذن الرسول ﷺ .

وأنا أورد فيما يلى نقلاً عن السمهودى مؤرخ المدينة (المنورة) ، تاريخًا موجزًا للمسجد النبوى :

" بنى محمد ﷺ مسجد المدينة المنورة بنفسه ، ولذلك يسمى مسجده ، أو إن شئت فقل : مسجد النبى . عندما وصل النبى ﷺ إلى المدينة المنورة ، التى كانت فى ذلك الوقت بلداً مفتوحة من بلاد العرب ويسمونها يثرب (ومن ثم المدينة) ، بعد فراره من مكة ، وبعد أن تأكد من وجوده بين الأصدقاء ، أقام مسجداً صغيراً ، فى المكان الذى بركت فيه ناقته ﷺ فى البلدة ، بعد أن اشترى الأرض من أصحابها ، وسوّر ذلك المكان بسور من اللبن ، وسقفه بجريد النخل ، واستخدم جذوع النخيل لتكون بمثابة الأعمدة الحاملة لذلك السقف ، هذا المبنى ، سارع محمد ﷺ إلى توسعته بعد أن وضع أساسه الحجرى . وبدلاً من المحراب الذى يبنى فى المساجد لتحديد الاتجاه الذى يتعين على المؤمنين أن يولوا وجوههم شطره عند أداء الصلاة ، قام سيدنا محمد ﷺ بوضع حجر كبير ، جرى فى البداية وضعه فى الناحية الشمالية، أى فى اتجاه القدس ، ثم جرى بعد ذلك وضعه فى اتجاه كعبة مكة ، فى العام الثانى للهجرة ، وذلك عندما تغيرت القبلة القديمة " .

" وسع عمر بن الخطاب المسجد النبوى بجدران من اللبن وسعف النخيل ، واستخدم أعمدة من اللبن بدلاً من جذوع النخل، وبنى أول ما بنى جداراً حول الحجرة، أو إن شئت فقل : المكان الذى دفن فيه جثمان محمد ﷺ عند وفاته ، والذى كان مسوراً فى بداية الأمر بجريد النخل ، وجرى توسيع الميدان الذى تحيط به الجدران ، بأن أصبح طول ذلك الميدان مائة وأربعين رمحاً وعرضه حوالى مائة وعشرين رمحاً ، وكان ذلك فى عام ١٧ هـ " .

" (سيدنا) عثمان هو الذى بنى جدران الحجر المجوف ؛ هذا يعنى أن (سيدنا) عثمان حدد فى عام ٢٩ هـ الأعمدة اللبنية ، وقوى الأعمدة الجديدة بدعامات من الحديد ، وهو أيضاً الذى صنع سقف المسجد النبوى من الخشب الهندى الثمين الذى يسمونه الساج . وجرى توسيع صحن المسجد ؛ إذ أصبح طول الصحن مائة وستين رمحاً وعرضه مائة وخمسين رمحاً ، وجرى فتح ست بوابات فى صحن المسجد " .

" فى العام ٩١ الهجرى ، قام الوليد بن عبد الملك الذى يرجع الفضل إليه فى دمشق فى بناء المسجد الجميل المسمى المسجد الأموى ، قام بتوسعة مسجد النبى ﷺ . فى ذلك الحين ، كانت المنازل التى كانت مساكن لزوجات محمد ﷺ وبناته وقريباته تقع بالقرب من الحجرة ، خارج حدود المسجد ، التى يوجد فيها بوابات خاصة لتلك المنازل . على الرغم من المعارضة الكبيرة التى واجهت الوليد بن عبد الملك ، فقد أجبر هؤلاء النساء على ترك منازلهن ، مقابل أسعار مرضية وعادلة ، ثم قام وليد بهدم تلك المنازل ، وتوسعة جدار المسجد النبوى فى تلك المنطقة . قام الإمبراطور الإغريقى ، الذى كان مسالماً للوليد بن عبد الملك ، فى ذلك الوقت ، بإرسال بعض العمال من القسطنطينية إلى المدينة ، هؤلاء العمال ساعدوا فى إنشاء المبنى الجديد لذلك المسجد (*) ؛ ونظراً لأن الكثيرين من هؤلاء العمال كانوا من المسيحيين ،

(*) يقول المقريزى فى حديثه عن الملوك الذين أدوا فريضة الحج : إن الإمبراطور اليونانى (الذى لم يذكر اسمه) أرسل إلى الوليد مائة عامل وهدية قيمتها حوالى مائة ألف مثقال من الذهب ، مع أربعين حملاً من الأحجار المقطّعة ، لاستعمالها فى عمل المنمنمات .

فقد تصرفوا – على حد ما بلغنا – على نحو غير لائق ، وقد سقط على واحد من هؤلاء العمال ، حجر أدى إلى قتله ، عندما حاول تدنيس قبر النبى ﷺ ؛ هذا الحجر سقط على ذلك الرجل من السقف . وجرى وضع أعمدة من الحجر فى المسجد ، وجرى تزيين أو طلاء الجزء العلوى من تلك الأعمدة بالذهب ، كما جرى أيضًا تجليد الجدران بالرخام المزين بأشكال مختلفة، كما جرى أيضًا طلاء جزء من تلك الجدران بالذهب ، وبذلك يكون المسجد قد تم تجديده تمامًا " .

" فى عام ١٦٠ هـ ، قام الخليفة المهدى بتوسعة أخرى ؛ إذ أصبح طول صحن المسجد حوالى مائتين وأربعين رمحًا ، وبقى المسجد على حاله هذا طوال قرون عدة " .

" الحاكم بأمر الله ، ملك مصر الذى لم يكن سوىّ العقل أوفد واحدًا من مبعوثيه لتدمير الحجر الأسود فى الكعبة كما قام أيضًا بمحاولة فاشلة ، لأخذ قبر محمد ﷺ من مسجد المدينة المنورة ، ونقله إلى القاهرة . فى عام ٥٥٧ هـ ، وفى عهد الملك العادل نور الدين ، ملك مصر ، تنكر مسيحيان ، واكتشف أمرهما فى المدينة المنورة ؛ هذان المسيحيان حفرا ممرًا تحت سطح الأرض ، من منزل من المنازل المجاورة إلى الحجرة فى المسجد النبوى ، وسرقا منها أشياءً غالية القيمة ، وعندما جرى تعذيب هذين المسيحيين ، اعترفا بأنهما أرسلا من قبل ملك إسبانيا للقيام بهذه السرقة ، ودفع الرجلان حياتهما ثمنًا لفعلتهما . قام السلطان نور الدين بعد ذلك بعمل خندق حول الحجرة ، وملأ ذلك الخندق بالرصاص منعًا لأية محاولات تكون من هذا القبيل" .

" فى عام ٦٥٤ هـ ، وقبل أشهر قليلة من ثورة بركان بالقرب من المدينة المنورة ، اندلع حريق فى المسجد ، الذى احترق تمامًا ، ولم يبق منه سوى أرض المسجد ، ولكن المصاحف الموضوعة فى الحجرة لم تصب بسوء . وقد عزا الناس ذلك الحادث إلى الشيعة الفارسيين من بنى الحسين ، الذين كانوا رعاة وسدنة لقبر محمد ﷺ . وفى العام التالى أعيد بناء المسجد على نفقة كل من الخليفة المعتصم بالله ، ابن المنتصر بالله ، وإمام اليمن ، المظفّر شمس الدين يوسف ، واكتمل إنشاء المسجد على نفقة الظاهر بيبرس ، سلطان مصر فى عام ٦٥٧ هـ . جرى بناء القبة فوق

الضريح في عام ٦٧٨ هـ ، وقام ملوك عدة من ملوك مصر بتحسين المبنى وتوسعته، إلى أن دمر المسجد مرة ثانية في عام ٦٨٦ هـ ، عندما احترق بفعل النيران الناجمة عن البرق ، وجاء التدمير كاملاً في هذه المرة ؛ فقد دُمِّرت الجدران كلها ، كما دُمرت أيضًا بعض جدران الحجرة ، كما دُمّر السقف أيضًا ، وسقط حوالى مائة وعشرين عمودًا ، لكن النار لم تقرب القبر الموجـود داخل الحجرة . وقام قايتباى ، ملك مصر في ذلك الحين، والذى تدين له المدينة المنورة، والحجاز ببعض الأشغال العامة، بإعادة بناء المسجد بكامله بالشكل الذى هــو عليه الآن فى عام ٨٩٢هـ. وقد أرسل قايتباى من مصر ثلاثمائة عامل لهذا الغرض ، وجرى إخلاء الغرفة من الأنقاض ، وعثر الرجال على ثلاثة قبور داخل الغرفة ، مليئــة بالزبالة والنفاية ، ولكن مـؤلف هـذا التـاريخ ، الذى دخل الغرفة بنفسه ، لم ير أى أثر للقبور ، وجرى تحديد الموقع الأصلى لقبر محمد ﷺ بصعوبة بالغة ، وأعيد بناء جدران الغرفة ، وأحيطت بالقضبان الحديدية ، أو السُّور الحديدى الموجود حاليًا ، وجرى توزيع البوابات لتكون على النحو التى هى عليه حاليًا ، وجرى إرسال منبر جديد من القاهرة للمسجد النبوى على سبيل الهدية ، وأعيد المسجد من جديد إلى الشكل الذى هو عليه حـاليًا . واعتبارًا من ذلك التاريخ راحـت قلة قليلـة من الســلاطين العثمانيين يدخلون بعض التحسينات الطفيفة على ذلك المسجد " .

البسـاتـين والمزارع

سبق أن قلنا : إن البساتين والمزارع تحيط بالمدينة المنورة من ثلاث جهات بكل ضواحيها ، وقلنا أيضًا : إن المدينة المنورة ، من ناحية الشرق ومن ناحية الجنوب تمتد إلى مسافة ستة أميال أو ثمانية ، وهذه البساتين والمزارع ، في معظمها ، عبارة عن بيارات نخيل وحقول لزراعة القمح والشعير ، ومزارع القمح والشعير عادة ما تكون محاطة بأسوار من الطوب اللبن ، وتحتوى أيضًا على منازل صغيرة يقيم فيها الزراع . ومنازل هؤلاء الزراع التى تجاور المدينة مباشرة ، جيدة البناء ، وعادة ما يكون لها

شرفات محمولة على أعمدة ، وغرف للجلوس تجاور المنازل ، كما أن لكل بيت خزانًا للماء مبطن بالحجر يقع أمام المنزل . هذه المنازل هى بمثابة المنتجات الصيفية لكثير من عائلات المدينة المنورة ، التى اعتادت على تمضية شهرين من أشهر الصيف فى هذه المنتجعات . قلة قليلة فقط من بيارات النخيل ، باستثناء تلك البيارات المنتشرة فى الحقول، هى التى تحيط بها الأسوار، والسواد الأعظم من هذه البيارات لا تروى إلا من مياه السيول ومياه الأمطار . والبساتين نفسها شديدة الانخفاض ، ويجرى حفر التربة فى منتصف هذه البيارات ، وتكويم ناتج الحفر حول الجدران ، حتى يمكن استعمال الفراغ الناتج فى الزراعة ، على شكل حفرة عمقها حوالى عشرة أقدام أو اثنى عشر قدمًا عن مستوى سطح السهل ، والناس يلجأون إلى هذه الأعماق ابتغاء للتربة الأصلح والأنسب ، فقد تعلم هؤلاء الزراع من التجربة أن الطبقة العليا تكون مشبعة بالملح ، وأقل صلاحية للزراعة ، عن التربة السفلى . لا وجود للصناعات المهمة فى أى مكان من المدينة المنورة ؛ قسم كبير من الأراضى قاحل ، وفى أماكن الحقول الزراعية ، لا وجود للاقتصاد فى ثقافة أصحاب هذه الحقول . هناك كثير من الحقول الجرداء ، يضاف إلى ذلك ، أن ملوحة التربة تحول دون نمو البذور ، ويقال إن الأرض فى اتجاه قرية قباء ، وخلفها ، وفى اتجاه الجنوب والشرق ، عبارة عن تربة جيدة ، وخالية من الأملاح ، وإن الأرض فى هذه المنطقة قيمتها أعلى من قيمة الأرض القريبة من المدينة ، التى رأيتها بعد سقوط الأمطار ، وهى مغطاة تمامًا ولأيام عدة بقشرة من الملح ، ناتجة إما عن تبخر المياه ، أو ناتجة على شكل أبخرة من التربة نفسها، وبخاصة فى الأجزاء الأكثر ارتفاعًا التى لا تصلها المياه .

القسم الأكبر من هذه البساتين والمزارع من أملاك أهل المدينة المنورة ، يضاف إلى ذلك أن العرب الذين يزرعون هذه البساتين والمزارع (والذين يسميهم الناس "النواخلة") معظمهم من الفلاحين . يزاد على ذلك ، أن ملكية البساتين إما عبارة عن ملكية خاصة وإما عبارة عن وقف ، والبساتين يقال لها ملك، إذا ما كانت مملوكة للأفراد ، والبساتين يقال لها وقف ، إذا ما كانت تابعة للمسجد النبوى ، أو تابعة لأية

مدرسة من المدارس ، أو مؤسسات البر والتقوى ، التي تقوم على أمر زراعة هذه البساتين ، بعقود طويلة الأجل ، تمنح لأهل المدينة المنورة ، الذين يقومون أيضًا بإعادة تأجير هذه البساتين بعقود قصيرة الأجل للزراع . هؤلاء المستأجرين لا يدفعون ضرائب من أى نوع كان . هذا يعني عدم فرض أى نوع من أنواع ضرائب الأرض ، أو ما يسمونه الميرى ، وهذا نوع من الحصانة ، أرى أن واحات الحجاز الخصبة كلها كانت تتمتع به قبل الغزو الوهابي ، ومع ذلك ، نرى أن الوهابيين قاموا بعد استيلائهم على المدينة المنورة مباشرة ، بفرض ضريبة على الأرض طبقًا للقوانين المعمول بها فيما بينهم ؛ قام الوهابيون بتقييم الحقول ، لا باستعمال إنتاجها من القمح، وإنما طبقًا لإنتاجها من التمر ، وعدد أشجار النخيل في كل حقل من الحقول وبما يتناسب مع خصوبة التربة ، كما جرى تقييم التربة أيضًا في ضوء إنتاجها من القمح ، ومن كل إردب من التمر كان جباة الضرائب الوهابيين يأخذون حصة نوعية أو نقدية ، طبقًا للسعر السائد عند التحصيل . هذه القواعد تسببت في كراهية أهل المدينة المنورة للوهابيين ، لكن أهل مكة لم يكرهوا الوهابيين ؛ لأنهم لم يكن لديهم حقول أو مزارع حتى يمكن فرض ضرائب عليها ، وكذلك الأماكن التي جرى فيها الاستغناء عن الضريبة المفروضة ، أو التي جرى التخلي عنها للشريف الحاكم القديم للمدينة ، كما سبق أن أوضحنا . يضاف إلى ذلك ، أن المكيين مارسوا التجارة ، التي استطاعوا عن طريقها جني بعض الأرباح في كل الأحوال ، أما أهل المدينة المنورة ، على العكس من ذلك فهم تجار صغار ، واعتمادهم يكون على الحجاج بدرجة كبيرة ، وعلى التبرعات السنوية التي تأتي من تركيا ، أو من الممتلكات التركية ، وقد أجبر سكان المدينة المنورة إجبارًا تامًا على التخلي عن التبرعات التركية السنوية من ناحية والحد من العوائد التي تأتي من الممتلكات التركية ؛ ونظرًا لأن الوهابيين أعربوا عن مزيد احترامهم للقبر الشريف لبيت الله في مكة ، فنحن لا نجد مدعاة للدهشة ، عندما يمجد أهل المدينة المنورة اسم الوهابيين ، وينعتونهم بكل النعوت والصفات الطيبة .

الإنتاج الرئيسى للحقول (*) الموجودة حول المدينة المنورة ، هو القمح والشعير ، وبعض البرسيم ، والفاكهة ، والتمر بصفة أساسية ؛ يزرع الشعير بكميات أكبر من القمح ، كما يشكل الخبز المصنوع من الشعير المكون الرئيسى فى الطعام عند الطبقات الفقيرة ، ويجرى حصاد الشعير فى منتصف شهر مارس . ومحصول الشعير ونباتاته هزيلان ، لكن نوعية الشعير ممتازة ، ويباع الشعير فى أسواق المدينة المنورة بسعر أعلى من سعر الشعير المصرى بنسبة خمسة عشر بالمئة .

بعد حصاد الشعير، تظل الأرض بلا زراعة إلى الموسم التالى ؛ والسبب فى ذلك ، أنه على الرغم من توفير مياه الرى فى الآبار (**) ، فإن التربة تبلغ من الضعف حداً لا تقوى معه على إنتاج محصول ثان ، والناس هنا لا يعرفون زراعة الشوفان ، كما لا يعرفونه أيضاً فى أى مكان آخر من أماكن الحجاز . وأشجار الفاكهة لا توجد إلا على جانب قرية قباء بصفة خاصة . يقال إن الرمان والعنب يجودان هنا فى المدينة المنورة ، وبخاصة الرمان ، هنا أيضاً توجد بعض أنواع الخوخ ، والموز ، وفى بساتين قرية قباء تجرى زراعة البطيخ، والخضراوات، والسبانخ ، واللفت ، والكراث ، والبصل ، والجزر ، والفول ، ولكن بكميات صغيرة جداً . وشجرة النبق شجرة شائعة جداً فى سهول المدينة المنورة ، وفى الجبال المحيطة بها أيضاً ، والناس يجلبون كمية كبيرة من ثمار النبق لبيعها فى السوق فى شهر مارس ؛ حيث تجعله الطبقات الفقيرة ركناً أساسيًا من غذائها ، لكن التمور هى المنتج الرئيسى فى المدينة المنورة ؛ هذا التمر يذيع صيته بحكم جودته وامتيازه فى المناطق المجاورة للمدينة المنورة وفى سائر أنحاء الجزيرة العربية كلها . النخيل موجود فى الحقول المسوّرة ، ويجرى رى النخيل عند رى البذور التى تبذر فى الأرض ، أو فى السهول المفتوحة ، حيث يجرى رى النخيل من مياه المطر فقط ، ثمار أو بالأحرى تمور النخيل المزروع فى السهول المفتوحة ، على

(*) الحقول هنا : يسميها الناس " بلاد " (وجمعه بلدان) : وواحده " بلد " .

(**) كل بستان أو حقل له بئره الخاصة ، التى يجرى رفع الماء منها بواسطة الحمير ، والبقر ، أو الإبل باستعمال دلاء مصنوعة من الجلد . وأنا لا أظن أن هناك حقولاً لا تروى ريًا منتظمًا ، كما أن البذور لا تترك لاحتمالية سقوط الأمطار .

الرغم من عدم وفرتها، فهي عالية القيمة. أعداد كبيرة من هذا النخيل تنمو نمواً برياً في السهول ، لكن كل نخلة من هذا النخيل لها مالكها الخاص . أحجام هذا النخيل ، بشكل عام ، أصغر من أحجام النخيل المصرى ، التى تتغذى من تربة البلاد الخصبة ، كما تتغذى أيضًا بمياه النيل ، لكن ثمار هذا النخيل أحلى بكثير من ثمار النخيل المصرى ، فضلاً عن رائحة تمور المدينة المنورة أفضل من مثيلتها المصرية .

أتى كثير من الرحالة على ذكر الأشياء التى تصنع من كل جزء من أجزاء النخلة ؛ هذا يعنى أن النخلة غالية وعزيزة على العربى المستقر، مثلما الجمل عزيز على البدوى ، ومحمد ﷺ فى واحد من أحاديثه ، يقارن الرجل الفاضل بهذه الشجرة الطيبة . " أنه يقف مرفوع الهامة أمام ربه ؛ يستلهم فى كل حركة من حركاته الوحى الذى يأتيه من أعلى، ويكرس حياته كلها لرفاهية إخوانه " (*) . أهل الحجاز شأنهم شأن المصريين ، يستفيدون من سعف النخيل ، ومن اللحاء الداخلى والخارجى لجذع النخلة ، كما يستفيدون أيضًا من المادة الشبيهة باللحم والتى توجد فى المنطقة التى تتصل الجريدة فيها بجذع النخلة ، وهم يستفيدون أيضًا من نوى الثمار ، بأن يجعلوه علفًا لماشيتهم ، وهم ينقعون نوى التمر مدة يومين فى الماء ، إلى أن يلين بعض الشىء ، ثم يقدمونه بعد ذلك علفًا للإبل ، والبقر ، والأغنام بدلاً من الشعير ، ويقال إن النوى قيمته الغذائية أكبر من القيمة الغذائية للشعير . هناك محلات فى المدينة المنورة ، لا يباع فيها سوى نوى التمر ، ويجرى استخدام الشحاذين بصفة دائمة فى جمع النوى من الشوارع الرئيسية . وفى منطقة نجد ، يطحن العرب النوى للغرض نفسه ، لكن عملية الطحن هذه لا تجرى فى الحجاز .

هناك أنواع كثيرة من التمور فى المدينة المنورة ، وفى وديانها المثمرة ؛ كل مكان فى المدينة المنورة يتميز بنوع خاص من التمور ، لا ينمو إلا فى هذه المنطقة بالذات . وقد بلغنى أن حوالى مائة صنف من التمور ينمو نخيلها فى المنطقة القريبة من المدينة ،

(*) راجع أيضًا المزمور الأول ، ٣ " وسوف يكون مثل شجرة مزروعة بجوار أنهار الماء " .

ولكن مـؤرخ المدينــة المنـورة يـأتى على ذكـر مـائة وثلاثين صنفًـا من هذه التـمـور ، والجـبلى واحـد من هذه الأصناف ، وهو أرخص هـذه الأنواع ، وأنا أعـتـقـد أن هذا الصنف من التمور هو الأكثر انتشارًا وشيوعًا فى منطقة الحجاز، والحلوة صنف آخر من هذه التمور، وهناك أيضًا الحلية ، وهو نوع صغير جدًا من التمور ، ولا يزيد حجم الواحدة منه على حبة التوت ، وقد اشتق اسم هذا النوع من التمور من حلاوته المفرطة الزائدة عن الحد ، التى تضـارع حلاوة التين الذى يأتى من سميمة ، وهذا النوع من التمر شبيه بتين سميمة الذى تتكون له قشرة سكرية عندما يجف . سكان المدينة المنورة يروون أن محمدا ﷺ أحدث معجزة بذلك الصنف من التمر ؛ فقد غرس محمد ﷺ نواة من نوى ذلك التمر ، فى الأرض ، وعلى الفور نمت تلك النواة وأصبح لها جذر ، وكبرت ، وأثمرت أمامهم ، كل ذلك خلال خمس دقائق ، وأمام أعينهم ، وهناك معجزة أخرى يحكى الناس عنها ، وأنها خاصة بذلك النوع من التمور الذى يسمونه السيهانى ، وأن نخلة من ذلك النخيل خاطبت النبى ﷺ بصوت عال قائلة "سلام عليكم" عندما مر عليها ، وتمر البرمى هو أصح هذه الأنواع ، نظرًا لأنه أسهل أنواع التمور هضمًا ؛ هذا الصنف من التمور كان مفضلاً عند (سيدنا) محمد ﷺ ، الذى نصح العرب بأكل سبع حبات منه كل صباح قبل تناول الإفطار . وتمر الجلبى هو أشد هذه التمور ندرة ، ويصل طول الواحدة منه حوالى ثلاث بوصات ، أما عرضها فيصل إلى ما يقرب مـن بوصـة واحـدة ، وله مذاق مقبول تمامًا على الرغم من أنه ليس بدرجة حلاوة تمر الحلية ، ويبدو أن هذا الصنف من التمور ينمو بصعوبة بالغة ؛ إذ لا يوجد من أشجاره أو بالأحرى نخيل هذا الصنف سوى مائة نخلة فقط ، على أكثر تقدير ، لذا فإن هذا النوع من النخيل أقل خصوبة من الأنواع الأخرى . هذا النوع من النخيل لا ينمو فى أى مكان آخر فى الحجاز ، لكنه ينمو هنا فى المدينة المنورة وفى بيارات ينبع النخل ، وسعر تمر البرمى يقدر بعشرين بارة للكيلة الواحدة ؛ والكيلة مكيال يقدر بحوالى مائة وعشرين تمرة ، فى حين يباع تمر الجلبى بواقع عشرين بارة لكل ثمانى تمرات ، وتمر الجلبى عليه طلب كبير من الحجاج ، الذين يقدمونه هدايا لأصدقائهم باعتباره قادمًا من مدينة النبى ﷺ ، ويجرى تعبئه

صناديق صغيرة من تمر الجلبى ، بحيث يتسع الصندوق لمائة تمرة ، استعدادا لنقلها إلى مناطق أخرى غير المدينة المنورة .

التمر هو المادة الغذائية الرئيسية عند الطبقات الدنيا من أهل المدينة المنورة ، وهم ينتظرون موسم الحصاد بفارغ الصبر ، ويكون ذلك الموسم محفوفًا بكثير من الفرح والمرح شأنه شأن موسم حصاد الكروم فى أوروبا ، وإذا ما تدهور المحصول ، وقد يحدث ذلك فى بعض الأحيان ، نظراً لأن النخيل لا يعرف عنه أنه يمكن أن يعطى محصولاً وفيراً على امتداد ثلاث سنوات متتالية ، أو عندما يسطو عليه الجراد ، الأمر الذى يجعل الحزن والوجوم يتملك الناس جميعًا ، كما لو كان ذلك إيذانًا بالمجاعة وتخوفًا منها .

هناك نوع من أنواع التمور فى المدينة المنورة يظل محتفظًا بلونه الأخضر على الرغم من حلاوته ونضجه ، وعلى الرغم من جفافه أيضًا . هناك نوع آخر من التمور يظل محتفظًا بلونه الأصفر اللامع ، هذه الأنواع من التمور يجرى لضمها فى خيوط ، ويجرى بيعها فى سائر أنحاء الحجاز، حيث يطلق الناس عليه هناك اسم قلايد الشام ، أو إن شئت فقل عقود الشمال ، يضاف إلى ذلك أن الأطفال الصغار يطوقون أعناقهم بتلك القلائد . بشاير التمور يأكلها الناس فى بداية شهر يونيو ، والتمور فى هذه الفترة يطلق الناس عليها اسم رطب، لكن حصاد التمر يكون فى نهاية شهر يونيو ، لكن التمر فى مصر يتأخر حصاده شهراً ، أى أن الناس يحصدونه فى شهر يوليو . والتمر يقدمه العرب بأشكال مختلفة ؛ فقد يسلقونه فى الحليب ، وقد يحمرونه مع شىء من الزبد ، أو قد يحولونه إلى سائل غليظ القوام عن طريق غليه فى الماء ، الذى يصب عليه شىء من عسل النحل ، والعرب يقولون إن الزوجة الصالحة تقدم لزوجها ، طوال شهر كامل ، طبقًا من التمر جرى إعداده بطرق مختلفة .

هذه البساتين تشيع فيها شجرة معروفة للناس جميعًا هى شجرة الأثل ، وهو نوع من نبات الطرفاء ، يزرعه الناس طمعًا فى أخشابه الصلبة ، التى يستعملها

العرب فى صناعة وعمل السروج الخاصة بالإبل ، كما يصنعون منه أيضًا تلك الأوعية التى تتطلب تداولاً قويًا .

فى البساتين يندر أن تكون الأرض مستوية تمامًا ، ولا تستمر الزراعة بسبب وجود أكوام الحجارة ، وفى الجانب الشمالى الغربى وكذلك فى الجانب الغربى من المدينة المنورة ، نجد أن السهل بكامله صخرى إلى الحد الذى تبوء معه بالفشل كل المحاولات التى تبذل من أجل تحسين الزراعة ، والتربة هنا من النوع الصلصالى ، المخلوط بكمية كبيرة من الطباشير والرمل ويميل لونها إلى اللون الرمادى ، وفى بعض الأجزاء الأخرى تتكون التربة من الرمل الأصفر ، ومن مادة أخرى شبيهة بالتربة الطينية ، ويجرى بيع قطع صغيرة مخروطية الشكل من هذه التربة الشبيهة بالتربة الطينية ، طول القطعة الواحدة حوالى بوصة ونصف البوصة ، ومجففة فى الشمس ، ويبيع الناس هذه القطع معلقة فى شريط ، لزوار المدينة المنورة . يقول الناس : إن محمدا ﷺ شفى واحداً من بنى الحارث ، وآخرين كثيرين ، من الحمى وذلك عن طريق غسل أجسام هؤلاء المرضى بالماء المذاب فيه شىء من هذه التربة ، ومن هنا يتطلع الحجاج إلى العودة إلى أوطانهم وهم يحملون معهم تذكاراً لتلك المعجزة . هذا النوع من الطين يجرى الحصول عليه من مكان يطلقون عليه اسم المدشونية ، ويقع بالقرب من المدينة المنورة .

الأماكن الصخرية كلها ، وكذلك السلسلة المنخفضة من سلسلة الجبال الشمالية كلها مغطاة بطبقة من الصخور البركانية ؛ لون هذه الطبقة هو اللون الأسود المشوب بالزرقة ، وهذه الطبقة مسامية إلى حد بعيد، ومع ذلك فهى ثقيلة وصلبة ، وليست لامعة مثل صخور الشلاكن ، وتحتوى فى كثير من الأحيان على مواد بيضاء صغيرة فى مسامها ، ويصل حجم كل منها إلى حجم رأس الدبوس ، وأنا لم يسبق لى مطلقًا أن رأيت مثل هذه المواد على شكل بللورات . والسهل لونه أسود تمامًا ، وسبب ذلك هو هذه الصخرة ، والقطع الصغيرة التى تنتشر فوقها . وأنا لم أعثر على حمم بركانية على الرغم من أن طبيعة الأرض تثبت بشكل قاطع قرب هذه المنطقة من أحد البراكين. لو كانت صحتى أفضل مما كنت عليه ، لقمت بجولة إلى المناطق البعيدة من بساتين

المدينة المنورة ، بحثًا عن عينات من المعادن الأرضية ، لكن الأيام الأولى من مقامي في المدينة المنورة انقضت في عمل مخطط للمدينة ، وجمع معلومات عن سكانها ، وبعد ذلك وجدت نفسي عاجزًا تمامًا عن القيام بأى مجهود بدني . اكتشفت بعد عودتي إلى القاهرة ، وعندما كنت أقرأ وصف المدينة المنورة ، الذي اشتريته من البلدة نفسها (والذي لم أستطع العثور على مثله في مكة ، كما لم أستطع العثور على وصف لمكة في الحجاز ، على الرغم من المحاولات التي بذلتها في ذلك الاتجاه) ، عثرت على تاريخ لزلزال وثورة بركان حدثت في منطقة قريبة جدًا من المدينة المنورة ، في منتصف القرن الثالث عشر تقريبًا ، وبعد أن تحريت ذلك الأمر عرفت من رجل من أهل المدينة المنورة ، كان مقيمًا في القاهرة ، أن مكان مجرى الحمم البركانية لا يزال موجودًا ، على بعد مسير ساعة في شرقي المدينة . أذكر أنني أثناء مقامي في المدينة المنورة ، أبديت لمرافقي ملاحظة ، عن رغبتي في مصاحبته لي أثناء ذهابي إلى جبل أحد ، وقلت له : إن المنطقة تبدو كما لو كانت أُحرقت بالنار ، ولكني تلقيت منه ردًا بلا معنى ، ولم أعثر بعد ذلك في المدينة على أية إشارة أو معلومة يمكن أن تقودني إلى افتراض مفاده أني كنت على وشك الوقوف على ظاهرة طبيعية مهمة جدًا .

وأنا أرى أن مسألة إدراج بعض المقتطفات من ذلك الكتاب الذي سبقت الإشارة إليه ، والتي تتصل بمسألة ثورة البركان ، أمر جدير باهتمام القارئ ، ولذلك فأنا أورد هذه المقتطفات (*) .

(*) في غرة شهر جمادى الآخرة ، من عام ٦٥١ هـ أحس الناس بزلزال خفيف في المدينة ، وفي اليوم الثالث من الشهر نفسه ، حدثت هزة أخرى أكثر قوة ، وكان ذلك عند الساعة الثانية صباحًا ، واستيقظ سكان المدينة على هزات عنيفة متكررة ، وتزايد عنف هذه الهزات طوال فترة الصباح ، واستمرت تلك الهزات على فترات متقطعة إلى يوم الجمعة الموافق اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة . تداعى كثير من المنازل والجدران . في صباح يوم الجمعة سمع الناس صوت رعد شديد . وعند الظهر اشتعلت النار . من المكان الذي انبعثت منه النار من الأرض ، ارتفع الدخان في بداية الأمر وأدى إلى إظلام السماء إظلامًا تامًا . في الناحية الشرقية من المدينة ، وفي أواخر النهار ، كان الناس يرون =

هذه الرواية تحتم تتبع مجرى هذه الحمم البركانية على بعد مسير ساعة واحدة شرقي المدينة المنورة ، يضاف إلى ذلك أن البقايا البركانية التي تغطي المنطقة المتاخمة للمدينة المنورة هي والسهل الواقع غربي المدينة المنورة أيضًا ، يرجح أنها ترجع إلى فورات بركانية سابقة لذلك البركان؛ والسبب في ذلك أن أحدًا لم يقل شيئًا عن الأحجار التي قذفها ذلك البركان إلى مسافة بعيدة ، أو عن السهل الواقع غربي المدينة المنورة ، والذي يطلقون عليه اسم وادي العقيق ، الذي يبعد حوالي ثلاثة أميال عن المدينة المنورة ، هذا السهل تغطيه البقايا البركانية سالفة الذكر . وأنا لا يخامرني شك في حدوث

= ألسنة اللهب رأي العين . شاهد الناس كتلة هائلة من النار ، كانت على شكل مدينة أو بلدة كبيرة ، لها جدران وفيها حصون ومآذن ، كانت ترتفع في اتجاه السماء ، وانبثق من بين ألسنة اللهب هذه نهر من النار الحمراء والنار الزرقاء ، مصحوبًا بصوت الرعد . كانت الأمواج الحارقة تحمل أمامها صخورًا كاملة ، وراحت تكوم تلك الصخور على شكل جبال صغيرة على بعد مسافات قصيرة . كان ذلك النهر يقترب من المدينة المنورة ، لكن العناية الإلهية أرسلت نسيمًا باردًا ، أوقف تقدم النهر عند هذا الحد في ذلك الجانب . أمضى سكان المدينة تلك الليلة في المسجد النبوي، وأدى انعكاس الضوء الناتج عن النار إلى إضاءة الليل وتحويله إلى نهار . تحول مسار ذلك النهر الناري إلى الاتجاه الشمالي ، لينتهي بعد ذلك عند الجبل الذي يسميه الناس جبل ويره ، الذي يقع في الوادي المسمى وادي الشطحات ، الذي يقع على مقربة من جبل أحد في الناحية الشرقية [جبل أحد يبعد حوالي ميلين ونصف الميل عن المدينة المنورة] . استمرت تلك النيران طيلة خمسة أيام وبقي النهر مشتعلاً طيلة ثلاثة أشهر . لم يستطع أحد أن يقترب من ذلك النهر بسبب الحرارة الشديدة . دمر ذلك النهر الصخور كلها ، لكن (على حد قول المؤرخ) نظرًا لأن هذه هي أرض المدينة المنورة المقدسة ، التي أمر فيها محمد ﷺ بعدم قطع الأشجار في نطاق مسافة محددة ، فقد أنقذ ذلك النهر الأشجار التي صادفته في طريق تقدمه . كان إجمالي طول النهر يقدر بحوالي أربعة فراسخ ، أو إن شئت فقل اثني عشر ميلاً ، وكان عرضه حوالي أربعة أميال ، أما عمقه فكان يتردد بين ثمانية أقدام وتسعة أقدام . امتلأ وادي شطحات عن أخره ، ولا يزال الناس يرون ذلك المكان من ذلك الوادي ، الذي تجمعت فيه الحمم البركانية ، ويطلقون عليه اسم السد . كان الناس يشاهدون ألسنة اللهب من ينبع ومن مكة . استطاع أعرابي من تيماء (تلك البلدة الصغيرة الواقعة في الصحراء الشمالية الشرقية ، على بعد مسافة تتردد بين مسير ستة أيام وثمانية أيام من المدينة المنورة) كتابة رسالة أثناء الليل في الضوء المنعكس عن هذه النيران إلى هذه المسافة البعيدة . "

" في هذا العام نفسه ، فاض نهر دجلة فيضانًا عارمًا ، أدى إلى تدمير نصف مدينة بغداد ، وبانتهاء ذلك العام احترق مسجد المدينة المنورة احتراقًا كاملاً " .

كان العرب مستعدين للإقرار بمثل هذا الحريق ؛ لأنهم تذكروا قول محمد ﷺ " لن يجيء يوم القيامة ، إلا بعد ظهور حريق في الحجاز ، وسوف يؤدي ذلك الحريق إلى رؤية رقاب الإبل في البصرة " .

براكين مماثلة فى أجزاء أخرى كثيرة من تلك السلسلة الجبلية . يضاف إلى ذلك أن وجود عدد كبير من ينابيع المياه الحارة فى كل محطة من محطات الطريق المؤدى إلى مكة تؤكد صدق هذا التحذير .

أنا هنا معنى بجزء من المقطوعة التى أوردتها فى الهامش الأخير ، الأمر الذى يجعلنى أسوق الملاحظة التالية . استناداً إلى قول محمد ﷺ ، فإن ذلك الجزء من أراضى المدينة المنورة الذى يحيط بها على شكل دائرة قطرها اثنا عشر ميلاً ، ويقع فى الناحية الجنوبية منها جبل عيرة، وجبل ثور فى الناحية الشمالية (جبل ثور هذا ، عبارة عن جبل صغير يقع خلف جبل أحد) باعتباره حداً من حدود المدينة المنورة ، يجب أن يكون هو الآخر حراماً ومقدساً ؛ بمعنى أنه لا يمكن أن يقتل فيه أحد ، اللهم باستثناء المعتدين ، والأعداء ، وبحيث يكون ذلك من باب الدفاع عن النفس ، وضد الكفار الذين يدنسون هذا المكان ، يضاف إلى ذلك أن الصيد وقطع الأشجار محرم فى هذا المكان أيضاً . هذا الحرْم ، منحىً جانبياً فى الوقت الراهن ؛ إذ يجرى قطع الأشجار ، وقتل الصيد ، كما تحدث معارك دامية فى المدينة نفسها وفى المنطقة المجاورة لها ، ولما كان أتباع الأديان الأخرى من غير المسلمين ، غير مسموح لهم بدخول بوابات المدينة المنورة ، فإن أمثلة عدة على ذلك الدخول ، وقفت عليها بنفسى طوال مقامى فى المدينة المنورة (وعندما كنت مقيماً أيضاً فى ينبع) ، وقام بها مسيحيون يونانيون ، كانوا مستخدمين فى ميرة (*) جيش طوسون باشا عندما كان مخيماً فى نطاق مرمى نيران المدينة المنورة ، قبل رحيل القوات إلى مركز رئاسة الباشا ، التى كانت آنئذ فى بلدة القصيم .

وصف بعض أماكن الزيارة

فى اليوم التالى لإنهاء الحاج لمناسكه الأولى فى المسجد النبوى وعند قبر محمد ﷺ ، يقوم الحاج عادة بزيارة مقبرة المدينة المنورة ، من باب تذكر الأولياء والصالحين

(*) الميرة : منظومة إمداد الجيش بالطعام . (المترجم)

الكثيرين المدفونين في هذه المقبرة. هذه المقبرة تقع خلف أسوار المدينة مباشرة بالقرب من بوابة باب الجمعة ، هذه المقبرة يطلق الناس عليها اسم البقيع ؛ البقيع عبارة عن مربع تقدر مساحته بمئات الخطوات ، محاط بجدار ، يتصل بضاحية المدينة المنورة من الجانب الأيمن ، والبقيع محاطة من الجوانب الأخرى ببيارات النخيل. وإذا ما أخذنا بعين اعتبارنا قدر الشخصيات المقدسة المدفونة في هذه المقبرة ، نجد أنها مكان وضيع قياساً على قدر هؤلاء الموتى . هذه المقبرة ليس فيها قبر واحد جيد ، وليس فيها أي شاهد من شواهد القبور التي تحمل النقوش والكتابات ، ونجد بدلاً عن تلك الشواهد أكواماً من الطين لها حواف من الأحجار السائبة الموضوعة حول تلك الأكوام . الوهابيون متهمون بتشويه هذه المقابر ؛ والشاهد على ذلك هو بقايا القباب الصغيرة والبنايات الصغيرة ، التي كانت من قبل تغطي قبر (سيدنا) عثمان ، وقبر العباس ، وقبر السيدة فاطمة ، وكذلك عمات محمد ﷺ اللاتي دمرت قبورهن بأيدي الوهابيين ، لكن الوهابيين لم يقربوا القبور البسيطة الأخرى المبنية من الحجر ، وهذا هو ما فعله الوهابيون أيضاً في كل من مكة والأماكن الأخرى . هذا المظهر المزري لهذه الجبانة لابد أنه كان على هذه الشاكلة قبل مجيء الوهابيين ، ويجب أن يعزى ذلك إلى عقول أهل المدينة الفارغة ، الذين لا يميلون إلى الصرف على تكريم رفات الشهيرين من أبناء بلدهم . المكان كله عبارة عن أكوام غير منتظمة من الطين ، وحفر واسعة ، وأكوام من النفايات ، ولا يوجد في المقبرة كلها حجر واحد من أحجار شواهد القبور . الحاج يقوم بزيارة بعض القبور ، وعندما يقف أمام قبر من هذه القبور ، يردد دعاءً للموتى . كثير من الأشخاص ، يجعلون همهم الأول تمضية يوم كامل بالقرب من كل قبر من هذه القبور الرئيسية ، وهم يفرشون مناديلهم انتظاراً للحجاج القادمين لزيارة هذه المقابر ، وهذا العمل يعد حكراً على بعض الفراشين وعائلاتهم التي قسمت هذه القبور فيما بينها ، الأمر الذي يجعل كل واحد منهم يلتزم بالمكان المحدد له ، أو قد يرسل خادمه لينوب عنه .

أبرز الشخصيات المدفونة في البقيع هي إبراهيم ، ولد (سيدنا) محمد ﷺ ، الذي توفي صغيراً ، وفاطمة ابنة سيدنا محمد ﷺ ، وذلك استناداً إلى رأي

الكثيرين ، بالإضافة إلى بعض نساء النبى ﷺ ، بالإضافة أيضًا إلى بعض بناته ، وأمه فى الرضاعة ، وفاطمة ، بنت أسد ، وأم (سيدنا) على ، والعباس بن عبد المطلب ، وعثمان بن عفان ، أحد الخلفاء الراشدين ، الذى جمع القرآن الكريم ، والشهداء ، على حد قول الناس هنا ، الذين قتلهم جيش الكفار بقيادة يزيد بن معاوية ، فى عام ٦٠ هـ (البعض يرجح أن ذلك كان فى عام ٦٢ هـ) ، الذى جاء من سوريا ، ونهب المدينة وسلبها ، بعد أن اعترف أهلها بعبد الله بن حنتلة رئيسًا عليهم ، أما الحسين بن على المدفون جسده هنا ، فقد أرسل رأسه إلى القاهرة ، وجرى دفنه فى المسجد الجميل الذى يسمونه مسجد الحسين . الإمام مالك بن أنس من بين المدفونين أيضًا فى البقيع (مؤسس المذهب المالكى) . وواقع الأمر أن المدينة المنورة عامرة برفات كبار الصالحين ، الأمر الذى جعل الناس ينسون أهمية كل صالح من هؤلاء الصالحين ، فى حين أن رفات واحد فقط من هؤلاء الصالحين كفيل بذيوع صيت أية مدينة أخرى من المدن الإسلامية ، وسوف أورد هنا الصيغة التى يتلوها الزائرون على أرواح الموتى من الصالحين ، وسوف أدون هنا ذلك الذى يردده الزائر ويداه مرفوعتان أمام وجهه بعد أن يؤدى صلاة قصيرة من ركعتين على قبر عثمان بن عفان: "السلام عليك يا عثمان ! السلام عليك يا صديق المصطفين ! السلام عليك يا جامع القرآن ! رضى الله عنك ! وجعل الله الجنة مثوى لك ، ومقامًا ! وأنا أقر فى هذا المكان ، وبالقرب منك يا عثمان ، من هذا اليوم وإلى يوم القيامة ، أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله " .

سكان المدينة المنورة يدفنون موتاهم فى البقيع وفى قبور مماثلة لقبور أهل العلم والخلفاء والصالحين ، ويجرى غرس جريد النخيل فوق القبور ، ويغير ذلك الجريد كل عام ، فى موسم رمضان ، عندما تقوم العائلة بزيارة قبور الأقارب ، التى يبقون بجوارها أيامًا عدة .

زيارة إلى جبل أُحد – يعد جبل أحد واحداً من المزارات الرئيسية فى المدينة المنورة ، وجبل أحد فيه أيضًا قبر (سيدنا) حمزة عم محمد ﷺ . جبل أحد يشكل

جزءاً من سلسلة جبلية كبيرة متفرعة وممتدة داخل السهل الشرقى ، على نحو يجعلها تكاد تكون منعزلة تماماً ، وهو يبعد عن المدينة المنورة مسافة تقدر بمسير ثلاثة أرباع الساعة. في العام الرابع الهجرى، وبعد أن حدد محمد ﷺ منزله في المدينة المنورة ، قامت قريش الوثنية بقيادة أبى سفيان ، بغزو هذه الأجزاء ، واتخذت من جبل أحد موقعًا لها . خرج محمد ﷺ من المدينة وحارب فى جبل أحد ، فى ظل تفاوت كبير فى القوات ، وخاض أعتى المعارك التى شارك فيها . قتل فى هذه المعركة عمه حمزة ، ومعه خمسة وسبعون من أصحابه ، وجرح محمد ﷺ شخصيًا ، لكنه قتل بحربته واحداً من أشجع رجال الجانب المعادى ، وحقق فى النهاية الانتصار الكامل على الأعداء . والزيارة إلى جبل أحد تتمحور حول زيارة قبر (سيدنا) حمزة ، وخمسة وسبعين شهيداً كما يسميهم الناس هنا .

مشيت سيراً على الأقدام مع مرشدى ، عن طريق البوابة السورية ، وبصحبتنا بعض الزوار الآخرين ؛ والسبب فى ذلك هو الخوف من الذهاب إلى ذلك المكان على انفراد ، وذلك من باب تحاشى اللصوص من البدو ، زيارة جبل أحد عادة ما تتم فى أيام الخميس . تجاوزنا مكان تخييم قافلة الحج السورية ، ومررنا أيضًا على الآبار المتعددة ، والخزانات شبه المهدمة ، المبطنة بالحجر ، التى تستخدم فى إمداد الحجاج بالماء طوال مقامهم الذى يدوم ثلاثة أيام فى هذا المكان ، وهم فى طريقهم فى الذهاب والعودة من مكة. وعلى مقربة من مخيم القافلة السورية ، هناك كشك جميل ، عليه قبة ، وشبه مهدم فى الوقت الحالى ، ويسميه الناس القورين ، وهو المكان الذى عادة ما ينزل فيه رئيس القافلة بصورة مؤقتة . الطريق اعتباراً من هذه المنطقة ممهد تمامًا ، والنخيل يتناثر هنا وهناك ، وهناك مواقع كثيرة يقوم الناس بزراعتها عندما تسقط الأمطار الغزيرة . وعلى بعد مسافة حوالى ميل من المدينة يوجد مبنى مقام من الأحجار والصخور ، يصلى الناس فيه صلاة قصيرة تذكاراً لارتداء محمد لدرعه ، عندما ذهب للاشتباك مع العدو . بعد ذلك ، هناك حجر كبير ، يقال إن (سيدنا) محمد ﷺ اتكأ عليه دقائق معدودات وهو فى طريقه إلى أحد ، وهنا يطلب من الزائر أن يضغط بظهره على هذا الحجر ، ثم يقرأ الفاتحة .

عندما وصلنا جبل أحد ، مررنا بمجرى سيل ملىء بالماء إلى عمق حوالى قدمين ، وقادم من الشرق أو الجنوب الشرقى ، وهذا الماء عبارة عن بقايا ماء المطر الذى انهمر على المنطقة قبل خمسة أيام . هذا السيل يطفح فى بعض الأحيان على نحو يصعب تجاوزه أو عبوره ، الأمر الذى يسفر عن إغراق المناطق المحيطة بمياه ذلك السيل . فى الناحية الشرقية ، من هذا السيل ، نجد أن الأرض المؤدية إلى الجبل جرداء ، ووعرة ، وصخرية وفيها مطلع خفيف ، يقع على منحدره مسجد ، يحيط به حوالى عشرة منازل مهدمة ، كانت فى يوم من الأيام بيوتات لمتعة الأثرياء من الناس ، من أهل المدينة ، بالقرب من هذه المنازل المهدمة يوجد خزان مياه ملىء بمياه السيل . والمسجد عبارة عن مبنى مربع الشكل صغير الأبعاد ومبنى من الحجر . كان الوهابيون قد أطاحوا بقبة ذلك المسجد ، لكنهم أبقوا على القبر . والمسجد يضم قبر (سيدنا) حمزة ، وقبور كبار رجالاته الذين قتلوا معه فى معركة أحد، وبخاصة مصعب بن عمير ، جعفر بن شماس، وعبد الله بن جحش . المقابر موجودة فى فناء مكشوف ، وهى مثل مقابر البقيع عبارة عن أكوام من الطين ، حولها بعض الأحجار السائبة ، وبجوار هذه القبور يوجد مصلىً صغير ، يُستخْدم مسجداً ، ويصلى الزائر ركعتين هنا ، ثم يتقدم الحاج بعد ذلك صوب المقابر ، حيث يقرأ سورة ياسين ، أو سورة الإخلاص أربعين مرة ، ويجرى بعدها طلب شفاعة حمزة هو وأصحابه عند المولى (سبحانه وتعالى) ، وأن يعطى الله الحاج وعائلته الدين ، والصحة ، والغنى ، وأن يدمر الله كل الأعداء . ويجرى عادة ، دفع شىء من النقود عند كل ركن من الأركان ، لسدنة وخدم المسجد والقبور ، وإلى المؤذن والإمام ، إلخ .

مع الاقتراب أكثر من جبل أحد ، توجد قبة صغيرة تحدد المكان الذى رُمى فيه محمد ﷺ بحجر فى إحدى المعارك ، الأمر الذى أدى إلى إسقاط أربع من أسنانه الأمامية ، وجعله يسقط على الأرض . (*) وظنت جماعته أنه قتل ، وعلى مقربة من تلك

(*) أوردت هذه الرواية هنا ، على الرغم من عدم موافقة مؤرخى النبى عليها .

القبة ، التي جرى تدميرها مثل سائر القباب الأخرى ، توجد مقابر اثنى عشر آخرين من أتباع النبى ﷺ ، الذين قتلوا فى المعركة . هذه القبور جميعها تكون أكوما عدة من الأحجار والنفايات ، التي لا يمكن تمييز القبور من خلالها . وهنا يجرى الدعاء للموتى ، مع قراءة الآية القرآنية التى تقول : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ؛ هذه الآية لا تزال تستخدم فى أيامنا هذه ، لتشجيع الجنود الأتراك فى معاركهم مع الأوروبيين .

يتكون جبل أحد من صخر جرانيتى متعدد الألوان ؛ عثرت في أجناب هذا الجبل أيضًا على الحجر الصوَّان ، لكنى لم أعثر على صخور بركانية . الجبل بكامله طوله حوالى أربعة أميال ، من الغرب إلى الشرق . ولما كان جبل أحد مسرحًا للمعركة الشهيرة ، التى أسهمت إسهامًا كبيرًا فى جماعة محمد ﷺ ودينه الجديد ؛ لذا فليس من الغرابة فى شىء أن يكون محطًا لهذا التوقير العجيب . وأهل المدينة المنورة يعتقدون أن جبل أحد سوف ينقل إلى الجنة فى يوم القيامة ، وأن البشر عندما يمثلون أمام الخالق (سبحانه وتعالى) للحساب ، سوف يُجَمَّعُوا على جبل أحد ، باعتبار أنه المكان المفضل . وجبل عيرة ، سالف الذكر والذى يقع فى الجنوب الغربى من المدينة المنورة ، سيلقى مصيرًا لا يحسد عليه . ونظرًا لأن جبل عيرة أنكر الماء على النبى ﷺ ، الذى ضل طريقه ذات مرة بين وديان هذا الجبل ، الأمر الذى أدى إلى ظمأ النبى ﷺ ، فسوف يعاقب على بخله ، بإلقائه فى جهنم فجأة .

يزور أهل المدينة المنورة جبل أحد فى كثير من الأحيان وينصبون خيامهم فى المنازل المدمرة ، التى يبقون فيها أيامًا قلائل ، وبخاصة أولئك الذين يكونون فى فترة النقاهة ، والذين نذروا أثناء مرضهم ، أن يذبحوا شاة تكريمًا لحمزة ، إذا ما شفوا من أمراضهم . وأهل المدينة المنورة يتوافدون مرة واحدة فى العام (غالبًا ما تكون فى شهر يوليو) على شكل جموع كبيرة ، على جبل أحد ، ويبقون هناك مدة ثلاثة أيام ، كما لو كانت تلك الأيام الثلاثة هى أيام مولد . هناك أسواق منتظمة فى جبل أحد ، يضاف إلى ذلك أن زيارة أحد تشكل وسيلة من وسائل التسلية فى المدينة المنورة .

قورة – يزور الحجاج فى هذه القرية المجاورة لأحد المكان الذى نزل فيه محمد ﷺ عندما جاء من مكة ، وهو يقع فى جنوب المدينة المنورة ، ويبعد عنها مسير ثلاثة أرباع الساعة . الطريق إلى قورة يمر خلال سهل عامر بالنخيل ، ويغطى الرمل الأبيض أجزاء كبيرة منه . على بعد مسير نصف ساعة من المدينة تبدأ البساتين ، التى تغطى مساحة تقدر بحوالى أربعة أميال إلى خمسة أميال على شكل دائرة ، مشكِّلة بذلك ربما أخصب البقاع وأنسبها فى شمالى الحجاز . أشجار الفاكهة على اختلاف أنواعها (فيما عدا أشجار التفاح ، والكمثرى التى لا ينمو أى منها فى الجزيرة العربية) ؛ وهذه الأشجار تزرع فى البساتين التى يسوِّرها أصحابها بالحوائط ويروونها من آبار عدة ، والمدينة المنورة تحصل على وارداتها من الفاكهة من هذه البساتين التى تنمو فيها أشجار الليمون ، والبرتقال ، والرمان ، والموز ، والأعناب ، والخوخ ، والمشمش ، وأشجار التين ، وكلها تزرع فيما بين أشجار النخيل وأشجار النبق ، مشكلة بذلك بيارات كثيفة كما هو الحال فى سوريا ومصر ، فى حين تجعل ظلال هذه الأشجار من قباء مقامًا طيبًا . يشيع نبات الخروع هنا أيضًا . وقرية قباء من القرى التى يزورها أهل المدينة المنورة فى كثير من الأحيان ؛ الجماعات تقضى فترة النهار فى هذه القرية بصورة مستمرة ، وينقل الناس المرضى إليها كى يستفيدوا من جوها البارد غير الحار .

يقع مسجد قباء وسط هذه البيارات ، ومعه حوالى ثلاثين منزلاً أو أربعين . ومسجد قباء عبارة عن بناية متواضعة ، ومتحللة إلى حد بعيد . داخل هذا المسجد توجد مزارات عدة ، يصلى الزائر عند كل منها ركعتين ، ويردد دعاء لتكريم المكان . نحن نشاهد هنا فى البداية مبرك الناقة ، البقعة ذاتها من أرض المسجد التى بركت عليها الناقة التى ركبها محمد ﷺ أثناء هجرته من مكة ؛ كانت الناقة قد بركت نهائيًا ولم تقم مرة أخرى ، إيذانًا لصاحبها بالوقوف فى هذا المكان ، قبل دخوله المدينة المنورة . ومن باب تقديس ذلك المكان أسس محمد ﷺ المسجد بنفسه ، مستخدمًا فى ذلك أحجارًا سائبة ، تحولت بعد ذلك إلى مبنى عادى فى العام التالى ، بواسطة بنو عامر بن عوف ، لكن المبنى الحالى حديث البناء . بعد ذلك ، يرى الحاج

المكان الذى وقف عليه محمد ﷺ ذات مرة ، بعد الانتهاء من الصلاة ، ورأى منه مكة رؤية واضحة ، كما رأى أيضاً كل ذلك الذى كان القرشيون يفعلونه فى مكة ، ثم يرى الحاج بعد ذلك ، المكان الذى نزل فيه الوحي على محمد ﷺ بالآيات ذات الصلة بأهل قباء والتي تقول : ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ١٠٨ التوبة. فى هذه الآية، نجد إشارة إلى النظافة الشخصية غير العادية عند أهل قباء ، وبخاصة فيما يتصل بعملية الوضوء .

لم أشاهد أية نقوش أو كتابات فى هذا المسجد ، اللهم باستثناء تلك النقوش التى هى عبارة عن أسماء للحجاج الذين كتبوا هذه الأسماء على الجدران والحوائط المدهونة باللون الأبيض ، وهذه عملية يغرم بها الرحالة الشرقيون ، شأنهم فى ذلك شأن السائحين الأوروبيين ، وغالبًا ما يضيف الرحال أو السائح إلى اسمه بعضاً من أبيات الشعراء الشهيرين ، أو آيات من آيات القرآن . مسجد قباء يشكل بهواً ضيقًا من أبهاء الأعمدة ، التى تحيط بصحن مفتوح يقع فيه مبرك الناقة ، ومن فوقه قبة صغيرة ، يصل ارتفاعها إلى حوالى ستة أقدام . أثناء خروجنا من المسجد ، حاصرنا جمهور من الشحاذين . وعلى مقربة من المسجد ، وبين المنازل يوجد مصلّى صغير ، يطلق الناس عليه اسم مسجد على ، تكريمًا (لسيدنا) على رضي الله عنه، ابن عم محمد ﷺ . وبالقرب من مسجد على ، وفى بستان من البساتين ، توجد بئر عميقة يسمونها العين الزرقاء ، فيها مصلّى صغير بنى عند فتحة تلك البئر . كانت هذه البئر أثيرة عند محمد ﷺ ، فقد اعتاد الجلوس بين الأشجار مع أصحابه وأتباعه ، ليتمتع برؤية الماء وهو ينساب على شكل نهر أو مجرى شفاف ورائق ؛ وهذا الشيء إلى يومنا هذا يسترعي وبشدة انتباه مواطنى الشرق ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك شجرة وارفة الظلال، فلربما تحول ذلك إلى المنظر الطبيعى الوحيد الذى يعجبهم . حدث ذات مرة ، عندما كان النبى ﷺ جالسًا فى هذا المكان أن سقط خاتم النبى ﷺ فى البئر ، ولم يعثر عليه قط مرة ثانية ، وفرضية وجود الخاتم فى ذلك البئر إلى يومنا هذا ، هى التى جعلت تلك البئر شهيرة ، ماء هذه البئر مالح فى الأساس ومذاقه كبريتى إلى حد ما ، لكنه يفقد ذلك المذاق الكبريتى عندما ينساب فى المجرى . ماء هذه البئر

يجرى تجميعه مع مياه العيون الأخرى المتعددة فى قناة واحدة هى التى تمد المدينة المنورة بالماء ، وهذه القناة تظل ممتلئة بالماء بفضل الإمدادات المائية التى تصل إليها من قنوات متباينة تحمل ماء الآبار . عمر بن الخطاب ﷺ هو أول من أوصل العين بالمدينة المنورة ، لكن القناة الحالية ، شُقت على نفقة السلطان سليمان ، بن السلطان سليم الأول فى عام ٩٧٢ هـ على وجه التقريب ؛ وهذه القناة عبارة عن مجرى شديد الصلابة تحت سطح الأرض . هذه القناة ، هى وقناة مكة (المكرمة) هما أعظم عجيبتان معماريتان فى الحجاز . يقع بالقرب من مسجد قباء مبنى أقامه السلطان مراد للدراويش . وعلى بعد مسافة قصيرة خلف القرية ، على الطريق المؤدى إلى المدينة المنورة ، يوجد مصلًى صغير ، اسمه مسجد الجمعة ، تخليداً للمكان الذى التقى عنده أهل المدينة المنورة (سيدنا) محمد ﷺ عند وصوله إلى المدينة .

القبلتين . فى الناحية الشمالية الغربية من المدينة المنورة ، وعلى بعد مسير ساعة واحدة ، يوجد مزار يحمل هذا الاسم . يقال إن هذا المزار مكون من عمودين غشيمين (لأنى لم أره شخصيًا) ، وإن ذلك المكان هو الذى غير فيه محمد ﷺ القبلة ، وكان ذلك فى الشهر السابع عشر بعد الهجرة ، كان أتباع محمد ﷺ هم والبدو اليهود حتى ذلك الوقت يولون وجوههم شطر القدس باعتبارها القبلة ، ولكن محمدا ﷺ حولها ناحية الكعبة ، التى تشير إليها هذه الآية من آيات القرآن : ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، هذه الآية وردت لإقناع المسلمين ، أنهم حيثما يولون وجوههم ، فى صلاتهم ، فإن الله يكون أمامهم . بالقرب من هذا المكان يوجد مصلًى قديم مدمر .

ما أسلفناه هو عبارة عن المزارات والأماكن التى يزورها الحجاج . المنطقة المحيطة بقباء وفى الاتجاه الجنوبى الشرقى من المدينة ، عبارة عن أماكن لا تقل جمالاً عن قباء ، ويتخذ أهل المدينة من تلك الأماكن منتجعات للتسلية والترفيه البرىء ، لكن فى اعتقادى أنه ليست هناك أية قرية أخرى يمكن مشاهدتها ، اللهم باستثناء بعض المنازل المنعزلة المبعثرة بين أشجار النخيل .

سكان المدينة المنورة

سكان المدينة المنورة ، شأنهم شأن سكان مكة ، القسم الأكبر منهم غرباء ، انجذبوا إلى المدينة المنورة بفعل قبر النبي ﷺ ، والمكاسب التي يضمنها لمجاوريه ، لكن قلة قليلة من العرب العاديين ، الذين يعدون أحفاداً أو خلفاً لتلك الأسر التي عاشت في المدينة المنورة ، عندما هاجر إليها محمد ﷺ قادماً من مكة ، هم الباقين حالياً في مدينة الرسول ، وعلى العكس من ذلك نجد في المدينة المنورة جاليات من كل حدب وصوب في الإمبراطورية الإسلامية ، شرقاً وغرباً . قيل لي إن السكان العرب الأصليين ، الذين يطلق عليهم المؤلفون المسلمون اسم الأنصار ، والذين كانوا في بداية الأمر مكونين من قبيلتي الأوس والخزرج ، لم يتبق منهم سوى عشر عائلات هم الذين يستطيعون تتبع سلالتهم النسَبية ، والعالمين تماماً بتقاليدهم وموروثاتهم ؛ أهل هذه الأسر من الفقراء ، ويعيشون من العمل فلاحين في الضواحي وفي البساتين . عدد الأشراف المنحدرين عن الحسن رضي الله عنه حفيد محمد ﷺ كبير جداً ، لكن السواد الأعظم من هؤلاء الأشراف ليسوا أصلاً من هذا المكان ، هذا يعني أن أسلاف هؤلاء الأشراف جاءوا إلى المدينة المنورة من مكة ، خلال الحروب التي شنها الأشراف للاستيلاء على المدينة المنورة . هؤلاء الأشراف ينتمون إلى طبقة العلماء ، وقلة قليلة منهم هم من العسكريين، شأنهم شأن أشراف مكة ، ويعيشون هنا في المدينة المنورة . من بين هؤلاء الأشراف ، هناك قبيلة صغيرة من بني حسين ، منحدرة عن (سيدنا) الحسين شقيق الحسن . يقال إن هذه القبيلة الصغيرة كانت على درجة كبيرة من القوة في المدينة المنورة ، وإنهم خصصوا لأنفسهم القسم الأكبر من الدخل الناتج عن المسجد النبوي . في القرن الثالث عشر (وذلك نقلاً عن السمهودي) كان الأشراف هم أصحاب امتياز قبر النبي ﷺ ، لكنهم في الوقت الراهن قل عددهم وأصبح مقصوراً على حوالي عشر عائلات ، ما زالت من بين أعيان المدينة المنورة وكبرائها ومن أثرى أثريائها . هؤلاء الأشراف يشغلون حياً خاصاً بهم ، ويحصلون على أرباح كبيرة من الحجاج الفارسيين بصفة خاصة عندما يمرون على المدينة المنورة . يعتقد البعض أن هؤلاء الأشراف مُهرطقين ، ويعتنقون المذهب العلوي الفارسي ، وأنهم

يمارسون طقوس هذا المذهب الشيعي في السر ، على الرغم من اتباعهم للطقوس السنية في العلن . هذا التقرير عام وشائع جداً ، ويؤكده عدد كبير من الناس المحترمين ، الأمر الذي لا يجعل هذا التقرير محطاً للشكوك ، لكن بني حسين لهم نفوذ كبير في المدينة المنورة ، هذا النفوذ يلتزم من الناحية الشكلية بالطقوس والمبادئ الأصولية ، الأمر الذي لا يؤدي إلى مضايقتهم أو إزعاجهم .

يشاع بين الناس أن بقايا الأنصار وأعداد كبيرة من العرب الفلاحين الذين يزرعون البساتين والحقول المجاورة للمدينة المنورة يعتنقون المذهب نفسه ، وأن هؤلاء الناس الذين يطلق عليهم اسم النواخلة (هذا الاسم يعني أن هؤلاء الناس يعيشون بين النخيل) أعدادهم كبيرة ومحبون للحرب . هؤلاء النواخلة كانوا يشكلون مقاومة صعبة في وجه الوهابيين ، كما أثبتوا دوماً في الصراعات المدنية أنهم أقوى من أهل الحضر . يقال إن هؤلاء النواخلة هم أحفاد أتباع يزيد بن معاوية ، الذي استولى على المدينة المنورة وسلبها ونهبها بعد ستين عاماً من الهجرة . هؤلاء النواخلة لا يتزوجون إلا من بعضهم ، وتتبدى بينهم روح السلاح في كل الأحوال . الكثيرون منهم يعتنقون المذهب الشيعي عندما يكونون في بيارات نخيلهم ، لكنهم يتحولون إلى سنة عندما يحضرون إلى المدينة . البعض منهم يعيش في الضواحي ، وهم يحتكرون مهنة الجزارة ، وقد سمعت أثناء المشاجرات بعض الناس يسبونهم بأنهم مذهبيون وروافض ، دون أن ينكر أحد منهم هذه السُبّة . في الصحراء الشرقية ، وبعد رحلة تقدر بمسير أربعة أيام من المدينة المنورة ، تعيش قبيلة بدوية كاملة ، يسمونها بني علي ، وهذه القبيلة كلها من سلالة فارسية ، والمدهش أننا نجد البقعتين الأكثر تشدداً في الدين الإسلامي مطوقتين : إحداهما مطوقة بأتباع زيد ، والأخرى مطوقة بأتباع علي ، دون بذل أية محاولة لزحزحتهما عن مكانيهما .

توجد بين العائلات القديمة في المدينة المنورة قلة قليلة من أحفاد العباسيين ، الذين وصلوا إلى حد الفقر المدقع ، والناس يطلقون عليهم هنا اسم الخالفية ، بمعنى أنهم منحدرون عن الخلفاء .

السواد الأعظم من سكان المدينة المنورة ، من أصول أجنبية ، وعرقهم متباين تماماً كما هو الحال في مكة ، ولا ينقضي عام دون انضمام بعض المستوطنين الجدد إلى هذه الفئة من السكان ، يزاد على ذلك أن أية قافلة من قوافل الحج لا تمر بالمدينة المنورة إلا وتترك وراءها قلة قليلة من مسافريها ، الذين يتوقفون في بداية الأمر بهدف البقاء مدة عام أو عامين فقط في المدينة ، لكنهم يواصلون العيش والبقاء فيها بصفة دائمة . هناك عدد كبير من خلف أولئك الأتراك الذين يعيشون في شمالي تركيا ، لكن القسم الأكبر من سكان المدينة المنورة ترجع أصولهم إلى البلدان الجنوبية من الجزيرة العربية مثل اليمن وحضرموت ، ومن سوريا ومن مصر ، كما أن هناك عدداً كبيراً أيضاً من الباربارى . كان مرشدى يدعى الشيخ سعد الدين الكردى ، نظراً لأن والد والده كان كردياً استقر في المدينة المنورة ؛ كان صاحب المنزل الذى كنت أنزل فيه يدعى سيد عمر ، وهو شريف من أشراف قبيلة اليفاعى اليمنية، الذين جاء أسلافهم إلى المدينة المنورة قبل مئات السنين . هناك أيضاً بعض الهنود المقيمين في المدينة المنورة ، لكن أعداد الهنود في المدينة أقل منهم في مكة . الهنود ، كما هو حالهم في مكة ، يعملون في المدينة المنورة في مجال العقاقير ، أو يمتلكون محلات صغيرة ، لكنى أرى أن الهنود في المدينة ليس من بينهم أحد يعمل في مجال تجارة الجملة . والهنود يلتزمون بلباسهم الوطنى وسلوكياتهم الوطنية أيضاً ، ويشكلون جالية صغيرة ، ويندر أن يتزوجوا من غير الهنود أو يختلطوا بالسكان الآخرين .

أفراد مختلف الجنسيات الذين استقروا في المدينة المنورة واستوطنوها ، تحولوا في الجيل الثانى والثالث إلى أعراب فيما يتعلق بالسمات والشخصية ، ومع ذلك يسهل تمييزهم عن المكيين ؛ أهل المدينة ليسوا ذوى بشرة سمراء مثل أهل مكة ، وبذلك فهم يشكلون حلقة مباشرة أو وسيطة ، إن صح التعبير ، بين أهل الحجاز وسكان شمالى سوريا . ملامح أهل المدينة أوضح إلى حد ما ، ولحاهم أكثر كثافة ، وأجسامهم أقوى وأمتن من أجسام أهل مكة ، لكن الوجه ، وتقاسيمه ، وكذلك الملامح كل ذلك سواء عند أهل المدينة وأهل مكة .

لباس أهل المدينة المنورة يشبه اللباس التركى أكثر من لباس أهل الجنوب ، قلة قليلة جداً من سكان المدينة المنورة هم الذين يرتدون البدن ، أو إن شئت فقل العباءة الوطنية العربية التى ليس لها أكمام ، لكن الفقراء من سكان المدينة يلبسون أيضاً ثياباً طويلة ، عليها جُبَّة ، أو إن شئت فقل : عباءة خارجية مصنوعة من القماش ، أو قد يرتدون بدلاً عن هذه الجبة ، عباءة ، أو لباساً أبيض يشيع لبسه فى سوريا وفى سائر أنحاء الصحراء . يشيع فى المدينة المنورة أكثر من مكة ، استعمال الطربوش التونسى أحمر اللون ، إذ يلبس أفراد الطبقات الدنيا طواق بيضاء ونعالا . أما الميسورون من الناس فيلبسون عباءات بيضاء اللون مصنوعة من قماش جيد ، كما يلبسون ملابس جيدة ، وفى فصل الشتاء ، يلبسون بليسا جيداً ، يجرى إحضاره من إسطنبول عن طريق القاهرة ، وقد لاحظت أن هذا البليس يشيع ارتداؤه فى شهرى يناير وفبراير ، وهو الفصل الذى يكون فيه الجو بارداً على نحو أكبر بكثير مما ينتظره أو يتوقعه الأوروبيون فى صحراوات الجزيرة العربية . ويمكن القول بشكل عام : إن أهل المدينة المنورة أفضل من المكيين فى مسألة اللباس ، على الرغم من أنهم أقل من المكيين من حيث النظافة ، لكن الزى الوطنى لا وجود له هنا ، وبخاصة فى فصل الشتاء البارد ، نجد أن الطبقات الدنيا يسترون أنفسهم بأى نوع من الألبسة التى يمكن أن يحصلوا عليها بأسعار رخيصة من مزادات علنية ، وقد يصل الأمر إلى حد أن ترى مواطنا يرتدى لباساً من ثلاثة بلدان أو أربعة ، قد نرى شخصاً يرتدى زياً عربياً يصل إلى منطقة الوسط من جسمه ، ويضع على صدره وكتفيه لباساً شبيهاً بلباس الجندى التركى . الأثرياء من الناس يستعرضون الألبسة ، ويتبارون مع بعضهم البعض فى فخامة مثل هذا اللباس . شاهدت مجموعة جديدة من الملابس ، حتى بعد انتهاء مواسم الأعياد ، وبكميات أكبر بكثير مما رأيته فى أماكن أخرى من الشرق . وكما هو الحال فى مكة ، لا يرتدى الأشراف هنا الثياب الخضراء ، وإنما يضعون على رءوسهم عمائم من الموسلين الأبيض ، ويستثنى من ذلك هؤلاء الذين جاءوا من شمالى تركيا ، واستوطنوا المدينة المنورة مؤخراً ، والذين لا يزالون يرتدون الوشاح الدال على تميزهم .

قبل مجيء الوهابيين ، وعندما كان السكان يتقاتلون قتالاً دموياً فيما بينهم ، كانوا يمشون وكل واحد منهم مسلح بجنبيه ، أو بالأحرى سكين أو خنجر عربى معقوف ، أما الآن فلا يوجد سوى قلة قليلة من هؤلاء الناس ، لكن كل واحد منهم ، من أعلاهم إلى أدناهم يحمل فى يده عصا طويلة ثقيلة . والأثرياء من الناس يصنعون لعصيهم رءوساً من الفضة، بعض أخر من الناس يجعلون لتلك العصى أسناناً من حديد ، وبذلك يحولون العصا إلى سلاح رهيب ، يستخدمه العرب بمهارة فائقة . النساء فى المدينة المنورة يرتدين ملابس مثل ملابس النساء فى مكة ، والطبقات الدنيا ترتدى ملابس زرقاء اللون ، أما الطبقات العليا فيرتدين ملايات من الحرير .

البدو المستقرين فى ضواحى المدينة المنورة أو فى المدينة نفسها يلبسون ألبسة مثل تلك الألبسة التى يرتديها البدو فى الصحراء السورية؛ قميص، وعباءة، وكيسيه على الرأس ، وحزام من الجلد ، معلق فيه سكين ونعله فى القدمين .

يضاف إلى ذلك أن الذين استوطنوا المدينة المنورة أصبحوا يشكلون عرقاً متميزاً، وبالتالى فهم لا يخالطون بقية أهل المدينة . وهم لا يزالون يحتفظون بلباسهم الوطنى ، ولغتهم الوطنية ، وعاداتهم الوطنية ، ويحيون فى منازلهم كما لو كانوا يعيشون فى خيام فى الصحراء ، وربما كان بدو الجزيرة العربية ، دونا عن سائر أمم الشرق كلها ، هم أولئك الذين يتخلون عن عاداتهم الوطنية فى شىء كثير من التردد . ونحن نشاهد فى كل من سوريا ومصر ، وكذلك فى الحجاز ، مستوطنات تحول أهلها إلى زرّاع منذ قرون مضت ، ومع ذلك ، لم يكتسب هؤلاء السكان سوى القليل جداً من عادات الفلاحين وتقاليدهم ، ولا يزالون يتفاخرون بأصلهم البدوى وسلوكياتهم البدوية أيضا .

أهل المدينة المنورة ليس لديهم سبل لكسب العيش مثل المكيين . وعلى الرغم من أن هذه المدينة لا تخلو مطلقاً من الحجاج الأجانب ، فإن تدفقهم ليس بالقدر الذى يجعل مكة مزدحمة بالسكان طوال أشهر عدة من العام الواحد ، الأمر الذى يجعل منها سوقاً لكل بلاد الشرق . الحجاج الذين يأتون إلى المدينة المنورة يندر أن يكونوا تجاراً ، أو إنهم لا يذهبون إلى المدينة المنورة للتجارة فى أضعف الأحوال ، وبالتالى

يلجأ هؤلاء الحجاج إلى ترك أمتعتهم الثقيلة على الشاطئ . يزاد على ذلك أن التجار السوريين الذين يرافقون القافلة الكبيرة نادرًا ما يلجأون إلى الاتجار ، اللهم إلا باستثناء بعض أحمال الإبل من التبغ والفاكهة المجففة . هذا يعنى أن تجارة المدينة المنورة مقصورة على الاستهلاك المحلى، وإمداد البدو المجاورين لها بالملابس والسلع التموينية. هذه الملابس هى والسلع الغذائية تصل عن طريق ينبع ولا تأتى إلا من مصر . لا يقيم أحد من التجار الكبار فى المدينة المنورة ؛ هذا يعنى أن التجارة هى تجارة تجزئة ليس إلا ، يزاد على ذلك أن هؤلاء الذين يملكون رؤوس الأموال ، إنما يستعملونها فى التجارة من سوريا ومصر ، اللتين لا يوجد بهما مؤسسات عامة مثل البنوك أو النقابات التجارية ، الأرصدة الوطنية ، التى يستطيع صاحب رأس المال ، أن يجنى منها فائدة على أمواله . القانون التركى يحرم تحريمًا شديدًا مسألة الفائدة على الأموال ، وحتى إن توافرت مثل هذه المؤسسات ، فلن تكون هناك الحكومة أو تلك الفئة من الناس التى يمكن أن يعهد الناس إليهم بأموالهم الكثيرة ، يزاد على ذلك أن استثمار رأس المال فى الأراضى والعقارات تكتنفه مخاطر كثيرة .(*) والطريقة المعتادة هنا هى الدخول فى مشاركة مع مختلف صغار التجار أو إن شئت فقل : تجار التجزئة ، والحصول منهم على جزء من حصتهم وأرباحهم ، لكن هذا النظام يسبب كثيرًا من القلق باعتباره

(*) بناء على المرسوم الذى أصدره محمد على باشا فى عام ١٨١٢م ، أصبحت مسألة شراء الأرض فى مصر أمرًا غير قابل للتنفيذ ؛ وسبب ذلك أن هذا المرسوم يحتم على الملتزمين (ملاك الأراضى الذين يشاركون فى امتلاك القرى والأراضى والذين كانوا يكونون طبقة تعيش على العائدات التى يحصلون عليها من هذه الأراضى) الحصول على دخولهم السنوية من أراضيهم عن طريق خزانة الباشا . هؤلاء الملتزمين عانوا معاناة شديدة من مختلف أنواع الظلم والإذلال ، وصدر إعلان باعتبار الأراضى كلها ملكًا للحكومة ، أو بالأحرى ملكًا لمحمد على نفسه ، الذى يعطى الأرض للفلاحين لزراعتها بشروطه الخاصة . حدث مؤخرا أن جرى حرمان الفلاحين الذين كانوا يزرعون خمسة آلاف فدان فى قرية دامكور القريبة من القاهرة من عقود الإيجار الخاصة بالأراضى التى أعلن أنها أصبحت ملكية عامة ؛ نظرًا لأن الباشا أراد أن يزرع فيها برسيمًا لخيوله . ملكية الأرض فى سوريا أيضا تُخضع مالكها لكثير من المضايقات : فهو يتعرض للعسف من جانب حاكم المنطقة ومن جانب الجنود الذين يمرون عليها ، ومالك الأرض يعانى أيضًا من جور الباشوات على مستحقاته، وبخاصة أن هؤلاء الباشوات يجورون على الفلاحين أكثر من الملتزمين ، والملتزم إذا لم يراقب الفلاحين، يجرى تجريده من أرباحه كلها .

شكلاً من أشكال التجارة من ناحية وضرورة إمساك دفاتر بصورة مستمرة مع الشركاء ، ومراقبتهم بصورة مستمرة. الربا سائد هنا بين الناس ، ويجرى فى القاهرة دفع نسبة أرباح سنوية تتردد بين ثلاثين فى المائة وخمسين فى المائة ، لكن قلة قليلة من التجار الأتراك هم الذين يلجأون إلى مثل هذه الممارسات، التى ينظر الناس إليها على أنها من الأعمال المشينة. والربا هنا يكاد يكون مقصوراً على اليهود، وعلى المسيحيين المنبوذين من أوروبا ، وربما كان السبب الوحيد ، وراء الحال المؤسف للمجتمع الشرقى فى الوقت الحالى ، والذى له تأثير كبير على عقول الناس وعلى سعادتهم ، يتمثل فى اضطرار هؤلاء الناس إلى الاستمرار فى حيواتهم العملية العامرة بالمؤامرات وبالفرص أيضاً . يزاد على ذلك أن الآمال التى تحدو المواطن الأوروبى ، وتطلعه إلى التمتع فى كبره بعائد الجهود التى بذلها فى مطلع حياته ، كل ذلك غير معروف للمواطن الشرقى ، الذى لا يجلب عليه تقاعده سوى الخطر ، الناجم عن ظهوره كرجل ثرى فى عينى الحاكم الجشع ، والمعروف أن النفوذ والتأثير المزدوج لكل من الحكومة التركية والدين الإسلامى هما اللذان أديا إلى هذا النفاق العام ، الأمر الذى يندر معه وجود مسلم واحد (الذى يوحى مظهره الهادئ - وهو يدخن غليونه متكئاً على الأريكة - لمن يراه بأنه راض تماماً وغير مبال) لا يعانى من آلام الحسد والحقد ، والجشع ، والطموح ، أو الخوف من ضياع ثروته التى حصل عليها بطريق غير سوى .

الرحالة الذين يمرون بالشرق مر الكرام ، دون أن يعرفوا اللغة ، ودون الاختلاط إلا بأولئك الذين لا يهمهم سوى منح الشخصية أو الطابع الحقيقى ، ينخدعون دوماً بأبهة الأتراك ، وسلوكياتهم الأبدية ، وخطبهم المحكمة ، على الرغم من أن احتقارهم وسخريتهم من ذلك الفرنسى الذى يتظاهر بعد الإقامة أشهراً قلائل فى إنجلترا ، وبعد جهله الكامل باللغة الإنجليزية ، بأنه يعرف الشخصية الإنجليزية والدستور الإنجليزى أيضاً ، متناسياً أن من السهل جداً على أى فرنسى الحكم على أية أمة من الأمم الأوروبية المجاورة له ، لكن يصعب على مثل هذا الأوروبى الحكم على الأمم الشرقية ، التى تختلف سلوكياتها ، وأفكارها ، وآرائها ، عن سلوكياته ، وأفكاره ، وآرائه الأوروبية.

أما فيما يخصني أنا شخصيًا، فإن مقامي الطويل بين الأتراك، والسوريين، والمصريين يجعلني أصرح قائلاً : إن هؤلاء الناس يفتقرون إلى الفضيلة، والشرف والعدل، وإنهم ليسوا أتقياء بمعنى الكلمة، وإنهم أقل إحسانًا وصبرًا، وإن الأمانة لا تتوفر إلا في فقرائهم أو بلهائهم، والتركي، قد يعرف ما هو صحيح وما يستحق الثناء، لكنه يترك الممارسة للغير، وعلى الرغم من أن هذا التركي تلفظ شفتاه معايير طيبة، فإنه يحاول إقناع نفسه بأنه يتصرف طبقًا لما تنص عليه تلك المعايير. من هنا نجد التركي يظن أو يحسب أنه مسلم بمعنى الكلمة، نظرًا لأنه لا يترك المواظبة على صلوات بعينها، أو وضوء بعينه، وإنه يطلب العفو دائمًا من الله (سبحانه وتعالى).

في المدينة المنورة ينشغل أشخاص متعددون بالمعاملات التجارية الصغيرة، المتعلقة بالتموينات بصفة خاصة. بعض أشكال النقل مربحة في المدينة المنورة، وسبب ذلك أن المدينة تعتمد حركاتها التموينية على القوافل التي تأتي من ينبع، وهذه القوافل يستحيل أن تنظم مواعيدها، وهذا الأمر يؤدي بدوره إلى تقلب الأسعار؛ والنتيجة السيئة التي تترتب على ذلك، تتمثل في نجاح تجار الغلال في بعض الأحيان في فرض نوع من الاحتكار، يؤدي إلى انعدام وجود الحبوب لدى تجار التجزئة، واقتصار وجودها فقط على مخازنهم، والقوافل إذا ما تأخر وصولها طويلاً، أدى ذلك إلى ارتفاع أسعار القمح ارتفاعًا باهظًا، ونظرًا لأن كبار شخصيات المدينة يكونون هم المعنيون بمثل هذا الارتفاع، فإن ذلك يندر أن يؤدي إلى تدخل القضاة في هذه العملية.

بعد تجارة التموينات تأتي التجارة مع البدو المحيطين بالمدينة المنورة، وهذه التجارة هي الأهم، وسبب ذلك أن البدو هم الذين يمدون المدينة بالزبد، والعسل (الذي يعد سلعة شديدة الأهمية في المطبخ الحجازي)، والأغنام، والفحم النباتي الذي يبادلونه بالقمح والملابس. يزاد على ذلك أن وصول البدو للمدينة المنورة يعد غير منتظم إلى حد بعيد، وإذا ما تصادف أن تحاربت قبيلتان، أدى ذلك إلى بقاء المدينة تحت رحمة قلة قليلة من التجار الكبار، الذين يتصادف أن يكون لديهم مخزون كبير

من هذه السلع . عندما وصلت المدينة المنورة ، أول مرة ، لم يكن فى السوق أى شىء من الزبد ، وكان سعر القمح أعلى بنسبة خمسين فى المائة عنه فى ينبع ، ثم يختفى القمح بعد ذلك تمامًا من السوق ، وفى مرة أخرى اختفى الملح من السوق ، ثم حدث الشىء نفسه مع الفحم النباتى ، واختل نظام سوق التموينات اختلالاً كبيرًا . فى بعض المدن الشرقية الأخرى ، التى من قبيل مكة وجدة ، يجرى تعيين موظف عام ، يسمونه المحتسب ومهمته مراقبة عملية بيع التموينات ؛ مهمة هذا المحتسب تتمثل فى منع ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، وإلزام التجار بحدود قصوى لا يتعدونها ، وبذلك يحصلون على ربح معقول وليس ربحًا مبالغًا فيه . لكن هذا ليس هو الحال السائد فى المدينة المنورة ، نظرًا لأن المحتسب لا سلطة له فى هذه المدينة . لذا فإن القمح على سبيل المثال يباع فى بعض ضواحى المدينة المنورة بسعر أعلى عشرين فى المائة عنه فى الضواحى الأخرى ، وهذا الشىء نفسه ينطبق على كثير من السلع الأخرى ، الأمر الذى يتسبب فى معاناة الكثيرين جراء عدم معرفتهم لطبيعة الأمور فى المدينة المنورة، طوال مقامى فى المدينة المنورة كان الاتصال بينها وبين ينبع عن طريق قافلة قوامها حوالى مائة وخمسين جملاً ، كانت تصل إلى المدينة المنورة كل أسبوعين ، كما كانت هناك جماعات صغيرة من التجار البدو، قوام الواحدة منها يتردد بين خمسة جمال وعشرة جمال ، كانت تصل إلى المدينة المنورة كل خمسة أيام أو ستة . كان القسم الأكبر من حمولة تلك القافلة خاصًا بجيش طوسون باشا ، أما القسم الآخر فكان مخصصًا للتجارة والسلع التموينية ، التى لم تكن كافية لتلبية احتياجات المدينة كلها . وقد أبلغنى شخص مطلع، أن استهلاك المدينة المنورة من القمح فى اليوم الواحد يتردد بين ثلاثين إردبا وأربعين إردبا ، أى ما يعادل حمولة ما يتردد بين خمسة وعشرين جملاً حجازيًا وخمسة وثلاثين . ويقال إن إنتاج الحقول المحيطة بالمدينة المنورة ، من القمح لا يكفى سوى استهلاك أربعة أشهر ، أما الجزء المتبقى فيمكن الحصول عليه من ينبع أو عن طريق الاستيراد من مصر . يتوفر القمح فى زمن السلم ، لكن بعد تمركز الجيش التركى مؤخرًا فى هذه المنطقة ، بدأ البدو يتخوفون من وضع زمام إبلهم فى أيدى الأتراك ، الأمر الذى أدى إلى انخفاض التوريد إلى أدنى مستوياته .

وهنا بدأ سكان المدينة المنورة يتضايقون بسبب هذه المسألة ، الأمر الذى جعلهم يقللون من استهلاكهم للقمح إلى أدنى المستويات ، مما جعلهم يستهلكون ما لديهم من مخزونات . كان طوسون باشا قد استولى عنوة على عدد كبير من إبل البدو ، واضطرهم إلى مرافقة جيشه الذى أخافهم ، إلى حد أنه قبل وصول محمد على باشا ، كانت المجاعة على وشك الحدوث بسبب الافتقار الشديد إلى الإبل اللازمة للنقل . حاول الباشا أن يستعيد ثقة الناس به ، ولذلك بدأ بعض البدو يعودون إلى ديارهم ومعهم إبلهم . فى زمن السلم تصل قوافل القمح قادمة أيضًا من نجد ، وبخاصة المنطقة التى يسمونها القصيم ، لكن هذه القوافل كلها كان يجرى وقفها وتعطيلها ، وقد بلغنى أن تجارة نقل التموينات من ينبع كانت قد توقفت سنوات عدة عقب دخول الوهابيين للمدينة المنورة ، التى أراد رئيسها سعود ، محاباة رعاياه من أهل نجد ، كما أن المدينة المنورة ، فى ذات الوقت ، كانت تحصل على بعض تمويناتها من نجد من ناحية والبعض الآخر من حقولها الخاصة . كانت السلع التموينية فى ذلك الوقت شحيحة وغالية تماما : الأمر الذى حدا بالطبقات الفقيرة إلى الاعتماد فى حياتهم على التمر بصفة رئيسية ، وعلى نوع من الخبز الشعبى الذى يصنعونه من دقيق الشعير ، قلة قليلة من الناس هم الذين كانوا يستطيعون الحصول على شىء من الزبد ، والقليل جدًا من اللحم . وهذه هى ثمار اللوتس أو بالأحرى ثمار شجرة النبق بعد أن نضجت فى بداية شهر مارس ، أغرت أهل المدينة المنورة بالتخلى عن التمر، والاعتماد عليها غذاء وحيدا طوال أشهر عدة ؛ فقد شاهدت أكوامًا كبيرة من النبق فى السوق ، وباستطاعة أى فرد الحصول على ما يسد رمقه نظير ما ثمنه بنس واحد من القمح ، يقبله الناس بدلاً عن النقود ، وبخاصة البدو الذين يجلبون ثمار النبق إلى السوق . يضاف إلى ذلك أن الخضراوات التى يزرعها الناس فى البساتين مخصصة لاستعمال الأجانب فقط ، ونكهتها مختلفة تمامًا ، كما أن العرب لا يستسيغونها ؛ إذ لا يستخدمها سوى أولئك الذين اعتادوا على ذلك المذاق وتلك النكهة فى البلدان الأجنبية ، والبصل والكراث وكذلك الثوم هى الخضراوات الوحيدة التى يغرم بها العرب .

التمور هي السلعة الغذائية الوحيدة الرئيسية في المدينة المنورة ، كما سبق أن أوضحت . طوال فترة جني محصول التمر التي قد تستمر شهرين أو ثلاثة أشهر (إذ إن لكل نوع من التمور موسمه الخاص) ، أو بالأحرى من شهر يوليو إلى شهر سبتمبر ، تعيش الطبقات الفقيرة على التمر ولا تأكل أي شيء سواه ، وطوال بقية العام ، تظل التمور المجففة الطعام الرئيسي لهؤلاء السكان . محصول التمر هنا له الأهمية نفسها التي في أوروبا، وفشل محصول التمر هنا يتسبب في كارثة وبلاء كبير للناس . والبدوي عندما يلاقي إنسانًا على الطريق يبادره بالسؤال التالي : " ما هي أسعار التمر في مكة أو المدينة المنورة ؟ " يجري إحضار كمية كبيرة من هذه التمور إلى المدينة المنورة من مناطق بعيدة ، وبخاصة من الفراع ، و الفراع هذا عبارة عن واد خصيب من ممتلكات قبيلة بني عامر ، وهذا الفراع عامر ببيارات النخيل المتعددة ، وهو يبعد عن المدينة المنورة رحلة مقدارها مسير أربعة أيام، كما يبعد مسافة كبيرة عن رابغ في وسط الجبال . ويجري إحضار التمور في أوعية كبيرة يجري طحن التمور فيها على شكل معجون ، كما سبق أن أوضحت . وعلى الرغم من شيوع المعاملات التجارية ، فإن قلة قليلة من الناس هم الذين يعملون بها . السواد الأعظم من السكان عبارة عن زرّاع ، أو ملاك للأرض في الطبقات الراقية ، وخدم في المسجد النبوي . والناس هنا يقبلون على تملك الأراضي والبساتين ، ومسألة أن يصبح الإنسان هنا من ملاك الأرض ، ينظر الناس إليها باعتبارها شيئًا من الشرف ، يزاد على ذلك أن إيجار الحقول يصل إلى مبالغ كبيرة في حال جودة محصول التمر . وإذا جاز لي أن أحكم من واقع مثالين سمعت عنهما ، فإن الحقول يجري بيعها بطريقة ، تعطي مالك الأرض في السنوات المعتادة، دخلا يتردد بين اثني عشر بالمائة وستة عشر بالمائة علاوة على رأس المال ، بعد أن يتنازل – كما هي العادة – عن نصف المحصول للزراع الفعليين. ومع ذلك، كشفت الحسابات في العام الماضي أن أموالهم عادت عليهم بأرباح مقدارها أربعين في المائة . الطبقات الضعيفة لا تستطيع استثمار رؤوس أموالها الصغيرة في البساتين ، نظرًا لأنهم يرون أن ستة عشر في المائة أو عشرين في المائة لا يعد عائدًا مناسبًا لهم ، وفي الحجاز لا يرضى أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة

بفائدة تقل عن خمسين بالمائة سنويا ، وهم يحاولون جعل الأجانب والأغراب يضاعفون رؤوس أموالهم عن طريق الغش والخداع ، ومن هنا يمكن القول إن هؤلاء فقط هم الذين يمتلكون الأرض عن طريق التجارة ، أو عن طريق الدخل الذى يأتيهم من المسجد النبوى ، أو من الحجاج ، الأمر الذى جعلهم يجمعون ثروات كبيرة .

يأتى الدعم الأكبر الذى تحصل عليه المدينة المنورة من المسجد النبوى أولاً ثم من الحجاج . وسبق أن تحدثنا عن الفراشين ، أو خدم المسجد النبوى والأرباح التى يجنوها من هذه الخدمة ، وهنا يتعين علينا أن نضيف إلى هؤلاء الفراشين عدداً كبيراً من البشر الملحقين على المسجد النبوى ، الذين لهم وظائف اسمية لكنهم يحصلون على نصيب من دخل الحرم ، هناك أيضًا رهط كبير من المرشدين ، ويضاف إليهم أيضًا كل أصحاب المنازل الذين يؤجرون منازلهم للحجاج . وعلاوة على الحصة التى يحصل الفراشون عليها من دخل الحرم ، فإنهم على اختلاف طوائفهم ومراتبهم يحصلون على صرَّة ، أو إن شئت فقل : سنويّة يجرى إحضارها سنويًا من إسطنبول والقاهرة ، يزاد على ذلك أن السكان جميعهم يحصلون على هدايا سنوية ، تندرج هى الأخرى تحت اسم الصرَّة . صحيح أن هذه العوائد لا يجرى توزيعها بصورة منتظمة ، كما أن الكثيرين من الأسر الفقيرة والطبقات المعدمة التى جاءت من أجلها هذه العوائد لا تحصل على أى شىء منها ، ومع ذلك ، تصل هذه المبالغ إلى المدينة ، ويجرى تداولها . (*) وبذلك يمكن دعم كثير من الأسر دعمًا كاملاً عن طريق المبالغ التى تأتى على شكل صرر من إسطنبول ، والتى تتردد قيمة الصرة الواحدة منها بين مائة جنيه إسترلينى ومائتى جنيه فى العام ، دون أن تؤدى أية خدمة من الخدمات . يقول أهل المدينة المنورة ، إنه فى غياب هذه الصرر ، سوف يهجر الناس المدينة لملاك الأرض والزراع . هذا الاعتبار كان الدافع الرئيسى وراء إنشاء فكرة ملاك الأرض والزراع ،

(*) بعد أن أعاد قايتباى ، سلطان مصر ، بناء المسجد النبوى فى العام ١٨٨١ الهجرى ، خصص الرجل دخلاً سنويًا مقداره سبعة آلاف وخمسمائة إردب من القمح لسكان المدينة المنورة ، على أن يتم إرسال هذا القمح من مصر ، كما أمر السلطان سليمان بن سليم بخمسة آلاف إردب للغرض نفسه . (راجع قطب الدين والسمهودى)

فضلاً عن الأوقاف المتعددة ، أو المؤسسات الخيرية ، التى تتبع البلدان والمساجد فى سائر أنحاء الإمبراطورية التركية . الصرَّة يساء استعمالها فى الوقت الراهن ، ولا تستخدم إلا فى إطعام مجموعة البشر العاطلين تمامًا ، فى حين يظل الفقراء على فقرهم المدقع ، فضلاً عن عدم تشجيع الصناعة بأى شكل من الأشكال . فيما يتعلق بالافتقار إلى الصناعة نجد أن المدينة المنورة هى الأكثر افتقارًا إليها عن مكة . المدينة المنورة بحاجة ماسة إلى الحاجيات الميكانيكية التى لا غنى عنها ، يزاد على ذلك أن القلة القليلة التى تعيش هنا كلها من الأجانب ، وهى تقيم فى المدينة المنورة لآجال محددة . المدينة المنورة كلها ليس فيها سوى منجد واحد ، وعامل مفاتيح واحد ، والنجارون والبناءون شحيحون تمامًا ، الأمر الذى يضطر الناس إلى إحضار بنائين ونجارين من ينبع إذا ما أرادوا ترميم منزل من المنازل . والمسجد النبوى إذا ما احتاج بعض العمال ، فيجرى إحضارهم من مصر (القاهرة) ، بل ومن إسطنبول فى بعض الأحيان ، وهذا فى ضوء ذلك الذى شاهدته طوال مقامى فى المدينة ، وذلك عندما جرى إحضار بناء من إسطنبول لإصلاح سقف المبنى . يزاد على ذلك ، أن مصر هى التى تزود المدينة المنورة بكل احتياجاتها بما فى ذلك السلع التافهة أيضًا . عندما كنت فى المدينة المنورة لم يكن بالإمكان عمل جرار الماء التى تصنع من الفخار . منذ سنوات قليلة قام مواطن دمشقى بإنشاء صناعة لإنتاج الأوانى الفخارية التى لا غنى عنها ، لكن هذا الدمشقى ترك المدينة المنورة ، الأمر الذى اضطر سكان المدينة إلى شرب الماء من جرار مكسورة ، خلفها ذلك الدمشقى وراءه ، أو عن طريق جلب تلك الأوانى من مكة بتكاليف كبيرة . لم يكن فى المدينة المنورة صناعة صباغة ، أو مصنوعات صوفية ، أو أنوال نسيج ، أو مدابغ للجلود ، أو أعمال جلدية ، أو مشغولات حديدية من أى نوع كان، يزاد على ذلك، أن المسامير وحدوات الخيول يجرى جلبها من كل من مصر وينبع. فى روايتى عن مكة ، عزوت عزوف أهل الحجاز عن الحرف اليدوية إلى كراهيتهم واستيائهم من العمل اليدوى بكل أشكاله ، لكن هذه الملاحظة لا تنطبق على المدينة المنورة ، حيث الناس أكثر جدية – على الرغم من تكاسلهم عن إصلاح أراضيهم – واستعدادهم للقيام ببعض الحرف والأعمال اليدوية، دون بذل جهد بدنى أكبر من الجهد

الذى يبذلونه فى حقولهم . وأنا أميل إلى القول : إن افتقار المدينة المنورة إلى الحرف اليدوية ، يُعزى إلى تقليل أهل الجزيرة العربية من شأن هذه الحرف اليدوية والحط من قيمتها ، وسبب ذلك أن فخر أهل الجزيرة العربية وتباهيهم أقوى بكثير من جشعهم وحبهم للمال ، وهذا الفخر والتباهى هو الذى يمنع الآباء من تعليم أبنائهم أية حرفة من هذا القبيل . هذا العزوف يرثه أهل المدينة المنورة عن السكان القدامى ، البدو بصفة خاصة ؛ نظراً لأن هؤلاء البدو، كما سبق أن قلت، يستبعدون ، وإلى يومنا هذا ، الحرف اليدوية كلها من قبائلهم التى ينتمون إليها ، فضلاً عن نظرة هؤلاء البدو إلى أولئك الذين يستقرون فى مخيمهم ، باعتبارهم من سلالة أو عرق متدنٍ ، الأمر الذى يمنع هؤلاء البدو من الاختلاط بهؤلاء الناس أو حتى الزواج منهم . مثل هؤلاء الناس يقيِّمهم البعض فى مناطق أخرى من الشرق تقييماً مختلفًا ، وبخاصة فى سوريا ، وفى مصر اللتين يجرى فيهما تقدير هذه الحرف تقديراً كبيراً ، واحترامها مثلما كان الحال عليه فى كل من فرنسا وألمانيا خلال العصور الوسيطة . فى هذه البلاد تجد الأسطى فى حرفة من الحرف مساوياً من حيث المرتبة والاحترام لتاجر من تجار الطبقة الثانية ، هذا يعنى أن هذا الحرفى بوسعه الزواج من بنات الأسر المحترمة فى المدينة ، وعادة ما يكون صاحب نفوذ فى المنطقة التى يقيم فيها ، عن تاجر تكون ثروته ثلاثة أضعاف ما يملكه ذلك الحرفى نفسه . بذل الأباطرة الأتراك قصارى جهودهم للعناية بالصناعة والفنون ، وقبل خمسين عامًا كانوا لا يزالون منتعشين فى كل من سوريا ومصر ؛ الحرفيون فى سوريا الآن على وشك الانقراض ، اللهم باستثناء دمشق ، وفى مصر تدنى حال هؤلاء الحرفيين إلى أدنى المستويات ؛ والسبب فى ذلك أنه على الرغم من أن محمد على باشا يستعمل بعض الإنجليز والإيطاليين فى تسيير وإنجاز الخدمات فإن هؤلاء العمال الإنجليز والإيطاليين يعملون لحساب محمد على ، الأمر الذى لا يجعل أحداً منهم يشعر بالرواج، يضاف إلى ذلك أن محمد على باشا يجبر الصناعة الوطنية، عن طريق الاحتكار (احتكار المنتج) من ناحية ، واستخدام القسم الأكبر من العمالة لحسابه من الناحية الأخرى على ما يجعلهم يتقاضون عائداً يقل بنسبة ثلاثين فى المائة عما ينبغى أن يتقاضوه ، إذا ما سمح لهم بالعمل لحسابهم ، أو فى القطاع الخاص .

الأشخاص المجدون هنا فى المدينة المنورة هم أولئك الحجاج المعدمون ، وبخاصة السوريون منهم ، الذين يكثر وجودهم هنا فى مدينة الرسول ، والذين يحاولون عن طريق العمل الدءوب ، طوال أشهر قلائل ، جمع مبلغ من المال يفى بنفقات عودتهم إلى بلادهم . هؤلاء الحجاج المعدمين يعملون فترات متقطعة فقط ، وإذا ما غادروا المدينة المنورة أو رحلوا عنها ، خلت من الحرفيين فترة طويلة من الزمن . أثناء مقامى فى المدينة المنورة ، لم يكن فيها سوى رجل واحد هو الذى كان يناقش المشكلات العائلية ؛ وعندما ترك ذلك الرجل المدينة المنورة ، على حد تعبير نساء الجزيرة العربية ، تعين على الحجاج الأجانب مناقشة مشاكلهم بأنفسهم . ومع مثل هذه الظروف يتعذر على الرجال العثور على أبسط سبل الراحة ، بل إن النقود نفسها لا يمكن لها هنا أن تلبى احتياجات الإنسان . ومع ذلك ، هنا طائفة من الرجال سبقت الإشارة إليها وأنا أتناول مكة بالوصف ، هؤلاء الرجال على استعداد لتقديم الخدمات للآخرين . هؤلاء الرجال هم الحجاج الذين يأتون من إفريقيا ؛ إنهم قلة قليلة من الزنوج ، أو أن شئت فقل التكارنة على حد تسمية الناس لهم ، والذين يأتون إلى مكة ، دون أن يزوروا المدينة المنورة التى هى فى نظرهم أكثر وقاراً وتقديراً عن مكة المكرمة. المذهب المالكى الذى يعتنقه هؤلاء الزنوج ، يضع احترام (سيدنا) محمد ﷺ فى منزلة أسمى من المنزلة التى تضعه فيها المذاهب الثلاثة الأخرى ، هؤلاء الزنوج يقتربون من قبر محمد ﷺ بضمائر مرتاعة وخائفة ، وبمشاعر تختلف عن المشاعر التى تعتريهم عندما يزورون الكعبة ، وهم مقتنعون تماماً ، أن الدعاء الذى يرددونه أمام شباك الحجرة لابد أن يستجاب إن آجلاً أم عاجلاً . سألنى أحد هؤلاء الزنوج ذات مرة ، بعد حوار قصير دار بينى وبينه ، عما إذا كنت أعرف ذلك الدعاء الذى إذا ما دعا به المسلم ، رأى محمدا ﷺ فى المنام ، لأنه كان يود أن يسأله سؤالاً واحداً ، وعندما أعربت له عن جهلى بهذا الموضوع قال لى : إن النبى ﷺ ظهر لعدد كبير من أهل بلده . هؤلاء الزنوج هم الذين يزودون المدينة المنورة بالحطب الذى يجمعونه من الجبال المجاورة للمدينة ، ويبيعونه بمبالغ لا بأس بها ، وإذا ما غاب هؤلاء الزنوج عن المدينة المنورة ، أو إذا ما قل عددهم فى المدينة ، عجز الناس عن الحصول على الحطب حتى إن

توفرت النقود . هــؤلاء الزنوج يعملون هنا حمّالين أو شيالين ، والضعـاف منهم الذين لا يقوون على العمل الشاق ، يصنعون الحصير والقفف من سعف النخيل ، وهم عادة ما يعيشون مع بعضهم البعض في بعض أكواخ ذلك المكان العام الذين يطلقون عليه اسم المناخ ، ويبقون في المدينة المنورة إلى أن يجمعوا المبلغ الذى يفي بنفقات عودتهم إلى بلادهم . قلة قليلة مـن هـؤلاء الزنوج هــم الذين يمتهنون التسـول ؛ مـن الأربعين زنجيا أو الخمسين الذين شاهدتهم هنا لم يكن بينهم سوى اثنين أو ثلاثة فقط هم الذين كانوا يمتهنون الشحاذة ؛ نظرا لأنهم لم يكونوا يصلحون لأى عمل آخر . وبشكل عـام ، فإن عـدد الشحـاذين في المدينة المنورة أقل منه في مكة (المكرمـة) . والسـواد الأعظم من الشحاذين في مكة وفي المدينة المنورة هم من الهنود . قلة قليلة من الحجاج هم الذين يأتون إلى المدينة المنورة بلا مال ، من باب ثقتهم بأنهم سيكسبون عيشهم عن طريق العمل ، المسافة التى تبعدها المدينة عن البحر أكبر من المسافة بين مكة والمدينة المنورة عبر الصحراء ، وهذه المسافة يخشاها ويخافها الفقراء البائسون . وهنا يمكن القـول إن ثلث الحـجاج الذين يذهبون إلى مكة هم فـقط الذين يزورون المدينة المنورة أيضًـا . يزاد على ذلك أن قـافلة الحج المصـرية يندر أن تمر على المدينة المنورة . (*) الزائرون يوجدون في المدينة المنورة على مدار العام ، وليس هناك وقت محدد لزيارة قبر الرسـول ﷺ ، وعادة مـا يبقى الزائرون هنا حـوالي أسبوعين أو شـهرًا فـي المدينة المنورة ، ويزداد عـددهـم في المدينـة المنورة بعد الانتـهـاء من مناسك الحج في مكة ، كما يزداد عددهم أكثر في شـهر ربيع الثاني، الذى ولد مـحمد ﷺ في اليوم الثاني عشر منه ، كما أن ذلك التاريخ هو الذى يجرى فيه الاحتفال بمولد محمد ﷺ .

لقـد اسـتـعـاض أهـل المدينة المنورة ندرة الشـحـاذين في المدينة بأن ذهبـوا هم أنفسـهم يسـتـجدون الناس ويشـحذون في مناطق أخرى . درج سكان المدينة المنورة

(*) في كل مرة تمر فيها قافلة الحج على المدينة المنورة ، فإنها تكون في طريق عودتها من مكة ، ومن ثم فهي مثل القافلة السورية لا تبقى في المدينة المنورة سوى ثلاثة أيام . أثناء السفر من القاهرة إلى مكة ، لا تزور القافلة المصرية المدينة المنورة مطلقًا .

الذين حصلوا على شيء من التعليم ، ويستطيعون القراءة والكتابة ، على القيام في حيواتهم برحلة شحاذة أو استجداء مرة أو مرتين إلى تركيا . هذه النوعية من الشحاذين عادة ما تذهب إلى إسطنبول ، التي يحصلون فيها من الحجاج الأتراك ، الذين سبق لهم التعرف عليهم عندما كانوا في المدينة المنورة ، وبعضهم حمل رسائل تزكية تقدم هؤلاء الشحاذين إلى أعيان إسطنبول ، وتبرر فقرهم ، حتى يحصلوا على هدايا ضخمة وعطايا كبيرة من المال والثياب ، وذلك من باب تقدير هذه النوعية من البشر باعتبارهم من مواطني المدينة المنورة وسكانها ومن المجاورين لقبر النبي ﷺ . بعض هؤلاء الشحاذين يعملون أئمة في منازل الأعيان . بعد إقامة عامين ، يستثمر هؤلاء الصدقات التي جمعوها في التجارة ، وبذلك يعودون إلى المدينة المنورة وكل واحد منهم يحمل رأسمال كبيراً . لقد شاهدت عدداً كبيراً من هؤلاء الشحاذين في القاهرة ، وهم يقيمون في مساكن قريبة من مساكن أولئك الذين كانت تجمعهم بهم معرفة طفيفة في المدينة المنورة ، الأمر الذي جعلهم منفرين ومكروهين من الناس بسبب إلحاحهم المستمر . هناك بعض المدن القليلة جداً في كل من سوريا ، والأناضول ، وتركيا الأوروبية ، التي لا تعرف هذه النوعية من الشحاذين ولا وجود لهم فيها . هذه النوعية من الشحاذين يتعلمون شيئًا من اللغة التركية لكي يفيدوا منه في أسفارهم من ناحية والقيام بأعمالهم كمرافقين لمن يزورون المسجد النبوي ؛ هذه النوعية من الشحاذين يفخرون بأنهم قادرون على إقناع الحجاج الأتراك ، بأنهم من الأتراك وليسوا عربًا من الجزيرة العربية ، بغض النظر عن مدى حبهم للأتراك .

أهل المدينة المنورة ليسوا أقل بِشراً وتهللاً من المكيين . وهم يكشفون عن قدر كبير من القسوة والوقار في سلوكياتهم ، لكنهم في هذا الشأن أقل من أتراك الشمال. وأتراك الشمال من الناحية المظهرية يبدون أكثر تدينًا من جيرانهم الجنوبيين. وهم أكثر تشدداً في الالتزام بالطقوس الدينية والآداب العامة وهم في المدينة المنورة أكثر منها في مكة ، ومع ذلك فإن أخلاقيات السكان في المدينة المنورة تبدو كأنها في مستوى واحد مع أخلاقيات أهل مكة (المكرمة) وسلوكياتهم ، ولا يتورع أهل المدينة المنورة عن اللجوء إلى الحيل وكل الوسائل لخداع الحجاج وغشهم . يزاد على ذلك أن الرذائل

التى تسىء إلى سمعة المكيين تشيع هنـا أيضًا فى المدينـة المنـورة ، يزاد على ذلك أن تشدد أهل المدينة الدينى لم يمنعهم من تعاطى المسكرات ، التى يصنعها الزنوج ، كما يصنعـون أيضًا نبيذ التمـر ، الذى يصنعونه عن طريـق سكب المـاء على التمر ثم تركه يتخمـر . وأنا أرى أن أهـل المدينة شأنهم شـأن أهل مكة ، عديمو القيمة ، ومع ذلك ، يحاول أهل المدينة المنورة التمسح فى الشخصية التركية الشمالية ؛ ولذلك ، يتنازل أهل المدينة عن تلك المناقب الطيبة القليلة جدًا فى شخصيتهم ، فى الوقت الذى يبقى فيه المكيون على هذه المناقب . وأنا عندما أقدم هذه الشخصية العامة لأهل المدينة المنورة ، لا أبنى تفاصيل هذه الصورة أو الشخصية على الخبرة القصيرة التى اكتسبتها من مقـامى معهم فى المدينة ، وإنما أسستها على معلومات حصلت عليها من كثير من الأفراد ، هم من مواطنى المدينة المنورة ، التقيتهم فى كل منطقة من مناطق الحجاز . أهل المدينة المنورة يبدون مسرفين تماما مثل أهل مكة . ذاع فى المدينة المنورة أن فيها اثنين أو ثلاثة تقدر ثروة كل منهم بما يتردد بين عشرة آلاف جنيه إسترلينى واثنى عشر ألف جنيه ، يستعمل الواحد منهم نصفها فى الثروة العقارية والنصف الآخر فى التجارة . ويقال إن أسرة عبد الشكور هى أغنى أسر المدينة المنورة . التجار الآخرون لهم رءوس أموال أقل بكثير من رءوس أموال هؤلاء الثلاثة ، إذ يتراوح رأسمال الواحد منهم بين أربعمائة جنيه إسترلينى وخمسمائة جنيه فقط ، ولكن السواد الأعظم من السكان ملحق على المسجد النبوى ، أو من بين أولئك الذين يكسبون عيشهم من الحوافز والصدقات ، ومن الحجاج ، وهم ينفقون دخلهم السنوى إلى آخر مليم . هؤلاء الناس يبدون من الناحيـة المظهرية أغنى وأثرى من المكيين ، نظرًا لأنهم أفضل من المكيين من حيث الملبس ، ومع ذلك لا يمكن مقارنة حجم الثروة هنا بحجم الثروة فى مكة .

يقال إن أهل المدينة المنورة يعيشون فى منازلهم عيشة فقيرة فيما يتعلق بالطعام ، ومع ذلك فإن بيوتهم مؤثثة تأثيثًا طيبًا ، وإنهم ينفقـون مبالغ كبيرة على ملبسهم . العبيد لا ينتشرون فى المدينة المنورة كما هو الحال فى مكة ، ومع ذلك هناك عدد كبير من الأحباش يعيشون هنا فى مدينة الرسول ﷺ ، يضاف إلى ذلك ، عدد من النساء

اللاتى يقمن هنا باعتبارهن زوجات : زوجات الزراع ، وزوجات سكان الضواحى ، يخدمن العائلات الحضرية ، من باب أنهن خادمات فى المنازل ، يعملن بصورة أساسية فى طحن القمح فى الطواحين اليدوية ، أو إن شئت فقل: الرحى . نساء المدينة المنورة ، يتصرفن بأدب جم ، ويتمتعن بسمعة الفضيلة الطيبة أكثر من نساء مكة وجدة .

العائلات صاحبة البساتين والحدائق تبالغ مبالغة كبيرة فى احتفائها بأصدقائها ، مرارًا فى منازلها الريفية ، التى يجتمع فيها أعضاء العائلات المدعوة كلها رجالاً ونساءً ، ويقال إن هذه العادة تنتشر على نطاق واسع فى فصل الربيع ، ويقال أيضًا : إن أهل المدينة المنورة يتبارون فى ذلك مع بعضهم البعض ، الأمر الذى وصل إلى حد التقول : بأن فلانًا وعلانًا أكثر أو قلل من جيرانه فى حفلات الاستقبال التى أقامها خلال الموسم . قلة قليلة من العائلات هى التى تمضى العام كله فى بساتينها أو حدائقها ؛ ومن بين هؤلاء أسرة رجل صالح ، كانت تقيم فى بستان جميل يقع فى الجزء الجنوبى من المدينة المنورة . هذا الرجل الصالح شهير جدًا بنقائه وطهارته ، إلى حد أن طوسون باشا قبَّل يديه فى مرة من المرات . زرت هذا الرجل الصالح ، شأنى فى ذلك شأن الزوار الكثيرين الآخرين ، وقد حدثت تلك الزيارة فى الأيام الأولى عقب وصولى إلى المدينة المنورة ، ووجدت الرجل جالسًا فى محراب مجاور للمنزل لا يتحرك منه مطلقًا . كان الرجل أكثر أدبًا من أى قديس من القديسين الذين شاهدتهم أو التقيتهم فى حياتى ، ولم يكن الرجل ميالا إلى الكلام فى شئون الدنيا . بلغنى أن هذا الرجل كان بحوزته بعض الكتب التاريخية وأنه كان على استعداد لبيعها ، لكنى عندما تحريت الأمر ، عرفت منه أنه لم يشغل نفسه إلا بالشريعة ، والقرآن ، واللغة العربية . قدم الرجل لى نرجيلة كى أدخن ، كما قدم لى أيضًا طبقًا من التمر ، الذى يأتيه من بستانه ، وبعد أن وضعت ، عندما هممت بالانصراف ، دولارًا تحت السجادة التى كنت أجلس عليها (فقد قيل لى إن هذا أمر عادى فى مثل هذه الظروف) ، صحبنى الرجل إلى باب البستان ، ورجانى أن أزوره مرة ثانية .

يشيع هنا في المدينة المنورة ، كما هو الحال في مكة تدخين النرجيلة ، أو إن شئت فقل : الغليون الفارسي . الغلايين شائعة هنا في المدينة المنورة ، أكثر انتشاراً عنها في الأماكن الأخرى من الحجاز ، نظراً لبرودة الطقس . يزاد على ذلك أن شرب القهوة هنا مبالغ فيه وغير عادي بالمرة . في البساتين يشتري الناس البن بالفواكه وبالنقود أيضاً ، وولع الناس بشرب الشاي في كل من إنجلترا وهولندا لا يرقى أبداً إلى ولع الناس بشرب القهوة في المدينة المنورة .

أهل المدينة المنورة لا يربون الخيول . ويستثنى من ذلك أفراد عائلة شيخ الحرم ، وقلة قليلة من أفراد حاشيته ، وأنا لا أظن أن أحداً يربي خيولاً في المدينة . على العموم ، هذه المناطق من الجزيرة العربية تفتقر إلى الخيول ، نظراً لعدم توفر المراعي اللازمة لذلك ، يزاد على ذلك أن البدو الذين في شمال المدينة المنورة وشرقها ، في الصحراء ، لديهم على العكس من ذلك ، عدد كبير من السلالات . هذا يعني أن بساتين المدينة المنورة يمكن أن تحل محل المراعي ، وقبل ذلك ، وعندما كان هناك بعض المحاربين في المدينة ، كانوا يقومون بتربية الخيول ، وكانوا يقومون بغزو البدو الذين تصادف نشوب القتال فيما بينهم . في الوقت الراهن تميل روح أهل المدينة المنورة إلى المسالمة والمهادنة ؛ وتأسيساً على ذلك ، عقب استيلاء الوهابيين على المدينة ، قام أصحاب الخيول القليلة ببيع خيولهم على وجه السرعة ، هرباً من التجنيد العسكري الذي يخضع له الخيالة في الأراضي الوهابية ، واحتفظت بعض الأسر الثرية بالبغال ، وبالإبل أيضاً . والحمير من الحيوانات الشائعة في المدينة المنورة ، وبخاصة بين الزراع ، الذين يستعملونها في جلب منتجاتهم الحقلية إلى منازلهم ، وحمير المدينة المنورة من سلالة أصغر من سلالة الحمير التي في كل من مكة والحجاز بصفة عامة ، وقد أدى احتياج الجيش التركي إلى الإبل إلى نقص عدد الإبل التي كان الزراع يربونها ، والذين اضطروا إلى بيع هذه الإبل مخافة أن يصادرها الجيش التركي : بدو الصحراء الشرقية ، التي تبعد عن المدينة المنورة مسير ثلاثة أيام أو أربعة ، لديهم أعداد كبيرة من الإبل ، حدث أن قامت دورية من دوريات طوسون باشا – أثناء مقامي في المدينة المنورة – بالاستيلاء على حوالي سبعمائة جمل ، تم الاستيلاء عليها من مخيم واحد من مخيمات قبيلة بني الحطيم .

جدير بنا هنا أن نلاحظ أن المدينة المنورة - على حد علمي - هي المدينة الوحيدة من بين مدن الشرق التي لا يوجد فيها أي نوع من الكلاب ؛ الناس هنا لا يسمحون مطلقًا للكلاب بالمرور من البوابة إلى داخل المنزل ، وبذلك يتحتم أن تبقى هذه الكلاب في الضواحي بعيدًا عن المدينة نفسها ، وقد قيل لي إن الخفر في مختلف أحياء المدينة المنورة يجتمعون مرة واحدة كل عام لطرد الكلاب التي يحتمل أن تكون قد تسللت إلى داخل المدينة المنورة دون أن يلاحظها أحد . ربما كان الخوف من دخول أحد الكلاب إلى المسجد النبوي ومن ثم ينجسه ، هو الدافع الرئيسي وراء استئصال الكلاب من المدينة ، هذه الكلاب يطيقها الناس ويتحملونها في مكة (المكرمة) .

من بين الأغنام الموجودة في المنطقة المجاورة للمدينة المنورة ، نوع صغير الحجم شهير بلونه الممتزج باللونين الأبيض والبني ؛ هذا النوع من الأغنام معروف أيضًا في المناطق المحيطة بمكة (المكرمة) . حجم هذا النوع من الغنم صغير ، والأجانب يربون هذه النوعية من الأغنام ويصطحبونها معهم إلى أوطانهم باعتبارها من الأشياء النادرة في الأرض المقدسة . في القاهرة يربي الناس هذا النوع من الغنم في حدائق المنازل ، ويدهنونها باللون الأحمر ، باستعمال الحناء ، ويعلقون في أعناقها باقة فيها أجراس صغيرة ، ويجعلون الأطفال يلهون ويتسلون بها .

وأنا أعتقد أن أهل المدينة المنورة ليس عندهم من مظاهر التسلية العامة سوى أيام الأعياد المعتادة ، وذلك باستثناء مولد النبي ﷺ ، الذي يصادف اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الثاني ، وهو يعد عيدًا وطنيًا أو قوميًا ، وأصحاب المحلات يغلقون دكاكينهم بهذه المناسبة، وفيها يرتدي الناس أبهى ملابسهم ، في الصباح الباكر يجتمع العلماء ومعهم عدد من وجهاء الناس ، في المسجد النبوي ، حيث يقوم أحد الخطباء بعد إلقاء خطبة قصيرة ، بقراءة شيء من سيرة سيدنا محمد ﷺ ، بدءًا من مولده إلى وفاته ﷺ ، وبعد ذلك يجري تقديم الليمونادة ، أو الماء المعطر بماء الورد إلى كبار الحاضرين . والمولعون بمحمد ﷺ يمضون الليلة السابقة لذلك الاحتفال في الصلاة والدعاء . كانت زوجة محمد علي باشا بعد أن أنهت مناسك الحج

في مكة ، قد حضرت إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ ، ولمقابلة ولدها طوسون باشا ، وأمضت القسم الأكبر من الليل في التعبد في المسجد النبوى ، وعندما عادت إلى المنزل الذى استأجرته لذلك الغرض ، بالقرب من بوابة المسجد النبوى ، زارها ولدها طوسون زيارة قصيرة ، ثم تركها ترتاح ، في حين أمر هو بإحضار سجادة وفرشها في منتصف الشارع ونام عليها، أمام عتبة المنزل الذى تنزل فيه أمه ؛ مدللاً بذلك على احترام وتواضع يعد شرفًا وتكريمًا له باعتباره ابنًا باراً ، ويعد ذلك تشريفًا للأم نفسها لأنها أوحت للابن بمثل هذه المشاعر . زوجة محمد على باشا ، امرأة تحظى باحترام كبير ، وهى خيرة أيضًا دونما تظاهر أو تباه . وأنا أرى أن ولدها طوسون هو الوحيد في الأسرة كلها الذى لديه قلب عامر بالمشاعر الطيبة ، أما بقية أفراد العائلة فهم فاسقون بفعل الرذائل الكثيرة التى ترافق الأعيان من الأتراك ، لكن طوسون كشف في كثير من الأحيان عن كثير من المشاعر السامية ، بل إن أعداء طوسون لا يمكن أن ينكروا شجاعته ، أو كرمه ، وحبه العائلى ، وطبعه الجميل . وأنا أجدنى هنا أسف لأن قدراته الذهنية والفكرية كانت أقل من قدرات أبيه محمد على ، وأخيه إبراهيم باشا ، لكن طوسون أسمى منهما خلقًا وأخلاقًا . ظهرت والدة طوسون هنا ، في المدينة المنورة ، في أبهة وعظمة ملكة من ملوك الشرق ، ومن خلال تبرعاتها للمسجد ، وعطاياها للناس ، لذا يعدونها ملاكًا أرسلته إليهم السماء . لقد أحضرت أم طوسون لولدها هدايا تقدر بحوالى خمسة وعشرين ألف جنيه إسترلينى ، من بينها اثنتى عشرة بدلة كاملة ، بدءًا بالشال الكشمير الفاخر وانتهاء بالنعال ، كما أحضرت أيضًا عقداً من الماس قيمته خمسة آلاف جنيه إنجليزى ، كما أحضرت أيضًا أمَتَين جورجيتين ، وكان ضمن حاشيتها أيضًا أمَة جورجية رائعة الجمال ، ورائعة الملامح ، كان محمد على باشا قد تزوجها مؤخرًا في مكة ، لكنها نظرًا لعدم إنجابها ، كانت في منزلة أدنى من منزلة أم طوسون باشا ، التى أنجبت ثلاثة باشوات صغار (*) .

(*) إسماعيل باشا هو الشقيق الأصغر لكل من إبراهيم وطوسون ، ويقال إن إبراهيم باشا لم يكن ولداً من أبناء محمد على ، لكنه تبناه عندما تزوج أمه ، التى كانت في ذلك الوقت أرملة لأغا قولة ، في Hellespont ، المقر الحالى لباشا مصر .

هذه الأمَة رائعة الجمال كانت من إماء قاضى مكة الذى سبق أن جلبها من إسطنبول . وهنا نجد أن محمد على باشا بعد أن استمع إلى نسائه وهن يمتدحن جمال وقسمات تلك المرأة الجميلة، أجبر القاضى - على غير رغبة منه - على تطليق هذه الأمَة (المرأة) نظير مبلغ خمسين ألف قرش ، ثم عقد عليها بعد ذلك مباشرة .

أنا لا أستطيع قول أى شىء عن العادات والتقاليد الخاصة بأهل المدينة المنورة ، نظراً لأن اختلاطى بهؤلاء الناس كان جد قليل . ومع ذلك ، يمكننى القول : إن أهل المدينة المنورة ، لا يراعون فى تكريمهم للموتى القواعد السائدة فى سائر أنحاء الشرق ، وأنا على ثقة أن المدينة المنورة هى المدينة الوحيدة التى لا تولول نساؤها أو يصحن إذا ما مات أحد أفراد الأسرة . نستطيع القول بعكس ذلك تماماً ؛ هذا يعنى أنه فى أجزاء أخرى من الليفانت ، هناك فئة معينة من النساء اللاتى يجرى جلبهن لمثل هذه المناسبات ، ويتمثل دورهن الوحيد فى العواء والعويل على الميت ، مستخدمات فى ذلك أشد العبارات التى تفطر القلوب ، وذلك نظير مبلغ صغير يدفع لهن بالساعة . المدينة المنورة خلو من هذه الندّابات (على الرغم من اشتهار هؤلاء الندّابات فى أجزاء أخرى من الحجاز) ، يزاد على ذلك أن الناس ينظرون إلى الندب والندّابات باعتبارهما من الأعمال والأشياء المشينة . توفى رب الأسرة فى المنزل الذى كان مجاوراً للمنزل الذى أقيم فيه ، وكان المنزلان على اتصال ببعضهما البعض . توفى رب الأسرة هذا عند منتصف الليل ، وراح ولده ينفجر فى البكاء ، بفعل مشاعره الطبيعية ، وسمعت أم هذا الصبى وهى تقول : "بالله عليك لا تصِح ؛ يا للعار ! ستكشفنا أمام الجيران كلهم" وبعد شىء من الوقت راحت الأم تهدئ ابنها . هناك عادة وطنية أخرى تتعلق بالجنازات : عندما يخرج النعش من منزل الميت يكون محمولاً على أكتاف بعض أقارب المتوفى أو أصدقائه ، فى حين يسير بقية الأفراد والأصدقاء خلف النعش ، لكن عندما يصل موكب الجنازة إلى الشارع ، نجد أن كل الواقفين أو المنتظرين يسارعون إلى الانضمام إلى موكب الجنازة ، ويبادرون إلى تناوب حمل النعش للحظات قصار ؛

بحيث يحل بعضهم محل البعض الآخر ، نظراً لأن الجميع يودون المشاركة فى هذه المهمة ، التى يجرى تنفيذها دون توقف ، وبذلك نجد النعش ينتقل دومًا من رجل إلى آخر ، إلى أن يجرى وضع النعش فى النهاية بالقرب من القبر . وإذا ما سلمنا للحظة واحدة ، بأن هذه العادة البسيطة المؤثرة ، نابعة من إحساس صادق وحقيقى، فإن ذلك يثبت لنا فيضًا دافقًا من الأحاسيس التى تختلف عما نفعله نحن الأوروبيون فى أبهة جنازاتنا ، تلك الأبهة التى نحيط بها جنازة الميت إلى أن يصل إلى القبر . فى الشرق يجرى كل شىء طبقًا للعادات القديمة الراسخة ؛ هذه العادة الطيبة نشأت ، بلا شك ، بناء على دفق المشاعر ، أو إحساس بالورع والتقوى فى قلوب أولئك الذين استنوا هذه العادة ، لكن هذه العادة أصبحت اليوم مجرد شكل من الشكليات .

نساء المدينة المنورة لا يلبسن مطلقًا ملابس الحداد ، وهن يختلفن ، من هذه الناحية ، عن نساء مصر . تردد فى كثير من الأحيان على ألسنة بعض الرحالة ، أن أهل الشرق لا يعرفون ملابس الحداد ، ولكن هذا قول خاطئ ، فيما يتعلق بكل من مصر على الأقل وبعض أجزاء من سوريا . صحيح أن رجال الشرق لا يقبلون على هذا العمل ، الذى تحرمه روح الشرع ونصوصه ، لكن النساء داخل المنازل ، يلبسن ملابس الحداد فى سائر أنحاء مصر كلها ، والنساء فى بداية الحداد يصبغن أيديهن باللون الأزرق ، أو إن شئت فقل : بصبغ النيلة ؛ وهن فى الحداد يرتدين براقع سوداء ، بل وقمصان داخلية سوداء أيضًا ، وهن يواصلن ارتداء زى الحداد مدة سبعة أيام ، أو خمسة عشر يومًا ، أو أربعين يومًا فى بعض الأحيان .

فيما يتصل بالتعليم يتعين علىَّ القول : إن أهل المدينة المنورة أكثر علمًا من أهل مكة ، وذلك على الرغم من – كما سبق أن أوضحت – وجود قلة قليلة من المدارس العامة، إن لم يكن هناك شىء منها على الإطلاق . هناك أفراد يدرسون العلوم الإسلامية فى كل من دمشق والقاهرة ، اللتان يوجد فيهما مؤسسات دينية لهذا الغرض ، وكما هو الحال فى مكة ، لا يوجد سوق عامة للكتب فى المدينة المنورة ، والكتب الوحيدة التى

رأيتها معروضة للبيع ، كانت فى بعض محلات بيع الأقمشة بالتجزئة بالقرب من باب السلام . يقال إن هناك بعض المكتبات الخاصة القيمة ، وقد شاهدت واحدة من تلك المكتبات في منزل شيخ من الشيوخ ، حيث كان فيها ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مجلد ، لكنى لم أتمكن من تصفح بعض هذه الكتب أو حتى كلها . وكما هو الحال فى الشرق كله فإن المكتبات التى من هذا القبيل تكون على سبيل الأوقاف ، هذا يعنى أن هذه المكتبات جرى إهداؤها لمسجد من المساجد من قبل صاحبها أو مالكها إن صح التعبير، أو قد تكون قد أعطيت لعائلة من العائلات حتى لا يجرى التفريط فى الكتب . يقال إن الوهابيين نقلوا أحمالاً كثيرة من الكتب بعد أن غزوا المدينة المنورة ، هذا يعنى أنهم تصرفوا فى تلك الكتب بطريقتهم الخاصة .

وعلى الرغم من تحرياتى المتكررة هنا ، فى المدينة المنورة ، وفى مكة المكرمة ، لم أسمع مطلقًا عن شخص واحد ألف كتابًا واحداً من الكتب ، أو حتى دوّن ملاحظات مقتضبة عن كتاب من الكتب ، أو تاريخ الفترة التى عاشها ، أو حتى عن الوهابيين . وقد ظهر لى أن الأدب ازدهر ازدهارًا قليلاً فى المدينة المنورة ، شأنها فى ذلك شأن بقية مناطق الحجاز الأخرى ، وظهر لى أيضًا أن الهم الرئيسى لكل الناس هنا هو جمع المال ، وإنفاقه على الإشباعات الحسية .

لغة أهل المدينة المنورة ليست فصيحة مثل لغة أهل مكة ؛ فهى تكاد تقترب تمامًا من لغة مصر ، يزاد على ذلك أن السوريين المقيمين فى المدينة المنورة تمر عليهم أجيال متعددة قبل أن يسمعوا رنينًا للغتهم الوطنية . يشيع فى المدينة المنورة أن يسمع الناس أناسًا آخرين وهم يتكلمون لغاتهم الوطنية ، أو وهم يرددون بعض الكلمات التركية فى أضعف الأحوال ، والأعيان ورجال الاقتصاد الذين يعيشون فى ضواحى المدينة المنورة لديهم لهجة خاصة بهم ولديهم أيضًا بعض العبارات الخاصة بهم أيضًا ، لكن هذه اللهجة وتلك العبارات تكون مثارًا لانتقاد أهل المدينة لها وسخريتهم منها .

حكومة المدينة المنورة

كانت المدينة المنورة ، منذ بدء الإسلام ، بلدية مستقلة ، وعندما خضع الحجاز لحكم الخلفاء ، كانت المدينة المنورة تُحكم بأشخاص يعينون من قبل الخلفاء ، وكانت مستقلة عن حكام مكة ، وعندما ضعفت سلطة الخلفاء ، استقل شيوخ (رؤساء) المدينة المنورة بأنفسهم ، ومارسوا النفوذ نفسه في شمالي الحجاز ، بالطريقة نفسها التي كان أهل مكة يفعلونها في الجنوب . في بعض الأحيان كان حكام مكة ينجحون في مد سلطتهم بصورة مؤقتة إلى المدينة المنورة ، وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظهر أن تلك السلطة كانت ثابتة ومستقرة ، لكن هذه السلطة كانت تعتمد على مدى قوة سلاطين مصر ، عندما تكون لهم السيادة على مكة . عندما وصلت عائلة عثمان إلى العرش التركي ، فكر الإمبراطور سليم الأول ، وولده سليمان (اللذان أعطيا المزيد من الاهتمام للحجاز أكثر من أولئك الذين سبقوهما) أنه من الضروري أن يكون لهما سلطة ونفوذ أقوى على المدينة المنورة ، التي تعد مفتاحًا للحجاز ، والتي أصبحت لها أهمية كبيرة لقوافل الحج الكبيرة . أرسل الإمبراطور سليم وولده سليمان إلى المدينة المنورة حامية من الجنود الأتراك مكونة من الجنود الانكشارية والسباهي ، تحت قيادة أغا من الأغاوات ، الذي تقرر له أن يكون حاكمًا على المدينة ، وفي الوقت نفسه كان الحكم المدني بيد شيخ الحرم ، أو إن شئت فقل أغا الحرم ، المسئول عن المسجد ، والمسئول عن الاتصال المباشر بالعاصمة ، وكان يحمل لقب باشا شأنه شأن الباشوات في البلدان الأخرى ، وإذا ما استثنينا فترة قصيرة من أواخر القرن السابع عشر ، بعد أن أصبحت المدينة المنورة خاضعة لحكم شريف مكة ، نجد أن هذا الأسلوب من أساليب الحكم استمر إلى أن استولى الوهابيون على المدينة المنورة . في ذلك الوقت كان هناك في قلعة من القلاع الصغيرة أغا واحد ومعه مجموعة قليلة من الجنود ، وكان أغا الحرم هو وحاشيته الصغيرة من الجنود ، بمثابة الرئيس الأعلى للمدينة المنورة . ولكن على امتداد القرن الماضي انتشرت وسادت وعمت إساءات ومخالفات كبيرة ؛ منها أن الحاكم العسكري لم يعد يجري اختياره بواسطة

السلاطين ، وإنما الذى يختاره هم أهله وناسه ، ولم يعد هناك وجود للجنود الأتراك ، وإنما كان هناك خلف أولئك السلف الذين سبق أن جاءوا إلى المدينة المنورة ، والذين تزوجوا من المواطنات من أهل البلد ، وأصبح الأغا هو سيد المدينة الفعلى ، وجرى نشر جماعة الأغا على العائلات الأولى فقط ، ولم يكن لدى الأغا أية جنود أخرى غير حراس المدينة نفسها ، وكان يجرى اختيار الأغا عن طريق الضباط فى حامية المدينة المنورة ، الذين احتفظ خَلَفُهم بمناصبهم ، بحكم إقامتهم فى المدينة المنورة منذ زمن بعيد ، على الرغم من أن السواد الأعظم منهم كانوا قد هجروا الخدمة العسكرية . هذه القبيلة من الجنود ، التى يطلق الناس عليها اسم المرابطين ، جرى توسيعها وزيادة عددها لتقوية جماعة الأغا ، الأمر الذى أدى إلى تمديد امتياز هذه الجماعة ليشمل عدداً كبيراً آخر من سكان المدينة من ناحية ، ويشمل أيضاً الأجانب المقيمين فى المدينة من ناحية ثانية . وأصبح من حق أفراد جماعة الأغا المشاركة فى الرواتب السنوية التى كانت تحدد من قبل السلطان ، لدفع رواتب الحامية ، التى كانت تصل من إسطنبول بصورة منتظمة ، كما اغتصبت تلك الجماعة لنفسها أيضاً نصيباً من الصرةٌ ، أو إن شئت فقل الحوافز المالية التى كانت ترسل للمسجد النبوى من ناحية والمدينة ككل من الناحية الأخرى .

تحول أغا الحرم، والقاضى الذى كان يرسل عادة من إسطنبول إلى المدينة المنورة للإشراف على سير العدالة ، تحولا فى ظل الظروف السابقة ، إلى مجرد حكم شكلى ليس إلا . كان الأغا من الطواشية الذين لا يعرفون شيئاً عن اللغة العربية ، وقد حصل على وظيفة الأغا هذه من قبيل نفيه عن البلاد وليس مكافأة له على كفايته . بسبب تواضع الدخل الذى كان يحصل عليه ذلك الأغا من إسطنبول ، فإنه لم يستطع بفضله الاحتفاظ بحرس عسكرى مساو لحرس غريمه أو منافسه أغا المدينة المنورة ، وسرعان ما وجد نفسه وحده مكلفًا بحراسة المسجد النبوى ، وتولَّى قيادة الطواشية والفراشين . ومع ذلك ، لم يكن أغا المدينة المنورة صاحب سلطة أو سيادة كاملة على الحرم ؛ كان العديد من رؤساء الأحياء أصحاب سلطة واسعة ، كان للأشراف المقيمين فى المدينة المنورة شيخهم (رئيسهم) الخاص بهم ، وكان يدعى الشيخ السادات ،

كان صاحب سلطة واسعة ؛ الأمر الذى أسفر عن كثير من الفوضى وانعدام النظام . كان أهل المدينة ، وسكان الضواحى فى صراع دائم فيما بينهم طوال أشهر عدة ؛ فى داخل المدينة نفسها كانت هناك معارك طاحنة فيما بين سكان مختلف الضواحى ؛ فى هذه المعارك ، كان السكان يقيمون المتاريس فى الشوارع ، كما راحوا يطلقون النار على بعضهم البعض من فوق أسطح منازلهم ؛ هناك أمثلة يرويها الناس عن أناس فتحوا نيران بنادقهم على أعدائهم عندما كانوا فى المسجد النبوى يؤدون الصلاة .

فى غضون العشرين عامًا الماضية جرى تعيين رجل يدعى حسّان أغا للقلعة ، الأمر الذى أكسبه لقبًا وأصبح يدعى حسّان القلعى . ونظراً لمولد هذا الحسان وسط أناس من السفلة ، فقد أدى مكره ومهارته ، وتصميمه إلى الحصول على هذا المنصب . كان ذلك الحسّان قصير القامة ، ويعانى من شىء قليل من العرج ، ومع ذلك كان صاحب قوة بدنية كبيرة ، يزاد على ذلك ، أن صوت هذا الرجل أثناء غضبه كان يصيب أشجع الشجعان بالرعب والفزع . بعد سنوات عدة من الكفاح الصعب ، تمكن ذلك الرجل من أن يصبح سيداً كاملاً ومستبداً كاملاً أيضًا على المدينة المنورة ؛ كان لذلك الرجل حرس من أهل المدينة ، ومن البدو ، ومن المغربين ، وكان الجميع فى خدمة ذلك الرجل ، كما كانت الحشود كلها فى جانب ذلك الحسّان . كان ذلك الرجل متهمًا بأبشع الخروقات والمظالم ، كما اشتهر أيضًا بالجور على الحجاج ، وابتزاز الأموال منهم ، ومصادرة ممتلكاتهم ، فضلاً عن مصادرة ممتلكات الأجانب الذين توافيهم المنية فى المدينة المنورة ، وكان يحتجز لنفسه الصرّة التى كانت تأتى من إسطنبول بواسطة قافلة الحج؛ كان الرجل يحتجز هذه الصرة لنفسه ويحرم منها هؤلاء الذين هم بحاجة إليها ، وبذلك كدّس الرجل لنفسه ثروة كبيرة . هناك بعض الأمثلة على استبداد ذلك الرجل ووحشيته ؛ هناك حادثة تروى عن امرأة أرملة مسنة وثرية وصلت إلى المدينة المنورة ومعها ابنتها ، جاءتا من إسطنبول لزيارة قبر النبى ﷺ ، ولكن هذا الحسّان ألقى القبض على هذه المرأة وأجبرها على الزواج منه ، وبعد ذلك بيومين ، عُثر على هذه السيدة ميتة ، واستولى ذلك الحسان على ثروتها ، وبعد ذلك بفترة قصيرة أجبر ذلك الحسان ابنة تلك السيدة على الاستسلام لأحضانه ، ووصلت إسطنبول شكاوى

عدة ضد ذلك الحسَّان ، لكن السلطان لم تكن لديه القوة الكافية لعزل هذا الرجل وعندما كانت القافلة تصل إلى المدينة المنورة ، قادمة من سوريا ، كان ذلك الحسان القلعى ، يكشف عن مواقف تنم عن أن رؤساء هذه القافلة غير قادرين على أن يضروه بشيء . كان الرجل يضع كثيراً من العقبات أمام رؤساء القافلة ، والناس هنا يعزون إليه مسألة إجبار القافلة التى عزمت – بعد الغزو الوهابى للمدينة – على القيام برحلة إلى مدينة النبى ﷺ .

عندما بدأ الوهابيون يغيرون على مدن الحجاز ، ويجردون قواتهم على المدينة المنورة ، كان رد حسَّان القلعى لا يزال عنيفًا وقاسيًا ، وخلال العامين أو الثلاثة التى سبقت استيلاء الوهابيين على المدينة المنورة ، لم يضع حسان القلعى حداً لمظالمه ، وكان غالبًا ما ينزل أقسى العقوبات بأولئك الأشخاص الذين يتصادف ضحكهم فيما بينهم وبين أنفسهم ، أثناء مرور هذا الرجل ، من منطلق أن ذلك العرج الخفيف كان هو مدعاة لمرح هؤلاء الناس وفرحهم . أثناء الليل كان العرب العاملين فى خدمة ذلك الحسَّان يسطون على المحلات والدكاكين ، وبخاصة أن هؤلاء العرب كانوا يتجولون فى الشوارع على شكل جماعات كبيرة ، وبالتالى يستحيل مقاضاة مثل هذه الجماعات . وعندما أدرك حسان القلعى استحالة المحافظة على المدينة المنورة من هجوم الوهابيين، وبعد استسلام البدو وأهل مكة نفسها للوهابيين ، تخلى عن مكانه لسعود ، شريطة أن يستمر هو فى منصب القيادة ، جاء ذلك على شكل وعد جرى الوفاء به من جانب سعود ، وترتب على ذلك وضع حامية وهابية فى القلعة ، وهنا أُجبر أغا الحرم ، وكل الأتراك المقيمين فى المدينة المنورة على مغادرة المدينة ، التى بقى فيها ذلك الأغا طوال سنوات عدة كأنه مجرد ظل أو خيال لا أكثر ولا أقل ، وبقى حسان القلعى محافظًا على المدينة المنورة ، فى ظل الحكم الوهابى . وعندما وجد حسان أنه عاجز عن التصرف على النحو الظالم الذى كان عليه من قبل ، راح يتظاهر بالولاء الكامل للوهابيين ، وراح يقهر السكان ، ويفرض عليهم أقصى درجات القسوة ، بحجة نشر مبادئ المذهب الوهابى . لم يول سعود المدينة المنورة احترامًا أكثر من احترامه لمكة

المكرمة ؛ فقد تخلى سعود عن دخل مكة ، نظراً لأنها كانت في أيدى شريف مكة ، إضافة إلى أن أهل مكة جرى إعفاؤهم من الزكاة ، التى كان الرعايا الوهابيون الآخرون يدفعونها لرئيسهم ، الذى تخلى عن هذا الحق لصالح الشريف غالب . هذا النظام القائم على التراضى والمراضاة لم يجر اتباعه فى المدينة المنورة ، وهنا بدأ أهل المدينة الذين لم يسبق لهم أن عرفوا معنى الضريبة أو الرسوم ، اللهم باستثناء بعض المبالغ التافهة ، بدءوا يحسون بالقهر الشديد ، وبدأ حسان القلعى ، مع جباة ضرائب سعود يفرضون الضرائب على الناس بكل شدة وصرامة .

توقفت قوافل الحج فى تلك المرحلة ، ولم يصل لأداء الحج عن طريق ينبع سوى عدد قليل من الحجاج ، وبعد ذلك مباشرة حرّم أو منع سعود مرور قوافل الحجاج الأتراك إلى المدينة المنورة ، وجرى بناءً على ذلك منع وصول الصرَّة . فى ظل هذه الظروف بدأ أهل المدينة يستشعرون الضغوط الشديدة فى ذلك الزمن ، وغضبوا من الوهابيين وازدادوا حنقًا عليهم ، ويمكن الوقوف على المزيد من تفاصيل هذا الموضوع فى حملة محمد على باشا .

عندما جهز محمد على باشا لأول مرة حملة على الوهابيين ، جرى وضع حامية كبيرة فى المدينة المنورة ، وكانت تلك الحامية مكونة من البدو المولعين بالحرب ، وبخاصة بدو نجد وبدو المناطق الجنوبية ، بقيادة المضيَّان ، الذى عينه سعود شيخًا لقبيلة حرب . كشف حسَّان القلعى عن تحمس كبير للقضية أو المصلحة العامة ، وبعد إنزال الهزيمة بطوسون باشا لأول مرة ، تأكد حماس حسان القلعى من جديد ، فى موقفه الذى وقفه فى المدينة المنورة ، لكن عندما عاد طوسون فى المرة الثانية ومعه قوات كبيرة ، سارع حسان القلعى ، فى ضوء توقعه لانتصار طوسون ، إلى التفاوض معه بطريقة سرية ، وحصل منه على وعد باستمراره فى منصبه ، شريطة أن يسهل للعثمانيين مسألة الاستيلاء على المدينة المنورة . وعندما وصل العثمانيون إلى أبواب المدينة المنورة ، انضم حسان القلعى إليهم ، واستقبله أحمد بونابرت ، القائد التركى، بحفاوة وتكريم كبيرين، وجرى بعد ذلك مباشرة الهجوم على المدينة ، أما القلعة فقد

جرى الاستيلاء عليها عن طريق الاستسلام ، لكن بعد أن تم قمع الجماعة الوهابية تمامًا فى هذه المناطق ، جرى القبض على كل من المضيان ، الذى سبق أن وُعد بأن يظل مطلق السراح ، وحسّان القلعى ، وجرى إرسالهما عن طريق القاهرة إلى إسطنبول ، ليلقيا المصير ، الذى يستحقه حسان القلعى ، على الرغم من أن جرائمه لا يمكن أن تسوغ له خيانة أولئك الذين ألقوا القبض عليه .

عقب الأحداث السابقة مباشرة ، عاد أغا الحرم ، وهو من رجال السلطان سليم ، إلى المدينة المنورة واسترد سلطته ، لكن القيادة الحقيقية أصبحت بيد المحافظ التركى . وفى أواخر عام ١٨١٤ م ، وصل طوسون باشا إلى المدينة المنورة بصفته محافظًا لها ، وذلك من باب التمهيد لحملته التى أزمع شنها على نجد ، لم يكن حكم طوسون سيئًا ، لأنه كان صاحب نوايا طيبة ، علاوة على حب السكان له لكرمه وتدينه ، لكن إجراءات طوسون كانت تتسم بالحمق والغباء ؛ فقد أخاف طوسون البدو ، وتسبب فى هربهم عندما استولى على إبلهم ، وبذلك يكون قد تسبب فى قطع الإمدادات والتموينات عن المدينة ، وتسبب فى خلق عجز فى سائر أنواع المؤن ، والضروريات الأخرى ، وسرعان ما بدأ جنود طوسون يرتكبون الأخطاء والمخالفات ، التى أهمل أو تغاضى عن القضاء عليها عن طريق إنزال العقوبات بمن يرتكبونها . بعد رحيل طوسون باشا ، وصل والده محمد على باشا إلى المدينة المنورة فى شهر إبريل من عام ١٨١٥ م ، وبحكم عدالته المبنية على الخبرة والتجربة ، سارع على الفور باتخاذ الإجراءات المناسبة لإصلاح الأخطاء التى ارتكبها ولده .

وهنا تظل المدينة المنورة تحت حكم قائد تركى ، وقد شغل هذا المنصب طوال أشهر قلائل ذلك الاسكتلندى توماس كيث ، أو إن شئت فقل : إبراهيم أغا ، الذى سبقت الإشارة إليه باعتباره مسئول الخزانة مع طوسون باشا . أغا الحرم لديه حوالى ستين جنديًا أو ثمانين ، وهم عبارة عن خليط من الأتراك ، والعرب ، والمغربين ، ومن أهل المدينة المنورة ؛ هذا يعنى أن الشئون الدينية وكل الأمور المتعلقة بالمسجد النبوى كانت كلها فى يدى ذلك الأغا . يجىء القاضى فى المرتبة الثانية بعد أغا الحرم ،

وكان القاضى فى ذلك الوقت من الوهابيين ، وقد أجبر على التقاعد فى نهاية المطاف . أما شيخ الأشراف ، أو إن شئت فقل : السادات ، فقد ظل يحظى باحترام كبير ، هو وشيوخ متعددون آخرون ، من شيوخ المدينة المنورة ، وأنا أعتقد أولاً وقبل كل شىء ، أن أهل المدينة المنورة يكرهون حكامهم الحاليين ، أقصد الأتراك ، بدرجة أقل من كراهية بقية سكان الحجاز لهم ، وذلك على الرغم من عدم إحداث نوع من المصالحة الحقيقية بينهم .

قبل الغزو الوهابى ، كان شريف مكة يحتفظ هنا فى المدينة المنورة ، بموظف صغير ، تتمثل مهمته فى استلام بعض الرسوم البسيطة التى كانت مفروضة على الخضروات ، واللحوم ، والمؤن الأخرى التى يجرى جلبها إلى السوق . تلك كانت الضريبة الوحيدة المفروضة على أهل المدينة المنورة ، بل إنها كانت بمثابة البقية الباقية من السلطة التى كانت لشريف مكة على المدينة المنورة ، والتى ضاعت واختفت تماماً فى الأيام الأخيرة . هذا يعنى أن الشريف غالب لم تعد له سلطة من أى نوع كان على المدينة المنورة ، لكنى أرى ، على الرغم من عدم تأكدى من ذلك ، أنه لا يزال يتمتع بالسلطة الاسمية ، أو بلقب رئيس المدينة المنورة ، فى أضعف الأحوال ، يضاف إلى ذلك أن وجود المدينة المنورة تحت قيادة شريف مكة إنما يجعلها – فى نظر الباب العالى – جزءاً من الحجاز .

يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الكتاب العرب المحترمين يؤكدون أن المدينة المنورة تشكل جزءاً من نجد ، وليس من الحجاز ، وأن المدينة المنورة بالشكل التى هى عليه ، إنما تقع على الجانب الشرقى من سلسلة الجبال الكبيرة ، ويبدو أن هذا الرأى يقوم على أساس سليم ، إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا مسألة الحدود الطبيعية ، لكن إذا ما سحبنا ذلك المصطلح على الساحل ، وعلى كل من مكة والمدينة المنورة ، نجد أن المدينة المنورة تشكل جزءاً من الحجاز ، وذلك على الرغم من أن بدو الداخل يعطون لهذه التسمية دلالة مختلفة تماماً .

مناخ المدينة المنورة وأمراضها

اكتشفت أن مناخ المدينة المنورة ، خلال شهور الشتاء ، يكون أبرد من نظيره فى مكة المكرمة . الناس هنا لا يعرفون الجليد أو الثلوج ، على الرغم من أن البعض قالوا لى إنهم يتذكرون أنهم شاهدوا الثلج والجليد فى الجبال المجاورة لهم ، والأمطار ليس لها فترات محددة من فصل الشتاء ، لكنها تسقط على فترات ، وتكون الأمطار على شكل عواصف عاتية ، قد تستمر يوماً واحداً ، أو يومين على أكثر تقدير ، وقد يمر فصل الشتاء كله دون أن يسقط المطر سوى مرة واحدة فقط ، الأمر الذى يترتب عليه حدوث جفاف شديد . يقول أهل المدينة المنورة إن ثلاث زخات أو أربع من المطر أمر ضرورى لرى التربة ، يزاد على ذلك ، أن مياه السيول تغرق أجزاء كثيرة من البلاد وبخاصة أراضى الرعى أو المراعى إن صح التعبير ، التابعة للبدو . يضاف إلى ذلك أن الأمطار المستمرة التى تدوم طوال أسبوع كامل ، أو أطول من ذلك ، كما هو الحال فى سوريا ، هذه الأمطار لا تعرفها المدينة المنورة : بعد كل زخة من زخات المطر ، التى تستمر مدة أربع وعشرين ساعة ، تصفو السماء ، وبذلك يسود طقس ربيعى جميل يستمر أسابيع عدة . آخر العواصف التى تصيب المدينة المنورة فى شهر إبريل ، ومع ذلك فإن نوبات الوابل التى تسقط بين الحين والآخر ، تعد أموراً متكررة الحدوث فى منتصف فصل الصيف .

أهل المدينة المنورة ، هم وكثير من الأجانب ، يؤكدون أن حرارة الصيف فى المدينة المنورة أشد منها فى أى مكان آخر من أماكن الحجاز، وأنا لم أستطع التأكد من ذلك . سبق أن قلت إن الطابع الملحى لكل من التربة والماء ، وكذلك برك المياه الراكدة حول المدينة ، وكذلك الأبخرة الناتجة عن بيارات النخيل فى ضواحى المدينة المنورة ، كل ذلك يجعل هواء المدينة المنورة غير مناسب للصحة إلى حد ما .

الحمى بأشكالها المختلفة هى الأكثر شيوعًا هنا ، الأمر الذى يجعل السواد الأعظم من أهل المدينة معرضين للإصابة بها ، ولا مفر من إصابة الأغراب بها إذا ما أقاموا فى المدينة المنورة فترة طويلة ، وبخاصة فى فصل الربيع . وقد أكد لى يحيى أفندى ، طبيب طوسون باشا ، عندما كنت مريضًا ، أنه يعالج ثمانين شخصاً

مصابين بالحمى ، ويبدو أن يحيى أفندى قد وفق فى شفاء هؤلاء المرضى ولم يكن موفقًا فى شفائى أنا . كل أشكال الحمى هنا من النوع المتقطع ، ويحاط المرضى بعد شفائهم من الحمى برعاية كبيرة ؛ إذ يخشى الناس من معاودة الحمى لهم . بعد أن خرجت من سكنى بعد شفائى ، وجدت الشوارع تغص بأعداد كبيرة من المتماثلين للشفاء ، الذين يدل مظهرهم دلالة واضحة على الأعداد الكبيرة التى كانت تعانى مثلى تمامًا . هذه الأشكال من الحمى إذا لم يتم شفاؤها خلال مدة محددة ، فإنها غالبًا ما تسبب إحداث تورمات مؤلمة فى المعدة ، وفى القدمين ، ولا تزول هذه التورمات بسهولة . أهل المدينة المنورة لا يهتمون بالحمى المتقطعة ، التى اعتادوا عليها ، الأمر الذى يندر أن يودى بحيواتهم ، لكن الأمر مختلف تمامًا مع الغرباء . فى بعض فصول العام تشكل الحمى المتقطعة وباءً فى المدينة ، إذ يقال إن حوالى ثمانين شخصًا ماتوا فى غضون أسبوع واحد ، ولكن الحالات التى من هذا القبيل تعد أمورًا نادرة الحدوث .

يقال إن مرض الدوسنتاريا يندر حدوثه هنا ، وتشيع هنا الشكوى من الأمراض الباطنية ومن المرارة . ويبدو أن معدل الوفيات هنا فى المدينة المنورة ، أعلى من أى مكان آخر من الأماكن التى زرتها فى الشرق ؛ كنت أقيم فى مسكن قريب من أحد أبواب المسجد النبوى ، وكان يجرى إدخال جثث الموتى من هذا الباب للصلاة عليها قبل دفنها ، وكنت أسمع وأنا على فراش المرض الناس وهم يقولون : " لا إله إلا الله " وهم يدخلون جثث الموتى أو يخرجونها من المسجد . طوال مقامى وحجزى الذى دام ثلاثة أشهر بسبب مرضى فى المدينة المنورة كانت تمر على نافذتى يوميًا جثة أو جثتان من جثث الموتى. وإذا ما أخذت معدل ثلاث جثث فى اليوم الواحد ، كان يجرى إدخالها إلى المسجد من خلال هذا الباب ، والأبواب الأخرى ، علاوة على العرب الفقراء الذين يموتون فى الضواحى ، والذين يجرى الصلاة عليهم فى المسجد الواقع فى ضاحية المناخ ، سنجد أن عدد الوفيات يقدر بحوالى ألف ومائتى نسمة سنويًا ، فى هذه المدينة الصغيرة ، التى يبلغ إجمالى عدد سكانها فى نظرى بما يتراوح بين ستة عشر ألف نسمة

أو عشـــرين ألف نسمـة ؛ نسبة الوفيات هذه لا يمكن تعويضـها عن طريق المواليد ، ولابد أنها تسببت منذ زمن بعيد فى خلخلة عدد سكان المدينة المنورة ، اللهم إلا إذا كان وصول الأجانب يعوض هذا الخلل بصورة مستمرة . من بين هذا العدد من السكان ، أرى أن حـــوالى عشـــرة آلاف أو اثنى عشـــر ألفًا هـم من سكان المدينة الأصليين ، أما الباقون فهم من الضواحى .

الرحلة من المدينة المنورة إلى ينبع

فى اليوم الحادى والعشرين من شـهر إبريل من عام ١٨١٥ م . تجمعت قافلتنا الصغيرة عصر ذلك اليوم ، بالقرب من البوابة الخارجية للمدينة ، وعند الساعة الخامسة مساء مررنا من خلال البوابة التى سبق أن دخلت منها ، عندما وصلت المدينة المنورة قبل ثلاثة أشهر ، فى ذلك الوقت كنت بصحة جيدة وروح معنوية عالية ، وكنت غارقًا فى الآمال المعلقة على استكشاف أجزاء مجهولة ومهمة من الصحراء أثناء عودتى إلى مصر ، لكنى منهك بسبب المرض ، ومكتئب ، ولا أرغب فى أى شىء سوى الوصول إلى مكان عامر بالود ومفيد للصحة ، يمكن لى فيه استرداد صحتى وعافيتى . الأرض المفضية إلى المدينة على هذا الجانب أرض صخرية ، وهذه المنطقة تبعد عن المدينة مسير ثلاثة أرباع الساعة ، والطريق فيه مَنْزَل منحدر قصير ، تحفه الصخور من الجانبين، وممهد لتسهيل مرور القوافل . كنا نسير فى اتجاه الجنوب الغربى ثم التحول جنوبيًا بعد ذلك . وفى خلال ساعة من الزمن وصلنا مجرى سيل يسمونه وادى العقيق ، الذى استقبل خلال الأمطار التى سقطت مؤخرًا كمية كبيرة من المياه التى وصلت إليه من الجبال المجاورة ، الأمر الذى حول ذلك الوادى إلى ما يشبه نهرًا واسعًا عميقًا ، عجزت إبلنا عن محاولة عبوره أو تجاوزه . ونظرًا لأن الجو كان صحوًا ، فقد توقعنا تناقص مياه ذلك الوادى تناقصًا كبيرًا فى اليوم التالى ، ولذلك خيمنا على ضفة ذلك النهر فى مكان يسمونه المدرّجة . فى المدرّجة هذه، توجد قرية صغيرة مهدّمة ، كانت مبانيها مبنية بناء جيدًا باستعمال الأحجار ، وكان لهذه القرية بركة صغيرة ،

أو إن شئت فقل : خزان صغير ، وبئر مهدّمة بالقرب من ذلك الخزان . سكان هذه القرية يزرعون بعض الحقول على ضفة وادى العقيق ، لكن تحرش البدو بهم هو الذى جعلهم يمتنعون عن زراعة الأرض .

وادى العقيق شهير بالشعراء العرب (*) . تنمو بعض أشجار العاشور على ضفاف وادى العقيق ، وكانت تلك الأشجار مزهرة تمامًا فى ذلك الوقت . صحبنا إلى هذه المسافة البعيدة بعض من أهل المدينة المنورة ، وذلك من باب التحية والتقدير لذلك المفتى الذى جاء من مكة (المكرمة) فى زيارة للمدينة المنورة ، وكان عائدًا إلى موطنه فى ذلك التاريخ ، وكان ينوى الافتراق عن قافلتنا عند مدينة صفراء . كان بصحبة ذلك المفتى خيام كثيرة ونساء كثيرات أيضًا ، أما بقية زملائى المسافرين فكانوا من التجار الصغار فى المدينة المنورة ، وكانوا ذاهبين إلى جدة لانتظار وصول السفن الهندية ، وكان من بين هؤلاء التجار تاجر ثرى من مسقط ، كنت قد التقيته من قبل فى مكة ، عندما كان يؤدى فريضة الحج ؛ كان بصحبة ذلك التاجر عشرة جمال كانت تحمل حريم ذلك الرجل ، وأطفاله ، وخدمه وأمتعته ، وكان ينفق فى كل محطة من المحطات مبالغ من المال على سبيل الإحسان . كان ذلك الرجل ، بكل المعايير عربيًا سخيًا وجديرًا بالاحترام .

اليوم الثانى والعشرون من شهر إبريل ، تناقص السيل وعبرناه فى فترة العصر . سرنا مدة ساعة واحدة فى واد ضيق ، تتبعنا خلالها مجرى السيل نحو الأعلى ، وبعد مرور ساعة ونصف الساعة تركنا مجرى السيل ، وانفتح السهل أمامنا فى اتجاه

(*) يقول بعض الناس : إن هذا السيل يُفْرِغ نفسه فى الأرض المنخفضة نفسها التى يسمونها الغابة ، أو إن شئت فقل زغابة ، التى تقع غربى المدينة المنورة ، فى الجبال التى تفرغ فيها السيول المحيطة ماءها . يقول هؤلاء الناس أيضًا : إن الحصن العربى الذى يطلقون عليه اسم قصر المراجل يقع على ضفاف هذا السيل فى اتجاه الشرق ، ومن قصر المراجل هذا يعبر السيل المنطقة المسماة بالناقية متجهًا إلى الغابة . وعلى بعد مسير حوالى خمسة أميال من المدينة المنورة ، توجد محطة من محطات الحج يسمونها ذى الحليفة وتقع على ضفاف وادى العقيق ، وفيها قلعة صغيرة وبركة، أعيد بناؤها فى العام ٨٦١ الهجرى، ولعل المقصود بذلك هو المدرَّجة .

الشرق ، والسهل في هذه المنطقة يطلق الناس عليه اسم السلسلة ، كان طريقنا في السهل يتجه صوب الغرب ثم الجنوب ثم الغرب مرة ثانية . كانت الصخور المنتشرة في هذا القسم من السهل من النوع الجيرى ، وبعد انقضاء ثلاث ساعات ونصف الساعة دخلنا الجبل من جديد ، وواصلنا مسيرنا في وديانه، ورحنا ننزل ببطء من فوق الجبل ، واستمر ذلك النزول الليل بكامله ، ومع طلوع النهار مررنا بالسهل الذى يطلق الناس عليه هنا اسم الفريش ، وهو المكان الذى خيمت فيه في اليوم السابق لوصولى إلى المدينة المنورة ، وتوقفنا للراحة بعد مضى اثنتى عشرة ساعة ونصف الساعة ، في الجزء العلوى من وادى الشهداء . (*)

اليوم الثالث والعشرون من شهر إبريل . بعد أن أنزلنا أمتعتنا ، انهمر مطر غزير مصحوب بصوت رعدى وومضات برقية فظيعة ، وإن هى إلا لحظات حتى فاض الوادى عن آخره ، وهنا رأينا أن من الأوفق تمضية النهار كله هنا في هذا المكان ، ولذت بخيمة من خيام ذلك التاجر المسقطى . توقفت العاصفة في فترة العصر ، وبدأنا مسيرنا عند الساعة الثانية مساء ، وبعد مرور ساعة من الزمن من تجاوزنا مقبرة الشهداء ، أتباع محمد ﷺ ، الذين يقال إن أربعين منهم مدفونون في هذه المقابر ، واصلنا مسيرنا ببطء نازلين إلى الوادى ، في الاتجاه جنوب جنوب غرب . وفي أعالى وادى الشهداء ، بدأت تطالعنا صخور الجرانيت ، وكانت السلاسل العليا من تلك الصخور جيرية الطابع ، وبعد مضى خمس ساعات خرجنا من الوادى ، وفي الليل تجاوزنا سهول شعب الحال ونازية ، وبعد أن أمضينا ثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة سائرين ، توقفنا وخيمنا في الجبال ، في الوادى الواسع الذى يسمونه وادى مضيق ، الذى يقع على الطريق الواصل بين نازية والجديدة ، التى تبعد مسير ساعتين عن نازية ، والتى سبق أن مررت بها أثناء الليل في رحلتى السابقة . بلغنى أن هذه

(*) مسافات هذه الرحلة لا تتفق تماماً مع المسافات التى أوردتها عند حضورى إلى المدينة المنورة ، لكنى أفضل الحديث عن هذه المسافات طبقاً لما ورد في يومياتى .

الجبال الواقعة بين المدينة المنورة والبحر الأحمر ، بل والمنطقة الشمالية كلها ، يكثر فيها الماعز الجبلي كما تكثر فيها الفهود أيضاً .

اليوم الرابع والعشرون من شهر إبريل . قلة قليلة من عرب بني سالم يقومون بزراعة الذرة في بعض الحقول ، التي يروونها من عين من الماء الجاري الذي ينساب عبر فتحة بين الجبال ، مكوناً بذلك أحواضاً كثيرة ، وشلالات جميلة - وهذا أفضل نوع من الماء شربته بعد أن غادرت جبال الطائف . استأنفنا مسيرنا من هذه المنطقة في فترة العصر ، وصادفنا أمطاراً غزيرة كثيرة بدءاً من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس . كانت القافلة تضم كثيراً من المرضى وكثيراً ممن لا يزالون في فترة النقاهة، وبخاصة النساء اللاتي كن جميعاً يشتكين . وأنا شخصياً داهمتني نوبة حمى شديدة أثناء الليل، عاودتني اليوم واستمرت معي إلى أن وصلت بلدة ينبع ، كانت الحمى شديدة الوقع عليّ ، إذ كانت مصحوبة بالعرق الشديد أثناء الليل ، والمصحوب برعشة مع بداية طلوع النهار ، ولما كانت القافلة لا تستطيع التوقف بسببي أو من أجلي ، فلم تتهيأ لي فرصة تغيير ملابسي الداخلية . يضاف إلى ذلك ، أننا اضطررنا إلى التخييم في أرض رطبة ، ونظراً لقلة عدد الجمّالة بالنسبة إلى كمية الأمتعة ، فقد اضطررت إلى المساعدة في عملية تحميل الأمتعة ، وسبب ذلك أن مرافقي كان واحداً من أسوأ الناس طبعاً ، ومن أكسل الكسالى الذين التقيتهم بين أفراد هذه الأمة .

سرنا في واد متعرج مدة ساعتين ونصف الساعة إلى أن وصلنا الخيف ، التي هي بداية وادي الجديدة ، محل إقامة رئيس الموقع التركي، الذي سألنا إن كنا نحمل أخباراً له من مركز الرئاسة ؛ فقد مضى على رئيس الموقع هذا حوالي أسبوعين لم يسمع خلالهما أي شيء عما يدور في المدينة المنورة ؛ ذلك أنه طوال الحملة التركية على الحجاز ، لم يجر إنشاء خدمة بريدية منتظمة في أي مكان من أماكن الحجاز . كان طوسون باشا نفسه يُترك في كثير من الأحيان ولشهور عدة في المدينة المنورة ، وهو لا يعلم شيئاً عن أحوال الجيش الذي يقوده والده ، يضاف إلى ذلك أن محمد علي باشا نفسه كان يتلقى معلوماته الاستخباراتية من كل من مكة (المكرمة) وجدة عن

طريق القوافل العادية ، كانت البرقيات والمراسلات السريعة أموراً نادرة ، ولم يكن هناك اتصال برى بين القاهرة ومكة. لم يكن ذلك قاصراً على هذا الجانب وحده وإنما امتد أيضًا إلى بعض تفاصيل العمليات الحربية الأخرى ؛ هذا يعنى أن القادة العسكريين الأتراك يكشفون عن افتقارهم إلى النشاط أو إن شئت فقل: بعد النظر ، الأمر الذى يجعل البدو يفاجئونهم ولابد أن يعرض عملياتهم للفشل إذا ما واجهوا عدداً يقظًا لكنه لا يتفوق عليهم عدداً .

كان معسكر الجنود فى الخيف غارقًا تماماً فى مياه السيول ، بل إن الوادى على اتساعه كان غارقًا فى مياه السيول التى كانت على شكل نهر جار سريع . وبدون توقف هنا أو هناك تخطينا بلدة الجديدة بعد مرور ثلاث ساعات ونصف الساعة ، كما تجاوزنا أيضاً بلدة الدار الحمراء ، التى كان سكانها قد استزرعوا حقولاً جديدة ، بعد أن مررت على هذه المنطقة فى شهر يناير ، ونحن الآن فى شهر إبريل . كانت الأمطار الغزيرة توحى بمحصول وفير فى ذلك العام ، وكان السؤال المتكرر على ألسنة كل أولئك الذين كنا نمر عليهم ، حول ما إذا كانت المنطقة الفلانية أو العلانية قد غمرتها مياه السيول، فى الجزء العلوى من البلاد. لقد وصلنا بلدة الصفراء بعد سبع ساعات ، وعندها انفصلت عن القافلة الجماعة المكية التى كانت مرافقة للقافلة ، وسبب انفصال هذه الجماعة هو أنها كانت قد استأجرت إبلها إلى هذه المسافة فقط ، نظراً لأنهم سوف يستأجرون إبلاً أخرى لتكملة الرحلة إلى مكة ، ومع ذلك قامت الإبل التى كانت تحمل هذه الجماعة بمرافقتنا إلى ينبع . معروف أن الإبل المستخدمة فى عملية النقل وفى الحمل فيما بين الساحل والمدينة المنورة ، تنتمى كلها إلى قبيلة بنى حرب .

بقينا دقائق معدودات فى بلدة الصفراء ، وكان الوقت حوالى منتصف الليل ، شربنا خلالها شيئًا من القهوة فى واحد من دكاكين البلدة ، ثم واصلنا مسيرنا فى اتجاه الغرب ، عن طريق سبق أن سلكته وأنا فى طريقى إلى الصفراء قادمًا من مكة (المكرمة) . كان جانبا هذا الوادى الضيق الذى كنا ننزل إليه عامرين بمزارع النخيل الكثيفة المتواصلة . وبعد تسع ساعات ونصف الساعة تجاوزنا قرية يسميها الناس هنا

الوسيط ، وقد بناها أهلها بين بيارات النخيل ، وفيها بساتين مترامية الأطراف وعامرة بأشجار الفاكهة . والماء موجود بعد كل خطوة على شكل آبار أو عيون ، ويبدو أن هذا الطريق أقصر من الطريق الذى يمر عبر الوادى . كان الطريق الذى يمر من فوق الجبل صخريًا ومنحدراً ؛ ولذلك اضطرنا مرشدونا إلى السير على أقدامنا ، وحاولت بصعوبة بالغة الوصول إلى القمة متحملاً مشاق السير وآلامه ، ومن القمة عن طريق منحنٍ أقل وعورة ، وبعد مضى اثنتى عشرة ساعة ، نزلنا من جديد إلى طريق الوادى ، بالقرب من قرية صغيرة يسمونها الجديد . هذا الجبل الذى تجاوزناه يطلق الناس عليه اسم ثنية الوسيط . وهنا وجدنا أن الوادى الذى تركناه على يميننا بدأ يأخذ اتجاهًا دائريًا ، ويشمل قرى أخرى كثيرة سمعت الناس يقولون عنها ما يلى : الحُسينة (وهى الأقرب للوسيط) ، ثم إلى الأسفل منها توجد قرية الفراع ، والبركة فى المنطقة القريبة من الجديد . المنطقة الواقعة خلف الوسيط عبارة عن واد هو جزء من وادى بدر ولكنه يرتفع عنه متجهًا صوب الصفراء . قرية الجديد يقل فيها النخيل تمامًا كما تقل فيها الحقول أيضًا ؛ الجديد تقع فى سهل ، تمر خلاله السيول ، بعد أن تروى المزارع التى فى أعالى الوادى . واصلنا مسيرنا فى ذلك السهل مدة ساعة واحدة من الزمن ، فى اتجاه شمال ٥٠ غرب . وبعد مسير دام ثلاث عشرة ساعة دخلنا إلى سلسلة من الجبال ، تمتد فى اتجاه الغرب ، وهى السلسلة نفسها التى سبقت الإشارة إليها فى رحلتى إلى المدينة المنورة ، وهذه السلسلة تتفرع متجهة غربًا ، من السلسلة الرئيسية الكبيرة القريبة من بير الشيخ . كان طريقنا يمر عبر واد رملى واسع ، فيه بعض الانحناءات القليلة ، التى أوصلتنا إلى بدر ، بعد مسير مضن ومتعب دام أربع عشرة ساعة ونصف الساعة .

اليوم الخامس والعشرون من شهر إبريل، بدر حنين كما يسميها الناس هنا ، هى بلدة صغيرة ، منازلها مبنية من اللبن والحجر ، وشكلها جميل ، على الرغم ، أن هذه المنازل أقل عدداً من منازل بلدة الصفراء . وبدر يحيط بها جدار بائس مبنى من اللبن ، ومحطم فى كثير من أجزائه . وهناك نهير غزير يفيض منسابًا خلال البلدة ،

وهذا النهير ينبع من سلسلة الجبال التى تجاوزناها ، وهو يجرى فى مجرى حجرى ؛ هذا النهير يروى بيارات نخيل شاسعة ، فيها بساتين وحقول على الجانب الجنوبى الغربى من المكان ، وعلى الرغم من أننا كنا على بعد مسافة لا بأس بها من منبع ذلك النهير فإن ماءه لا يزال فاترًا . يقول العصمى ، مؤرخ مكة إن الغورى سلطان مصر ، بنى مستودعًا أو خزانًا مائيًا جميلاً فى بدر ، ليشرب منه الحجيج ، لكنى لم أر ذلك الخزان ، وأنا ليس لدىَّ ما يفيد وجود مثل هذا الخزان .

تقع بلدة بدر فى سهل محاط من ناحيتى الشمال والشرق بجبال منحدرة ، أما التلال الصخرية فتحيط بذلك السهل من ناحية الجنوب ، وفى الناحية الغربية نجد تلالاً من الرمال المتحركة . والحج يجعل من بلدة بدر محطة من محطاته ، وقد عثرنا على المكان الذى يخيم فيه الحجاج بجانب بوابة البلدة مباشرة، وكان ذلك قبل أربعة أشهر ، ولا يزال المكان فيه بقايا جثث الإبل ، وخرق الملابس ، وبقايا الأوانى المكسَّرة ، إلخ . بدر شهيرة فى التاريخ العربى ، بسبب المعركة التى خاضها محمد ﷺ فى هذه المنطقة ، فى العام الثانى الهجرى ، ضد قوة أكبر من قوته مكونة من عرب قريش ، الذين جاءوا بصحبة قافلة ثرية كان ينتظر وصولها إلى سوريا ، وكان محمد ﷺ قد نصب لتلك القافلة كمينًا فى هذه المنطقة . وعلى الرغم من مرضى الشديد ، خرجت بصحبة حجاج مسقط لمشاهدة ميدان القتال، الذى أوصلنا إليه رجل من أهل بلدة بدر. جنوب المدينة ، وعلى بعد مسافة ميل تقريبًا ، وعند سفح التلال ، توجد بعض المقابر لثلاثة عشر رجلاً من أتباع النبى ﷺ وأصدقائه ، سقطوا شهداء فى هذا المكان . مقابر هؤلاء الشهداء عبارة عن أكوام من الطين ، المحاطة بصفوف من الأحجار السائبة ، وهذه المقابر كلها قريبة من بعضها البعض . كان القرشيون ، على حد قول مرشدنا ، يتخذون لأنفسهم مواقع فوق التل الواقع خلف المقابر ، فى حين قسم محمد ﷺ قوته الصغيرة إلى جزأين ، تقدم هو نفسه بقسم منهما إلى السهل ليكون ﷺ فى مواجهة العدو ، وأوكل شأن القسم الاحتياطى إلى على بن أبى طالب ، الذى صدرت له الأوامر بأن يتخذ لنفسه موقعًا على التل الرملى الموجود فى الجانب الغربى .

هذه المعركة لم تكن لتحسم دون تدخل من السماء ؛ حينما بعث الله لمحمد ﷺ ثلاثة آلاف من الملائكة ، وعلى رأسهم جبريل ﷺ . كان الثلاثة عشر شخصاً الذين سبقت الإشارة إليهم قد قتلوا في الجولة الأولى . واختبأ النبي ﷺ ، بسبب الضغط خلف صخـرة كبيـرة ، انفتحت عنـوة لكي تستره وتحتويه ﷺ ، ومكنته من الوصول إلى أصحابه ، وقام محمد ﷺ بالهجوم مرة ثانية ، وانتصر بفضل المعونة السماوية ، لم يخسر أي رجل من رجاله ، على الرغم من قتل سبعين من أعدائه في هذا المكان . وقد تسببت حفنة من الحصى ، أو إن شئت فقل التراب ، التي ألقاها (أو التي ألقاها الله «سبحانه وتعالى» حسب الرواية القرآنية) على أعدائه ، في هرب هؤلاء الأعداء . بعـد أن استولى محمـد ﷺ على موقع الأعداء ، ارتاح ﷺ قليلاً فوق صخرة من الصخور ، الصخرة والحجرة موجودتان وواضحتان ، وفي كل الأحوال ، تخدمان غرضاً واحداً طيباً ، هو استثارة إحساس الإحسان في الزائر تجاه فقراء بدر ، الذين يتجمعون عند الصخرة كلما وصلت إليها قافلة من القوافل . كان موقع قوة (سيدنا) عليٌّ على التل البعيد ، أو إن شئت فقل موقع جماعة محمد ﷺ القريبة من العدو ، وكذلك السهل الواقع خلف ذلك التل ، أو بالأحرى المكان الذي استـأنفت منه القـافلة السورية مسارها أثناء المعركة ، هذان الشيئان كانا يشرحان أو يفسران الآيات القرآنية التي تقول : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة الأنفال : الآية رقم ٤٢) . لكني لم أستطع فهم الآيـة ، طبقًا لتفسيرها المعتـاد ، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن كلمة " ركب " التي يعدها المفسرون مرادفًا للقافلة ، تجعلنا نعتقد أن الخيالة الذين كانوا تحت قيادة (سيدنا) علي ، على الرغم من أنهم كانوا فوق التل ، فإنهم قياساً على بدر نفسها كانوا في موقع منخفض، أي أن الأرض كانت منحدرة انحداراً خفيفًا. وجدنا هنا كثيراً من القباب الصغيرة التي دمرها الوهابيون . أثناء عودتنا إلى القرية ، مشينا من ناحيتها الجنوبية ، التي جلس فيها محمد ﷺ ذات مرة معرضاً لأشعة

الشمس ، ودعا الله (سبحانه وتعالى) أن يرسل عليه غمامة تظله ، ولبّى الله (سبحانه وتعالى) له تلك الرغبة على الفور ، والمسجد اسمه مشتق من السحاب . والمسجد هنا أفضل بناءً وأكثر اتساعًا فى مكان من هذا القبيل .

وسوق بدر فيه السلع نفسها التى فى سوق الصفراء . فيه بعض من البطيخ ، الذى تنتجه البساتين والحدائق ، معروض للبيع . اشترى التاجر المسقطى ، دون سابق معرفة أو علم ، خمسة أرطال من بلسم مكة (المكرمة) ، أى كل البلسم الذى كان متبقيًا فى السوق ، على أمل أن يقدم هذه الكمية كلها هدية لإمام مسقط . هذا البلسم كان مغشوشا وهو البلسم نفسه الذى شاهدته من قبل فى سوق الصفراء . سكان بدر الأصليون عبارة عن بدو من قبيلة صبح ، التى تنتمى إلى قبيلة حرب ، والتى استوطن بعض أفرادها هذا المكان . بعض آخر من الناس لهم دكاكين هنا فى بدر ، ويعودون عندما يأتى المساء إلى خيام عوائلهم فى الجبال المجاورة . وبدر مكان يتردد عليه كل من البدو والمسافرين ، والطلب عالٍ على المساكن فى بدر ، والمحل الصغير فى السوق يؤجر بحوالى عشرين دولارًا فى العام. بعض أسر الأشراف تقيم هنا فى بدر ، ويحصلون من الحجيج عند المرور على نوعيات معينة من الضرائب أو المكوس .

فى المساء جاءت المئات من إبل البدو لتُسْقى من النهير الموجود فى بدر ، وكانت تلك الإبل بصحبة النساء بصفة خاصة ، اللاتى دخلن فى حوار معنا . بنو حرب المقيمون فى كل من الجديدة ، والصفراء ، وبدر يزوجون بناتهم للأغراب وحتى للمستوطنين ، وهناك قلة قليلة من الجنود الأتراك ، جذبهم جمال بعض البدويات ، فأقاموا فى بدر وتزوجوا من تلك البدويات الجميلات ؛ وهذا واحد من هؤلاء الأتراك ، وهو أرنؤطى الأصل ، يتكلم العربية ، واعتاد منذ صغره على الحياة البرية لمتسلقى الجبال المحاربين ، عقد عزمه على مرافقة زوجته الشابة إلى الجبل . هناك أعداد هائلة من النسور فى الجبال المجاورة لبلدة بدر . والناس هنا يطلقون على النسر اسم "رخم"، وكانت المئات من تلك النسور تحوم حولنا ، بل إن البعض منها كان ينزل إلى الأرض ويخطف اللحم من أطباقنا .

اليوم السادس والعشرون من شهر إبريل . أمضينا هنا يوم أمس بكامله . بقى بعض من أهل بدر يحرسون قافلتنا طوال الليل نظير حصولهم على مجاملة صغيرة . المكان هنا عامر باللصوص ، وكنا قد خيمنا خارج بوابة البلد . غادرنا بدر فى المساء وسرنا فى اتجاه شمالى ٤٥ غرب ، وبعد أن سرنا مدة ثلاثة أرباع الساعة ، وصلنا إلى سلسلة التلال الرملية سالفة الذكر ، التى يطلقون على أعلى قممها اسم جوز على ، تخليداً للمكان الذى احتله (سيدنا) على أثناء معركة بدر . مشينا فى تلك التلال الرملية مدة نصف الساعة بصعوبة بالغة ؛ إذ كانت الرمال عميقة جداً ، ثم نزلنا بعد ذلك إلى السهل الغربى الذى يمتد إلى أن يصل إلى البحر ، الذى يمكن الوصول إليه من بدر خلال مسير ليلة واحدة، وفى هذه المنطقة يوجد ميناء صغير، يقع جنوبى ينبع ، ويسمونه البريك ، وتتردد عليه حركة ملاحية كبيرة . كان السهل الذى دخلناه من الاتجاه غرب ١ شمال عامراً بالأجمات والأشجار المنخفضة . أثناء مسيرنا فى الليل رأينا نيران مخيمات بدوية متباينة . التقينا أيضًا حاجَّين زنجيين ، كانا قد بدءا مسيرهما من ينبع وحدهما ، وكانا بحاجة ماسة إلى الماء ، أعطيناهما لحمًا وأسقيناهما ، ووجهناهما إلى مخيمات البدو . أمثال هذين المسافرين يسلكون طريقهم عبر الصحراء بلا بوصلة ؛ هذا يعنى أنهما يتحدد لهما الطريق والمسار قبل بداية الرحلة ، ثم يسلكون ذلك الطريق بعد ذلك ، على شكل خط مستقيم يسيرون فيه ليلاً ونهاراً إلى أن يصلوا إلى محطات وصولهم . بعد أن سرنا مدة عشر ساعات بدءًا من نجد ، بدأنا نخيم مع طلوع النهار فى جزء من السهل تنمو فيه أشجار السنط المنخفضة ويطلق الناس عليه اسم عضيبة .

اليوم السابع والعشرون من شهر إبريل . وجدت نفسى فى حال سيئ فى صباح هذا اليوم . فقد انتابتنى نوبة غثيان وقئ شديدة ، وعرق شديد جعل الليلة الأخيرة أشد وأبشع وأقسى الليالى التى خبرتها فى أسفارى كلها ، ودارت مشادة بينى وبين مرشدى حول مسألة الطعام ، الأمر الذى زاد من تأثير الحمى علىَّ فى ذلك اليوم ، والذى ربما أسهم فيه ذلك الاسترخاء العصبى الذى مررت به مؤخراً . عن يمينى هنا ، وفى اتجاه الشمال ، وعلى بعد مسير حوالى ست ساعات ، أرى سلسلة من الجبال المرتفعة

التي تمتد متجهة صوب البحر ، وبالقرب مني أرى سلسلة جبلية منخفضة عن السلسلة السابقة وتمتد في الاتجاه نفسه . السهل الذي خيمنا فيه عبارة عن سهل رملي ، يغطيه الحصى والزلط الصغير . واصلنا مسيرنا بعد الظهر . وعلى امتداد مسير دام أربع ساعات ونصف الساعة ، في الاتجاه شمال غرب ثم شمال ، لم نر أي نوع من الشجر ؛ بدأت النباتات التي تعيش على الماء المالح توحي إلينا بأننا أصبحنا على مقربة من البحر ، وبعد أن قطعنا مسافة أكبر قليلاً ، بدأنا نلاحظ أن الأرض تغطيها قشرة من الملح ، كما لاحظنا أيضًا تشبع الهواء بأبخرة البحر . وبعد انتهاء سبع ساعات ونصف الساعة ، عثرنا أيضًا على بعض الأشجار في السهل ، هذه الأشجار كانت تتخللها بقع مغطاة بقشرة من الملح . وبعد أربع عشرة ساعة ، شاهدنا ينبع مع مطلع الشمس ، وبعد أن ركبنا دوابنا لمدة خمس عشرة ساعة ونصف الساعة ، وبسرعة شديدة البطء ، وصلنا إلى بوابة ينبع ، وأمام البوابة مباشرة عبرنا مدخلاً من مداخل الميناء ، كان الجزر ظاهراً في مياه البحر ، وكان الماء يصل أثناء المد إلى مسافة كبيرة داخل اليابسة .

ينبع

لم أعثر بسهولة على مكان لي في واحدة من الوكالات أو بالأحرى الخانات الموجودة في ينبع ، والسبب في ذلك أن تلك الخانات كانت مليئة بالجنود الذين صدرت لهم الأوامر بالعودة إلى القاهرة ، بعد الحملة الأخيرة التي قاموا بها على الوهابيين ، وبالتالي وصلوا إلى ينبع قادمين إليها من كل من جدة ومكة (المكرمة) ، وعلاوة على هؤلاء الجنود كان هناك أيضًا عدد كبير من الحجاج ، الذين كانوا ينتوون بعد العودة من المدينة المنورة ، الإبحار إما إلى السويس أو القصير . كانت زوجة محمد على باشا من بين هؤلاء الحجاج ، وكانت قد وصلت إلى ينبع قادمة من المدينة (المنورة) ، وكانت هناك أربع سفن على أهبة الاستعداد لنقل حاشية هذه السيدة ، ومرافقاتها وأمتعتها . بعد أن وضعت أمتعتي في غرفة متجددة الهواء ، في شرفة أحد الخانات ، توجهت إلى الميناء كي أستفسر عن السفر إلى مصر ، وسرعان ما عرفت أن

ذلك أمر مستحيل في ذلك التوقيت . كانت هناك تعليمات صارمة تقضي بعدم نقل أي أحد سوى الجنود ، الذين كانوا قد شغلوا بالفعل ثلاث سفن أو أربع ، والتي كانت جاهزة للإبحار ، وكان من بين هؤلاء الجنود ما يزيد على ألف وخمسمائة شخص ، من بينهم عدد كبير من الحجاج الأتراك ، الذين جرى تمريرهم على أنهم جنود ، بعد أن تسلحوا وارتدوا ثياب الجنود ، كل أولئك كانوا ينتظرون الانتقال عن طريق السفن إلى مصر .

بينما كنت أنتظر في واحدة من المقاهي القريبة من الميناء ، مرت عليَّ ثلاث جنازات بفارق زمني قصير بين الواحدة والأخرى ، وعندما عبرت عن دهشتي لذلك ، عرفت أن كثيراً من الناس كانوا قد ماتوا خلال تلك الأيام القلائل ؛ بسبب الشكوى من الحمى . عندما كنت في بدر ، بلغني أن هناك حمى خبيثة منتشرة في ينبع ، لكني لم ألق بالاً لذلك التقرير . وخلال الفترة المتبقية من النهار شاهدت كثيراً من الجنازات الأخرى ، لكني لم يدر بخلدي أية فكرة عن الأسباب ، إلى أن دخل الليل ، وأويت إلى غرفتي في الدور العلوي ، والتي كانت تطل على جزء كبير من ينبع ، وهنا رحت أسمع في كل الاتجاهات ، أصواتًا لا حصر لها تقطع القلب بسبب ولولتها وصياحها ؛ وهذه الولولة وذلك الصياح الذي يفطر القلوب يكون مصاحبًا لرحيل صديق أو قريب ، وهنا عاجلتني فكرة راحت تلح على ذهني ، مفادها أن ذلك ربما كان وباء الطاعون ، حاولت دون جدوى ، طرد مخاوفي والتخلص منها ، أو تصريفها عن طريق النوم ، لكن الصياح المخيف أبقاني مستيقظًا الليل بطوله . عندما نزلت في الصباح الباكر إلى صالة الخان ، التي كان كثير من العرب يشربون فيها القهوة ، وأوصلت إلى هؤلاء العرب مخاوفي ، وما إن أتيت على ذكر كلمة الطاعون حتى بادروني بالاستعاذة ، وراحوا يسألونني عما إذا كنت جاهلاً بالحقيقة التي مفادها أن الله (سبحانه وتعالى) قد أبعد ذلك المرض عن أراضي الحجاز المقدسة ؟ الجدل الذي من هذا القبيل لا يسمح بأي حوار منطقي ، وهنا خرجت من الوكالة ، أو بالأحرى الخان ، ورحت أبحث عن بعض المسيحيين اليونانيين ، الذين كنت قد التقيت الكثيرين منهم في اليوم السابق ،

في الشارع التقيت ببعضهم ، وحصلت منهم على معلومات كاملة عن المخاوف التى كانت تراودنى . كان وباء الطاعون قد بدأ ينتشر منذ حوالى عشرة أيام ، وكان فى الوقت نفسه على أشده فى القاهرة ، وقد استثار ذلك موجة من الغضب العارم بين الناس طوال أشهر عدة ؛ فى السويس على سبيل المثال ، مات عدد كبير من السكان ؛ من ميناء السويس أبحرت باخرتان محملتان بالمصنوعات القطنية ، ومعهما فيروس الطاعون الذى انتقل عن طريقهما إلى جدة ، لينتقل من جدة إلى ينبع . لم يشهد الحجاز قبل ذلك أية حالة من حالات الطاعون ، كما أن ذاكرة البشر لا تعى حتى ولو حالة واحدة من حالات الطاعون ، يزاد على ذلك أن المواطنين لم يقتنعوا بإمكانية حدوث ذلك حتى ولو مرة واحدة ، وبخاصة عندما أعاد الوهابيون غزو المدينتين المقدستين مرة ثانية . لم يحدث أن كان الاتصال مع مصر فى أى وقت من الأوقات أفضل مما هو عليه حاليا ، ومن ثم لم تكن مسألة انتقال ذلك الوباء إلى الحجاز من قبيل المفاجآت . فى الوقت الذى كانت تموت فيه حوالى خمس عشرة نفس يوميًا ، لم يصدق أهل مدينة ينبع أن المرض كان هو وباء الطاعون ، وذلك على الرغم من ظهور أعراض الصفراء على أجساد الموتى ، فضلا أيضا عن سرعة انتشار المرض ، الذى يندر أن يزيد على ثلاثة أيام أو أربعة ، كل ذلك كان يمكن أن يكون بمثابة أسباب مقنعة بأن ذلك الوباء إنما هو وباء الطاعون. وبعد خمسة أيام أو ستة من وصولى بدأ يتزايد معدل الوفيات ، إلى أن أصبح معدل الوفيات اليومى يتردد بين أربعين نفسًا وخمسين نفسًا يوميًا ، الأمر الذى يعد معدلاً خطيراً وسط عدد من السكان يقدر بما يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف نسمة . وهنا أصيب سكان ينبع بموجة من الذعر والفزع ، قلة قليلة من الناس هم الذين كانوا يميلون إلى الصبر على الخطر مثلما يفعل الأتراك فى أى مكان آخر من الشرق ، ولذلك نجد أن السواد الأعظم من سكان ينبع هربوا إلى العراء والخلاء ، الأمر الذى أدى إلى أن أصبحت ينبع بلداً مهجوراً ، ومع ذلك طارد المرض الهاربين ، الذين كانوا يخيمون بالقرب من بعضهم البعض ، الأمر الذى أعجزهم عن إيجاد علاج لذلك الوباء ، ولذلك عاد الكثيرون منهم إلى ينبع من جديد ، والتمسوا لأنفسهم العذر فى هربهم بأن قالوا : " من باب رحمة الله أنه يرسل علينا هذا المرض ،

لينبهنا إلى وجـوده (سبحانه وتعالى) ، ومع ذلك ، فنحـن غير مدركين لتفاهتنا ، ونحـس كأننا لا نستحق رحمة الله ، ومن ثم نظن أن من الأفضل نكران تلك الرحمة، في الوقت الراهن ، ومن ثم نهرب منها " : هذا الجدل سمعته يتكرر مراراً . لو كنت بكامل قوتي ، لكنت قد حذوت ، وبلا أدنى شك ، حذو أولئك الذين فروا إلى الصحراء ، لكني كنت أعاني وهنًا شديداً وغير قادر على القيام بأي مجهود مهما كان صغيراً . خطر ببالي أني ربما استطعت الهرب من ذلك المرض ، إذا ما عزلت نفسي داخل سكني ، وزاد في داخلي أمل الشوق إلى السفر سريعًا إلى مصر، ومع ذلك ، فقد خُدعت في ذلك الأمل. خطر ببالي أن تقديم بعض الهدايا القليلة ، مع شيء من الرشوة ، قد يمكنني من العثور على وسيلة تساعدني على الإبحار بشكل أو بآخر ، لكن اتضح أن السفن التي كانت على وشك الإبحار كانت مزدحمة بالمسافرين ، وعامرة بالجنود المرضى ، الأمر الذي يجعل من البقاء في المدينة الموبوءة أفضل من السفر على هذا النحو . بعد ذلك بأيام قلائل ، بلغني أن قارباً صغيراً مفتوحاً ، خالٍ من الجنود ، كان على وشك الإبحار إلى القصير ، وعلى الفور وافقت على الإبحار على ظهره ؛ لكن إبحار ذلك القارب كان يتأخر من يوم إلى آخر ، إلى أن جاء اليوم الخامس عشر من شهر مايو ، الذي غادرت فيه ينبع بصفة نهائية ، بعد ثمانية عشر يومًا أمضيتها في ذلك البلد (ينبع) وسط وباء الطاعون .

ربما كان حالي الصحي السيئ ، والحمى المستمرة التي تملكتني ، وكنت أؤدي عملي وأنا أعاني منها ، ربما كان ذلك سببًا كافيًا لبقائي على قيد الحياة ؛ والسبب في ذلك ، أني على الرغم من حرصي الشديد ، كنت معرضًا للعدوى في كثير من الأحيان . كان شارع ينبع الرئيسي عامراً بالمرضى ، الذين يعانون من سكرات الموت ، ويسألون الناس إحسانًا ؛ في فناء الخان الذي كنت أنزل فيه ، كان هناك رجل عربي يعاني من سكرات الموت ، وكان صاحب الوكالة ، أو بالأحرى الخان ، هو الآخر قد توفيت أخته وابن من أبنائه ، وراح يحكي لي وهو جالس على السجادة كيف توفي ولده في الليلة السابقة بين ذراعيه . كان حرص عبدي قد فاق احتياطاتي كلها إلى حد بعيد ، وبعد أن افتقدت ذلك العبد لأيام عدة ، رحت أتساءل ذات صباح عن أسباب تغيب ذلك

الرجل ، الذى أبلغنى أنه ذهب ليشارك فى غسل جثث الموتى . كان الفقراء الذين وافتهم المنية أثناء الليل ، قد جرى نقلهم فى الصباح فى نعوش إلى شاطئ البحر حتى يجرى غسلهم قبل الصلاة عليهم فى المسجد ، وكان عبدى قد رأى أن يشارك فى الأجر من خلال القيام بهذا العمل ، الذى أوكل لعدد كبير من الحجاج الزنوج الذين تصادف وجودهم فى ينبع . كنت أرغب أن يبقى ذلك العبد فى المنزل ، مستقبلاً ، فى تلك الساعة ، كى يجهز لى طعام الإفطار ، لكنى لم استطع منعه من الخروج فى أوقات أخرى ؛ نظراً لأنى كنت أستطيع الاستغناء عن خدماته فى تلك الأوقات ، يضاف إلى ذلك أن الإنسان بوسعه المرور فى السوق دون أن يلمس أولئك المصابين بالعدوى ، أو حتى أولئك الذين يكونون على اتصال وثيق بأولئك المرضى .

إحساسى بالخطر الذى يتهددنى تزايد كثيراً عما كان عليه ، ولكنى هنا أجد نفسى قد تخلصت كثيراً من ذلك الخطر. بعد الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى وجدتنى أتعايش مع فكرة الطاعون ورحت أقارن الأعداد الصغيرة التى تموت كل يوم بإجمالى العدد المتبقى من السكان ، يزاد على ذلك أن الأعداد الكبيرة من الأصحاء ، على الرغم من صلاتهم الوثيقة بالمصابين أو الميتين ، أزالت إلى حد بعيد كل مخاوفى من احتمال انتقال المرض عن طريق العدوى، والمعروف أن الأمثال لها تأثيرات كبيرة على الأذهان ، الأمر الذى جعلنى أنظر إلى الأجانب الذين فى ينبع وأراهم غير مهتمين بالأمر ، وقد جعلنى ذلك أخجل من نفسى عندما وجدتنى أقل شجاعة من هؤلاء الأجانب ، مع ذلك كان المرض يبدو كأنه واحد من أسوا أشكال الطاعون ، هذا يعنى أن قلة قليلة من أولئك الذين كانوا يصابون بالمرض هم الذين وصلوا إلى بر النجاة ، وقد لاحظت الشىء نفسه فى جدة . لم يستعمل العرب أى نوع من الدواء لعلاج ذلك المرض ، سمعت عن بعض الناس الذين لجأوا إلى الحجامة ، وعن أناس آخرين شفوا من ذلك المرض بعد أن لفوا حول أعناقهم شرائط لاصقة ، لكن هاتين الوسيلتين لم تكونا من بين الوسائل الأخرى الشائعة بين الناس ، ونظراً لأن الناس هنا اعتادوا على دفن الموتى خلال ساعات قلائل ، فقد شاهدت ، أثناء مقامى فى ينبع ، شخصين قيل إنهما ميتان ودفنا أحياء ؛ فقد أوحت الغيبوبة التى دخل فيها هذان الشخصان ، إلى الناس

فى ذروة شدة أزمة الطاعون ، بأنهما قد ماتا وفارقا الحياة ودفنهما الناس أحياءً ، وقد كشف واحدٌ منهماعندما كان الناس يضعونه فى القبر عن بعض علامات الحياة ، وبالتالى أمكن إنقاذه ، أما جثمان الشخص الآخر ، الذى رآه الناس عندما كانوا يفتحون القبر بعد أيام عدة من وفاته ، لدفن جثمان أحد أقاربه ، فكان غارقًا فى الدماء فى منطقة اليدين والوجه ، كما وجد الكفن ممزقًا ، بفعل المحاولات التى بذلها الميت وهو يحاول الخروج من القبر ، وعندما رأى الناس ذلك قالوا : إن الشيطان شوه جسده بعد أن فشل فى إيذاء روحه .

انتبه محافظ ينبع - من باب الحرص - إلى أهمية عدم نشر الأرقام الحقيقية لعدد الوفيات ، لكن الدعاء المهيب : " لا إله إلا الله ، " الذى يدل على مرور جنازة أحد المسلمين ، كان يتناهى إلى الأسماع من كل مكان ومن كل حى من أحياء بلدة ينبع ، وأنا بنفسى أحصيت اثنين وأربعين دعاء من هذا القبيل فى يوم واحد فقط .

يتحول الطاعون عند الفقراء إلى مناسبة حقيقية ؛ ذلك أن الأسر القادرة تذبح خروفًا عندما يموت أحد أفرادها ، كما تذبح أيضًا خروفًا ثانيًا فى اليوم التالى للوفاة ، ويجرى دعوة كل النساء والرجال إلى منزل الميت فى هذين اليومين . تدخل النساء بيت المتوفى ويحتضنَّ ويعزين إناث أسرة المتوفى ، معرضات أنفسهن من حين لآخر للإصابة بالعدوى . هذه العادة ، أكثر من العادات الأخرى ، هى المسئولة عن سرعة انتشار الطاعون فى السواد الأعظم من البلدان الإسلامية ؛ والسبب فى ذلك أن الطاعون إذا ما أصاب أو تفشى فى عائلة من العائلات ، يصعب جدًا ألا ينتقل إلى كل المنطقة المجاورة لتلك العائلة .

يشيع بين الأوروبيين بل وبين المسيحيين الشرقيين أيضًا اعتقاد مفاده أن دين محمد ﷺ يمنع اتخاذ الإجراءات الاحتياطية ضد الطاعون، لكن ذلك اعتقاد خاطئ: هذا الدين يحرم على أتباعه تحاشى المرض إذا ما دخل مدينة أو بلدًا من البلدان ، لكن هذا الدين يحذر أتباعه أيضًا من دخول أى مكان ينتشر فيه وباء الطاعون ، وتأسيسًا على ذلك فإن هذا الدين يمنع الأفراد من عزل أنفسهم فى المنازل ، كما يمنعهم أيضًا

من قطع تواصلهم واتصالهم ببقية الناس فى المدينة المصابة ، لأن ذلك يكون شبيهًا بالفرار من الطاعون ؛ ومع ذلك فإن الدين الإسلامى يحبذ إجراءات الحجر الصحى ويوصى بها ، وذلك من باب منع استيراد المرض ، أو نقله إلى الغرباء والأجانب عند وصولهم إلى المدينة . الإيمان بالقضاء والقدر متأصل وراسخ في عقول دول الشرق كلها ، " وأن من يموتون بسبب الطاعون هم شهداء " . هذا الرأى الشائع عام بين المسلمين ، وهم يعتقدون أن ملك الموت الخفى ، المسلح برمح ، يلمس الضحايا الذين سيصابون بالطاعون ، ومن هنا يعتقد الناس أن الشيطان اتخذ لنفسه موقعًا فى ذلك المكان ، لكى يجرح أولئك الذين يمرون عليه، من هنا نجد العرب يسلكون طريقًا دائريًا، تحاشيًا لعدوهم ، على الرغم من أنهم كانوا على قناعة من سرعة خطوه وقدرته على اللحاق بهم أينما ذهبوا .

مسألة هروب المسيحيين والفرنجة من المرض عن طريق حبس أنفسهم فى منازلهم لا تعدو أن تكون مجرد دليل عكسى طفيف ، والتأخير فى اتباع هذه الإجراءات غالبًا ما يتسبب في إحداث معدل وفيات طفيف بين أهل ينبع ، والحالات التى من هذا القبيل يجرى الاستشهاد بها فيما بعد فى التدليل على حماقة محاولة الاعتراض على العناية الإلهية ، زد على ذلك ، أن بعض المسيحيين الشرقيين الذين يأخذون بالمعايير التركية ، ويتأثرون بمفاهيم القضاء والقدر ، يعتقدون أيضًا أن مسألة اتخاذهم للإجراءات الوقائية الخاصة بسلامتهم أمر تافه وسطحى . يتهاون الأتراك فى كثير من واجباتهم الدينية ، إلى الحد الذى قد لا يجعل من الصعب عليهم تبنى بعض الأفكار العقلانية ، ومع ذلك لا يمكن لأحد من هؤلاء الأتراك اتخاذ أية إجراءات خاصة ، نظرًا لاقتناع الجميع بحماقة مثل هذه الإجراءات والتصرفات وعدم فعاليتها . لو لم يكن ذلك هو واقع الحال منذ زمن طويل لتمكن الأتراك من اكتشاف الوسائل التى تمكنهم من الوقاية من المرض ، وذلك على الرغم من تدينهم الشكلى ؛ وهذا هو ما يفعله العرب حاليًا فى الحجاز ، ولأمكن لعلمائهم التوصل إلى الفتاوى والنصوص الشرعية المساندة لذلك الذى أمكنهم التوصل إليه بفضل حسهم الطيب . هناك حديث شريف يقول ما معناه :

" اهرب من الوباء هروبك من الأسد " . المسألة مختلفة فيما يتعلق بوسائل منع انتقال الطاعون ، بواسطة إنشاء محاجر صحية نظامية ، وهذا الإجراء يقع كله على عاتق الحكومة . معروف أن دول البربر ، أشد الدول تمسكًا بالدين قد تبنت ذلك النظام واتبعته ، وترتب على ذلك تنفيذ قوانين الحجر الصحي تنفيذًا صارمًا في الموانئ التابعة لهذه الدول ، على النحو الذى تطبق فيه هذه القوانين في الموانئ الأوروبية وبخاصة على الشواطئ الشمالية للبحر الأبيض المتوسط . مسألة عدم تنفيذ أو اتباع نظام مماثل في تركيا أمر يثير الكثير من القلق البالغ ، وربما تكون الدوافع المصلحية هى السبب الرئيسي وليس التعصب . أنا بنفسي لم أزر إسطنبول أو موانئ الأرخبيل ، لكني أعلم أن من السهل على محافظي سوريا وكذلك محافظي مصر استعمال سلطاتهم في إدخال منظومة الحجر الصحي وتطبيقها على الشواطئ ، وألا يخافوا أو يخشوا معارضة رعاياهم ، زد على ذلك أن حكومات سوريا يمكن إرشادها إلى مثل هذه الأمور عن طريق الباب العالي ، ولن توافق هذه الحكومات على إنشاء منظومة الحجر الصحي بدون تفويض بذلك من رئاستها ، لكن محمد علي باشا كان يتصرف تصرفًا مباشرًا وتلقائيًا وعلى العكس من أوامر الباب العالي ، حتى في المسائل المتعلقة بمسألة المصلحة المالية الخاصة بالسيادة ، ونحن لا نرى أن الخوف من إغضاب سيده كان هو السبب الوحيد الذى منعه من الانصياع إلى النصائح الودية المتكررة التي كان الباب العالي يسديها إلى محمد علي بخصوص الدول الأوروبية ، يزاد على ذلك أن مبادئ محمد على الدينية العائمة والسائبة كانت معروفة تمامًا إلى الحد الذى لا يجعلنا نسلم بأن التعصب هو الذى منع الرجل من الاستسلام لتوسلات تلك الدول .

وعلى امتداد أربع سنوات متتالية ، وبالتحديد في الفترة من عام ١٨١٢ م إلى عام ١٨١٦م التي كان الطاعون يستعر خلالها منتشرًا خلال فصل الربيع من كل عام ، كان محمد علي باشا نفسه ، ومعه أسرته وكبار موظفيه يعزلون أنفسهم في قصورهم مهتمين بذلك العزل اهتمامًا فائقًا ، كاشفين بذلك عن المزيد من الفضائح أمام الشعب أكثر مما لو أسسوا محاجر صحية تحكمها قوانينها الخاصة ، ومن باب رغبة محمد علي باشا ، في أن ينظر الأوروبيون إليه باعتباره ليبراليًا في فكره ، ومتجنبًا الإساءات

والأضرار بكل أنواعها ، أصدر الرجل أوامره في العامين الميلاديين ١٨١٣ و ١٨١٤ بإنشاء حجر صحي في مدينة الإسكندرية ، لكن الطريقة والأسلوب المخزى الذى نفذ به ذلك الحجر ، أثبت إثباتًا قاطعًا أن الرجل لم تكن لديه الرغبة الحقيقية في تأمين مواطنيه من مخاوف العدوى ، بل وصل الأمر إلى حد التخلي عن هذا الموضوع تخليًا تامًا . أودت بى تحرياتى ، هى وآراء كثير من الأتراك الذين يحكمون على ما تتخذه حكومتهم من إجراءات حكمًا أكثر صوابًا ودقة ، مما ضاعف من قناعتى بأن الباشا الكبير هو وباشاواته ، يصبرون على الطاعون في ممتلكاتهم لأن تعدد الوفيات وكثرتها يملأ أكياس نقودهم بالأموال ، وفيما يتعلق بمصر ، أرى أن هذا السبب كان حقيقيًا وبلا منازع ، بل إنه كان السبب الرئيسى .

معروف أن المدن التجارية التى من قبيل القاهرة ، والإسكندرية ، ودمياط تعج بالتجار الأجانب ، والأغراب الذين يفدون على هذه المدن من كل أصقاع الشرق ليقيموا فيها ، والقانون ينص ، على أن ممتلكات الأفراد الذين لا يكون لهم ورثة مباشرون يطالبون بتلك الممتلكات ، يجب أن تئول إلى بيت المال ؛ تلك الخزانة ، التى كانت تخدم من قبل أغراضًا وأهدافًا مفيدة للشعب والرعايا ، لكنها أصبحت الآن تحت إمرة الحكام والمحافظين وحدهم ؛ هذا يعنى أن ازدياد معدل الوفيات يتسبب فى وضع مبالغ كبيرة بين أيدى هؤلاء الحكام والمحافظين ، وهذا يعنى أن كل والٍ من ولاة الأحياء فى أية بلدة من البلدان يتحتم عليه ، فى ظل أشد العقوبات ، إبلاغ الحكومة عن أى غريب أو أى فرد يكون بلا ورثة ، وتوافيه المنية فى حى أى والٍ من هؤلاء الولاة ؛ أموال مثل هؤلاء المتوفين لا يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة وحسب ، وإنما يجرى الاستيلاء أيضًا على ممتلكات أولئك الأشخاص الذين يكون لهم ورثة ، ولكنهم متغيبون فى بعض البلدان الأجنبية ، والذين ليست لهم امتيازات أخرى ، غير التقدم بالشكوى التى لا طائل من ورائها إلى الحاكم أو المحافظ نفسه ، الذى يحول دخل بيت المال إلى مصلحته الخاصة . أبشع أنواع الظلم ترتكب بحق ممتلكات المتوفين ، وفى فترات انتشار الطاعون ، ففى هذه المناسبات يشارك كل من القاضى ومن معه من فريق العلماء ، وكبار الموظفين ، بل حتى صغار الموظفين ، الكل يشاركون فى هذا السلب والنهب غير

الشرعي، وبالطريقة نفسها تجرى مصادرة ممتلكات الموظفين العسكريين ، وكثير من الجنود عقب وفاتهم . وبحسبة بسيطة نجد أن الطاعون الذى أتى فى مصر على أرواح ما يتردد بين ثلاثين ألفًا وأربعين ألف نسمة فى مدينة القاهرة وحدها ، أضاف إلى خزائن الباشا حوالى عشرين ألف كيس (صرة) ، أو إن شئت فقل : عشرة ملايين قرش، وهذا المبلغ كفيل بخنق أى نوع من المشاعر الإنسانية فى قلوب الأتراك .

مسألة تناقص عدد السكان ومن ثم تناقص المداخيل المنتظمة ، مسألة لا تخطر ببال الحاكم التركى ، الذى لا يحسب سوى النتائج المباشرة المترتبة على أى حادث من الأحداث ، شريطة أن يضمن لنفسه السلامة ، ولثروته النمو والزيادة ، ولكن دونما نظر إلى مصير رعاياه ، ونظرًا لأن الطاعون يندر أن ينتشر فى الأرض المفتوحة ، ومن ثم لا يحرم الأرض الزراعية من عمالها ، فإن ذلك يجعل الباشاوات فى مأمن من الخوف من ذلك الطاعون ؛ هذا يعنى أن أى باشا من الباشاوات لن يقتنع مطلقًا بأن السياسة والإنسانيــة يحتمان إزالة أسباب الطاعون ، إلا بعد أن يرى بنفسه إقليمًا من الأقاليم أو منطقة من المناطق وقد تخلخل سكانها من ناحية وأن الحقول التى تعود عليه بالمداخيل قد هجرها العاملون فيها (*) .

الأمر يبدو كأن إسطنبول والقاهرة كانتا مستودعين للطاعون فى الشرق ، وأنهما كانتا تصدران ذلك الوباء إلى بعضهما البعض ، وإلى البلدان المجاورة أيضًا ، وأنا هنا أجدنى عاجزًا عن تحديد الوسيلة التى كان من الممكن على الدول الأوروبية أن تقنع الباشا الكبير بها لكى يتخذ الإجراءات الكفيلة بالمحافظة على سلامة عاصمته ، وبالتالى ضمان سلامة سكان تركيا الأوروبية والأناضول ، لكنى لا يخامرنى شك فى

(*) يظهر بشكل واضح إهمال حكومة مصر فى المحافظة على حياة رعاياها فى إهمالها لمرض الجدرى وعدم العمل على معالجته ؛ حيث كان ينتشر على شكل وباء فى الوجه القبلى ، شأنه فى ذلك شأن الطاعون ، الذى لا ينتشر إلا نادرًا فى الوجه القبلى ، يزاد على ذلك أن العروض المتعددة التى قدمت لمحمد على باشا بشأن مسألة التحصين ضد الجدرى لم تلق منه أذنًا صاغية ، ولو كلف محمد على باشا نفسه مؤونة السؤال لعرف أن بلدة إسنا الصغيرة وقع فيها فى عام ١٨١٣ م ما يزيد على مائتين وخمسين شخصًا ، من الكبار والصغار ، فرائس لمرض الجدرى ، الذى ازداد عنفوانه فى هذه البلدان عنها فى أوروبا .

أن تقديم احتجاج قوى من جانب الحكومة الإنجليزية كان يمكن أن يقنع الباشا - باشا مصر - بالانصياع لذلك النداء الإنسانى ، وبذلك تفيد منه كل من مصر وسوريا وكذلك الممتلكات الإنجليزية فى البحر الأبيض المتوسط .

كان الخراب والدمار الناتجين عن الطاعون يرثى لهما فى جدة أكثر منهما فى ينبع ؛ كان متوسط الوفيات بسبب الطاعون فى جدة يقدر بحوالى مائتين وخمسين شخصًا يوميًا . وترتب على ذلك هروب أعداد كبيرة من سكان جدة إلى مكة ، ظنًا منهم أنهم سيكونون فى مأمن من الطاعون عندما يقيمون فى هذه المدينة المقدسة ، لكنهم كانوا يحملون المرض معهم عندما انتقلوا إلى تلك المدينة ، كما توفى بعض السكان المكيين أيضًا ، على الرغم من أن ذلك العدد كان أقل بكثير بالمقارنة مع الوفيات فى جدة . زد على ذلك أن قاضى جدة ، وهو عربى ، هرب هو الآخر إلى مكة ، وبصحبته العلماء كلهم ، ولكن حسَّان باشا ، الذى كان محافظًا للمدينة المقدسة فى ذلك الحين ، أمره وهو على فراش الموت ، بالعودة فوراً إلى مهام وظيفته ، ومات الرجل وهو فى طريق عودته إلى جدة . كان السوق التجارى الرئيسى فى جدة مهجوراً تمامًا ، وكانت بعض الأسر قد أصابها الخراب والدمار الكامل . ونظراً لوجود عدد كبير من التجار الأجانب فى جدة ، فقد أدى ذلك إلى زيادة مداخيل خزانة محمد على باشا زيادة كبيرة ، وقد عرفت من بعض شهود العيان ، أن المهمة الوحيدة فى ذلك الوقت كانت تتمثل فى نقل جثث الموتى إلى المدافن من ناحية ، ونقل ممتلكات الموتى ومقتنياتهم القيمة إلى منزل أمر المدينة . خلت المدينة المنورة من الطاعون ، وحدث الشيء نفسه فى الأرض الواقعة بين ينبع وجدة .

سنأتى هنا على ذكر عادة خاصة بالعرب ، عندما بلغ الطاعون ذروته فى ينبع ، اقتاد السكان ناقة فى موكب طاف كل أنحاء بلدة ينبع ، وكانت الناقة مزينة بكل أنواع الزينات ، والريش ، والأجراس إلخ إلخ ، وعندما وصل الموكب إلى المقابر ، ذبحوا الناقة وألقوا بلحمها للنسور والكلاب . كانوا يتطلعون إلى أن يجد الطاعون المنتشر فى سائر أنحاء البلد لنفسه ملاذًا فى جسم الناقة ، وأنهم عندما ذبحوها اعتقدوا أنهم

يمكن أن يتخلصوا من ذلك المرض بصفة نهائية . كان كثير من العقلاء العرب يسخرون من هذه الفكرة ، لكن كان فيها شيء من الفائدة ، من منطلق أنها بثت الشجاعة فى قلوب أفراد الطبقات الدنيا .

مدينة ينبع مقامة على الجانب الشمالى لواحد من الخلجان العميقة ، التى تستخدم فى رسو السفن ، وهذا الخليج تحميه عند مدخله من الرياح الشديدة جزيرة ، والسفن فى هذا الخليج تقف قريبة من الشاطئ ، كما أن الميناء واسع على نحو يسمح باستقبال أكبر الأساطيل . هناك خليج صغير متفرع عن الخليج الكبير ، الأمر الذى يجعل ذلك الخليج الصغير يقسم مدينة ينبع إلى قسمين ؛ القسم الأكبر من هذين القسمين هو ما يطلق عليه اسم ينبع ، أما القسم الثانى ، وهو على الجانب الغربى ، فهو ما يطلق الناس عليه اسم القاد ، ولا يسكن فيه سوى الذين يعملون فى البحر . القسمان يطلان على البحر من ناحية ، ويحيط بهما من الناحية الأخرى ، جدار مشترك طويل ومبنى على نحو أفضل من جدران ميناء جدة ، وجدران الطائف والمدينة المنورة . هذا الجدار تتخلله أبراج كثيرة ، وقد بنى ذلك الجدار عن طريق الجهود المشتركة من قبل السكان أنفسهم ، باعتبار ذلك الجدار من المتاريس الدفاعية فى وجه الوهابيين ، وقد جرى تدمير الجدار القديم ، ولم يتبق منه سوى جزء صغير هو الذى يحيط بجزء من مدينة ينبع . الجدار الجديد يضم مساحة تكاد تكون ضعف المساحة التى تحتلها المنازل ، والجدار أو السور الجديد يترك بينه وبين مساكن المدينة قطعة أرض كبيرة خالية على شكل مربع يستخدمها الناس مقبرة لدفن الموتى ، كما تضم أماكن لتخييم القوافل ، ولتدريب القوات ، أو قد تترك خالية مثل الأرض اليباب . هذا الجدار أو السور يحتاج إلى حامية كبيرة للدفاع عنه فى كل مواضعه ، وسكان ينبع المسلحون لا يكفون عن القيام بهذه المهمة ، لكن المهندسين الشرقيين يقيِّمون التحصينات وقوتها من خلال الحجم وليس بأية وسائل أخرى ؛ ومن هذا المنطلق جرى بناء سور سميك ، وخندق عميق على الحدود الخارجية لمدينة الإسكندرية القديمة ، الأمر الذى يحتاج إلى حوالى خمسة وعشرين ألفًا من الرجال للدفاع عنه .

ينبع لها بوابتان : واحدة منهما فى اتجاه الشرق والأخرى فى الناحية الشمالية ؛ إحدىَ هاتين البوابتين تسمى باب المدينة والأخرى الباب المصرى . منازل ينبع أسوأ من حيث البناء عن منازل المدن الأخرى فى منطقة الحجاز ؛ أبنية هذه المنازل عشوائية إلى حد أن سطح الأحجار التى تبنى بها تلك المنازل تكون بحاجة إلى سحق تلك الأحجار حتى تصبح ناعمة السطح والملمس . الصخور المبنية منها تلك المنازل صخور كلسية ، مليئة بالأحافير ، ولونها أبيض ساطع ، الذى يتسبب فى إيذاء العين بصفة خاصة . معظم المنازل مكون من دور أرضى فقط . المكان كله خالٍ من المبانى الكبيرة اللهم باستثناء ثلاثة مساجد أو أربعة سيئة البناء ، وقلة قليلة من الخانات (الوكالات) شبه مهدَّمة ، ومنزل المحافظ على شاطئ البحر ، (وهو أيضًا مبنى متواضع) .

ينبع مدينة عربية تمامًا ؛ إذ لا يوجد فيها سوى قلة قليلة من الأجانب ؛ بعضهم من الهنود الذين لهم جاليات كثيرة فى مكة وفى جدة ، وفى المدينة المنورة ، هنا فى ينبع لا يوجد سوى هنديين أو ثلاثة هنود من أصحاب الدكاكين ، التجار فى ينبع كلهم من العرب ، باستثناء قلة قليلة من الأتراك ، الذين يقيمون إقامة مؤقتة فى ينبع . السواد الأعظم من السكان ينتمون إلى بدو قبيلة جهينة الموجودين فى المناطق المجاورة لمدينة ينبع (والتى تمتد شمالاً بطول شاطئ البحر) ، عدد كبير من هؤلاء السكان البدو تحولوا إلى سكان مستقرين ؛ هذا يعنى أن عائلات كثيرة من الأشراف ، ومن مكة بصفة خاصة ، اختلطت بهؤلاء السكان . المستوطنون فى مدينة ينبع ، أو بالأحرى أولئك الذين يطلق عليهم اسم الينبعاويين ، لا يزالون يعيشون ويرتدون ثياب البدو ، هؤلاء يلبسون الكوفية ، التى هى عبارة عن منديل مقلَّم باللونين الأخضر والأصفر ، وهو مصنوع من الحرير ، ويغطى به هؤلاء المستوطنون رؤوسهم ، كما يرتدون أيضًا عباءات (بشوت) بيضاء ، ومن تحتها ثوب مصنوع من الكتان الأبيض ، أو من القطن الملون ، أو من الحرير ، وهم يتحزمون فوق ذلك الثوب بحزام من الجلد . طعام هؤلاء السكان ، وأسلوب حياتهم وسلوكياتهم وعاداتهم كلها سلوكيات وعادات بدوية . لكل فرع من أفرع قبيلة جهينة الموجودة فى ينبع شيخه الخاص به ، وهذه الأفرع تتشاجر

مع بعضها البعض عندما تخيم فى الأراضى المفتوحة ، لكنها تلتزم بتقاليد وقوانين واحدة فى هذه المشاجرات كلها من ناحية وفى مسألة الثأر من ناحية أخرى .

المهنة الرئيسية التى يمتهنها الينبعاويون هى التجارة والملاحة ، ويتبع فيها حوالى أربعين سفينة أو خمسين ، مستخدمة فى سائر أنحاء التجارة فى البحر الأحمر ، ويعتمد تشغيل هذه السفن على سكان ينبع ، أو على العبيد . الاتصال بين ينبع ومصر أمر دائم فى كثير من الأحيان . هنا عدد كبير من سكان ينبع مقيمون فى كل من السويس والقصير، والبعض منهم مقيمون أيضًا فى القاهرة وفى قنا فى الوجه القبلى ، وهم فى هذه المناطق يمارسون التجارة مع ينبع . بعض أخر من أهل ينبع يتاجرون أيضًا مع أهل الحجاز ، ومع شواطئ البحر الأحمر وصولاً إلى المويلح ! هؤلاء السكان يقايضون فى مخيماتهم البضائع والمؤن التى يجرى جلبها من مصر بالماشية ، والزبد ، والعسل ، وهم يعيدون بيع هذه السلع عقب عودتهم إلى ينبع محققين بذلك أرباحًا كبيرة .

أهل ينبع ليسوا متمدنين ، وفى بعض الأحيان قد يسلكون سلوكًا وقحًا على نحو يفوق أهل مكة أو جدة ، لكنهم على العكس من ذلك تتسم سلوكياتهم بالنظام ، كما أنهم لا يدمنون الرذيلة مثل أهل مكة أو جدة ، وهم بصورة عامة يتفوقون على باقى أهل الحجاز بأنهم يحملون اسمًا يحترمه الناس . وعلى الرغم من عدم وجود أفراد شديدى الثراء فى ينبع فإنهم جميعًا يتمتعون بمزيد من النعمة والرخاء والوفرة عن أهل مكة . العائلات المحترمة فى ينبع كلها لها منازل ريفية كبيرة فى الوادى المثمر الذى يطلقون عليه اسم ينبع النخل أو إن شئت فقل : ينبع قارة أو ينبع البر ، التى تبعد عن هنا مسافة مسير تقدر بحوالى ست ساعات أو سبع ، وتقع عند سفح الجبال فى الاتجاه الشمالى الشرقى . هذا الوادى يشبه كلا من وادى الجديدة ووادى الصفراء (*) ، وتوجد أشجار النخيل والحقول الزراعية . يصل طول هذا الوادى إلى

(*) هناك طريق وعر يربط ينبع النخل بالجديدة، وهذا الطريق يمتد عبر الجبال الموجودة فى شمال الطريق الرئيسى.

ما يقدر بمسير حوالى سبع ساعات ، وفيه أكثر من عشرة هجر (كفور) ، منتشرة على جانب الجبل. الكفر الرئيسى من بين هذه الكفور هو ما يطلق عليه اسم السويقة ، أى السوق ، وهو المكان الذى يقيم فيه شيخ الجهين ، الذى يقر بدو الجهين بمشيخته ، كما يقر بهذه المشيخة أيضًا أهل ينبع .

وادى ينبع لا يزرعه سوى الجهين ، الذين تحولوا إلى مستوطنين ، يبقـون فى الوادى طـوال العام ، أو قد يستأجرون بعض العمال الذين يتركونهم فـى مزارعهم ، فى حين يظلوا هـم مخيمين فى الجبل ، ولا يقيمون فى الوادى إلا فى موسم حصاد التمر، الذى يحتم على ملاك البساتين البقاء مدة شهر فى الوادى لحين الانتهاء من الحصاد . يزرع الناس كل أنواع الفواكه فى ذلك الوادى ، ويجرى تزويد سوق ينبع بتلك الفواكه والثمار ، وقد بلغنى أن منازل الوادى مبنية من الحجر ، وأن شكل هذه المنازل أحسن من شكل منازل الجديدة ، والينبعاويون يعدون هذا الوادى المكان الرئيسى لسكناهم ، وأن بلدة ينبع هى والميناء تنتميان إلى ذلك الوادى باعتبارهما مستوطنتين من المستوطنات . طريق الحج المصرى يمر بمدينة ينبع النخل ، ومن ينبع النخل يواصل الحج مسيره ليلة واحدة إلى أن يصل إلى بلدة بدر ؛ هذا يعنى أن قافلة الحج المصرية لا تلمس ميناء ينبع مطلقًا ، على الرغم من أن كثيرًا من أفراد القافلة يسلكون أثناء عودتهم من مكة طريقًا يبدأ من مستوره إلى ينبع ، للقيام ببعض المعاملات التجارية ، ثم ينضمون إلى القافلة بعد مسير يوم كامل ، فى منطقة تقع فى شمالى ينبع .

تتمثل تجارة ينبع بصفة أساسية فى المؤن والتموينات ؛ هذا يعنى أن المنطقة ليس فيها مخازن أو مستودعات كبيرة للبضائع ؛ لكن الدكاكين فيها بعض الملبوسات الهندية والمصرية معروضة للبيع ، أصحاب السفن في ينبع ليسوا تجارًا كما هو الحال فى الجديدة ، وإنما هم هنا فى ينبع من الحمّالين ، ومع ذلك فهم يستثمرون أرباحهم بصورة دائمة في بعض المضاربات التجارية . حرفة تجارة النقل إلى المدينة المنورة هى الشغل الشاغل لعدد كبير من السكان ، والتجار كلهم لهم وكلاء يمثلونهم بين عرب ينبع .

فى وقت السلم ، تبدأ القافلة المسافرة إلى المدينة المنورة كل أسبوعين ، ولكن هذه القافلة أصبحت تقوم كل شهر بعد النقص الحاد فى عدد الإبل . هناك بطبيعة الحال نقل عن طريق البر بين كل من جدة ومكة ، وأحيانًا يكون هناك نقل إلى بلدة الوجه والمويلح ، وهاتان المحطتان من المحطات المحصنة الخاصة بالقافلة المصرية على البحر الأحمر . أهل ينبع مهربون جسورون ، ولا تدخل سفينة من سفنهم الميناء إلا بعد أن يكونوا قد هربوا جزءًا كبيرًا من حمولتها إلى البر عن طريق السرقة ، وذلك من باب تحاشى الجمارك الكبيرة . يدخل الميناء أثناء الليل جماعات الواحدة منها تضم عشرين رجلاً مسلحًا أو ثلاثين ، لا هدف لهم سوى عملية التهريب ، وإذا ما انكشف أمرهم راحوا يقاومون موظفى الجمرك عن طريق القوة .

الحدود الخارجية لينبع جرداء تمامًا ، ولا يرى أحد فيها الأشجار أو الخضرة داخل الأسوار أو خارجها . والأرض فى المنطقة الواقعة خلف الأرض المالحة ، المجاورة للبحر ، نجد أن السهل تغطيه الرمال ، ويستمر ذلك السهل إلى أن يتصل بالجبال . فى الشمال الشرقى نشاهد جبلاً عاليًا ، ومن هذا الجبل تتفرع سلسلة كبيرة تسير فى الاتجاه الغربى نحو بلدة بدر . وأنا أرى أن هذا هو جبل ردوه الذى يأتى الجغرافيون العرب على ذكره فى كثير من الأحيان . وهذا هو السمهودى يقول : إن جبل ردوه هذا يبعد مسير يوم واحد عن ينبع ، ومسير أربعة أيام عن المدينة المنورة . وعلى بعد مسير ساعة واحدة فى شرق المدينة توجد مجموعة من آبار المياه الحلوة ، يطلقون عليها اسم العسيلية ، التى تستخدم مياهها فى رى حقول البطيخ . البدو يخيمون فى هذه المنطقة فى بعض الأحيان ؛ فى ذلك الوقت كان هناك آلاى من الخيالة الأتراك الذين نصبوا خيامهم بالقرب من هذه الآبار .

ينبع فيها آبار عدة لكن ليس فيها خزانات للماء . ماء الشرب يجرى الحصول عليه من خزانات كبيرة ، تبعد مسير حوالى خمس دقائق عن بوابة المدينة ، حيث يجرى تجميع مياه الأمطار . وقد جرى حفر قنوات صغيرة عبر السهول المجاورة ، لتوصيل مياه المطر إلى تلك الخزانات . هذه الخزانات واسعة ، ومبطنة جيدًا ، لأنها مستودعات

تحت الأرض ، والواحد من هذه المستودعات كفيل بمد مدينة ينبع بالماء طوال أسابيع عدة . هذه الخزانات أو المستودعات مملوكة لعائلات بعينها ، قام أسلافها ببناء هذه الخزانات ، ويبيعون ماءها ، بأسعار محددة ، من قبل الحاكم (المحافظ) الذي يحصل ضريبة هو الآخر من أصحاب هذه الآبار . مياه هذه الآبار أفضل من مياه الآبار الأخرى التي في سائر أنحاء الحجاز ، التي لا يحاول السكان فيها إنشاء أو تأسيس مثل هذه الخزانات . والمطر عندما يسقط على ينبع يعاني منه سكانها معاناة شديدة ، ويضطرون إلى ملء قرابهم من آبار العسيلية البعيدة .

كانت ينبع ملحقة على حكومة شريف مكة ، الذي كان يتحتم عليه اقتسام عائدات الجمارك مع الباشا التركي في جدة . لكن الشريف غالب كان يدخل هذه العائدات في خزانته الخاصة ، وكان يحتفظ في ينبع بوزير ، أو إن شئت فقل : محافظ ، ومعه حرس يقدر بحوالي خمسين رجلاً أو ستين . لم تكن لذلك الوزير سلطة سوى جمع المتحصلات الجمركية ، في حين كان سكان المدينة يخضعون لحكم شيوخهم ، وكان شعب ينبع يتمتع بقدر أكبر من الحرية أكثر من أهل مكة وجدة . لم تكن قبيلة جهينة القوية دمية في يدي الشريف غالب ، وعندما كان أحد من أهل ينبع يستشعر سوء المعاملة ، كان يهرب إلى أقاربه في الصحراء الذين كانوا يمارسون شيئًا من الضغط على بعض رجال الشريف أو على القوافل إلى أن ينصلح الحال .

عندما هاجم سعود - الرئيس الوهابي - الأجزاء الشمالية من الحجاز ، كان يستهدف في المقام الأول إخضاع بدو قبيلة بني حرب الكبيرة وقبيلة جهينة ، وقد سهّل هذا الأمر على سعود وجود كراهية وعداء مستحكمين بين القبيلتين ، اللتين كانتا في عراك وحرب مستمرة مع بعضهما بعضا. بعد أن أخضع سعود قبيلة جهينة، استقبلت ينبع النخل حامية وهابية، ثم قام سعود بالهجوم على ينبع للمرة الأولى في عام ١٨٠٢م مستخدمًا في ذلك قوة كبيرة ، ظلت مخيمة أمام مدينة ينبع طوال أسابيع عدة ، محاولة اقتحام المدينة . بعد انسحاب سعود قام الينبعاويون ببناء سور قوي جديد حول مدينة ينبع ، وذلك بناء على أوامر من الشريف غالب ، الذي فرض على أهل ينبع تحمل كامل

تكلفة ذلك السور . بعد استسلام الشريف غالب شخصياً لقوة سعود الكبرى والأقوى ، ظلت ينبع صامدة ومتماسكة بضعة أشهر . بعد أن جهز سعود جيشاً قوياً للهجوم على ينبع ، وبعد هروب الوزير (المحافظ) ، قام أهل ينبع بإرسال رسالة إلى سعود ، واستسلموا له واعتنقوا مذهبه الديني . لم يضع الوهابيون حامية في المدينة ، وظل الشريف غالب محتفظاً بنفوذه في المدينة ، لكن جابي الضرائب الوهابي اتخذ لنفسه مقراً في مدينة ينبع ، وهنا أحس السكان ، الذين لم يتعودوا من قبل الخضوع لأي نوع من الضغوط أو الضرائب ، باستثناء الرسوم الجمركية ، بعنف الضغوط التي بدأت حكومة الوهابيين تمارسها عليهم .

في خريف عام ١٨١١ م ، وعندما نزل الجيش التركي بقيادة طوسون باشا لأول مرة على أرض مدينة ينبع ، أعرب أهلها عن رغبتهم الأكيدة في التخلص من نير حكم الشريف غالب والحكم الوهابي ، وهنا هرب ضباط الشريف غالب ومعهم الضباط الوهابيون الذين كانوا في مدينة ينبع في ذلك الوقت ، وبعد استعراض سطحي للمقاومة طوال اليومين الأولين ، من قبل القائد المعين من قبل الشريف غالب ، الذي لم يكن معه سوى عدد قليل جداً من الجنود ، والذي اكتشف وتأكد أيضاً من عدم رغبة السكان في خوض القتال ، بعد كل ذلك فتحت مدينة ينبع أبوابها ، ولاقت بعض المصاعب من الجنود الأتراك الهمجيين . واعتباراً من ذلك التاريخ أصبحت هناك حامية تركية في المدينة ، وهكذا تحولت ينبع إلى ميرة (*) ، أو بالأحرى مستودعات لتزويد الجيش بالطعام ؛ والمقصود بالجيش هنا هو القوات التركية التي كانت تحارب العدو في المنطقة المجاورة لمدينة ينبع . ونظراً لأن الجنود ، لم يكونوا على مقربة من الباشا أو ولده فقد راحوا يتصرفون على نحو فوضوي غير ملتزم ، لم يكونوا ليفعلوه لو أنهم كانوا تحت أعين وبصر الباشا أو ولده ، مثلما كان الحال في جدة أو مكة . فقد راح كل بمباشي ، أو بالأحرى كل قائد سرية ، من السرايا التي نزلت إلى أرض ينبع ،

(*) الميرة : نظام أو مكان لتزويد الجيش بالطعام . (المترجم)

يتخذ لنفسه ، أثناء مقامه فى المدينة ، منصب المحافظ (حاكم المدينة) ؛ فى حين كان المحافظ الحقيقى أو الفعلى ، سليم أغا ، مجرد شىء هامشى . وقد وقعت بعض المشاجرات أثناء مقامى فى ينبع ، الأمر الذى أغضب سكان المدينة ؛ فقد قام ضابط تركى بفتح النار ، من مسدسه ، فى الشارع فى فترة الظهيرة ، على شاب عربى ، سبق أن لفت انتباهه إلى بعض الأعمال المشينة ، وارتكب ذلك الضابط التركى عملية القتل هذه بتباه كبير ، وذلك من باب الثأر والانتقام من ذلك الشاب لأنه رفض مقترحات ذلك الضابط ، ثم لجأ الضابط بعد ذلك إلى مركز رئاسة اليمباشى طلبًا للحماية ، والذى استنفرت قواته للوقوف فى وجه الغضب الشعبى ، وسارع أقارب القتيل إلى الذهاب إلى المدينة المنورة ليطلبوا من محمد على باشا القصاص من القاتل، ولكنى غادرت ينبع قبل البت فى ذلك الأمر .

أهل ينبع كلهم مسلحون ، على الرغم من عدم تبدى ذلك للناس ، والواحد منهم يحمل عادة عصا غليظة فى يده . قلة قليلة من أهل ينبع هم الذين يقتنون الخيول ؛ الجهاينة المقيمون فى ينبع النخل لديهم سلالات جيدة من الخيول النجدية . كل أسرة من الأسر لديها عدد من الحمير التى يستخدمها الناس فى جلب الماء إلى المدينة . افتقار الناس هنا إلى الخدم أكثر حدة عنه فى مدن الحجاز الأخرى . أهل ينبع لا يوافقون على امتهان الأعمال الوضيعة ، وبخاصة إذا ما كانوا قادرين على تسيير حيواتهم بطرق وأساليب بديلة . الحجاج المصريون ، الذين يبقون على الشاطئ بعد أداء فريضة الحج ، يضطرون أمام احتياجهم للمال اللازم لعودتهم إلى بلدهم ، إلى العمل شيالين ، وعمال ، وحطابين ، وسقائين إلخ . لقد شاهدت بنفسى رجلاً يتقاضى قرشًا ونصف القرش نظير حمولة لمسافة تقدر بحوالى خمسمائة ياردة ، لينقلها ذلك الحمّال من الشاطئ إلى منزل من المنازل .

ينبع هى أرخص بلدان الحجاز ، فيما يتعلق بالمؤن والتموينات ؛ ونظرًا لوجود الماء بكثرة فى هذه المدينة ، ونظرًا أيضًا لأن جوها هو الأفضل من جو جدة من الناحية الصحية ، فإن الإقامة فيها تصبح أمرًا مقبولاً اللهم إلا باستثناء جحافل الذباب

التى تكثر فى منطقة الساحل . ولا يخرج أحد من أهل ينبع إلا وفي يده مروحة من القش لكى يهش بها ذلك الذباب ، ويستحيل أن يتناول الناس طعامهم دون ابتلاع شيء من ذلك الذباب مع الطعام ، وبخاصة أن ذلك الذباب يدخل الفم عندما يفتحه صاحبه لتناول الطعام . الناس يشاهدون جحافل الذباب وهي تمر فوق المدينة ؛ هذه الجحافل الذبابية تحط حتى على السفن التى تبحر خارجة من الميناء ، وتبقى على ظهر السفينة طوال الرحلة .

الرحلة من ينبع إلى القاهرة

أبحرت من ميناء ينبع فى صباح اليوم الخامس عشر من شهر مايو، فى سمبوك، أو إن شئت فقل : قارب كبير مفتوح متجه إلى ميناء القصير ، ليجرى تحميله بالقمح من هناك ؛ كان ريس السمبوك واحداً من أبناء مالك السمبوك ، وهو من مواطنى مدينة ينبع . كنت قد اتفقت معه على نقلى أنا وعبدى من ينبع إلى القصير نظير مبلغ خمس دولارات ، فى الوقت الذى كان الحاج الواحد يدفع أجراً مقداره دولارين فقط ، فى حين كان يدفع الفقير والخادم دولاراً واحداً . كانت الحكومة تعطى أصحاب السفن نصف دولار فقط عن نقل الجندى الواحد . ولما كان أمر ينبع له نصيب فى ذلك السمبوك ، فقد سمح له بالإبحار دون أن يحمل معه بعضاً من الجنود ، وكان الريس قد أبلغنى أن هناك حوالى عشرة مسافرين من العرب على ظهر السمبوك ، وعندما اضطرنى الريس إلى دفع دولارين زيادة على الأجر المعتاد ، فقد سمح لى بمكان صغير أحتفظ به لنفسى خلف الدُفة . وعندما ركبت على ظهر السمبوك اكتشفت أن الريس خدعنى ؛ فقد كان هناك ما يزيد على ثلاثين مسافراً معظمهم من السوريين والمصريين ، كانوا جميعهم متزاحمين على ظهر القارب ، ولم يدفعوا جميعًا سوى ما يقرب من عشرة دولارات. وكان الريس، هو وأخوه الأصغر منه، والقبطان والخادم ، كل أولئك كانوا يجلسون فى المكان الذى سبق أن وعدنى به الريس ووافقت عليه . مسألة العودة إلى ينبع ، موطن الموت ، لم تكن أمراً محموداً ، وبعد أن وجدت عدم

وجود مظاهر للطاعون على ظهر السمبوك ، استسلمت لقدرى ومصيرى دون جدل لا طائل من ورائه . أقلعت السفينة على الفور وراحت تسير بمحاذاة الشاطئ . عندما دخل المساء وجدت أن موقفى ازداد سوءًا عما كنت أتوقعه عندما ركبت على ظهر المركب ؛ ففى عنبر القارب كان يرقد حوالى ستة من المرضى ، كان اثنان منهما يهذيان هذيانًا فظيعًا ؛ كان شقيق الريس صغير السن قد حصل على أجر نظير رعايته للمرضى ، والأدهى أن ذلك الشقيق كان يجلس على المقعد المجاور لمقعدى ، ومات واحد من هذين المريضين فى اليوم التالى ، وجرى إلقاء الجثة فى البحر من فوق ظهر المركب . لم يعد هناك شك فى أن الطاعون كان على ظهر السمبوك ، على الرغم من إصرار البحارة بأن المرض الموجود ليس هو الطاعون . فى اليوم الثالث ، أحس الصبى الصغير ، شقيق الريس بآلام شديدة فى الرأس ، وعندما داهمه الطاعون أصر على إنزاله على الشاطئ ، كنا فى ذلك الوقت فى خليج صغير ، استسلم الريس لرجاء أخيه ، واتفق مع أحد البدو الموجودين على الشاطئ ، على نقله على جمله إلى ينبع . أنزلناه إلى البر ، ولا أعرف ماذا حدث له بعد ذلك . الاحتياط الوحيد الذى يمكن اتخاذه تحسبًا للعدوى هو أن أقوم بوضع أمتعتى حولى ، مستهدفًا بذلك رسم دائرة عازلة أستطيع فيها التحرك مستريحًا وبلا مصاعب ، ولكن على الرغم من كل ذلك وجدتنى مضطرًا إلى الاتصال فى كل لحظة بطاقم المركب . من يمن الطالع أن المرض لم ينتشر ؛ إذ لم يمت من بيننا سوى شخص واحد فقط ، وجاءت وفاته فى اليوم الخامس من مغادرتنا لينبع ، وذلك على الرغم من إصابة مسافرين كثيرين بالمرض ، لم أستطع أن أجزم أنه الطاعون ؛ نظرًا لأنى لم أتمكن من فحص الجثث ، لكن كل ما كان حولى كان يقتادنى إلى ذلك الاعتقاد . ربما كان دوار البحر المستمر والقىء الذى تملك المسافرين ، عملية صحية من عمليات الطبيعة . وفيما يتعلق بى أنا شخصيًا فقد كنت فى حالة صحية متدنية طوال الرحلة ، وكنت أستشعر الألم فى أحيان كثيرة ، والذى تزايد بفعل انعدام وسائل الراحة على السفينة (السمبوك) . كانت نفسى قد بدأت تعاف الأطعمة كلها ، فيما عدا الثريد ؛ كنا كلما دخلنا ميناء من الموانئ ، أقوم بشراء خروف من البدو ، على أمل الحصول على طبق من الحساء ، وعن طريق توزيع

اللحم بين المسافرين على المركب ، أحصل منهم على الدعاء والتمنيات الطيبة ، الأمر الذى جعلهم يحسنون معاملتى فى كل صغيرة وكبيرة ، واستطعت بذلك أيضًا الحصول على عونهم ومساعدتهم لى ، عندما كنت أحتاج إلى رفع المظلة فى الصباح ، أو عندما كنت أملأ قربة الماء عندما نكون على الشاطئ .

الملاحة هنا ، هى من القبيل نفسه الذى سبق أن تناولته بالوصف فى رحلتى من سواكن إلى جدة ؛ كنا ندخل ميناء مع حلول كل مساء ولم نكن نبحر مطلقًا أثناء الليل، ولكننا كنا نستأنف إبحارنا مع طلوع النهار ، وعندما كنا نعرف أنه ليس فى طريقنا خليج صغير أو ميناء قريب يمكن أن نصله قبل غروب الشمس فى ظل الرياح السائدة، كنا نتوقف فى بعض الأحيان فى مرسى من المراسى عقب صلاة الظهر مباشرة . ومن سوء طالعنا أن قارب السمبوك كان قد تم سحبه بسبب هياج البحر وارتفاع أمواجه فى رحلة من الرحلات السابقة ، ومن هنا تعذر علينا النزول إلى الشاطئ ، اللهم إلا باستثناء الأماكن التى كنا نجد فيها سفنًا أخرى ، كنا نستقل قواربها ؛ نظرًا لأننا عادة ما نرسوا فى مياه عميقة . البحارة هنا كشفوا عن جبنهم الكبير ، مثلما فعل أندادهم فى سواكن فى مناسبة سابقة ؛ كلما زاد هبوب الريح طوى البحارة الأشرعة ، يزاد على ذلك أن تخوف البحارة من العواصف يجعلهم يلجأون إلى أى ميناء من الموانئ ، أضف إلى ذلك أننا لم نكن نقطع فى اليوم الواحد مسافة تزيد على ما يتردد بين خمسة وعشرين ميلاً وخمسة وثلاثين . لم يكن على ظهر المركب من الماء شىء سوى برميل خشبى كبير ، ولم يكن به من الماء سوى ما يكفى البحارة مدة ثلاثة أيام فقط . كان لكل بحار من البحارة قربة خاصة به ، وعندما كنا نصل إلى مسقى من المساقى ، كان البدو يجيئون إلينا ويبيعون لنا الماء الذى فى قرابهم . فى بعض الأحيان يحدث أن ترسو السفينة فى خليج من الخلجان ، يكون بعيدًا عن آبار الماء ، أو قد يُمنَعُ البحارة من مغادرة المركب بسبب الريح المعاكسة ؛ الأمر الذى يجعل طاقم المركب يعانى معاناة شديدة من العطش لافتقارهم الماء .

طوال الأيام الثلاثة الأولى كنا نبحر بمحاذاة الشاطئ الرملي ، الأجرد وغير المأهول بالسكان والذى تمتد فيه الجبال مسافة كبيرة نحو الداخل . وعلى امتداد رحلة برية وبحرية من ينبع مقدارها مسير ثلاثة أيام، وذلك على حد قول الناس هنا ، يقع فى نهاية هذه الرحلة جبل يطلق الناس عليه هنا اسم جبل الحسَّانى ، الذى يمتد إلى مسافة قريبة من شاطئ البحر ، ومن شاطئ البحر تمتد فى اتجاه الشمال سلسلة الجبال المنخفضة ، فى المنطقة المجاورة للساحل ، وهذه المنطقة لا يسكنها سوى عدد قليل من البدو . مخيمات قبيلة جهينة تمتد إلى أن تصل إلى هذه السلسلة من الجبال المنخفضة ، هذه المخيمات تمتد فى شمال هذه الجبال ، إلى أن تصل إلى محطة الحج التى يطلقون عليها اسم الوجه ، أو " الوش " حسبما ينطقها الناس هنا ؛ وهذه المنطقة هى المنازل التى يقيم فيها بدو الحطيم (ويصح فيه أيضًا " الهتيم ") . توجد جزر عدة أمام جبل الحسَّانى، والبحر فى هذه المنطقة عامر بالمناطق الضحلة والصخور المرجانية ، التى تكاد تلامس سطح الماء ؛ ألوان هذه الصخور البركانية المتباينة هى التى تجعل الناظر إليها من بعيد يحسبها وكأنها قوس قزح . فى فصل الربيع وبخاصة بعد سقوط المطر ، يقوم بعض بدو الساحل بالإقامة على هذه الجزر الصغيرة ، وكلما توفر المرعى أدى ذلك إلى بقاء البدو فيها ، هؤلاء البدو جميعهم لديهم قوارب صغيرة وهم صيادون مهرة . وهم يملحون السمك ، إما فى قواربهم إلى مدينة ينبع أو إلى القصير ، أو قد يبيعونه للسفن التى تمر عليهم . إحدى هذه الجزر اسمها الحرَّة ، وهى تنتمى إلى بنى عبس ، التى كانت فى يوم من الأيام واحدة من القبائل البدوية القوية، لكنها حاليًا ليست سوى بضع عائلات، تعيش مختلطة مع بنى الحطيم ، ولا تحظى بالاحترام والتقدير، شأنها فى ذلك شأن بدو الحطيم الذين تعيش بينهم هذه العائلات . هناك على جزيرة أخرى من هذه الجزر قبر لأحد الصالحين ، اسمه الشيخ حسَّان المرابط ، وحول هذا القبر توجد بعض المبانى القليلة المنخفضة ، وبعض الأكواخ أيضًا ؛ فى هذه المنطقة تستقر أسرة بدوية حطيمية هى التى تقوم على سدانة ذلك القبر وخدمته ورعايته . ولما كان خط سير السفن العربية قريب من هذه الجزيرة ،

فإن بحارة هذه السفن غالبًا ما يرسلون قاربًا فيه شيء من القمح لمن يقيمون في تلك الجزيرة ، أو قد يرسلون إليهم شيئًا من الزبد ، والبسكويت ، والبن ، نظرًا لأنهم يعدون الشيخ حسان هذا راعيًا لهذه البحار . عندما أبحرنا بالقرب من هذه الجزيرة ، صنع ريس المركب الذى كنا على ظهره رغيفًا كبيرًا من الخبز ، وسواه في الجمر الناتج عن النار ، وأعطى كل من كان على ظهر السمبوك لقمة من ذلك الرغيف ، من باب تكريم وتشريف ذلك الولى ، وبعد أن تناولنا تلك اللقمات قدم الرجل لكل واحد منا كوبًا من القهوة .

البحارة العرب ، بصفة عامة ، يؤمنون بالخرافات إلى حد بعيد ، وهم ينظرون إلى بعض المسارات نظرة خوف وفزع؛ لا لأن هذه المسارات أخطر من غيرها ، وأنما لأنهم يعتقدون أن الأرواح الشريرة تسكن فيما بين الشعاب المرجانية ، وأنها قد تسحب السفن إلى المناطق الضحلة ، وتسبب لها الارتطام ؛ ولهذا السبب نفسه ، يواظب البحارة بصورة مستمرة بعد كل ميل ، على إلقاء حفنة من الأطعمة في البحر ، قبل أن يجلسوا لتناول الطعام ؛ ظنًا منهم أن ساكنى البحر يتعين أن يحصلوا أيضًا على طعامهم ، وإلا اعترضوا طريق المركب وعرقلوا مسيرها . نسى ريس المركب ذات يوم ، أن يفعل هذا الشيء، لكنه عندما تذكر ذلك، أمر بخبز رغيف طازج، وألقاه في البحر .

كنا نلتقى كل يوم سفنًا قادمة من مصر ، كانت ترسو في ذلك الخليج ، ويصل عدد هذه السفن في المساء إلى ثلاث سفن أو أربع . في المناسبات التى من هذا القبيل تدور المشاجرات حول الماء ، وكانت السفن تضطر إلى البقاء يوما أو يومين قبل أن يحضر البدو كمية كافية من الماء إلى الشاطئ . الزبد ، والحليب ، والعسل والأغنام والماعز ، والسمك المملح والحطب ، وأغصان الأراك وعيدانه التى يصنع البدو منها المساويك ، كل هذه الأشياء متوفرة وتجرى مقايضتها بالقمح أو التبغ . البدو لصوص جسورون، بل إنهم يسبحون في الماء ليصلوا إلى السفن أثناء الليل، لكى يترقبوا الفرصة عندما تسنح لهم بسرقة شيء من الأشياء . الماء على الشاطئ كله سيئ للغاية ، اللهم باستثناء كل من الوجه وضبا . والوجه التى تبعد مسافة مسير ثلاثة أيام في اتجاه

شمالي جبل الحسّاني ، عبارة عن قلعة على طريق الحج ، تقع على بعد حوالي ثلاثة أميال داخل البلاد . بالقرب من قلعة الوجة هذه يوجد نبع مائي ممتاز ، كما توجد أيضًا آبار كثيرة بالقرب من الخليج الصغير ، وماء هذه الآبار مستساغ ؛ هذا الخليج الصغير يستخدم ميناء للقلعة ، ومن ثم يطلق الناس عليه اسم مرسى الوجه . جنود هذه القلعة من المغربين ، ويقال إن هذه القلعة مكدس فيها كميات كبيرة من المؤن والتموينات . تزوج الكثيرون من هؤلاء المغاربة من نساء بدويات ، وراحوا يمارسون تجارة المؤن والتموينات مع السفن التي تمر على ذلك المرسى .

يسكن بدو قبيلة البلي الجبال المجاورة لمدينة الوجه . وإلى الشمال من الوجه ، وعلى بعد مسير رحلة مقدارها يومين جنوبي المويلح يقع مرسى ضبا الشهير بآباره الممتازة ؛ مرسى ضبا يقع في خليج كبير ، وهو يعد واحدًا من أحسن المرافئ التي على هذا الساحل ، والآبار تبعد مسافة مسير نصف ساعة نحو الداخل ، في بيارة يظلها النخيل وأشجار الدوم . طريق الحج المصري يمر من هذا المكان ؛ ولذلك جرى إنشاء بركة أو إن شئت فقل : مستودع أو خزان للماء . السفن التي تبحر من القصير إلى ينبع غالبًا ما تمر بهذه النقطة ، ثم تواصل سيرها منها بمحاذاة الساحل في اتجاه الجنوب . وعلى بعد مسير يومين ، شمالي ضبا ، توجد قلعة وقرية المويلح الصغيرة ، في أرض بدو الحويطات وبدو العمران . تجاوزنا هذه القلعة عن بعد ، ولكني تمكنت من رؤية بيارات كبيرة من النخيل بالقرب من شاطئ البحر، أما ذلك الذي يسمونه القلعة، فيبدو على شكل مبنى مربع الشكل فوق السهل بالقرب من المياه . موقع المويلح يتميز من بعد بواسطة الجبل العالي الواقع خلف المويلح ؛ هذا الجبل فيه ثلاث قمم بارزة عن سائر القمم الأخرى ، وهذه القمم الثلاث يراها الرائي من مسافة تتردد بين ستين ميلاً وثمانين ميلاً ، وقد قيل لي: في أيام الشتاء وعندما يكون الجو صافيًا ، يمكن رؤية هذه القمم الثلاث من القصير ، عند شروق الشمس . قرية المويلح هي المركز الرئيسي على هذا الساحل الممتد من العقبة إلى ينبع . سكان المويلح الذين أغلبهم من البدو ، استقروا وراحوا يمارسون حرفة الاتجار في الماشية والسمك مع كل من الطور وينبع ، والسوق التي يقيمها تجار المويلح تزورها أعداد كبيرة من بدو الداخل .

هذه السوق هى المكان الوحيد على هذا الشاطئ الذى تقام عليه بصورة منتظمة ، كما يمكن أيضًا الحصول على المؤن والتموينات بصورة مستمرة ، وبالتالى يمثل هذا السوق غوثًا فى الوقت المناسب للسفن التى تحتجز نظرًا لأن الرياح لا تكون مواتية . نظرًا لندرة المؤن والمواد فى الحجاز ووفرتها ورخصها فى مصر ، فإن السفن عندما تغادر موانئ الحجاز قاصدة القصير أو السويس لا تأخذ من احتياجاتها إلا ما هو ضرورى ، لكن الرحلة التى يحسبها البحارة بحوالى عشرين يومًا غالبًا ما تصل إلى شهر كامل ، بل قد تصل إلى شهرين فى بعض الأحيان .

يستطيع المشاهد أن يرى من قرية المويلح، تلك النقطة من شبه جزيرة سيناء التى يطلقون عليها اسم راس أبو محمد ، رؤية واضحة تمامًا . السفن القادمة من ينبع إلى القصير غالبًا ما تتجه صوب ذلك الأنف الجبلى ، أو صوب واحدة من الجزر الواقعة أمام هذا الأنف الجبلى ، ثم تنحرف جنوبيًا قاصدة القصير . البحارة يتخذون ذلك المسار لكى يفيدوا من الرياح الشمالية التى تهب على هذه المنطقة من البحر الأحمر طوال تسعة أشهر فى العام ، يزاد على ذلك أن البحارة يفضلون هذه الرحلة المتعبة المكلفة ، التى يتمتعون خلالها بنسيم البر ، على الخطر والإرهاق المترتب على الإبحار فى بحر مفتوح ، عكس اتجاه الريح ، أو الإبحار مباشرة من جدة أو ينبع إلى الساحل الإفريقى ، الذى لا يعرف موانئه الواقعة جنوب القصير سوى قلة قليلة من الربابين ، والذين يخشون من سكانه البدو .

عندما تصل السفن إلى رأس محمد ، فإنها تلقى مراسيها بالقرب من واحدة من الجزر الصغيرة ، أو قد تدخل إلى الميناء المسمى شرم ، لتبقى فيه إلى أن تهب ريح مواتية ، التى عادة ما تحمل تلك السفن إلى القصير خلال يوم أو يومين . أما فيما يتعلق بنا ، فلم يحدث لنا ما يعكر صفونا طوال الرحلة ، وذلك على الرغم من أن الريح لم تكن مواتية تمامًا واضطرتنا ذات مرة إلى البقاء مدة ثلاثة أيام فى المكان الذى كنا نرسوا فيه ، كنت أتوقع تحطم السفينة ، عندما كنت أرى القبطان وهو يبحر خلال المناطق الضحلة القريبة من الشاطئ ، هذه العملية اكتسب فيها هؤلاء القباطنة خبرات

غالية ، ويكشفون خلالها عن شجاعة كبيرة مثل الجبن الشديد الذى ينتابهم عندما يكونون مبحرين فى عرض البحر .

بعد رحلة استمرت اثنين وعشرين يومًا أصبحنا على مقربة من رأس محمد ، وكان ذلك فى اليوم الرابع من شهر يونيو ، وربطنا المركب ببعض الحبال فى بعض الشعاب المرجانية ، التى تقع فى جزيرة صغيرة أمام أنف الجبل ، كان القبطان (الريس) قد عقد العزم على العبور فى صبيحة اليوم التالى .

لما كنت أعلم أن البدو يوجدون دومًا فى ميناء شرم ، وذلك لنقل المسافرين بالبر إلى الطور أو إلى السويس ، فقد تمنيت لو نزلت على الشاطئ هنا فى شرم ، والطريق من هنا إلى القاهرة قصير جدًا ، عن الطريق إلى القاهرة عن طريق القصير ، يزاد على ذلك أن حالتى الصحية المتأخرة جعلتنى أرغب فى ترك السفينة التى ليس عليها مكان للإقامة ، إضافة إلى أن المخاوف من الطاعون لم تنته بعد ، على الرغم من عدم حدوث وفيات على ظهر المركب خلال الأسبوعين الماضيين . ونظير أربعة دولارات أعطيتها للريس ودولار واحد للقبطان ، تعطفا علىّ وخرجنا قليلاً عن مسارهما ، وفى صبيحة اليوم التالى ، الموافق للخامس من شهر يونيو دخلنا ميناء شرم .

تبعد شرم حوالى أربع ساعات أو خمس عن النقطة التى يسمونها رأس محمد ، وشرم ميناء جيد ومتسع ويسمح برسو السفن الكبيرة ؛ وهى تقع عند مدخل خليج العقبة ، وهى أفضل الموانئ الموجودة على الجانب الغربى من الخليج، وتحت الاسم شرم (وجمعه شروم) يندرج ميناءان يبعدان نصف ميل عن بعضهما البعض ، وهذان الميناءان جيدان، لكن الميناء الجنوبى هو الأكثر استعمالاً . ونظرًا لوجود بئر غزيرة المياه بالقرب من هذين الميناءين، فإن السفن الذاهبة إلى الحجاز أو القادمة منه تمر بهذين الميناءين ، والمسافرون الذين يودون أن يكْفوا أنفسهم مؤونة الرحلة البحرية فى خليج السويس (التى تستغرق وقتًا طويلاً أثناء هبوب الرياح الشمالية) ينزلون إلى البر هنا فى شرم ، وينقلهم البدو على الإبل إلى الطور أو السويس . هؤلاء البدو الذين يعيشون فى الجبال ، يشاهدون السفن عن بعد ، وعندما تصل تلك السفن

يسارع هؤلاء البدو بالذهاب إلى الشاطئ ليعرضوا خدماتهم على المسافرين . في الماضي ، عندما كان باشوات مصر لهم سلطة اسمية على هؤلاء البدو ، كانت أطقم السفن تخشى من البدو وتخافهم ؛ كان أولئك البدو الأعراب يحصلون على إتاوات دورية من السفن عندما تدخل موانيهم ، وكانوا يتصرفون بطريقة عدوانية مع أطقم هذه السفن . في الوقت الراهن ، نجح محمد على باشا ، من خلال آمر السويس ، في تأديب هؤلاء البدو واستئصال شأفتهم ، وأصبح سلوكهم وديًا إلى حد كبير في هذه الأيام ، إضافة إلى أن السفر بصحبتهم أصبح آمنًا تمامًا ، لكن إذا ما تصادف أن تحطمت سفينة على شواطئهم ، أو على الجزر القريبة من هذه الشواطئ (وهذا أمر نادر تمامًا) ، فإنهم لا يزالون يحتفظون لأنفسهم بحقهم القديم في سلب حمولة المركب التي تكون من هذا القبيل ونهبها .

وصلت في المساء واحدة من السفن وكانت محملة بالجنود ، الذين غادروا ينبع قبلنا بستة أيام ؛ كان آمر (قائد) الجنود ، هو وأربع من جماعته أو خمس ، قد نزلوا إلى الشاطئ ، لينقلوا بطريق البر إلى القاهرة ، وواصلت السفينتان سيرهما في اليوم التالي قاصدتين القصير . لم تكن هناك صعوبات في مسألة الحصول على الإبل ؛ فقد كان هناك أكثر من ثلاثين جملاً جاهزًا للتأجير ، وبدأنا رحلتنا في مساء يوم وصولنا إلى شرم ، على شكل جماعتين ، كانت جماعة المقدمة مكونة من الجنود ، أما المجموعة الثانية التي كانت تبعد عن المجموعة الأولى مسير ساعتين ، فكانت تشملني أنا وعبدى ومسافرين آخرين ، من أهل دمشق ، كانا سعيدين بتقصير رحلة عودتهما إلى وطنهما . سرنا في مساء ذلك اليوم حوالي ساعة ونصف الساعة في الوادي ، ثم خلدنا إلى الراحة لتمضية الليل .

في اليوم السادس من شهر يونيو واصلنا مسيرنا عبر وديان قاحلة جرداء ، بين صخور منحدرة، القسم الأكبر منها من الجرانيت ، إلى أن توقفنا ، عند الظهر تقريبًا ، تحت صخرة بارزة هيأت لنا شيئًا من الظل . ذهب البدو لإحضار شيء من الماء من مكان عال في الجبال الغربية يسمونه الحمراء ، وثبت أن ماءه كان من النوع الممتاز .

كانت هناك امرأة وحيدة ومعها عنزتان تعيش فى ذلك الوادى . فيما بين البدو أنفسهم نجد أن هذا الوادى هو أكثر الوديان أمنًا من بين أجزاء هذه المنطقة ؛ هذا الأمن يجرى خرقه فى بعض الأحيان بسبب السلوك المشين الذى يأتيه الجنود الأتراك الذين يمرون بهذا الطريق . وأنا عرفت هؤلاء الرجال حق المعرفة من خبراتى المتكررة معهم ، ولذلك رفضت الانضمام إلى جماعتهم . عندما واصلنا مسيرنا قبيل المساء التقينا على الطريق واحداً من أبناء البدو الذين كانوا يعملون جمَّالين فى المجموعة التى سبقتنا . لم يكن جمل ذلك الصبى ، قادرًا على مسايرة بقية الإبل ، وكان الصبى (الجمال) قد أخرج خنجره وراح يجرح الجمل علَّه يسرع ويواكب الإبل الأخرى ، وعندما احتج الصبى على الجمل وأمسك بالحكَمة (المقود) ، لقى عضة فى كتفه ، وعندما أصر الصبى على الإمساك بالحكمة (المقود) ، تناول الوغد بندقيته وأطلقها على الجمل ، وهنا جرى الصبى وراح ينتظر مجيئنا . وعلى بعد أميال قليلة سمعنا من بعيد صوت الجندى وهو يسب ويلعن وهو سـائر خلف الجمل . ونظراً لأنى كنت أتوقع حـدوث مشاجرة ، فقد قمت بتعمير بندقيتى ومسدساتى . وعندما رآنى أسير فى مقدمة الجماعة ، جرى نحوى على الفور ، وراح ينادينى باللغة التركية ويطلب منى النزول لاستبدال جمله بجملى . سخرت منه وقلت له بالعربية : إننى لست فلاحًا كى يخاطبنى بهذه اللهجة . عندئذ ، وبطريقه هؤلاء الجنود الذين اعتادوا على أن كل من ليس بجندى يتعين عليه الخضوع لأوامرهم ، تحول ذلك الجندى ناحية عبدى وأمره بالنزول من فوق الجمل ، وأقسم أنه سوف يفتح النار على واحد منا إذا لم نطع أوامره . عندما سمعت ذلك تناولت بندقيتى ، وأكدت له أنها معمَّرة ببارود جيد وسوف أوجه بها طلقة إلى قلبه على نحو أفضل من الطلقة التى سيوجهها إلىّ من بندقيته . طوال هذه المشادة كان جمله قد شرد قليلاً فى الوادى ، ومن باب الخوف على أمتعته ، جرى خلف الجمل ومضينا نحن فى طريقنا ، ونظرًا لأنه لم يستطع اللحاق بنا فى الرمل ، فقد فتح نيران بندقيته علىَّ ، من مسافة بعيدة ، وعلى الفور رددت عليه وانتهت المعركة بعد ذلك . بعد مسافة وصلنا إلى رفاقه الذين كانوا قد نزلوا عن رواحلهم طلبًا لشىء من الراحة . قلت لهم إن صديقهم كان فى مأزق مع الجمل ، الأمر الذى جعلهم يرسلون واحداً من

البدو لإحضاره ، بينما واصلت أنا مسيرى ، وخيمت فى تلك الليلة فى واد جانبى بعيداً عن الطريق ، انضم إلينا فيه من جديد ذلك الصبى البدوى ؛ إذ كان يرغب فى ألا يراه الجنود الآخرون .

بدأنا عندئذ نوجه رحلتنا على نحو لا يسمح لنا بالتقاء الجنود مرة ثانية ، ومع ذلك التقيت ذلك الجندى بعد ذلك بيومين فى بلدة الطور . كان محافظ السويس فى الطور فى ذلك التاريخ ، وكان بوسعى التقدم إليه بشكواى ، كان ذلك الجندى يخشى هذه المسألة ، ولذلك جاء إلىّ وعلى وجهه ابتسامة ، ليقول لى إنه يتمنى ألا يكون هناك ما يعكر الصفو بيننا ، وعلل الطلقة التى أطلقها بأنها كانت من باب تنبيه رفاقه إلى مساعدته فى مسألة الجمل ، ورددت عليه بأن الطلقة التى أطلقتها أنا كان لها هدف مختلف تماماً ، وأنى جد أسف لأنها أخطأت الهدف ، وعقبها ضحك الرجل وانصرف لحال سبيله . ليس هناك على وجه الأرض جندى بذىء ، ومتكبر ، ورذيل ، وجبان مثل الجندى التركى ؛ الجندى التركى إذا ما أحس أنه لن يلقى مقاومة ، تجده يتصرف بطريقة فيها الكثير من الاستبداد والطغيان ، ولا يتورع عن قتل إنسان برىء ، جراء نوبة من نوبات انفعاله ، لكن الجندى التركى إذا ما لقى مقاومة حازمة ، أو عندما يتخوف من النتائج السيئة التى يمكن أن تترتب على سلوكه تراه يلوذ بكثير من الأعمال الوضيعة والحقيرة . طوال رحلتى من أسوان إلى القاهرة ، التى كان القسم الأكبر منها بطريق البر ، صادفت أشياءً مماثلة مع بعض الجنود الأتراك ، وهنا يتعين علىّ أن أضع قاعدة أمام الرحالة ، مفادها أنهم يجب أن يتعاملوا مع هؤلاء الجنود الأتراك بتكبر وتعالٍ لأنهم يعملون للخوف ألف حساب وحساب ، وهنا يبدءون فى تغيير تصرفاتهم . قطعنا فى ذلك اليوم مسير حوالى تسع ساعات .

اليوم السابع من شهر يونيو . واصلنا سيرنا فى الوديان حوالى ساعتين ونصف الساعة ، لنصل بعد ذلك إلى جبل عالٍ ، اضطررت عنده إلى النزول عن جملى . واستطعت الوصول إلى قمة الجبل بصعوبة بالغة ؛ نظراً لأنى كنت خائر القوى ، وكنت أرتعش لأنى كنت محموماً اعتباراً من الليلة السابقة . استغرق تجاوزنا للجبل قرابة

الساعتين ونصف الساعة ، لننزل بعد ذلك إلى واد على الجانب الآخر ، ومن فوق قمة الجبل شاهدت منظر خليج العقبة البديع . الجزء العلوى من هذا الجبل جرانيتى ، والأجزاء السفلى منه من صخر مختلف عن صخور القمة ، وفى فترة العصر خرجنا من هذه السلسلة إلى السهل الغربى ، الذى ينحدر انحداراً متدرجًا نحو البحر فى السويس، وخيمنا فى ذلك السهل بعد ركوب الراحلات مدة تقدر بحوالى عشر ساعات .

اليوم الثامن من شهر يونيو . وصلنا الطور قادمين إليها من هذه الاستراحة بعد حوالى ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وفى الطور وجدنا اضطرابًا كبيراً ؛ كانت حرم محمد على باشا التى صادفتها فى كل محطة من محطات هذه الرحلة ، قد وصلت إلى الطور قادمة من ينبع ، قبل أيام قلائل ، ونظراً لأن الريح كانت تهب من الشمال ، فقد آثرت حرم محمد على النزول إلى الشاطئ على أمل مواصلة الرحلة براً إلى السويس . كان محافظ السويس هو مصطفى بك ، وهو واحد من كبار الضباط ، قد جاء للقائها ، وكانت خيامها قد نصبت بالقرب من قرية الطور الصغيرة . كان الأمر يحتاج إلى ما يتردد بين أربعمائة وخمسمائة جمل لنقل الحاشية والمتعلقات والجنود إلى السويس ، ونظراً لعدم توفر مثل هذا العدد من الإبل فى وقت قصير ، فقد كانت تنتظر أسبوعًا فى الطور .

كنت قد قررت التوقف أياما قلائل فى الطور ، مستهدفًا بذلك استرداد شىء من الصحة يعيننى على مواصلة رحلتى إلى القاهرة ، لكنى عندما عرفت أن الطاعون لا يزال منتشراً فى السويس ، وأيضًا فى القاهرة ، غيرت خطتى ، وصممت على البقاء فى الطور بضعة أسابيع ، إلى أن تنتهى موجة الطاعون ، وسرعان ما اكتشفت أن مسألة الحصول على مسكن فى الطور تعد أمراً غير مناسب ؛ قرية الطور مبنية فى واد رملى ، قريب من الشاطئ ، وبلا أية حماية من أشعة الشمس ، وخلف هذه القرية الصغيرة توجد أيضًا مجموعة قليلة جداً من بيارات النخيل ، ومنازل هذه القرية شديدة البؤس ، كما أن جحافل الذباب والبعوض تملأ فتحات كل مسكن من المساكن . أمضيت الليل فى قرية الطور ، وبعد أن عرفت من البدو أن هناك قرية أخرى صغيرة

على بعد مسير حوالى ساعة واحدة ، وأن هذه القرية تقع على أرض مرتفعة ، وأنها وفيرة الماء الممتاز ، قررت الذهاب للسكنى فيها .

هذه القرية يحيط بها سور شبه مدمر . الناظر إلى المكان يشاهد بقايا قلعة مدمرة ، يقال إن الذى أنشأها هو السلطان سليم ، الذى ضحى بالحدود والمواقع المتقدمة من إمبراطوريته . كان الفرنسيون قد فكروا فى إعادة بناء هذه القلعة ، لكنهم غادروا مصر قبل أن يبدأوا إعادة بناء هذه القلعة . هناك قريتان صغيرتان ، تبعدان قرابة ميل عن هذه القرية وتقعان على جانبى الطور ؛ هاتان القريتان الصغيرتان يسكنهما العرب ، فى حين أن قرية الطور نفسها لا يسكنها سوى اليونانيين الذين لا يزيد عددهم على عشرين أسرة تقريباً ، ومعهم قسيس يخضع لأسقفية جبل سيناء . هؤلاء اليونانيين يكسبون عيشهم هنا ، فى هذا المكان ، من بيع المؤن والتموينات إلى السفن التى ترسو هنا للتزود بالماء ، الذى يتوفر هنا فى الآبار بكميات كبيرة ، ومن نوعية ممتازة . البضائع والتموينات هنا أسعارها ضعف أسعارها فى القاهرة ، يضاف إلى ذلك أن سكان الطور لهم قواربهم الخاصة ، التى يبحرون فيها إلى مدينة السويس لجلب المؤن والتموينات . هؤلاء كان يمكن أن يصبحوا أثرياء بحكم عيشتهم المتواضعة ، لولا مرور الجنود الأتراك عليهم . تطفل مجموعة صغيرة من الجنود الأتراك ولو مرة واحدة على هؤلاء اليونانيين قد يأتى على ما جمعوه طوال عام كامل . والباشا لا يحتفظ لنفسه بحامية فى هذا المكان .

اليوم التاسع من شهر يونيو . فى الصباح تسلقت السهل الصاعد إلى أن وصلت إلى القرية سالفة الذكر ، التى يطلق الناس عليها اسم الوادى بعد أن تزودت بكمية كبيرة من المؤن والتموينات من قرية الطور . عثرت بسهولة ويسر على سكن لى فى تلك القرية ، وسعدت لأن توقعاتى لتلك القرية كانت صائبة ؛ هذه القرية مكونة من حوالى ثلاثين منزلاً ، لكل منها حديقة ، وتحيط بها بيارات النخيل ، ويكاد يكون لكل منزل من هذه المنازل حديقته الخاصة . استأجرت مبنى شبه مفتوح فى منتصفه ، ولكنى سقفته بجريد النخل ، وتمتعت بقربى من حديقة غناء ينمو فيها النخيل وأشجار النبق ،

والرمان ، وأشجار المشمش . كان في وسط تلك الأشجار بئر كبيرة تعطى ماءً ممتازًا ، ولم يكن أمامى ما أتمناه أكثر من ذلك الذى أنا فيه حاليًا . أهل هذه القرية تحول القسم الأكبر منهم إلى سكان مستقرين ، على الرغم من أصلهم البدوى ؛ هؤلاء السكان لم يتشككوا في نواياى ومقصدى من الإقامة في القرية ، نظرًا لأنهم تبينوا أنى لا أقوى على الوقوف على قدميَّ ، وبناء على ذلك راحوا يعاملوني برفق . يضاف إلى ذلك أن الهدايا الصغيرة من اللحم التى كنت أوزعها عليهم سرعان ما فعلت فعلها، وجعلتنى أقف على حسن نواياهم تجاهى ، وكانت لدى أسباب كثيرة تجعلنى راض عن سلوكهم وتصرفاتهم تجاهى ، وبذلك تمتعت براحة كاملة وبهواء الجبل النقى ، ذلك الجبل الذى يقع على ارتفاع أعلى من ارتفاع جبل الطور، وسرعان ما استعدت قواى .

على امتداد السنوات الأربع الماضية، واعتباراً من افتراقى عن صديقى السيد / باركر والسيد / ماسيك ، هما وبساتين حلب الغناء ، لم أستشعر الراحة على نحو أفضل مما أنا عليه هنا في هذه القرية ، بل إن اليوم الأول من وجودى هنا في هذه القرية أحدث تحسنًا في صحتى . ونظرًا لأنى أعرف أن التمرينات الخفيفة يمكن أن تفيدنى ، فقد ركبت دابة واتجهت إلى قرية الحمام ، ذلك الحمام الدافئ الذى يقع عند ناصية الجبل ، الواقع إلى الشمال من قرية الطور ، ويبعد مسير نصف ساعة عن قرية الوادى . هذا الجبل الجيرى تنبجس منه عيون دافئة متعددة ، العين الرئيسية من بين هذه العيون مسقوفة ، ويتردد عليها كل البدو المقيمين في المنطقة المحيطة بها . هناك بعض البنايات شبه المهدمة ، ويحتمل أن يكون عمرها من عمر قلعة الطور المدمرة ، ربما كانت تلك البنايات توفر الإعاشة والإقامة للزوار . مياه العيون هنا معتدلة الحرارة ، ويبدو أن فيها نسبة عالية من النوشادر . هناك بالقرب من تلك العيون توجد بيارات نخيل مترامية الأطراف . وأنا لم يسبق لى أن رأيت نخيلاً كثيف النمو بالصورة التى عليها النخيل هنا في قرية الحمام ؛ النخيل هنا يشكل غابة كثيفة على نحو يصعب معه على الإنسان أن يشق طريقه خلالها . مزارع النخيل هذه مملوكة لبدو شبه الجزيرة العربية ، الذين يجيئون إلى هنا مع عائلاتهم في موسم حصاد التمر . ومع ذلك ، فإن أكبر البيارات هنا من ممتلكات القساوسة اليونانيين في جبل سيناء ، ومن بين

هؤلاء القساوسة قس يعيش فى البرج المنعزل الموجود وسط هذه البيارات ، هذا القس يعيش عيشة الرهبان النُّسَّاك ، وسبب ذلك أنه الساكن الوحيد فى هذا المكان . لقد كان تخوف هذا القس من البدو هو الذى جعله يحبس نفسه شهوراً داخل هذا البرج ، الذى لا يمكن الدخول إليه إلا بواسطة سلم نقال ، وهنا سقاء واحد هو الشخص الوحيد الذى يتردد على ذلك القس عندما يجلب له كل أسبوع كمية من الماء . هذا القس موضوع هنا ليكون راعياً للدير ، لكن التجربة أثبتت فشل أو عدم فاعلية المحاولات كلها التى ترمى إلى حماية الأشجار من سلب البدو ونهبهم لها ، الأمر الذى يجعل هؤلاء البدو يتنازلون عن ثمار أو تمور هذه البيارة لكل من يبادر بالوصول إليها، وبذلك يتحول إنتاج البيارة من التمور والذى يقدر بما قيمته أربعة آلاف أو خمسة آلاف قرش ، إلى ملكية عامة للناس أجمعين .

لقيت بعض الصعوبات فى الحصول على اللحم فى قرية وادى ؛ والسبب فى ذلك أن الأغنام جد نادرة فى شبه الجزيرة ، وليس من بين العرب من هو على استعداد لبيع ما عنده من هذه اللحوم . جرى إرسال قطيع من السويس إلى الطور ، وذلك تلبية لاحتياجات زوجة محمد على باشا وحاشيتها . وقد اضطررت إلى دفع اثنى عشر قرشاً هنا ثمناً لجدى صغير .

أدى مقامى أسبوعاً ثانياً فى قرية الوادى إلى تحسين صحتى تحسناً كبيراً . لم أكن قد شفيت تماماً ، ولكنى كنت أتمنى استرداد المزيد من القوة التى تعيننى على رحلتى إلى القاهرة التى يمكن أن أجد فيها وسائل الشفاء الكامل . كنت ميالاً إلى التعجيل برحيلى عن قرية الوادى نظراً لأن الناس كانوا يقولون : إن البدو الذين لديهم إبل لم يقدموها للمشاركة فى نقل نساء الباشا ، سوف يغادرون هذه المنطقة ، وقد حمّلوا إبلهم بالفحم المتجه إلى القاهرة ، وعندها سيكون من الصعب علىَّ العثور على إبل تنقلنى إلى القاهرة . كان قد مضى علىَّ ثمانية عشر شهراً لم أتسلم خلالها أية رسائل من أوروبا ، وكنت أشعر بالقلق وأود الوصول إلى القاهرة ؛ حيث عرفت أن كثيراً من الناس كانوا فى انتظارى . عرفت أيضاً أن الطاعون لابد أن يكون قد انحسر ، وأن ذلك الانحسار سيزداد عندما أصل إلى القاهرة ، وسبب ذلك أن فصل

الحرارة يؤدى إلى انحسار هذا المرض ، وهنا سارعت إلى استئجار جملين من الحمام إلى القاهرة ، ودفعت اثنى عشر دولارًا نظير ذلك .

عرب هذه الأجزاء من البلاد أرسوا أعرافًا وتقاليد خاصة بالنقل ؛ من بين سكان شبه الجزيرة نجد أن قبيلة الصوالحة من حقها أن تقوم بنصف العمليات النقلية أما النصف الآخر فهو من حق قبيلتى المزينة والعليقات . ونظرًا لأنى كنت بحاجة إلى جملين فقد تحتم أن يكون أحدهما من الصوالحة والآخر إما من مزينة أو العليقات. وإذا ما تصادف عدم وجود أى أحد من القبائل الثلاث يصبح من السهل تسوية الأمر مع واحد منهم ، وبذلك لا يكون للفردين الآخرين المطالبة بالحق فى ذلك فيما بعد ، لكن إذا ما تصادف وجود أفراد عدة منهم فى المكان ، أدى ذلك فى أغلب الأحيان إلى قيام نزاعات فيما بينهم ، وهنا على من يختاره المسافر أن يعطى الباقين مبلغًا صغيرًا لكى يمنعهم من المطالبة بحقوقهم . هذا العرف أو القانون له حدود معينة ، إذا ما تعداها كل من المسافر ومرشده ، لا يصبح بعدها لبلديات المرشد أى حق من الحقوق فى عملية النقل . الحد المتجه من الطور إلى الشمال ، يشكل منتصف الطريق بين قرية الطور وقرية وادى . والبدوى الذى نقلنى من الطور إلى وادى تعدى ذلك الحد خلسة ، ولم يعلم أحد من أصدقائه بهذا الأمر ، وراحوا يتابعوننا عندما شاهدونا على الطريق ، لكننا كنا قد تجاوزنا الحد عندما لحقوا بنا، الأمر الذى جعلنى من نصيب هذا المرشد ، وعندما رحت أبحث فى قرية وادى عن مرشد جديد لى إلى القاهرة ، أبلغونى أنه ليس هناك من يمكن أن يتحمل مسئولية عملية النقل هذه ، دون موافقة من البدوى الذى حملنى من الطور إلى قرية وادى ، والذى سبق أن عبرت الحدود على جمله . وهنا أرسلوا فى طلب ذلك البدوى ، ونظرًا لأن إبل ذلك الرجل لم تكن موجودة لذا تنازل عن حقه لشخص آخر نظير دولارين ، ورحلت مع المرشد الآخر .

هذه المشاجرات حول النقل عجيبة جداً ومعقدة إلى الحد الذى يصعب حلها ، فى الوقت نفسه يفضل أن يبقى المسافر سلبيًا فى مثل هذه المشكلات ، ومع ذلك لا يصل الأمر إلى حد فرض الضرائب ، نظرًا لأن المبلغ المختلف عليه لا يجاوز دولارًا واحداً .

غادرت قرية الوادى فى اليوم السابع عشر من شهر يونيو . كان طريقنا يمر خلال سهل مرتفع ، محاطًا من ناحية الشرق بجبال سيناء ، ومن ناحية الغرب تحيط به التلال الجيرية ، التى تفصل السهل عن البحر ، وتمتد بمحاذاته لمدة مسير حوالى خمس ساعات أو ست . هذا السهل الذى هو أرض قاحلة تمامًا ، وأرضه زلطية ، يطلق الناس عليه اسم القاع ، وسمعته سيئة بسبب البدو من ناحية ، وعدم وجود عيون مائية فيه من ناحية ثانية، ولحرارته الشديدة بحكم طبيعته من ناحية ثالثة . هذا هو الحال الذى وجدت عليه ذلك السهل . فى ذلك اليوم عانينا الكثير جراء الرياح شديدة الحرارة . نزلنا فى فترة الظهيرة فى السهل المفتوح ، ولم نعثر على شجرة واحدة يمكن أن تعطينا شيئًا من الظل . وجرى فرد بشت من بشوت البدو على أربعة أعمدة لكى تشكل نوعًا من الخيام ، ولم تكف تلك العباءة إلا لحمايتى أنا من الشمس ، فى حين راح عبدى ومرشداى يلفون أنفسهم فى عباءاتهم ورقدوا ليناموا فى الشمس . هواء السموم الحار هذا، يغلق مسام الجسم بدلاً من التعرق، وفى المساء بدأ الألم يعاودنى ، ولازمنى اعتباراً من هذه المنطقة إلى أن وصلت إلى القاهرة . خيمنا تلك الليلة فى سهل القاع .

اليوم الثامن عشر من شهر يونيو . دخلنا وادى فيران فى الصباح ، وسرنا فيه فى اتجاه البحر ، وواصلنا مسيرنا بمحاذاة الشاطئ إلى نهاية اليوم ، إلى أن أصبحنا على مقربة من بئر المرخة أمام الخليج الذى يسمونه بركة فرعون .

اليوم التاسع عشر من شهر يونيو . واصلنا مسيرنا مرة ثانية من مرخة بمحاذاة الساحل ثم دخلنا بعد ذلك وادى طيب ، تاركين على يسارنا تلك الجبال التى تقترب من الشاطئ ، والتى يقع فى منتصفها ذلك الحمام الذى يطلقون عليه اسم حمام سيدنا موسى . طيب عبارة عن واد عامر بالشجر ، الذى ذوت أغصانه وأوراقه بسبب عدم سقوط المطر . وبعد أن وصلنا قمة ذلك الوادى ، واصلنا مسيرنا فى سهل مرتفع ، وتجاوزنا وادى أسايط ، ونمنا فى وادى الغرندل .

اليوم العشرون من شهر يونيو . تجاوزنا عين الهوارة مالحة الماء ، وعبرنا سهلاً قاحلاً ، وخيمنا في فترة المساء في وادي سدر . كانت رحلاتنا النهارية طويلة جدًا، وسرنا بضع ساعات أثناء الليل، حتى نتمكن من الوصول إلى السويس في الوقت المناسب لكي نلحق بالقافلة ، التي كانت تستعد في السويس لنقل حريم الباشا إلى القاهرة . ونظراً لأني سوف أتناول تفاصيل هذا الطريق فيما سأكتبه عن زيارتي لجبل سيناء ، فأنا أفضل عدم الدخول هنا في المزيد من التفاصيل ، يضاف إلى ذلك أن الملاحظات التي أوردتها حول هذا الموضوع تكاد تكون شكلية إلى حد بعيد .

اليوم السادس والعشرون من شهر يونيو . تجاوزنا عيون موسى في فترة الصباح ووصلنا السويس في فترة العصر . كانت القافلة على وشك الرحيل ، وانضممنا إليها في المساء . كانت هناك حراسة قوية ، وكان إجمالي إبل القاهرة يقدر بحوالي ستمائة جمل . واصلنا المسير أثناء الليل وبلا توقف ، وفي صباح اليوم الثاني والعشرين من شهر يونيو . نزلنا في المكان الذي يسمونه الحمراء ، أو إن شئت فقل : محطة الحج فيما بين القاهرة وعجرود . كانت نساء الباشا قد أحضرن معهن من الحجاز عربتين ، ركبن فيهما المسافة كلها من الطور إلى السويس ، إذ كان الطريق سهلاً ومطروقًا في كل أجزائه . وكانت عربتان أخريان قد أرسلتا لهن من القاهرة إلى السويس ، إحداهما حنطور إنجليزي جميل تجره أربعة خيول ، وركبت النساء هذا الحنطور من السويس ، وكن يتركن هذين الحنطورين من حين لآخر ويركبن في محفّات جميلة تحملها البغال . واصلنا المسير من جديد في المساء ، وسرنا الليل بطوله ، ووصلنا بركة الحج في صبيحة اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو ، وبذلك نكون قد قطعنا الرحلة من الطور إلى القاهرة في ستة أيام ؛ هذه المسيرة الاضطرارية التي أتعبتني وأرهقتني تمامًا بسبب حرارة الجو . وفي بركة الحج كان عدد كبير من الوجهاء والأعيان في انتظار القافلة لاستقبالها ، كانت نساء الباشا قد قررن التخييم بضعة أيام قلائل في بركة الحج بين بيارات النخيل . ونظرًا لأني ، بحكم ضعفي ، لم أقو على السفر في اليوم نفسه (على الرغم من أن القاهرة لا تبعد عن بركة الحج سوى مسير أربع ساعات فقط) ، فقد آثرت المبيت في بركة الحج ، ودخلت المدينة في

صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو ، بعد غياب عنها دام حوالى عامين ونصف العام . وجدت أن الرسالتين اللتين أرسلتهما من المدينة (المنورة) لم يجر استلامهما ، وأن معارفى هنا ظنوا أنى فى عداد المفقودين . كان الطاعون قد انحسر تمامًا ، وكان بعض المسيحيين قد أعادوا فتح منازلهم ، لكن يبدو أن حزنًا كبيرًا كان يخيم على المدينة كلها ، جراء الوفيات التى ترتبت على ذلك الوباء .

زاد فرحى بوصولى إلى القاهرة أيضًا بفعل خطابات التشجيع التى وصلتنى من إنجلترا، لكن حالتى الصحية لم تكن يسمح لى بالانغماس فى المتع المترتبة على النجاح. أطباء القاهرة هم مثل الأطباء الأوروبيين الموجودين فى الأجزاء الأخرى من الليفانت ؛ فقد جعلونى أبتلع أرطالاً من اللحاء ، الأمر الذى زاد مرضى سوءًا على سوئه ، ولم أسترد عافيتى إلا بعد شهرين من الزمن فى الإسكندرية، التى سافرت إليها لزيارة العقيد ميسيت ، الممثل البريطانى المقيم فى مصر ، الذى كلفنى بكثير من الالتزامات، والذى بفضل اهتماماته، وبفضل التدريبات التى أجريتها على ظهور الخيل، استطعت استرداد عافيتى . الرحلة ممتعة ، التى قمت بها فى فصل الشتاء ، خلال الوجه البحرى ، فى بحيرة المنزلة ، جعلتنى أسترد عافيتى أكثر وأكثر عن ذى قبل .

الملاحق



الملحق رقم ١

محطات قافلة الحج المسماة "الحج القبصى". فى المناطق الجبلية بين مكة وصنعاء فى اليمن .

مكة

اليوم الأول ، شداد : بعض الأكواخ التى تقدم القهوة (مقاهى) .

٢- قارة : قرية صغيرة على قمة الجبل الذى يحمل هذا الاسم .

٣- الطائف .

٤- العبّاسة : فى المنطقة التى فيها عرب ثقيف .

٥- ملاوى جدارة : منطقة من مناطق عرب بنى سعد .

٦- مخرة : منطقة من مناطق عرب نصرة . القرية الرئيسية من قرى قبيلة بنى سعد هى ؛ قرية لغام ، وصور هى القرية الرئيسية من قرى قبيلة نصيرة ؛ تبعد مسافة مسير يوم واحد عن الحدود الشمالية القصوى لمنطقة الزهران . فى هذه المنطقة توجد أيضًا قرية البجيلة المحصنة.

٧- السرّار : وهى تابعة لعرب بنى ثقيف .

٨- برحراح : على الطرف الشمالى من زهران ؛ وهى عبارة عن منطقة عرب يحملون الاسم نفسه . هذه الزهران تعد واحدة من أشد الأراضى خصوبة فى هذه السلسلة الجبلية ، على الرغم من أن قراها تفصلها عن بعضها البعض مساحات من

الصخور الجرداء : هذه المنطقة تسكنها قبائل زهران من بنى مالك وبنى غامد . معروف أن باخروج ، شيخ الزهران ، بعد أن قاوم محمد على باشا مقاومة باسلة ، أُخذ على غِرة فى شهر مارس من العام ١٨١٥ الميلادى ، وجرى تقطيعه إربًا إربًا بناء على أوامر من ذلك القائد التركى .

٩- وادى على ، فى المنطقة نفسها .

١٠- مشنية : على الحدود الجنوبية لزهران .

١١- رغدان : واحد من أسواق عرب غامد .

١٢- قرن المنسل : من عرب غامد .

١٣- الزاهرة : من عرب غامد . قبيلتا زهران وغامد تمتلكان الحجاز (أقصد جبال الحجاز) والمناطق المجاورة لهما من تهامة ، أو بالأحرى السهل الغربى فى اتجاه البحر ، كما تمتلكان أيضًا السهل الشرقى العلوى . أهم أماكن قبيلة غامد هى المخواة ، ويجب عدم الخلط بين المخواه والمخا .

١٤- الرهيطة : تابعة لقبيلة الشمران القوية .

١٥- أدامة : تابعة لعرب الشمران .

١٦- تبالة : تابعة لعرب الشمران الذين يسكنون على جانبى الجبال فى السهل الغربى والسهل الشرقى .

١٧- الحسبة : سوق من أسواق عرب الشمران .

١٨- الأسابيلى : قرية من قرى قبيلة أسابيلى .

١٩- بنى شفرة : سوق من أسواق قبيلة مسماة بهذا الاسم سبق أن اتحدت مع قبيلة الأسابيلى ، لكنها أصبحت قبيلة مستقلة بأمر من الرئيس الوهابى .

٢٠- شط ابن عريف .

٢١- سدوان : هذا المكان وشط ابن عريف يسكنهما عرب من قبيلة تدعى أهل عريف .

٢٢- المتسة .

٢٣- ابن معان التى تنتمى هى والمتسة إلى عرب ابن قتلان .

٢٤- إبل : تقع فى أراضى قبيلة عسير القوية .

٢٥- ابن شاير : من قبيلة عسير .

٢٦- دبان : من عرب القحطان ، التى تعد واحدة من أقوى قبائل الصحراء الشرقية .

٢٧- درب بن العقيدة : واد تسكنه قبيلة الرفيضة الذين ينتمون إلى عسير . ولديهم قوة لا بأس بها من الخيول .

٢٨- درب سلمان : من قبيلة الرفيضة .

٢٩- وكاشة : من عرب العبيدة ، وتقع فى أرض شديدة الخصوبة . اعتباراً من أرين وفى اتجاه الجنوب نجد أن العرب يربون بعضاً من الإبل على الجبال ، لكن يكثر عندهم الماعز والأغنام ، والبدو يطلقون على هؤلاء العرب اسم الشواوى ، أو إن شئت فقل : أهل شاه ، أو أهل بل .

٣٠- وادى ياوود : وهو يتبع عرب عبيدة .

٣١- هود ابن زياد : من عرب عبيدة .

٣٢- ثُهْران : منطقة وسوق من أسواق قبيلة وداع .

٣٣- قراض : تابعة لقبيلة وداع .

٣٤- رغافة : من عرب السّحار .

٣٥- ضحيان : من عرب السحار .

٣٦- صعدة : من قبيلة السحار. يبدأ الحج القبصى من صعدة ؛ هذا يعنى أن قافلة الحج تبدأ من هذا المكان ، وهى تسمى بهذا الاسم من قبل أمير أو رئيس الحج ، الذى ينعتونه بالقبصى . يتجمع الحجاج الذين يجيئون من مناطق اليمن الداخلية فى صعدة ؛ وصعدة بلدة كبيرة لكنها عتيقة ومتحللة ، وهى شهيرة فى اليمن السعيد بأنها مسقط رأس يحيى بن حسين، المؤسس الرئيسى للمذهب الزيدى ، الذى له أتباع كثيرون فى اليمن ، وقد ظهر مؤخرًا فى صعدة ولىٌ ؛ هذا الولى يدعى السيد أحمد ، والزيدية يجلونه تمامًا ، ويطلقون عليه اسم ولىٍّ ، أو قديس حتى يوم أن كان على قيد الحياة . العرب يحكمون صعدة ، وقد امتد النفوذ الوهابى إلى صعدة . ومن صعدة وفى اتجاه صنعاء نجد العرب يسكنون هذه المنطقة ، التى تقع ضمن ممتلكات إمام صنعاء .

٣٧- العاشمية : تابعة لقبيلة سوفيان .

٣٨- سوق من أسواق عرب بكيل .

٣٩- هناك سوق آخر من أسواق القبيلة نفسها . عرب بكيل هم وعرب حاشد الذين فى هذه المنطقة يخدمون ضمن الجيش الخاص بإمام صنعاء ، والكثيرون منهم يذهبون إلى الهند ، ويفضلهم الأمراء المحليون هناك على سائر الجنود الآخرين ، وهذا هو الأمير الهندى تيبو صاحب يستخدم العديدين منهم فى جيشه . وهم عادة ما يبحرون من ميناء شاهر فى حضرموت، ويقصدون الجزيرات وكتش فى الوقت الراهن .

٤٠- غولت عجيب : وهى تابعة لعرب حاشد .

٤١- ديدة : تابعة لعرب عمران .

٤٢- عيال صراح : من قبيلة همدان .

٤٣- صنعاء : من مكة لصنعاء تقدر المسافة بمسير ثلاثة وأربعين يومًا بالخطو البطىء ، وسبب ذلك أن السواد الأعظم من الحجاج يقطعون الرحلة سيرًا على الأقدام.

الملحق رقم ٢

ملاحظات عن البلدان التى يمر عليها الحجاج القبصيون ، والعادات الغريبة لبعض القبائل العربية .

مسار هذا الحج يكون على امتداد كل من جبال الحجاز وجبال اليمن، بحيث يكون السهل الشرقى فى جانب، وتهامة، أو بالأحرى ساحل البحر ، على الجانب الآخر . يمر الطريق فى أغلب الأحيان عبر ممرات صعبة تقع على قمم هذه الجبال . الماء وفير فى آبار هذا المسار ، كما تتوفر أيضًا العيون والنهيرات الصغيرة ؛ هذه الرقعة من الأرض مأهولة تمامًا بالسكان ، على الرغم من أنها ليست مزروعة كلها . ولا وجود للحقول المسورة والأشجار المسورة إلا فى المناطق القريبة من الماء . هناك قرية فى كل محطة من محطات الحج ، القسم الأكبر من هذه القرى مبنى بطريقة جيدة من الحجر، وتسكنها القبائل العربية، التى هى أصلاً من هذه الجبال، ثم راحت الآن تنتشر فى السهول المجاورة . البعض من هذه القبائل كبير ، كما هو الحال فى قبيلة زهران ، وغامد ، والشمران ، وعسير ، وعبيدة ، وكل قبيلة من هذه القبائل قادرة على توفير ما يتردد بين ستة آلاف بندقية فتيلية وثمانية آلاف؛ القوة الرئيسية لهذه القبائل تتمثل فى هذه النوعية من البنادق. الخيول تعد نادرة فى هذه الجبال، ومع ذلك فإن قبيلة قحطان، وقبيلة الرفيضة ، وكذلك قبيلة عبيدة ، وكلها تنتشر فى السهل ، لديها خيول من سلالة الكُحيل . هذه البلاد لا تنتج فقط ما يكفى السكان من البن وإنما يصدرون من البن كميات كبيرة ، والقمح ، والفول ، والزبيب ، واللوز ، وكذلك المشمش المجفف إلخ .

يقال إن أشجار البن لا تنمو فى اتجاه الشمال، فى المنطقة الواقعة خلف مشنية ، فى بلاد زهران ؛ هذا يعنى أن أشجار البن تجود فى الجنوب ؛ معنى ذلك أن أجود أصناف البن هى تلك التى تزرع فى المناطق المحيطة بصنعاء . الكروم تجود

أيضًا في هذه البلاد . من هنا نجد أن الزبيب يشكل سلعة غذائية عامة بين العرب ، ويجرى تصدير هذا الزبيب إلى البلدان الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، وإلى جدة ومكة ، حيث يقوم الناس بصناعة نوع من النبيذ من ذلك الزبيب على النحو التالي : يجرى وضع الزبيب في جرار من الفخار ، ثم يجرى بعد ذلك ملء هذه الجرار بالماء ، ثم تدفن في الأرض ، وتترك في مكانها مدة شهر كامل ، تتعفن وتتخمر خلاله . هذه الجبال تزرع فيها أيضًا غالبية الأنواع الأخرى من الفواكه ، حيث يتوفر الماء بصورة مستمرة ، والمناخ معتدل . يتساقط الثلج في بعض الأحيان ، ويتجمد الماء أحيانًا في بلدة صعدة . العرب يشترون ملابسهم القطنية من أسواق تهامة ، أو من على ساحل البحر ، والحجاج الذين يمرون على تلك المناطق يبيعون لهؤلاء العرب ، قلة قليلة من العقاقير ، والتوابل ، وإبر الخياطة ، ثم يمضون في طريقهم في أمن وسلام ، وذلك اعتبارًا من قيام الوهابيين بإخضاع هذه المناطق ، عن طريق إنزال الهزيمة بكبار شيوخ القبائل ، وإجبارهم على دفع جزية أو إتاوة سنوية .

السواد الأعظم من القبائل العربية في جنوب زهران يعتنقون المذهب الزيدي ؛ هؤلاء القبليون يعيشون في القرى ، وهم يشكلون ذلك الذي يسميه العرب الحضر ، أو إن شئت فقل : مستوطنون ، وليسوا بدوًا ، لكن نظرًا لأن هؤلاء الحضر يربون قطعانًا كبيرة من الماشية ، فهم ينزلون ، في موسم الأمطار ، إلى السهل الشرقي ، الذي يعد ملجأ واقيًا للأبقار والإبل والأغنام . هؤلاء الحضر يحصلون على الملابس والعقاقير والأواني إلخ من الموانئ البحرية في اليمن ، في حين يبيع هؤلاء الحضر الفواكه المجففة والتمور والعسل والزبد والبن إلخ . هؤلاء الحضر أيضًا يتبادلون مع السهل الشرقي الذرة بالماشية . الدولار الإسباني يشيع استعماله بين هؤلاء الحضر؛ في أسواق هؤلاء الحضر يجرى تقييم الأشياء كلها بمكاييل القمح . ملابس هؤلاء الحضر هي بشكل عام مصنوعة من القطن والجلد .

قبل قيام الوهابيين بتعليم هؤلاء الحضر أساسيات الدين الإسلامي الصحيحة ، كانوا لا يعرفون شيئًا عن دينهم سوى " لا إله إلا الله " و " محمد رسول الله " ، يضاف إلى ذلك أنهم لم يكونوا يقومون بالفروض الدينية المحددة ؛ من ذلك مثلاً أن

المركيدة ، الذين هم فرع من قبيلة عسير ، لا يزالون يمارسون عادة قديمة درج عليها آباؤهم وأجدادهم ، تقضى بأن يخصصوا للغريب الذى ينزل عليهم ، أو عند خيامهم ، أنثى من إناث الأسرة لتكون رفيقة لذلك الغريب أثناء الليل ، وغالبًا ما تكون هذه الأنثى هى زوجة المُضيف ، لكن العذراوات لا يقدمن ضمن هذا النظام غير المتحضر من أنظمة الكرم . وإذا ما أعجب ذلك الغريب بزوجة المضيف ، جرت معاملته باهتمام كبير فى صبيحة اليوم التالى من قبل مضيفه ، كما يجرى تزويده عند الرحيل بكمية من التموينات تكفيه طوال الجزء المتبقى من رحلته ، لكن ، ومن سوء الطالع ، إذا لم يعجب ذلك الضيف بامرأة المضيف ، وجدوا عباءته فى اليوم التالى وقد قطع جزء منها ، قطعته تلك السيدة عن قصد دلالة على احتقارها للرجل وازدرائه ، ونظرًا لشيوع ذلك الظرف ، فإن المسافر التعيس كان يطرد من القرية أو المخيم مكروهًا من النساء والأطفال . وجد الوهابيون صعوبة بالغة فى جعل هؤلاء الحضر يقلعون عن تلك العادة السيئة ، ونظرًا لحدوث جفاف لمدة عامين ، بعد إقلاعهم عن هذه العادة السيئة ، ظنوا أن ذلك الجفاف كان عقابًا لهم على تخليهم عن هذه العادة التى تعد من مظاهر كرمهم وسخائهم ، على امتداد قرون طويلة .

كنت أسمع أثناء تجوالى بين البدو السوريين ، عن انتشار هذه العادة الشاذة بين أفراد قبيلة المركيدة ، لكنى لم أستطع التأكد من صحة تقرير من التقارير، لا يتفق مع الأفكار الثابتة الخاصة باحترام شرف المرأة عند العرب ، لكنى لم يعد يراودنى أى شك فى هذه المسألة بعد أن وصلتنى من كل من مكة والطائف ، ومن أشخاص عديدين شهدوا هذه المسألة شهود العيان ، وبذلك أكون قد تأكدت من هذه المعلومة .

قبل الغزو الوهابى لعسير ، كان أهلها يقتادون عذراواتهن المقبلات على الزواج ، إلى سوق المدينة وهن يلبسن أبهى ملابسهن ، ويروحون يمشون أمام هؤلاء العذراوات وينادون قائلين : " من يشترى العذراء ؟ " وكان الزواج يعقد فى السوق ، ولم يكن يسمح بتزويج البنات بغير هذه الطريقة .

بلغنى أن النمور والذئاب تكثر فى جبال عسير ، لكن ليس فيها أسود . والعرب هنا لديهم سلالة جيدة من البغال والحمير .

الملحق رقم ٣

الطريق من الطائف إلى صنعاء

هـذه اليوميات وصلتني مـن رجل فقير الحال ، سافـر بصحبة زوجته في عام ١٨١٤ م ، من صعدة إلى مكة . كان الرجل من سكان إحدى المناطق القريبة من صنعاء ، ونظراً لتوقف الحج القبصي بضع سنوات ، ونظراً أيضاً لعدم استطاعته تحمل مصاريف السفر بالبحر إلى جدة ، فقد اضطر إلى قطع هذا الطريق وهذه المسافة ، التي تعد أمراً ممكناً حتى في الأوقات الحرجة ، عند أولئك الذين يستطيعون المرور دون أن تدور من حولهم الشكوك وبخاصة عندما يصطبغون بصبغة الحج والحجاج . كان الرجل يلقى معاملة كريمة وطيبة في كل مكان . عندما وصل ذلك الرجل إلى القرية ، كان يتجه إلى المسجد أو الجامع ، ويروح يتلو بعض سور القرآن ، وهنا كان يسأل العرب عن هوية هذا الرجل، ويروحون يعطونه كميات كبيرة من الدقيق، والحليب ، والزبيب ، واللحم ، إلخ . لم يستوقف اللصوص هذا الرجل إلا بعد أن وصل إلى المواقع الأمامية لجيش محمد علي باشا ، وعند هذه المواقع قام بعض الجنود بسلب ونهب كل ما كان مع هذا الرجل من المؤن والتموينات . لم يستطع هذا الرجل تحديد رحلاته اليومية ؛ نظراً لأنه كان يتسكع من مستوطنة إلى أخرى ، ووصل به الأمر إلى حد الانتظار أياماً عدة أملاً في العثور على رفاق له على الطريق . استغرقت الرحلة من هذا الرجل قرابة الأشهر الثلاثة . كان يعيش وهو في مكة على ما يكسبه من الغناء أثناء الليل ، أمام منازل الحجاج الأثرياء ، كان الرجل يتغنى ببعض الأشعار التي تمدح النبي ﷺ وتتناول موضوع الحج .

جاء الطريق الذى سلكه ذلك الرجل على النحو التالى :

الطائف - بنى سعد ، عرب نصيرة ، عرب بجيل ، سوق رحاح ، سوق المندق ، فى بلاد زهران - البقاع ، فى بلاد زهران - بغدان ، فى منطقة عرب غامد - الصلُبيات ، يسكنها عرب غامد وهؤلاء الذين يطلق عليهم اسم خوثام ، التى هى واحدة من القبائل القديمة جداً التى ازدهرت مع بداية الإسلام - عرب الشمران - بل قورن - ابن دُحمان ، قبيلة تحمل هذا الاسم - ابن الأحمر ، قبيلة عربية أخرى - ابن الأسمر ، قبيلة عربية أخرى - ابن الأسمر ، قبيلة عربية - البلاد هنا تسمى بأسماء السكان ، التى لم ينسها الراوى الذى كان يرافقنى ، على الرغم من أنه لم يكن يتذكر دومًا أسماء القرى التى مر خلالها فى أرض كل قبيلة من القبائل - عسير ؛ هذه القبيلة توحدت مع القبائل الثلاث الأخرى تحت شياخة واحدة يسمونها شيخ عسير ، وهو يدعى التامى ، الذى أثبت أنه ألد أعداء محمد على باشا ؛ كان منزله الرئيسى يتمثل فى قلعة الطور القوية ، التى كانت تقع على مستوى مرتفع وتحيط بها الجبال ؛ كان لديه أيضاً قلعة صغيرة أخرى ، اسمها التوبة ، وحولها بلدة صغيرة تبعد مسير أربعة أيام أو خمسة عن القنفذة على ساحل البحر .

فى منطقة عسير مر الحاج على قرى شكراتين، الضاحية، شحاتة ، ثم الجوف . فى هذه المنطقة كان الطريق لا يزال فوق قمة الجبل ، واعتباراً من هذه النقطة يبدأ المسافر من الآن فصاعداً مواصلة السير فى الوديان التى تتكون منها سلسلة التلال المنخفضة التى تتقاطع مع السهل الشرقى .

الرفيضة ، عرب عبيدة ، عرب هراجة : هراجة إحدى بلدان منطقة عرب سنحان ، هذه المنطقة تحتوى أيضًا على مكان يدعى راحة الحمراء، التى يسكنها عرب الستهان، وعلى بعد مسير يوم واحد يوجد وادى نجران الذى ينتمى إلى قبيلة يام ثهران ،

وتسكنه قبيلة الوداع ؛ هذا المكان من الأماكن العالية في الجبل ، ولكن الوداع يسكنون أيضًا في الوديان المنخفضة – باجم ، قبيلة عربية : شرقي باجم تعيش قبيلة خولان – الضحيَّان ، وهم من قبيلة السُّحار – صعدة ، واعتبارًا من صعدة فإن المحطات أو المراحل المختلفة هي : بيت مجاهد – الجرف – خيوان وجوث : مكانان في منطقة قبيلة حاشد – زيبين – عمران – صنعاء – سبعة أيام من صعدة إلى صنعاء .

الملحق رقم ٤

ملاحظات عن الأراضى الواقعة جنوبى مكة

بعد أن وصفت الطريق الواصل بين مكة والطائف ، أقول : إن هناك فى الاتجاه الجنوبى الشرقى وعلى بعد مسير أربع ساعات من الطائف ، واديًا يسمى وادى لاى ؛ هذا الوادى فيه نهير، وبساتين غناء، وهناك أيضًا منازل كثيرة على جانبى ذلك النهير . وعلى بعد مسير ساعتين من لاى فى اتجاه الجنوب ، داخل الجبل ، توجد قلعة بيسل الشهيرة ، التى بناها المرحوم شيخ مشايخ غرب الحجاز ، المدعو عثمان المضايفة ، الذى جرى أسره بالقرب من هذه القلعة فى عام ١٨١٢م. هنا فى هذه البلدة، بيسيل ، خاض محمد على باشا معركته الحاسمة ضد قوات الوهابيين الموحدة ، وكان ذلك فى شهر يناير من عام ١٨١٥ م . اعتبارًا من لاى ولمدة حوالى ساعتين ، يمتد الطريق عبر الجبال ، ثم ينزل بعد ذلك إلى السهل الشرقى الكبير ، حيث توجد بلدة كولاخ الصغيرة التى تبعد عن لاى مسيرًا يتردد بين سبع ساعات وثمانية ساعات، كما تبعد بلدة كولاخ عن الطائف اثنتى عشرة ساعة ؛ هنا فى هذا المكان أنشئت مراكز رئاسة الجيش التركى طوال أشهر عدة من عام ١٨١٤ م . المكان هنا مفتوح وخالٍ من الأشجار أو المسوّرات ، وفيه كثير من حفر المياه ؛ هذا المكان يمتد من الطائف فى الاتجاه شرق جنوب شرق . يعيش عرب قبيلة العثامة ، حول كل من لاى وكولاخ، هؤلاء العرب هم جزء من قبيلة عتيبة الكبيرة . وفيما بين كولاخ وتربة ، وبعيدًا عن الطريق المباشر ، تقع بلدة أبيلة ، التى كانت ذات يوم ، مقرًا لشيخ المضايفة الكبير . ويمر بكولاخ الطريق المطروق الذى يربط نجد بزهران ، ثم يمتد من الزهران إلى موانئ اليمن .

وبعد أن واصلنا مسيرنا عبر السهل من كولاخ، مع مزيد من الانحراف ناحية الجنوب ، ولمدة ثماني عشرة ساعة ، وصلنا بعد ذلك إلى بلدة تربة ، على حد تسمية أهل الطائف ومكة لتلك البلدة ، ويصح فيها أيضًا " ترابة " حسب نطق البدو لذلك الاسم . أبلغني جندي من أولئك الذين يحملون معهم ساعات ، أنه أحصى ثلاث ساعات قطعها سيرًا بين الطائف وتربة ؛ وتربة مدينة مهمة ، يصل حجمها إلى حجم مدينة الطائف ، وهي شهيرة بمزارعها ، التي تزود البلاد المحيطة بها بالتمور ، كما أنها شهيرة أيضًا بمقاومتها لقوات محمد علي باشا التركية ، إلى شهر يناير من عام ١٨١٥م ، عندما أُجبر سكانها على الاستسلام . بلدة تربة تحيط بها بيارات النخيل والبساتين وهي تروى من نهيرات عدة ، وبالقرب من تربة توجد بعض التلال غير المهمة ، التي يزرع العرب عند سفوحها الذرة والشعير . سكان تربة من قبيلة البجوم ، وشيخهم هو ابن قرشان . هناك امرأة تدعى غالية ، أرملة شيخ لقي ربه ، خلَّدت اسمها بأن وهبت ثروتها كلها للدفاع عن تربة ، وكانت تلعب دورًا نشطًا في مجلس الرؤساء (الشيوخ) . المنطقة المحيطة ببلدة تربة ، ومن تربة إلى كولاخ يسكنها عرب عتيبة ، أكثر قبائل الحجاز من الناحية العددية ، قام البجوم بإحاطة تربة بسور ، كما بنوا أيضًا بعض الأبراج ، في الوقت الحالي هناك حامية تركية متمركزة في تربة ، نظرًا لأن هذا الموقع يعد واحدًا من المواقع الرئيسية ، إضافة إلى أن تربة هي بمثابة الطريق العام الذي يربط نجد باليمن .

إذا ما استأنفنا المسير من تربة في اتجاه الجنوب ثم الانحراف شرقًا إلى سلسلة الجبال الكبيرة ، حيث الأرض غير المستوية التي تتقاطع معها وديان كثيرة ، نصل بعد مسير يومين من تربة ، إلى بلدة رانية ، التي يسكنها عرب قبيلة السبيع ، وشيخهم ابن كاتنان ، تلك الشخصية التي تميزت بالشجاعة في الحملة التي قامت بها على قوات الباشا التركية . بعد مسير ثلاثة أيام أو أربعة من رانية ، توجد بلدة بيشة ، ذلك المكان الوسيط الذي يسكنه بنو أُكلوب . بيشة التي تعد أهم المواقع فيما بين الطائف وصنعاء، أرض شديدة الخصوبة فيما بين الطائف وصنعاء ، فضلاً عن غناها

بالنخيل. فى بيشة وجد جيش محمد على التركى ، وكذلك أتباع هذا الجيش من البدو ، الذى كان يقدر بحوالى عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف رجل ، وجد الجيش فى هذه المنطقة مؤنًا وتموينات كفته أسبوعين ، كما حصل الجيش أيضًا على تموينات لمسيرة دامت أيامًا عدة فى اتجاه الجنوب . والعرب يطلقون على بيشة اسم مفتاح اليمن ؛ هذا يعنى أن بيشة تقع على واحد من الطرق الرئيسية الواصلة بين نجد واليمن ، وقد قيل إن الإبل التى تحمل أحمالاً ثقيلة من مكة لا يمكنها الوصول إلى اليمن إلا عن طريق بيشة ، إضافة إلى منطقة شاطئ البحر الواقعة خلف بيشة تعد طريقًا سهلاً فى اتجاه الغرب عبر سلسلة الجبال الكبيرة . جرت فى بيشة معارك عدة بين الشريف غالب وسعود القائد الوهابى ، الذى أنشأ ، بحكم انتصاره ، قلعتين فى المنطقة المجاورة لبيشة ، وتركهما فى رعاية ابن شخبان ، الذى عينه سعود شيخًا لبنى سالم ، تلك القبيلة التى تسكن بيشة ، والتى تستطيع توفير ما بين ثمانية آلاف بندقية فتيلية وعشرة آلاف ، وقد قاد ابن شخبان معارضة شجاعة ضد محمد على باشا . أعتقد أن أشراف مكة فى الأزمان السابقة كانت لهم ، فى أضعف الأحوال ، سلطة اسمية على المنطقة كلها فيما بين الطائف وبيشة ، ونحن نقرأ فى تاريخ العصمى عن أشراف كانوا يقيمون فى بيشة بين الحين والآخر ، نظرًا لوجود مساعدين لهم فى الجيش من قبيلة بنى سالم .

"بيشة" عبارة عن واد عريض يقدر طوله بمسير ما بين ست ساعات وثمانى ساعات؛ وهذا الوادى عامر بالنهيرات ، والآبار ، والبساتين . ومنازل بيشة أفضل من منازل الطائف، وهى موزعة توزيعًا غير منتظم على المنطقة كلها. والقلعة الرئيسية متينة جدًا ، وفيها كثير من الأسوار والجدران العالية ، كما يحيط بها خندق . وعلى بعد مسير ثلاثة أيام أو أربعة من بيشة نجد أن السهل تغطيه مخيمات كثيرة من مخيمات عرب القحطان ، الذين يشكلون واحدة من أقدم القبائل العربية ، التى ازدهرت قبل مجىء محمد ﷺ ، يوم أن كانت تعبد الأوثان . هاجر بعض من بنى قحطان إلى مصر ، ويقال إنهم سكنوا أسوان. وقد واجه الوهابيون صعوبة كبيرة فى إخضاع هذه القبيلة ،

التي سرعان ما ارتبطت بالغازى ، ولا تزال على ما هى عليه . بنو قحطان لديهم مراعٍ طيبة ، وهم يربون سلالة طيبة من الخيول ، يزاد على ذلك أن كثرة أعداد إبل القحطان أصبحت مضرب الأمثال فى الجزيرة العربية ؛ وقبيلة بنى قحطان مقسمة إلى قسمين : الشهامة والعاصى . فى شهر ديسمبر من عام ١٨١٤ م قام القحطان بالعدوان على جدة ، ونهبوا كل أمتعة أحد سرايا الخيالة التركية ، التى كانت متمركزة لحماية الطريق فيما بين جدة ومكة ، فى بعض الأحيان تقوم جماعات كبيرة من القحطان برعى ماشيتهم فى منطقة نجد .

من بيشة إلى أريه، فى بلاد عرب العلايدة، وهى مسافة تقدر بمسير خمسة أيام ، طبقًا لنظام سير البدو ، لكنها تقدر بمسير سبعة أيام طبقًا لنظام سير الحج القبصى . بيشة نفسها تبعد مسير يومين عن الجبل الغربى . هذه المسافة لا تقل عن مسير أربعة أيام من بيشة إلى زهران ؛ العرب كلهم فى هذه المنطقة بدءًا من تربة إلى بيشة ، ومن بيشة إلى اتجاه الغرب ، كلهم مزارعون ، أما العرب الذين يوجدون فى الجنوب أو الشرق فهم من البدو ، أو من العرب الرُّحَّل .

فى جنوب بيشة الشرقى ، أى على بعد مسير أربعة أيام أو خمسة ، يعيش عرب الدواسر فى فصل الشتاء ، لكنهم فى الصيف ينتقلون إلى المراعى الخصبة فى نجد ، التى تبعد أقرب حدودها إلى هؤلاء العرب ، مسافة لا تقل عن مسير ثمانية أيام فى أقرب أجزائها . الدواسر ليس لديهم خيول ، لكنهم يقدمون للوهابيين فى حروبهم ما لا يقل عن ثلاثة آلاف جمَّال . يقال إن الدواسر فارعى الطول ، وسود البشرة ؛ فى الأزمان السابقة كان من عادة الدواسر أن يبيعوا ريش النعام فى مكة ، للحجاج الذين يأتون من الشمال ، كما أن كثيرًا من باعة مكة الجائلين يأتون إلى هنا فى فصل الشتاء لمقايضة الأقمشة القطنية بريش النعام .

بجوار الدواسر ، يوجد أيضًا بنى كلب ، لكنى لا أعرف المكان الذى يوجدون فيه ، وأهل الحجاز يحكون أشياء مضحكة عن بنى كلب ؛ وهم يقولون على سبيل المثال : إن

رجال بنى كلب لا يتكلمون لغة عربية وإنما ينبحون مثل الكلاب ، وربما كانت هذه الفكرة مستوحاة من الاسم " كلب " ، ويقولون أيضًا : إن نساء بنى كلب قادرات على تحدث اللغة العربية ، لكن واقع الأمر ، هو أن الغريب الذى يحل ضيفًا على خيامهم ، لا يحييه أو يكرمه سوى النساء ، وليس الرجال .

في منتصف الطريق بين وادى الدواسر ، أو بالأحرى المرعى الشتوى لقبيلة الدواسر ، وصنعاء عاصمة اليمن ، وعلى بعد مسافة تقدر بمسير يوم واحد شرقى ثهران (أو إن شئت فقل أراضى عرب الوداع) ، وعلى بعد مسير أربعة أيام أو خمسة من صعدة ، يوجد وادى نجران ، على أول جبل من سلسلة الجبال العظيمة ؛ وادى نجران هذا عبارة عن واد خصيب ، يقع بين جبال يصعب الوصول إليها ؛ نظرًا لأن الممرات التى فيها يصعب على أى جملين أن يمشيا فيها جنبًا إلى جنب . وادى نجران هذا يروى من بعض الأنهار الصغيرة ، ويكثر فيه نخيل التمر . بنى يام هم الذين يسكنون فى وادى نجران هذا ؛ وبنى يام قبيلة قديمة ، تمتاز بمعارضتها للوهابيين، وبنى يام هؤلاء منهم البدو ومنهم أيضًا المستوطنون (الحضر) ؛ المستوطنون من بنى يام من الشيعة، أو من أتباع المذهب الفارسى ، أتباع على رضي الله عنه ، في حين نجد أن السواد الأعظم من البدو هم من أتباع المذهب السنى ، أو إن شئت فقل : مسلمون أصوليون . هؤلاء البدو مقسمون إلى قبائل عكمان والمرّة ، لكن هذه القبائل أضعف من أتباع على ، ودائمًا على خلاف معهم ، على الرغم من أن الطرفين يتحدان إذا ما قام عدو أجنبى بمهاجمة نجران . يستطيع المستوطنون توفير حوالى ألف وخمسمائة بندقية فتيلية ، وقد قام هؤلاء بصد سعود الوهابى مرتين ، وبخاصة أنه كان قد أخضع القبائل كلها فيما عدا بنى صبح الذين هم من سلالة حرب ، فى الأجزاء الشمالية من الحجاز . أبرم بنو يام معاهدة مع الوهابيين ، وسمح لهم بمقتضاها بأداء فريضة الحج كل عام . البعض منهم يزورون قبر (سيدنا) على رضي الله عنه ، فى مدينة مشهد على ، لكن تلك الزيارة تحدث فى ظل كثير من المتاعب ؛ نظرًا لأن حيواتهم ستكون ثمنًا لحماسهم الدينى إذا ما اكتشف أمرهم

على الطريق ، وهذا غالبًا ما يحدث لأن لهجتهم تخونهم ، من يقوم بزيارة قبر سيدنا عليٍّ يعده الناس وليًا في نجران .

عندما يقوم أحد من بني يام برحلة، يرسل بزوجته إلى بيت صديق من أصدقائه ، لأن هذا الصديق يتعين عليه القيام بدور الزوج من جميع النواحي أثناء غياب الزوج ، على أن يعيد الزوجة إليه عند عودته ، ويجب هنا أن نبدي ملاحظة مفادها أن الاسم نجران اليمن ورد ذكره في كتاب العقيدة الدرزية ؛ من بين مبادئ هذه العقيدة السؤال الذي يقول : " هل نجران اليمن مدمرة أم لا ! " مدابغ نجران شهيرة في سائر أنحاء الجزيرة العربية .

المنطقة بدءًا من مكة في اتجاه الجنوب وبالقرب من شاطئ البحر ، وإلى الغرب من سلسلة الجبال ، عبارة عن أرض مستوية تتخللها تلال ، تبدأ في الاختفاء تدريجيًا كلما اقتربنا من البحر ، الذي يبدو شاطئه سهلاً مستويًا في سائر الاتجاهات على بعد مسافة تقدر بمسير ساعات عدة . في زمن السلم نجد أن القوافل لا تكثر حركتها على ذلك الطريق ؛ نظرًا لأنها تتحرك عن طريق الساحل بالقرب من الميناء ، أو عن طريق سفوح الجبال . الطريق الساحلي شحيح الماء ؛ والليث هي أول مكان مأهول جنوبي بلدة جدة ، وتبعد عن هنا مسير أربعة أيام ، وهي ميناء صغير ، بدأ الناس يهجرونه تخوفًا من متسلقي الجبال . السواد الأعظم من سكان الليث هم من بني حرب ، الذين يوجدون بأعداد كبيرة في كل من مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) . توجد مخيمات كثيرة من مخيمات عرب الحطيم على هذا الساحل . وبدءًا من الليث إلى أعالي الجبال وصولاً إلى منطقة زهران ، نجد أن هذه الرحلة تقدر بمسير حوالي ثلاثة أيام ونصف اليوم ، ومن الليث إلى شجَّة ، التي هي عبارة عن بلدة صغيرة ، نجد أن المسافة لا تزيد على مسير يوم واحد ، ومن شجَّة إلى دوجة نجد أيضًا أن المسافة تقدر بمسير يوم واحد ؛ دوجة تقع بالقرب من الإقليم الجبلي ، وهي عبارة عن سوق كبيرة ، لكن منازل دوجة ، أو بالأحرى أكواخها ، مبنية من أغصان وخشب أشجار الأراك ، ومن البوص ، لكنها ليست مبنية من الحجر . سكان دوجة معظمهم من الأشراف ،

وتربطهم صلة قرابة بأشراف مكة ، الذين كانوا يسمحون لهم باللجوء السياسى فى الحروب التى دارت مؤخراً . المسافة من دوجة إلى القنفذه تقدر بمسير يوم واحد ، والقنفذة ميناء شهير . وعلى بعد مسافة مسير يوم ونصف اليوم جنوبى القنفذة يوجد ميناء صغير يطلقون عليه اسم ميناء هالى ؛ ميناء هالى هذا كان بمثابة الحد الجنوبى للمنطقة التابعة لشريف مكة ، الذى كان موظفو الجمارك فى كل من القنفذة وهالى يتبعونه . قام الشيخ الوهابى عثمان المضايفة ، فى عام ١٨٠٥م (وربما ١٨٠٦) بالاستيلاء على القنفذة من شريف مكة ، وبذلك يصبح الساحل كله بدءًا من القنفذة إلى جدة من الممتلكات الوهابية . فى عام ١٨١٤م ، حاولت قوات محمد على باشا التركية ترسيخ وجودها فى المنطقة ، لكنه جرى إخراجها من مواقعها بعد أن خسرت تامى . وجرى الاستيلاء على القنفذة من جديد فى عام ١٨١٥م بواسطة محمد على باشا نفسه ، بعد عودته مباشرة من الحملة التى قام بها على تامى ، شيخ عسير .

المسافة التى تقطعها القافلة من جدة إلى القنفذة بطول الساحل تقدر بمسير سبعة أيام ، سفراً غير متعجل . والمسافة من جدة إلى الليث ، وهذا طريق من الطرق الشرقية أيضًا ، تقدر بمسير خمسة أيام ، والطريق عامر بالماء ، بينما على الطريق الساحلى لا توجد بئر واحدة بين المدينتين .

الطريق الآخر الذى يربط مكة باليمن، والقريب من سفوح الجبال الغربية الكبيرة ، يكون مطروقًا أكثر فى وقت السلم ؛ القوافل تصل إلى هذا المكان أسبوعيًا قادمة من المخواة بصفة خاصة ، والتى تبعد مسير يوم واحد عن منطقة زهران فى الجبال . المخواة عبارة عن بلد كبير ، يبعد مسير تسعة أيام عن مكة ، قياسًا على القوافل بطيئة المسير ، والمخواة مبانيها مبنية من الحجر ، وهى السوق الذى يبيع فيه تجار زهران والمناطق المجاورة منتجاتهم لتجار المخواة، الذين يرسلون هذه المنتجات إلى كل من مكة وجدة . المنطقة المحيطة بالمخواة شديدة الخصوبة، وتسكنها ثلاث قبائل من بنى سالم ، وبنى سيدان ثم بنى على ؛ وبنو سيدان وبنو على خضعوا للوهابيين ، وأصبحوا تحت قيادة تامى شيخ عسير . هناك أفراد كثيرون من بنى غامد فى المخواة. فى زمن السلم

يكون الاتصال بين المخواة ومكة على أشده ، وربما كان ثلث تموين مكة من الحبوب يأتى من منطقة المخواة . والطريق بين هذه المدن يمتد بين الوديان بصفة رئيسية ، ولا يتجاوز سوى قلة قليلة من التلال ، تقع على هذا الطريق بعض القرى ، التى لا يسكن الأكواخ فيها سوى البدو وعمال الزراعة ، وأنا أشدد هنا على عدم الخلط بين المخواة والمخا .

مسير اليومين الأولين يكون فى أراضى قبيلة الجهادلة ، التى يحدها من الجنوب وادى لملم ، الخصيب العامر بالعيون . خلف وادى لملم يعيش بنو فاهم ، تلك القبيلة القديمة التى قل عددها ؛ بنو فاهم شهيرين فى سائر أنحاء الحجاز ، بأنهم استطاعوا المحافظة على لغتهم النقية وذلك على العكس من القبائل الأخرى ، ومن يستمع إلى صبى من صبية بنى فاهم وهو يتكلم ، يدرك تماماً أن بنى فاهم أهل لذلك الثناء .

المنطقة الممتدة من غربى سلسلة الجبال العظيمة إلى البحر هى ما يطلق عليه الناس هنا اسم تهامة ؛ هذه التسمية ، لا تطلق على أى مكان آخر فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ، وإنما تطلق بصورة عامة على الأراضى المنخفضة فى اتجاه ساحل البحر ، يزاد على ذلك أن البدو يمدون هذه التسمية لتشمل منطقة الشمال إلى بلدة ينبع . سكان تهامة فقراء ، ويستثنى منهم أولئك الذين يعملون بالتجارة ؛ نظراً لأن هذه البلاد ليس فيها سوى قلة قليلة من الأراضى الخصبة ، كما تقل المراعى فيها عن الجبال ، التى يسقط المطر عليها بكميات وفيرة . فى سائر أنحاء أراضى تهامة المنخفضة ، يحدث فى بعض الأحيان ، أن تجىء ثلاثة أيام ممطرة أو أربعة . بدو تهامة فى جنوبى مكة ، أصبح وجودهم مقصوراً على الجبال ، وذلك بعد أن غزا محمد على باشا الحجاز ، لم يكن اقتصار هؤلاء البدو على الجبال ناتجاً عن الخوف من الأتراك ، وإنما لأن القبائل الضعيفة ، تحس بعدم الأمان فى مثل هذه الحالة من أحوال الاضطراب وعدم الاستقرار ، وبخاصة عندما تكون مثل هذه القبائل الضعيفة تعيش فى أماكن مفتوحة ، مخافة أن تسطوا عليها جماعات من البدو النهابين الذين يأتون من القبائل القوية المعادية لهم ، التى لم تستطع أن تفعل مثل هذه الأشياء يوم أن كان

الوهابيون فى أوج سلطتهم وقوتهم ، ولكنها اندفعت بلا وازع أو رابط . بدو تهامة بينهم قبائل كثيرة من بنى حطيم ، الذين يشكلون قبيلة هى الأوسع انتشاراً من أى قبيلة أخرى فى الجزيرة العربية .

الصحراء الكبرى شرقى كل من بيشة ووادى الدواسر ، وجنوبى منطقة نجد ، والتى تمتد فى اتجاه الشرق إلى حدود عُمَان ، هى ما يسميه الناس هنا ، وبخاصة البدو ، الربع الخالى . فى فصل الصيف يهجر الناس الربع الخالى كله نظراً لخلوه من آبار المياه . وفى فصل الشتاء ، وبعد سقوط المطر ، وعندما تنتج الرمال المرعى ، تقوم القبائل الكبيرة فى كل من نجد ، والحجاز ، واليمن برعى قطعانها فى تلك الأجزاء من صحراء الربع الخالى ، الواقعة على حدود المناطق التى تعيش فيها هذه القبائل . هذه التربة الرملية يتردد النعام عليها فى كثير من الأحيان ، ويقوم عرب الدواسر بصيد ذلك النعام ، وقد أكد لى بدو متعددون ، أن فى الربع الخالى أجزاء لم يجر استكشافها بعد ؛ وسبب ذلك أن الجانب الشرقى من الربع الخالى ، لا ينمو فيه أى شكل من أشكال الحياة النباتية ، والمكان الوحيد القابل للسكنى فى هذا المكان هو وادى جبرين . والطريق الذى يستخدمه أهل نجد فى الذهاب إلى حضرموت يمر بوادى جبرين هذا ؛ وادى جبرين عبارة عن أرض منخفضة فيها نخيل وآبار ، لكن مناخ هذا الجزء الموبوء من الربع الخالى هو الذى يحول بين الناس وبين السكنى أو الإقامة فيه ، وتمور هذا الجزء من الربع الخالى يجنيها المسافرون العابرون .

الملحق رقم ٥

محطات الحج أو قافلة الحج من القاهرة إلى مكة

الرواية التى أوردها هنا تتعلق بطريق قافلة الحج فى عام ١٨١٦م ، لكنى عرفت من المؤلفين العرب أن تلك المحطات كانت تختلف فى كثير من الحالات .

تتجمع القافلة أيامًا عدة فى مكان قريب من القاهرة ، وهذا المكان عامر بالحدائق . مكان التجمع هذا يبعد عن القاهرة مسير ساعة واحدة ويسمونه الحسوة ، ثم تستأنف القافلة مسيرها إلى بركة الحج ، التى تبعد عن الحسوة مسير أربع ساعات، وتبقى القافلة فى منطقة بركة الحج مدة يومين . وتستأنف القافلة مسيرها من بركة الحج فى اليوم السابع والعشرين من شهر شوال ، ولا تتحرك إلا أثناء الليل ، فهى تبدأ التحرك عند الساعة الرابعة عصراً ، ثم تتوقف عقب شروق الشمس مباشرة ، فى المحطة التى تكون فيها ، وتبقى هناك إلى دخول المساء .

المحطات اعتبارًا من بركة الحج :

الليلة الأولى – الدار الحمراء

الليلة الثانية : إلى عجرود وفيها يتوقف الحج النهار بكامله ثم الليلة التالية . ويجرى تزويد القافلة بالماء من السويس ، الماء الذى يجرى الحصول عليه من عجرود يكون سيئًا للغاية .

٤- إلى روس النواطير ، وهى عبارة عن سهل فى الجبل ، خالٍ من الماء ، ويتوقف الحجاج فيه ساعات قلائل ، ثم يمضون فى طريقهم بعد ذلك .

٥- إلى وادى تيه ، المدخل إلى صحراء التيه : يتوقف الحجاج هنا ساعات قلائل، لكنهم عندما لا يجدون الماء يواصلون المسير .

٦- إلى قلعة نخل : يرتاح الحجاج هنا بعض الوقت ، بعد مسيرتهم الاضطرارية، ويواصلون المسير طوال النهار كله وطوال الليلة التالية ، ويتزود الحجاج بالماء ويستأنفون السير فى مساء اليوم التالى .

٨- إلى العلاية : التى يمضون فيها ساعة واحدة ، لكنهم لا يجدون فيها ماء .

٩- إلى ساث العقبة، قمة سلسلة جبال العقبة الغربية: توجد هنا قرية صغيرة . والطريق إلى أعلى الجبل أو إلى أسفله شديد الوعورة. يمشى الحجاج من هذه المدة طوال ليلة كاملة، لينزلوا بعد ذلك إلى الممرات الضيقة حيث يوجد سهل وقلعة العقبة .

١٠- يبقى الحجاج طوال نهار واحد وليل واحد فى هذه المنطقة .

١٢- ظهر الحمار : أرض صخرية ، رديئة الماء ، وفيها أعداد كبيرة من النخيل .

١٣- (ليلاً) إلى شُرافة : أرض جرداء عبارة عن واد مترامى الأطراف ، خالٍ من الماء .

١٤- إلى مغاير شايب : آبار متعددة حلوة الماء، بيارات نخيل، وأشجار بين الصخور ، الأمر الذى يجعل من هذه المحطة واحدة من أفضل المحطات التى على هذا الطريق ، لكن مشكلة هذا الطريق تتمثل فى كثرة اللصوص .

١٥- إلى عيون القصَّاب ، أرض منبسطة عامرة بالنخيل والماء ، وهى تدخل ضمن أرض المويلح .

١٦- المويلح : حيث توجد مراعٍ جيدة ، وماء طيب ، وتتوقف القافلة فى هذه المحطة طوال الليل إلى مساء اليوم التالى .

١٨- إلى سِلمة ؛ مكان التزود بالماء .

١٩- إلى قلعة الزلام .

٢٠- إلى الإسطبل ، أو إن شئت فقل : إسطبل عنتر ؛ الماء لا يتوفر هنا إلا من الثقوب القليلة التى يجرى حفرها فى رمل الوادى .

٢١- إلى قلعة الوجه ، حيث يوجد الماء الجيد ؛ تتوقف القافلة فى هذه المحطة لقضاء الليل ، على أن تستأنف مسيرها فى مساء اليوم التالى .

٢٣- إلى عكرة ؛ وهذه مسيرة طويلة جداً ، ويصلون عكرة فى المساء ، والماء هنا فى عكرة من النوع نفَّاذ الرائحة ، وتتوقف القافلة هنا مدة ساعة .

٢٤- إلى الحورة ، ويسميها الناس أيضًا دار العشرين ؛ لأنها تعد المحطة العشرين بدءاً من القاهرة . والحنك توجد فيما بين عكرة والحورة ؛ والحنك عبارة عن واد خالٍ من الماء . الحورة عبارة عن أشجار كثيرة ، وكذلك عشب الأراك ، الذى يستخدمه الحجاج فى عمل المساويك ، والماء هنا من النوع السيئ ، ونوعيته غير جيدة بالمرة .

٢٥- إلى النبت .

٢٦- إلى الخضيرة ، حيث تتوقف القافلة مدة ساعة واحدة فى الصباح ، وتواصل المسير بقية النهار ، والليل كله ، ثم اليوم التالى إلى حين دخول فترة المساء .

٢٧- إلى ينبع النخل ، حيث تقضى القافلة الليل ، ثم تستأنف المسير بعد ذلك .

٢٩- إلى بدر : تبقى القافلة فى بدر فترة النهار والليل ، ثم تستأنف المسير فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، لتصل إلى القاع فى فترة العصر ، وتتوقف إلى دخول فترة المساء ، ثم تستأنف المسير بعد ذلك .

٣١- إلى رابغ .

٣٢- إلى الجرينات .

٣٣- إلى عقبة السُكَّر .

٣٤- إلى خُليص .

٣٥- إلى عصفان .

٣٦- إلى وادى فاطمة .

٣٧- إلى مكة .

سبعة وثلاثون يومًا تمضيها القافلة فى الطريق - إحدى وثلاثون ليلة تمضيها القافلة فى المسير - وسبعة أيام تمضيها القافلة فى التوقف .

الملحق رقم ٦

ملاحظات جغرافية عن الأراضي الشمالية والأراضي الشرقية في المدينة المنورة

محطات القوافل فيما بين دمشق والمدينة المنورة شهيرة ومعروفة للجميع ، وأهم منطقة على هذا الطريق ، داخل حدود الجزيرة العربية ، هي بلدة الحجر ، أو مدائن صالح حسبما يسميها بعض الناس ، والتي تبعد مسير سبعة أيام عن المدينة المنورة . الحجر ، أو مدائن صالح ، طبقًا لما هو وارد في القرآن (الذي يحتوي على سورة كاملة بعنوان الحجر) كانت تسكنها سلالة من الرجال العمالقة، الذين يطلق عليهم قوم ثمود ، الذين دمرت منازلهم بعد أن رفضوا الانصياع إلى ما كان ينادي به نبي الله صالح . يصل محيط الحجر إلى أميال عدة ، وتربتها خصبة ، وهي تروى من آبار عدة ومن نهر جارٍ ، وهنا في الحجر توجد مخيمات بدوية كثيرة وكبيرة . كان الرئيس الوهابي الكبير ، سعود ، يود بناء بلد هنا في هذا المكان ، لكن علماءه منعوه من ذلك ، قائلين إنه ليس من الدين إعمار مكان صب الله (سبحانه وتعالى) عليه غضبه . هناك جبل صغير يحيط بهذا الوادي الخصيب من ناحية الغرب ، وعلى بعد مسافة تقدر بحوالي أربعة أميال عن المنطقة التي جرت العادة أن تخيم فيها قافلة الحج .

توجد في هذا الجبل الذي يحيط ببلدة الحجر كهوف كبيرة أو مساكن محفورة في الصخر ، وفيها أشكال لرجال على شكل تماثيل منحوتة ، وأشكال لحيوانات من القبيل نفسه ، ويوجد عند مدخل كل منزل عمودين واحد منهما على كل جانب ، وأنا إن جاز لي أن أصدق شهادة البدو ، أقول إن هناك نقوشا متعددة على الأبواب ، لكني أميل إلى تصديق أن العرب ربما يكونون قد أخطئوا الزينات المنحوتة على أنها حروف . لون

صخور المنازل يميل إلى السواد ، ويحتمل أن تكون صخوراً بركانية ؛ نظراً لوجود بئر فاترة المياه بالقرب من الحجر ، وقد أدى مرضى في المدينة (المنورة) ، والضعف الذي ترتب عليه ، إلى الحيلولة بيني وبين زيارة هذا المكان ، الذي كان بوسعي أن أصل منه ، إذا ما سلكت طريقًا مستقيمًا ، إلى العقبة ، عند أقصى نقطة من نقاط الخليج الشرقي للبحر الأحمر .

البدو يطلقون على المنطقة ما بين هيدية وعويلة (وهي محطة بعيدة من محطات الحج) اسم الشفا . ومن الشفا إلى عقبة الشام ، أو بالأحرى العقبة السورية (وهي الأخرى محطة من محطات الحج) ، يطلق الناس على هذه المنطقة اسم الصفحة . هذه العقبة على وجه التحديد هي التي يمكن وصفها باعتبارها حداً للجزيرة العربية من ناحية سوريا . هنا في هذه المنطقة يوجد جبل منحدر يمتد إلى مسافة تقدر بمسير أيام عدة في اتجاه البحر الأحمر، كما يمتد شرقًا إلى داخل الصحراء ، وعلى الجانب الأيسر من هذا الجبل ، يجد السائر نفسه داخلاً إلى السهل العالي ، الذي يستمر إلى أن يصل إلى دمشق . فيما بين العقبة السورية والعقبة المصرية يوجد ممر آخر يمر خلال الجبل نفسه ، ويطلق الناس عليه اسم باب النجد (أو بالأحرى بوابة نجد) ، والسبب في ذلك أن بدو جنوب سوريا (أو أهل الشمال ، كما يحلوا لبدو الجزيرة العربية أن يُسَمُّونهم) يمرون من هذه البوابة وهم في طريقهم إلى نجد . والوهابيون ، بعد قيامهم بحملات على بدو هذه المنطقة ، يتركون في هذه المرات حراسًا أقوياء كي يؤمنوا انسحابهم .

طريق الحج المباشر من المدينة (المنورة) إلى سوريا ليس طريقًا مطروقًا حتى في زمن السلم . في بعض الأحيان يُحَمِّل بعض البدو التجار ، إبلهم باللبن ويمشون في هذا الطريق قاصدين دمشق ، لكن هذا الطريق يعج بالجماعات الجائلة من قبيل بني عمران ومن الحويطات ، الذين يعيشون في الجبل الغربي ، وينزلون في كثير من الأحيان ليسطوا على المسافرين في منطقة السهل . أشهر الطرق المطروقة في الشمال هو ذلك الطريق المتجه من المدينة المنورة إلى منطقة القصيم، الذي يزود المدينة المنورة، كما سبق أن أوضحت ، في زمن السلم ، بكل صنوف المؤن والتموينات. الطريق المؤدية

إلى القصيم تقع بين طريق الحج من ناحية والطريق المباشر المؤدى إلى الدرعية (العاصمة الوهابية) من الناحية الأخرى ، كان الناس فى المدينة المنورة يحددون لى اتجاه منطقة القصيم ، واتجاه نجد ، وكنت دائمًا أجد أن اتجاه القصيم ونجد من المدينة المنورة كان على النحو التالى :

القصيم	شرق ، $\frac{1}{2}$ شمال	من المدينة المنورة
الدرعية	شرق ، جنوب	

فيما بين طريق الحج وطريق القصيم ، هناك طريق ثالث ، يصل المدينة المنورة مباشرة بمنطقة جبل الشمر ، وهذا الطريق تزداد كثافة المرور عليه فى وقت السلم ، لكن أكثر الطرق شيوعًا، الواصل بين المدينة المنورة وجبل الشمر، هو ذلك الطريق الذى يمر بالقصيم ، الذى يزيد مسير يومين عن الطريق السابق ، لكن هذا الطريق لا يرهق الإبل مثل الطريق السابق ، نظرًا لوجود الماء بوفرة على هذا الطريق ، لكنه شحيح على الطريق الآخر .

تمر القوافل المسافرة من المدينة المنورة إلى القصيم بالمحطات التالية :

المدينة (المنورة) : تبعد مسير ساعة واحدة ، وخلف البساتين (الطريق الذى يمر بشرقى جبل أحد) توجد أرض مفتوحة يسمونها العريض ، وفيها قبر شيخ من المشايخ ، ومن فوق هذا القبر قبة ، وبالقرب من هذا القبر توجد بئر ، يسمونها بير الرشيد .

بعد ثلاث ساعات من المدينة المنورة توجد محطة الحفنه ، وفيها مجرى لأحد السيول .

بعد تسع عشرة ساعة توجد بلدة سويدر . والطريق من الحفنة إلى هذا المكان طريق صخرى ، وفيه مطلعين ، يصعب على الإبل طلوعهما ، وخاليين من الماء ، وتقع سويدر بين جبلين ، وفيها بعض الآبار مالحة الماء والمحفورة فى الأرض ،

وفيها أيضًا بعض أشجار الدوم ؛ والطريق من المدينة المنورة إلى سويدر يسكنه عرب المزينة (أم أمزينه) وهم من بنى حرب ، كما يسكنها أيضًا بعض عرب الحطيم ، وبعض من بنى صفر الذين ينتمون أيضًا إلى قبيلة حرب .

بعد أربع ساعات من سويدر يوجد واد ، فيه آبار وأشجار دوم .

بعد سبع ساعات : الحناكية ، تقع فى السهل ، وفيها برك كثيرة وآبار من الماء العذب ، وهذه الآبار محفورة فى الأرض ، والناس هنا يعثرون على الماء على عمق محدد ، وأنا أرى هنا أنقاض قلعة قديمة ، من الطراز الإسلامى ، وهنا أيضًا بعض بيارات النخيل ؛ هذا المكان المهم تزوره القبائل البدوية فى معظم الأحيان .

بعد ست ساعات : أبو خشيب . والطريق من الحناكية إلى هذا المكان يمر على سهل رملى . أبو خشيب تقع بين جبلين ، وفيها بئر عذبة الماء .

اثنتا عشرة ساعة . الحجيج ، محطة فيها الماء العذب والماء المالح .

بعد ثمانى ساعات . الموات . الطريق من الحجيج إلى هذا المكان ، رملى وفيه جبال منخفضة ، وخالٍ من الأشجار ، لكن ينمو فيه نوع من العشب يقولون له : الجريف . أرض الرعى التابعة لبنى حرب تمتد إلى أن تصل إلى الحجيج ، ثم تبدأ بعد ذلك مراعى عرب المطير . الموات فيها أعذب الماء على الطريق كله ؛ والموات بقعة رملية فى حضن جبل من الجبال .

بعد ست عشرة ساعة: الباج . الطريق من موات إلى هذا المكان خالٍ من الماء ، وهو عبارة عن سهل رملى، تحده الجبال من الجانبين ، السلسلة الجبلية التى على الجانب الأيسر يطلق الناس عليها اسم تعاية ؛ باج عبارة عن بقعة واسعة من الأرض ، فيها أشجار وأعشاب ، وفيها آبار للماء العذب والماء المالح .

بعد ثلاث ساعات : النفود، أو غرق الدسم طبقًا لنوعية التربة ؛ والنفود هذه عبارة عن سهل رملى عميق ، يقدر طوله بمسير أربع ساعات ، يصبح بعدها قليل الرمال وتزداد وعورته نظرًا لأنه مغطى بالأحجار الصغيرة .

بعد أربع عشرة ساعة : الجرادوية ؛ عبارة عن سهل فيه آبار للماء العذب ، والمسافة من هذه المنطقة حوالى سبع ساعات ، إلى بلدة دات ، أولى بلدات القصيم .

المسافة من دات إلى الرَّس ، إحدى البلدان الرئيسية فى القصيم ، تقدر بما يتردد بمسير يتراوح بين أربع ساعات وخمس ساعات ، ومن الرس إلى مكان يدعى خبارة تقدر المسافة بحوالى خمس ساعات ، ومن الخبارة إلى شبيبة ، تقدر المسافة بأربع ساعات .

فى ضوء الرحلات الليلية عند البدو نجد أن المائة ساعة تساوى عشر رحلات نهارية أو إحدى عشرة رحلة . الرحلة المشار إليها هنا هى الرحلة التى قام بها جيش طوسون باشا أثناء الليل . ثلاثة أيام من المدينة المنورة إلى الحناكية ، وثمانية أيام من الحناكية إلى دات ، يضاف إلى ذلك أن الاسم " نجد " ، الذى معناه الأرض المرتفعة ، يطلق على ذلك الجزء من البلاد المقابل لتهامة ، أو إن شئت فقل " الأراضى المنخفضة " ، أو بالأحرى ساحل البحر . ويبدو أن تهامة بيضاوية الشكل وأنها تمتد مسافة ثلاث رحلات أو أربع من الغرب إلى الشرق ، وأن عرضها يقدر بحوالى رحلتين من الجنوب إلى الشمال؛ داخل هذه المساحة يوجد ما يزيد على ست وعشرين بلدة أو قرية صغيرة، مأهولة تمامًا بالسكان، الذين يعيشون فى مناطق منزرعة ، يجرى ريها من آبار عدة . والمدينة الرئيسية هنا هى بريدة ، التى يقيم فيها شيخ القصيم ، ذلك الرجل كبير السن الذى يسمونه الحجيلان ، الذى كان عدواً للوهابيين فى يوم من الأيام ، ولكنه حاليًا يعتنق مذهبهم . المنطقة المحيطة بالرس هى التى تنتج أكبر كمية من القمح ، كما أن ذلك الجزء من القصيم المحيط بدات والرس هو الأقرب إلى المدينة المنورة . فى زمن السلم تصل القوافل بصورة منتظمة كل شهر إلى المدينة المنورة قادمة من الرس ، وقد عثر جيش طوسون باشا على كميات تموينية وفيرة فى قرى القصيم التى استولى عليها .

أهم مناطق القصيم هى عنيزة ، التى يقال إنها تتساوى من حيث الحجم مع أسيوط فى صعيد مصر ، والتى تحتوى - فى ضوء التقديرات الفرنسية - على حوالى ثلاثة آلاف منزل. وعنيزة فيها أسواق للعاديات الشرقية، ويسكنها تجار عرب محترمون. أما فيما يتعلق بمدن القصيم الأخرى فسوف أورد ما يلى : الشنان ، وبلقاء ، والحشاشية ، والهلالية ، والبكيرية ، وبطاح ، والنبهانية ، والشيبة ، وعيون ، وقوار ، والمذنب .

هناك قبائل صغيرة من العنيز ، ومن عتيبة (الذى يعد مقرها الرئيسى فى جبال الحجاز التى تسكنها قبيلة حرب) ، ومن المطير ، وآخرون ، كل أولئك يخيمون طوال العام فى سهول القصيم ، ممتازة المرعى .

فيما بين القصيم والدرعية ، عاصمة نجد ، أو بالأحرى المنطقة الوسطى ، التى هى صحراء فى معظمها ، نجد أن الناس يطلقون على هذه المنطقة اسم الوشم ، والمسافة من أقصى الحد الشرقى لمنطقة القصيم إلى الدرعية تقدر بمسير خمسة أيام. وآخر مكان فى القصيم هو المذنب ، من هذا الجانب ، ثم يبدأ بعد ذلك وادى السرّ ، الذى هو واد رملى واسع عامر بالمرعى ، ويصل عرضه إلى أيام عدة فى اتجاه الدرعية من خلال منطقة الوشم .

يطلق الناس على نجد ، فى المنطقة القريبة من الدرعية ، اسم العارض ، التى كانت مستقلة ، فى يوم من الأيام ، عن منطقة نجد ، لكنها الآن أصبحت جزءاً من نجد ، العارض أقل خصوبة من القصيم ، التى تحصل العارض منها على بعض مؤنها وتمويناتها . المدينة الرئيسية فى نجد هى الدرعية ، التى تعد مكاناً مهماً منذ زمن بعيد، لكنها توسعت توسعاً كبيراً بعد أن أصبحت عاصمة لنجد ، أو بالأحرى السلطة الوهابية والمذهب الوهابى . كان الناس دوماً يحددون لى اتجاه الدرعية فى معظم الأحيان ، وقد اكتشفت أن الدرعية تقع فى الاتجاه الشرقى من المدينة المنورة ، ثم الانحراف جنوبياً (لم يجر حساب التباين فى هذا الموقع) ، أما القصيم فهى تقع فى الاتجاه شرق شمال لمن يكون فى المدينة المنورة ؛ تقع الدِّرعية فى واد توجد مداخله

ومخارجه في الناحيتين الشمالية والجنوبية ، وهذه المداخل والمخارج ضيقة جداً ؛ إذ لا تسمح هذه المداخل أو المخارج سوى بمرور جمل واحد في آن واحد . منازل الدّرعية (والكثير منها مبنى من الحجر) مقامة على منحدرات الجبلين ، نظراً لأن الوادى نفسه شديد الضيق في سائر أنحائه ، ومدينة الدّرعية ليست مسورة ، ويمكن تقدير عدد سكانها ، في ضوء أقوال البدو بأن هذه المدينة تستطيع توفير ألف رجل مسلح ببنادق فتيلية ، لينضموا إلى قوات الرئيس الوهابى ؛ سكان الدّرعية عبارة عن تركيبة من قبائل مختلفة ، وبخاصة قبيلة المقرن ، التى هى فرع من المساليخ ، الذين هم جزء من السلالة العنزية الكبيرة . كل سكان نجد يرجعون أصولهم إلى قبيلة من القبائل البدوية ؛ من هنا نجد أن أهل الرس يدّعون أنهم من بنى يام ، الذين يسكنون نجران في الوقت الحالى في اليمن ، أما القبيلة الأصغر وهى بنى لام (الذين تربطهم قرابة بمن يحملون ذلك الاسم على نهر دجلة، لكنهم على العكس منهم ، ليسوا من أتباع "سيدنا" على)، يزاد على ذلك أن قبيلة السُّهو تسكن منطقة العارض ، ويندر أن تتجاوز حدود هذه المنطقة . تحصل الدّرعية على الماء من الآبار . وقد اكتشف الرئيس الوهابى ، ابن سعود ، عيناً للماء خلف هذا المنزل الذى بناه ، وهذا المنزل يقع فوق الجبل ، على بعد مسير حوالى عشر دقائق من مدينة الدرعية ، والمنزل واسع وفسيح لكنه خال من الأجنحة الفخمة ؛ القصر يضم أجنحة خاصة لكل المتزوجين من أعضاء الأسرة ، كما يحتوى القصر أيضاً على غرف كثيرة مخصصة للضيوف ، الذين يعج القصر بهم طول الوقت ؛ وسبب ذلك أن رؤساء القبائل الذين يأتون إلى الدّرعية لإنجاز بعض الأعمال الرسمية يحلون ضيوفاً على منزل الشيخ الكبير . الدّرعية ليس فيها لوكاندات عامة أو خانات من أى نوع ، الأمر الذى يجعل الغرباء يحمّلون أنفسهم على سكان الدرعية ، ومعروف أن أهل الدّرعية كرماء . المناطق القريبة جداً من الدّرعية قاحلة وجرداء، ليس فيها سوى بعض النخيل . الدّرعية تحصل على مؤنها وتموينلتها من ضُرمة بصفة أساسية ، وضرمة عبارة عن قرية كبيرة مزدحمة بالسكان ، تبعد مسير يوم واحد في اتجاه الشرق ، أو بالأحرى الشمال الشرقى ، العامر بالحدائق والبساتين ، التى يجرى ريها من آبار غزيرة المياه .

تقدر المسافة من الدِّرعية إلى مكة (المكرمة) بما بين إحدى عشرة رحلة واثنتى عشرة رحلة من رحلات القوافل اليومية. وعلى بعد مسير حوالى ثلاثة أيام خلف الدِّرعية توجد بعض الأراضى المنزرعة، وبعض المستوطنات الصغيرة التى يقيم فيها العرب ، أما بقية الطريق فهى عبارة عن طريق يمر عبر الصحراء إلى أن يصل إلى وادى زيمة ، التى تبعد مسير يومين عن مكة ، والمسافة من الرس (فى القصيم) إلى مكة تحسب بحوالى رحلة مقدارها اثنا عشر يومًا . هذا الطريق الأخير يتوفر فيه الماء بكميات أكبر من الطريق السابق ، وهو أيضًا يمر بوادى زيمة .

هناك طريق مباشر يمتد من نجد إلى الحجاز (وأنا أستعمل كلمة الحجاز هنا بدلالتها البدوية التى تعنى الجبال التى فى جنوبى الطائف) ، ثم إلى بيشة ثم إلى بلاد اليمن ، هذا الطريق يمر بقرية الدِّرية ، على الطرف الجنوبى لمنطقة نجد ، على الطريق الرئيسى الواصل بين القصيم ومكة ، أما الطريق من الدِّرية إلى بيشة فيقع على بعد مسير أربع ساعات أو خمس شرقى مكة . وفيما بين الدِّرية وتربة (سالفة الذكر) يوجد مرعى ، فيه آبار كثيرة ، يسمونه البقَّارة ، التى هى محطة شهيرة عند البدو سكان هذه المناطق . هذه البقارة تتبع قبيلة القريشات ، الذين هم فرع من أفرع عرب السبيع الذين يسكنون منطقة رانية .

نجد شهيرة فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بمراعيها الممتازة ، التى تربو وتزداد عقب سقوط الأمطار على جبالها . سهول نجد ترتادها أعداد غفيرة من البدو ، الذين يبقون فيها طوال الجزء الأكبر من العام ، ويشترون القمح والشعير من السكان . وخلال موسم الأمطار يتراجع أولئك البدو نحو الداخل فى الصحراء ؛ حيث يبقون هناك إلى أن تأتى ماشيتهم على مياه المطر المتجمعة فى الأماكن المجوفة . قبل ظهور الوهابيين ككيان كانت مراعى نجد كلها ملكًا للعنوز ، الذين سبقت الإشارة إلى أنهم أكبر قبائل البدو فى الجزيرة العربية . أعداد كبيرة من العنوز تتردد على منطقة نجد فى فصل الربيع ، وتبعد القبائل الأخرى عن هذه المراعى ، فيما عدا قبيلة المطير التى تسكن المنطقة الصحراوية الواقعة بين القصيم والمدينة المنورة ؛ هؤلاء المطير زادوا من

قوتهم عن طريق التحالف مع عرب القحطان ، في حين كان بنو شامان يساعدون العنوز ؛ هاتان القبيلتان بينهما عداء مستحكم ، ينتج عنه سفك الكثير من الدماء في فصل الربيع ، الأمر الذي كان يؤدي إلى وقف التواصل التجاري مع الحجاز ، وكان الطرفان يفرضان إتاوة على سكان نجد المستقرين ، لكن الوهابيين ألغوا هذه الإتاوة ، وعملوا على المصالحة بين الطرفين ، وفتحوا مراعي نجد أمام القبائل الوهابية التي تود التردد عليها ؛ كان الرئيس الوهابي بعد أن ألغى الإتاوة المفروضة من قبل العنوز والمطير ، قد فرض على سكان نجد المستقرين إتاوة خاصة به هو شخصياً ، وقد أكد لي واحد من البدو أن حوالي عشرين مخيماً من مختلف القبائل في أنحاء مختلفة خلال مسير يوم واحد – هذا هو حال الأمن الذي يرسيه الرئيس الوهابي الذي لا يتساهل مطلقاً في معاملة اللصوص .

أنتجت مراعي نجد الجيدة سلالة ممتازة من الإبل ، التي يكثر وجودها هنا عن أي مكان آخر مثل هذه المساحة . العرب يطلقون على نجد اسم أم البل أو أن شئت فقل : أم الإبل ، ويلجأون إلى نجد من سائر أنحاء الجزيرة العربية أملاً في الحصول على سلالاتها ، ونجد تمد الحجاز ، وسوريا وكذلك اليمن بالإبل ، التي باع الواحد منها بحوالي عشرة دولارات في نجد . في نجد أيضاً توجد سلالة ممتازة من الخيول، هذه السلالة شهيرة إلى حد أن الناس يسمونها خيل نجد . لكن القوة الوهابية أدت إلى نقص أعداد هذه السلالة ؛ وسبب ذلك أن كثيراً من العرب باعوا أفضل خيولهم في مناطق أجنبية ، مخافة الانصياع إلى الرئيس الوهابي ، الذي درج في معظم الأحيان على طلب الخيالة أثناء الحرب .

وعلى الرغم من ذلك نجد أن نجد تتعرض للقحط والجفاف في معظم الأحيان ، بسبب عدم سقوط الأمطار ، وبالتالي قلة العشب والمرعى ؛ الأمر الذي يكون له تأثيره على البدو ، الذين نادرا ما يتوقعون أكثر من ثلاث سنوات إلى أربع سنوات متتالية من الوفرة والرخاء، ومع ذلك لا تحدث المجاعات إلا كل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. والمجاعة عندما تحدث تكون مصحوبة بالأوبئة التي من قبيل الطاعون ، والتي تكون

على شكل نوبات عنيفة من الحمى (وبلا أورام في الغدة الليمفاوية) التي تزهق كثيراً من الأرواح ؛ نجْد تسكنها قبائل صغيرة من البدو ، الذين لا يغادرونها مطلقًا ، ويتزوج البدو المستقرون منهم وينتقلون فى معظم الأحيان كتجار فى كل من دمشق ، وبغداد والمدينة المنورة، ومكة واليمن ، وأهل نجد يصدرون الإبل والعباءات الصوفية ، التى تصنع أنواعها الممتازة في منطقة الأحساء ، ويصلهم من بغداد الأرز (الذى ينتج على ضفتى نهر دجلة) ، والملبوسات ، وبخاصة الكوفيات أو الغتر المقلمة باللونين الأخضر والأصفر والمصنوعة من القطن ، أو الصوف أو الحرير ؛ هذه الغتر يرتديها البدو فوق طواقيهم . ومن مكة يحصل أهل نجد على البن ، والعقاقير والعطور ، التى يستخدمونها بكثرة ، وبخاصة ذلك النوع الذى يسمونه العريز الذى يأتيهم من المخا. وبشكل عام هناك روح تجارية تسرى بين أهل نجد ، التى تشتهر بالتجار الأثرياء حسنى السمعة والأمانة ، وذلك على العكس من السواد الأعظم من التجار الشرقيين . السكان المستقرون هنا مسلحون ببنادق فتيلية وهم يشكلون أفضل الفئات في جنود المشاة الوهابيين ، وهم عادة ينجحون فى مواجهة البدو الذين يغيرون على محاصيلهم ومراعيهم ؛ ونظراً للعثور على ملح البارود فى نجد فإن كل أسرة تقوم بصناعة احتياجاتها السنوية من البارود .

توجد في نجد آبار قديمة كثيرة ، مبطنة بالحجر ، ويقول السكان إن الذى حفر هذه الآبار هم جنس من المردة القدامى. يتردد عمق البئر هنا بين خمسة وعشرين وثلاثين قامة ، وهى مملوكة لأفراد بعينهم ، يحصلون على مساهمات محددة من القبائل التى يزودون ماشيتها بالماء . هنا أيضًا بعض بقايا المبانى القديمة ، كبيرة الهياكل والأبعاد ، لكنها فى حالة دمار كامل ؛ هذه البنايات القديمة تعزى إلى قبلية عربية بدائية (أو ربما خزافية) يسمونها بنى تامور ، الذين يرى الناس بعض آثارهم فى الصحراء السورية فى السهول الشرقية فى الحوران .

توجد في نجد ، من سائر قبائل الجزيرة العربية كلها ، مجموعة صغيرة من العائلات التى يلجأ الناس إليها طلبا للأمن من أعدائهم ؛ نجد ليست مجرد مقر

للحكومة الوهابية ، لكنها تعد أهم المناطق الداخلية فى الجزيرة العربية ، وسبب ذلك هو خصوبة نجد وعدد سكانها ، ووضعها المركزى المهم وسهولة الاتصال بينها وبين المناطق الأخرى . ونحن إن أردنا أن نتعرف على البدو تعرفا حقيقيًا ، فإن ذلك يحتم دراسة هؤلاء البدو فى نجد ، الذين لم تتغير سلوكياتهم بسبب الغزو ، ولا يزالون يحتفظون بتميزهم الخاص بهم ؛ هؤلاء البدو لم يتأثروا مطلقًا أو يتلوثوا بفعل تدفق الأغراب عليهم ، ومع ذلك لا يمر بنجد قوافل أخرى غير قافلة الحج القادمة من بغداد . وأنا لهذا السبب أعتبر نجد والجبال التى بين الطائف وصنعاء أهم أجزاء الجزيرة العربية ، باعتبارها هى التى تثير الكثير من التساؤلات لدى المسافر أو الرحال ، دونًا عن سائر أنحاء الجزيرة العربية الأخرى .

اعتباراً من الدِّرعية ، وفى اتجاه الشرق صوب الخليج الفارسى يطلق الناس على هذه المنطقة اسم سدير ، وهى تمتد أيضًا على حدود منطقة الأحساء ، التى تبعد مسير ستة أيام عن الدرعية، منها ثلاثة أيام بلا ماء. منطقة الأحساء، شهيرة بكثرة آبارها ، وهى تمتد مسافة يقدر طولها بمسير يومين محاذية لساحل البحر الذى تبعد عنه حوالى خمسين ميلا أو ستين ميلا نحو الداخل. يصل عرض الأحساء إلى ما يقرب من خمسة وثلاثين ميلا . وفرة الماء تمكن العرب من زراعة البرسيم ، الذى يستخدم فى تغذية أفضل الخيول . والرئيس الوهابى يرسل خيوله كل موسم إلى هذا المكان .

مدينة الأحساء (التى بناها القرامطة فى القرن العاشر) مزدحمة بالسكان ، فيها آبار وأبراج ، وقد جرى تحصينها دفاعيًا فى وجه باشا بغداد فى عام ١٧٩٧م وهى تعد معقلا مهما من معاقل الوهابيين ، يزاد على ذلك أن رئيس الوهابيين يحصل من الأحساء على القسم الأكبر من دخله . الميناء البحرى لها هو العقير التى هى عبارة عن بلدة صغيرة على الخليج الفارسى، ويتردد عليها عرب مسقط والقواسم . والعباءات الصوفية التى تصنع فى الأحساء عليها طلب كبير فى سائر أنحاء الجزيرة العربية وبلاد الرافدين ، وتباع الواحدة منها ما بين عشر دولارات وخمسين دولارًا للعباءة الواحدة .

منطقة الأحساء تحتوى على ما يقرب من عشرين قرية ، والبدو الذين يسكنون الأحساء هم من بنى خالد إحدى القبائل المنتشرة فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وعرب البشر ، وقبيلة من العنوز ، وقبيلة من الزاب . هنا فى الإحساء ، كما هو الحال فى نجد ، يوجد بعض من بنى الحسين ، وهى قبيلة تنتمى إلى المذهب الشيعى الفارسى .

يكثر الماء فيما بين بلدتى الأحساء والبصرة، والطريق الواصل من الدرعية إلى بغداد يمر بمنطقتى القصيم وجبل الشمر ، متجهًا صوب الغرب ؛ نظراً لأن الطريق الذى على شكل خط مستقيم يكون خاليًا من الماء فى الصحراء . بعد أن وصلنا قوار ، تلك البلدة الصغيرة على حدود القصيم ، فى اتجاه جبل الشمر (والتى تبعد مسير ثمانية أيام عن الدرعية) ، يصل المسافر بعد مسير يوم إلى قحفة إحدى قرى جبل الشمر، ويستمر الطريق مدة يومين آخرين فى الصحراء المنزرعة من هذه المنطقة إلى أن يصل إلى بئر شبيكة التى تحد الشمر من هذا الجانب ، والطريق من هنا إلى بلدة لين يستغرق مسير يوم واحد ؛ ولين هذه شهيرة بتعدد آبارها ، التى توفر الماء للجيش الوهابى كله ، وعرب العنزة أو أن شئت فقل : العنوز كثيرى التردد على هذا المكان ، وفيما بين نجد ونهر الفرات توجد بئر فى الصحراء يحصل الناس منها على الكبريت اللازم لصناعة البارود فى نجد .

بعد رحلة تستمر ثلاثة أيام من قرية لين ، فى صحراء خالية من الماء ، يصل المسافر إلى بئر شبكة ، وبعد مسير يوم واحد من شبكة هذه ، يصل المسافر إلى مدينة مشهد على . هذا هو الطريق الذى يسلكه المسافرون فى فصل الصيف، أما فى الشتاء وعندما يتجمع ماء المطر على شكل برك على الطريق، يستخدم العرب طريق بئر الشبكة الذى يصلون إليه من طريق يطلقون عليه اسم درب بريضة ، الذى هو طريق حج الخلفاء القديم الذى كانوا يسلكونه عندما يذهبون لأداء فريضة الحج . هنا على هذا الطريق توجد خزانات كثيرة الماء ، كلها مبنية من الحجر، وقد أمر بإنشائها الخلفاء كيما توفر الماء للحجاج ، ويمر الطريق على بلدة مشهد على بطريقة مباشرة متجهًا إلى جبل الشمر، دون أن يلمس قرية لين ومن مشهد على إلى جبل الشمر تقدر المسافة

بمسير ثمانية أيام ، يزاد على ذلك أن المسافر من بغداد إلى نجد يمر دومًا على قبر (سيدنا) على؛ هذا الطريق يعد واحداً من الطرق التى يسلكها دوما المسافرون وبخاصة عرب العجيل البغداديين، الذين يجيء القسم الأكبر منهم من نجد ، التى يزورونها فى أغلب الأحيان باعتبارهم باعة جائلين . يندرج العرب البدو المستقرين فى أحياء بغداد تحت اسم العجيل ، العجيل كانت في يوم من الأيام منطقة جبل الشمر، أو بالأحرى الجبل كما يحلو للناس أن يسمونها ، يمتد أيضًا الطريق الواصل بين نجد ودمشق . هذا الطريق عبارة عن رقعة من الأرض الجبلية فى الشمال الشرقى من منطقة القصيم، وتبدأ من اتجاه شرق شمال شرق من المدينة المنورة . سكان هذه المنطقة هم بني الشمر الأقوياء ، تلك القبيلة التى نزح البعض منها إلى بلاد الرافدين. وشيخ الشمر الذى يقال له: ابن على ، من المؤيدين الأشداء للوهابيين والحكم الوهابى، ويقال إن بنى الشمر بإمكانهم تجميع سبعة آلاف بندقية فتيلية ؛ والشمر شأنهم شأن جيرانهم فى نجد يزرعون النخيل باستخدام الماء الذى يجلبونه مـن الآبار بواسطة دلاء مصنوعة من الجلد ، وتعد بلدة المستجدة واحدة من البلدان الرئيسية في منطقة الشمر ، والمدينة الرئيسية فى جبل الشمر هى حائل أما بلدة قفار فتجيء فى المرتبة الثانية بعد حائل .

والطريق من جبل الشمر إلى دمشق يمر بمنطقة الجوف التى تبعد عن جبل الشمر مسافة تقدر بمسير خمسة أيام وهو عامر بالرمال العميقة ، وخالٍ من الماء اللهم باستثناء الماء الذى يجرى الحصول عليه من بئر شقيق ، الذى يبعد مسير أربعة أيام عن جبل الشمر ، ومسير يوم واحد عن الجوف ، وأنا أرى أنه ليست هناك محطات أخرى ، فى هذه المنطقة خالية من الماء ، وبخاصة المناطق التى تتردد عليها القوافل بصورة مستمرة ؛ ومن أمثلة ذلك المسافة التى تقدر بمسير أربعة أيام وتفصل جبل الشمر عن الشقيق ، وبئر الشقيق مملوكة للعنوز من فرع الروالة ، ومن يريد السفر من جنوب سوريا إلى نجد ، يتعين عليه المرور بهذه المنطقة، واعتباراً من الجوف واتجاهاً صوب الجنوب تخلو المنطقة من الماء ، هذا الاتجاه صوب الجنوب يوصل فى نهاية المطاف إلى كل من خيبر والمدينة المنورة ، من هنا يصبح الطريق غير مطروق . والعرب

المسافرون من الجوف إلى المدينة المنورة يتعين عليهم المرور على قرية (بئر) الشقيق والشمر ، والقصيم ، أى أنهم يسلكون طريقا دائريًا .

جاء مقامى فى المدينة المنورة ، فى وقت كان فيه بدو الشمال وبدو الجنوب متعادين ولا يصلون المدينة أو يدخلونها ، الأمر الذى حال بينى وبين الحصول على المزيد من المعلومات التى تتوفر أكثر فى زمن السلم . فى مثل هذا الظرف يتكرر وصول القوافل الصغيرة التى تأتى من خيبر وتيماء إلى المدينة المنورة ، وخيبر شهيرة فى التاريخ الإسلامى العربى ، باعتبارها كانت مسرحًا للحروب الإسلامية الباكرة بقيادة محمد (ﷺ) وعلىٍّ ومن جاءوا بعدهما . ويقال إن خيبر تبعد مسير أربعة أيام أو خمسة (البعض يقولون ثلاثة أيام فقط) عن المدينة المنورة ، والطريق يمر بين طريق الحج الواصل إلى دمشق والطريق المؤدى إلى القصيم . عرب خيبر ، فى زمن السلم يجيئون بتمورهم إلى المدنية المنورة ليبيعونها ، ويقال إن عرب خيبر أكثر سمرة عن البدو والمحيطين بهم ؛ قد يكون ذلك ناتجًا عن الحرارة الشديدة بسبب الموقع المنخفض لهذا المكان . تبعد خيبر مسافة مسير ست ساعات عن طريق الحج المتجه إلى سوريا ، وهى تقع من وجهة نظرى فى الناحية الشمالية الشرقية من المدينة المنورة . يبدو أنها كانت من قبل جزءًا من ممتلكات شريف مكة ، وعندما جرى تنصيب الشريف حسان أبو نيمة فى عام ٩٦٦هـ ، كانت أراضيه ، على حد قول العصمى ، تشمل مكة ، والطائف والقنفذة، وحالى ، وينبع، والمدينة، وكذلك خيبر. سكان خيبر الحاليين هم ولد على ، وولد على إحدى قبائل العنزة ، ولديها حوالى ثلاثمائة خيال ، وقد تميز شيخ هذه القبيلة ، والذى يسمونه العلايدة فى الحرب الوهابية . هناك فرع آخر من قبيلة ولد على يسكن الصحارى القريبة من الحوران، جنوبى دمشق .

توجد فى خيبر أيضًا مخيمات لأولاد سليمان ؛ إحدى قبائل عرب البشر (الذين هم ايضًا من العنزة)، لكن ولد على هم أصحاب الأرض وبيارات النخيل .

اختفت تمامًا المستوطنة التى كان يسكنها يهود خيبر، وأهل مكة يعتقدون أن أحفاد هؤلاء اليهود لا يزالون يعيشون هناك ، ويمارسون طقوس دينهم ، لكن بناء على

التحرى الدقيق الذى قمت به فى المدينة المنورة وجدت أن هذه الفكرة لا أساس لها ، ولا يوجد يهودى واحد فى شمالى الجزيرة العربية ، وبخاصة الجزء الصحراوى . اليهود الذين عاشوا فى الجزيرة العربية كانوا ينتمون إلى بنى قريظة ؛ لقد جاءوا إلى المدينة المنورة بعد استيلاء نبوخذنصر على القدس ؛ كان ذلك عندما قام كرب ابن حسان الحميرى (أحد ملوك توبة فى اليمن ، الذين استطاعوا وضع أيديهم على مكة) بغزوة فى اتجاه المدينة المنورة ، التى حاصرها ، وعند عودته من ذلك الحصار أحضر معه من اليمن بعضاً من بنى قريظة . كان أولئك هم أول اليهود الذين استقروا فى المدينة ، ولا يزال أحفادهم يعيشون فى صنعاء (راجع تاريخ السمهودى عن المدينة المنورة) .

تبعد بلدة تيماء الصغيرة مسير ثلاثة أيام عن خيبر ولكنها تبعد مسير أيام كثيرة عن الحجر ، فى اتجاه الشرق ، وتيماء يسكنها عرب العنزة وتكثر فيها التمور ، وهى لا تنتمى إلى بغداد أو القصيم ، وتيماء شأنها شأن خيبر كانت مستوطنة بدوية مستقلة قبل الحكم الوهابى . هذه البلدان الصغيرة الموجودة داخل الصحراء العربية ، تشبه الواحات التى فى الصحراء الليبية ، وهى تعد نقاط اتصال بين البدو والمناطق الزراعية المجاورة لها . سكان هذه البلدات الصغيرة من البدو ، يعملون بالزراعة ، وفى أغلب الأحيان يقومون بدور التجار الصغار الذين يبيعون لإخوانهم البدو الجائلين فى الصحراء ، البضائع التى يشترونها من سوريا أو بلدان الجزيرة العربية. إذا ما بدأنا من ناحية الشمال بمدينة الدير على نهر الفرات ، نستطيع تتبع خط من تلك الواحات ، التى هى بمثابة نقاط أو مواقع متقدمة نحو الطريق المتجه جنوبا إلى أن يصل المدينة المنورة . والدير ، والسخنة ، وتدمر ، والجوف ، ومعان ، وعولا وخيبر وتيمة ، كلها من البلدات التى يسكنها البدو ، الذين يعملون بالزراعة ويعدون بمثابة طبقة متوسطة بين البدو والفلاحين ، هذه المواقع تزداد أهميتها عند أولئك الذين يودون إخضاع البدو أو كبح جماحهم على أقل تقدير ، وقد تزداد أيضاً أهمية هذه المواقع فى جعلها وسائل لبث المشاعر الطيبة بين البدو عن سكان كل من سوريا والحجاز .

الملحق رقم ٧

حاشية لوصف بيت الله أو المسجد المكى (راجع ص ٢٩٥ الجزء الأول)

الشرع يحرم إهدار الدماء فى المسجد الحرام أو فى مكة كلها ، كما يحرم الشرع أيضًا قطع الأشجار أو الصيد . الناس جميعًا يحترمون ذلك كله ويجلونه ، ولذلك يلوذ كثير من المجرمين بالمسجد الحرام ، ومع ذلك قد لا تراعى هذه القدسية فى بعض الأحيان ، ولقد رأيت بنفسى جنود محمد على باشا وهم يطاردون هاربًا ويمسكون به ويخرجونه من غطاء الكعبة الذى تعلق به ، وتاريخ الكعبة يروى أمثلة كثيرة لرجال قتلوا فى المسجد من بينهم شريف مكة جازان بن بركات ، الذى قتل أثناء الطواف حول الكعبة . دارت معارك شديدة (مثلما حدث فى عام ٨١٧ هـ) داخل المسجد الحرام ؛ دخل الخيالة مرات عدة إلى الحرم وأمضوا فيه الليل ، ومن هنا يمكن القول إن هذا التحريم عديم الجدوى فى مثل تلك الحالات ، التى من قبيل حماية الهاربين من الظالمين ، أما فيما يتعلق بقدسية الأرض ، فهى مجرد اسم ، ويبدو أنها لم تحظ بالاحترام المطلوب فى عصور الإسلام الأولى . يتحدث ثلاثة مؤرخين عن الأرض المقدسة حديثًا متباينًا ، وأنا أحتفظ بمؤلفات هؤلاء المؤرخين الثلاثة ، وهم أنفسهم مكيون . الأئمة الأربعة ، أو مؤسسو المذاهب الأربعة يختلفون أيضًا حول موضوع الأرض المقدسة؛ مسألة الأرض المقدسة هذه تكاد تكون منسية فى الوقت الراهن، وقد عبرها المسيحيون الكفار من جميع الاتجاهات ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يعملون فى جيش محمد على باشا ، أو مع طوسون باشا ، الذين زاروا جبل عرفات على الرغم من عدم دخولهم مكة . وعلى العكس مما قال محمد ﷺ يجرى حاليا قطع الأخشاب من

الجبال الواقعة خلف مكة ولا يمنع أحد من الصيد فى الوديان القريبة من مكة . سهل عرفة وحده هو الذى يحظى بالاحترام كله ، ولا يجرى فيه قطع الأشجار مطلقًا . المنطقة المقدسة ، أو بالأحرى ما يسمونه حدود الحرم ، ويقال إنها فى الوقت الحالى داخلة ضمن المناطق التى يجرى عندها ارتداء ملابس الإحرام قبل الدخول إلى مكة ، وهذه المناطق هى : الهدا فى الشرق ، وعصفان فى الشمال وذات عرق فى الجنوب ، والوادى المحرم فى الشرق . وقد أورد على بك العباسى هذه المنطقة ، فى خريطته ، باعتبارها منطقة خاصة ، أو أرضًا مقدسة تسمى بلاد الحرمين ، لكن واقع الأمر أنه لا توجد منطقة من هذا القبيل ، أما العنوان بلاد الحرمين فيطلق لا على هذا المكان المقدس ، وإنما يطلق أيضًا على أراضى مكة والمدينة المنورة .

الملحق رقم ٨

ملاحظات فقهية

كثير من المصطلحات العربية التى تبددت مع الزمن وهجرها الناس فى بعض الأماكن الأخرى ، والتى لا توجد إلا فى كتب المؤلفين العظام ، وكثير أيضًا من التعبيرات القرآنية ، التى لم تعد تستعمل فى بعض الأماكن ، كل هذه المصطلحات والتعبيرات مازالت تتردد هنا فى مكة فى حديث عامة الناس ، الذين مازالوا يحتفظون ، ولو بصورة جزئية ، بلغة قريش الرئيسية . بعض القبائل البدوية المجاورة لمكة وبخاصة عرب فالم وعرب هذيل يستعملون لهجة أكثر نقاءً أو خالية من المفردات المحلية والأخطاء النحوية . وكنت أحضر أحيانًا ، المحاضرات التى كان يلقيها شيخ من شيوخ المسجد الحرام ؛ هذا الشيخ تضاعفت (لغته) الوطنية الممتازة حسنًا على حسن بأن أضاف إليها ذلك الذى درسه وتعلمه فى القاهرة ، وأنا لم يحدث أن استمعت إلى لغة عربية أجمل من هذه اللغة ؛ كان ذلك الشيخ يتباهى بنطقه لحروف العلة ، لا فى القراءة وحسب ، وإنما أيضًا فى حديثه المعتاد ، وكانت كل كلمة ينطق بها كما لو كانت نقية نقاء فريدا .

يجب أن نعزى التلوث الذى أصاب لهجة المكيين إذا ما قارناها بلهجة البدو المحيطين بمكة ، إلى تلك التجارة الواسعة التى كان يمارسها المكيون مع الأجانب ، ومع ذلك لا تزال تلك اللهجة المكية تشكل عند المواطنين والمصريين نموذجا من نماذج الرقة والعذوبة . من حيث النطق نجد المكيين يقلدون النقاء البدوى ؛ أى أنهم يخرجون الحروف كل حسب الصوت الدقيق والمضبوط المخصص له ؛ فهم على سبيل المثال

ينطقون " الكاف العربية " مثل صوت K فى اللغة الإنجليزية ، وينطقون "القاف" العربية مثل صوت g الإنجليزى (فى كلمة going الدالة على " الذهاب") ، على الرغم من أنهم فى الخدمات العامة للمسجد الحرام ، وفى قراءة القرآن يعبرون عن صوت "القاف" بصوت حلقى فى سوريا ، ويقرون ذلك على أنه نطق صحيح .

صوت "الجيم" العربى ينطقونه كما هو فى الكلمة (جن)، لكن فى الجبال الجنوبية ، وفى المناطق الداخلية من اليمن ينطقونه "جيم" ، كما هو الحال فى القاهرة ، يضاف إلى ذلك أن صوت "الألف" ، الذى يهمله الناس فى أغلب الأحيان فى الأماكن الأخرى ، ينطقه الناس هنا نطقًا صحيحًا ويلتزمون بذلك النطق تمامًا . الخطأ الوحيد فى النطق المكى ، هو أن أهل مكة يشتركون مع البدو ، وبخاصة فى الكلمات المكونة من مقطعين، فى التركيز على المقطع الثانى من الكلمة؛ ولذلك فهم يقولون (ذهب) (سفر)، (لحم)، (مطر) ، (صبى) ... إلخ .

اليمنيون الذين شاهدتهم فى مكة كانوا ينطقون ويتكلمون اللغة العربية بطريقة سليمة مثل المكيين تمامًا ، أما أولئك الذين من صنعاء فيتكلمون كلامًا سليمًا لكن لهجتهم جافة وخشنة ، لكن اللهجة الحجازية ، شأنها شأن لهجة البدو ، تكون رقيقة وعذبة فى ضوء ما تسمح به اللغة .

يقال إن اللهجات العربية تختلف اختلافًا كبيرًا بعضها عن بعض ، وهذا هو ميكائيلز ، وهو أحد المستشرقين العلميين ، يؤكد أن لهجة أهل الحجاز تختلف عن لهجة المغربيين اختلاف اللهجة اللاتينية عن اللهجة الإيطالية ، وهذا واحد من الأشراف النبلاء يقدم مفارقة قوية بين اللهجة المراكشية واللهجة العربية ، مدعيًا أنه يفهم اللهجة العربية لكنه لا يفهم اللهجة المراكشية ، يزاد على ذلك أن نيبور الدقيق والمجد وقع فى بعض الأخطاء فى هذا الموضوع ، لكن تحرياتى أوصلتنى إلى رأى مختلف تمامًا . المؤكد أن هناك تشكيلة متباينة من اللهجات فى اللغة العربية ، وعلى نحو أكثر من اللغات الأخرى ، لكن ، على الرغم من انتشار العربية على نطاق واسع من موجادور إلى مسقط ، فإن من يتعلم لهجة واحدة يفهم بقية اللهجات فى سهولة ويسر ، ومن باب

الاحترام للنطق ، فإن من يعرف الهجاء الصحيح للكلمات ، لن يشعر بحرج كبير من تباين الأصوات وسرعان ما يصبح الأمر مألوفًا بعد ذلك . هذا المعنى يجرى التعبير عنه فى كثير من الأحيان بمصطلحات مختلفة ، لكن ذلك ينطبق بصورة أكبر على الأسماء لا على الأفعال. هناك كلمات كثيرة تستخدم فى بلد بعينه ولا تستخدم فى بلد آخر ؛ وعلى سبيل المثال نجد أن الكلمة الإنجليزية يسمونها "خبزًا" فى سوريا ويسمونها " عيشًا " فى مصر وهذان المصطلحان فصيحان عربيًا ، وهذا يدل على أن العربية ثرية بالمرادفات ، لكن اللهجة السورية لا تزال تحتفظ بذلك الذى أصبح مبتذلاً فى مصر . ومن بين الأمثلة التى أوردها نيبور من اللهجتين المصرية والحجازية ، يمكن أن أشير هنا بطريقة حرفية إلى أن هاتين اللهجتين خاليتين من أية كلمة من الكلمات المحلية ، والمصريون عندما يقولون " اقعد " ، وأهل الجزيرة العربية عندما يقولون " اجلس " إنما يستخدمون كلمتين عربيتين فصيحتين تعبران عن شىء واحد ، وأن واحدة من هاتين الكلمتين شائعة فى الجزيرة العربية ، والأخرى شائعة فى مصر ، فى الوقت الذى تكون فيه هاتان الكلمتان مفهومتين تمامًا من كل أولئك الذين اختلطوا بهذا الجمهور ، أو حتى إذا ما كانوا من أصحاب التعليم المعتاد . والرجل الإنجليزى يكون لديه مبرر عندما يستخدم كلمة Steed بدلاً من horse (حصان) ، وعليه نجد أن المغربين يستخدمون كلمة " عود " للدلالة على "حصان" أما عرب الشرق فيستخدمون كلمة "حصان" ، لكن كثيراً من الشعراء يستخدمون كلمة "عود" التى هى غير معروفة فى العامية المصرية ، هـذا التباين فى المصطلحات ربما يكون ناتجًا عن استيطان قبائل مختلفة ، لكل واحدة منها مفرداتها الخاصة بها، والمعروف أن الفيروزآبادى جمع مادة معجمه الشهير (القاموس) عن طريق الانتقال والتنقل بين القبائل ؛ هذا يعنى أن العرب الذين انتشروا فى المناطق التى فتحوها أخذوا معهم تعبيراتهم ومصطلحاتهم الخاصة بهم ، لكن المشترك اللغوى ظل معروفًا لكل أولئك الذين يعرفون القراءة والكتابة .

ربما يكون النطق قد تأثر بحكم اختلاف طبيعة البلاد المختلفة ، مع احتفاظه بعذوبته ورقته فى الوديان المختلفة فى كل من مصر وبلاد الرافدين، وقد يكون النطق قد

أصبح أجشًا بين أهل الجبال المتجمدة فى كل من باربارى وسوريا . وعلى حد علمى ، فإن الفارق الكبير يكمن بين المغربين والمراكشيين ، وبدو الحجاز القريبين من مكة ، لكن لغات هذه المناطق لا تختلف عن بعضها البعض اختلافاً كبيرًا لا يزيد على اختلاف اللهجة الألمانية الصوابية الحالية عن اللهجة الألمانية التى يتكلمها الساكسون ، وأنا شخصيًا استمعت إلى بعض الرجال السوريين يعربون عن جهلهم بكثير من المصطلحات البدوية ، التى تستخدمها القبائل فى المناطق الداخلية من الصحراء ، وبخاصة العنوز الذين هم أيضًا لا يفهمون كلمات بعينها من لغة الحضر السورية ، ومع ذلك ، فإن احتياجات البدو وعاداتهم تختلف عن تلك الاحتياجات والعادات الخاصة بالحضر ، الأمر الذى جعل هؤلاء لا يجدون المصطلحات التى تمكنهم من التعبير عن أفكار أولئك .

فيما يتعلق بالنطق ، نجد أن أفضل نطق هو النطق البدوى فى الجزيرة العربية ؛ نطق المكيين ، ونطق أهل الحجاز . نطق بغداد، ونطق اليمن يجيئان فى المرتبة الثانية . فى القاهرة نجد أن النطق أردأ منه فى أى جزء آخر من مصر، وبعد القاهرة تجىء لغة العرب الليبيين ، التى فيها شىء من النطق اللهجى للمغربين المخلوط بشىء من النطق المصرى . تأتى بعد ذلك العربية التى يتكلمها أهل السهول الشرقية والغربية متسلقو الجبال السوريين ، والدروز والمسيحيون ، تلى ذلك اللهجة التى يتكلمها ساحل الباربارى ، ثم لهجة طرابلس ، ثم لهجة تونس ، وفى النهاية تجىء تلك اللهجة الخشنة التى يتكلمها المراكشيون وأهل الفزان ، التى فيها بعض الأصوات القليلة المختلفة عن اللهجات الأخرى ، والتى تنقسم أيضًا إلى لهجات عدة ، ومع ذلك فإن عرب الجانب الشرقى من جبال أطلس ، وبالذات فى طليطة ودرنة ينطقون لهجتهم المغربية بشىء قليل من الخشونة ، وذلك على العكس من المغربين الذين على الجانب الغربى من جبال أطلس . لكن يتعين علىّ هنا الإقرار بأن اللهجة السائدة بين الشبان الغنادير المسيحيين فى كل من القاهرة وحلب ، هى اللهجة الوحيدة التى لم ترق لى ؛ فقد أصابها الكثير من الغش والتحريف .

الملحق رقم ٩

ملاحظات طبوغرافية عن وادى مكة مأخوذة من تاريخ الأزرقى ، توضح الأسماء المعطاة لكل جزء من هذه الأجزاء (*)

الجبال المختلفة التى تكون السلسلة الجنوبية من وادى مكة هى : جبل فادح ؛ وهو على الجزء المنخفض من جبل قبيص وهو الأقرب إلى المدينة. الخندام هو الآخر يعد جزءًا من جبل قبيص - الجبل الأبيض الذى كان يسميه العرب الوثنيون مستبذرة وهو أيضًا جزء من جبل قبيص . قرن مسقال ، السلسلة المنخفضة من شعب عامر . جبل العارج ، وهو قريب من شعب عامر ؛ وهو يسمى بهذا الاسم لأن ملوك التوبة اليمنيين أسسوا مطبخهم فى هذا المكان عندما غزوا مكة . شعب أبو ضب شعب الصفا أو بالأحرى جبل راحة - شعب بنى كناين ، شعب الخور - شعب عثمن .

فى الناحية الشمالية نجد ما يلى : الحزورة ، لم يكن فى هذه المنطقة سوى سوق مكة الجثمة زقاق النار - بيت الظلام - جبل زرزيرة الذى كان يسميه أهل الجاهلية القايم جبل علمر ؛ كان أهل الجاهلية يسمونه دعاسير الجبل الأدخر (**) وكان يسمى المذهبات فى زمن الجاهلية ، كما كانوا يسمونه أيضًا العضاض - جبل حزنة - شعب عرنى - ثنية كدبة ذى الطوى - جبل المقطع - فاح ؛ وادى يقع خلف بوابة جدة - المددة المغيش ، وهو المكان الذى جرى منه قطع الرخام الأبيض المستخدم فى المسجد

(*) قد نلاحظ هنا أن البدو الحاليين مازالوا يطلقون على أصغر التلال ، وعلى الصخرة البارزة وعلى التل الصغير اسمًا معينًا ؛ الأمر الذى يؤدى إلى شىء من الغموض فى تاريخ الجزيرة العربية ؛ نظرًا لأن تلك الأسماء يعتريها شىء من التغيير بمرور الزمن .

(**) الأدخر : عشب أو نبات يخلطه المكيون بالملاط عند بناء المنازل .

الحرام – الحرورة إستار – مقبرة النصارى – جبل البرود – ثنية البيضاء – الحشا – دار المدور – جبل مسلم – وادى ذى الطوى – ثنية أم الحرث – جبل أبى القيط – فج – شعب أشراس – شعب المطلب – ذات الخليلين – جبل فبش – جبل رحّة – البغيبغة – جبل كيد – العرق ذات الحنتل – العقيلة – شعب الأرنية – العلقة – شعب اللبن – ملحة الغرابة – ملحة الحروث – قبر العبد .

فى الجانب المنخفض من مكة نجد ما يلى : أجياد –رأس الإنسان توجد بين جبل قبيص وأجياد – شعب الخاتم ، بالقرب من أجياد – جبل خليفة – جبل غراب – جبل عمر – غراف – المخا – اللابج – القدفادة – ذات اللهاة – نو مرة – السلفين – الدخادخ – نو الشديد – ذات السُّليم – عضاة النبط؛ سميت بهذا الاسم لأن بعض الأنباط أقاموا فيها وقد أوفدهم إليها معاوية بن أبى سفيان – أم قردان .

على الجانب الشمالى من المعالة نجد : جبل ديلانى – جبل شيب – جبل جيشى – شعب المقبرة – أبو دجان – جبل الليام – الغراب – شعب الأخنس ويطلق عليه أيضًا اسم الخوارج أو الغشوم – القاعد .

على الطريق المؤدى إلى مكة نجد ما يلى : المفجر أو الخضر –شعب حواء – الرباب – نو العراكة – العمبرة – كانت تسمى أيام الجاهلية – السدر .

على الطريق الموصل إلى جبل ثور ، جنوب مكة نجد ما يلى : ذات اللخوب – ذات عرجة – الكعلية – ثور والبانة .

الملحق رقم ١٠

ملاحظات إضافية

المخواة : ورد ذكرها في صفحة ٢٠٤ و ٣٤٧ من الجزء الأول وهنا يجب أن أنبه إلى عدم الخلط بينها وبين المخا التي على ساحل البحر ؛ المخواة : مدينة أو بلدة تبعد عن مكة مسير يومين عند سفح سلسلة الجبال العظيمة .

كلمة حِجر التي وردت في صفحة ٢٥٢ من الجزء الأول يجب عدم الخلط بينها وبين كلمة حجرة (بكسر الحاء وتسكين الجيم) هو فضاء من الأرض ، والحِجر مفصول عن الكعبة ، أو بالأحرى محجور من بيت الله .

صفحة ١٠٣ من الجزء الثاني – بني عامر – كلمة عامر في هذا الموضع يجب عدم الخلط بينها وبين عمر ، التي هي قبيلة أخرى من حرب والضمة في كلمة "عُمر" لا ينطقها أهل الجزيرة العربية مطلقًا ، الذين يقولون . عمر بن العاص بدلاً من عمرو بن العاص ، ويضعون الضمة لمجرد تمييز الكلمة عن عمر .

المؤلف فى سطور :

جوهان Johann لورفنج بوركهارت Burckhardt

• وهو سويسرى من مدينة بازل توفى ودفن فى القاهرة فى أواخر العام ١٨١٥ الميلادى .

• تلقى الرجل تعليمه فى لندن وأوفدته الرابطة البريطانية إلى الشرق ؛ ومن خلال إقامته مدة تزيد على عامين فى حلب ، ومن خلال التجوال فى كل من سوريا والنوبة ، أمكن لذلك الرجل أن ينتحل بصورة متدرجة شخصية وطابع الرجل الشرقى ، واشتهر باكتشاف بيترا الى كانت عاصمة للأنباط ومركزًا من مراكز تجارة القوافل .

كان بوركهارت يتكلم العربية بطلاقة وكانت لغته سليمة وضليعًا فى الأعراف الإسلامية .

لم ينكر أنه أوروبى ولكنه كان يدعى إدعاءًا منطقيًا بأنه مرتد عن دينه ودخل فى الإسلام منذ بضع سنين .

أنتقل بوركهارت تحت اسم إبراهيم بن عبد الله من جدة إلى الطائف مارًا بذلك على ركن من أركان مكة المكرمة كما مر أيضًا فوق جبل قدرة .

• تحسنت علاقته بمحمد على باشا وعاد فى ثوب التقوى والدين إلى مكة ليكون فى انتظار مجىء قوافل الحج .

• أدى فريضة الحج فى شهرى نوفمبر وديسمبر وضاعت منه فرصة العودة وغادر مكة مع بعثة الحج السورية نظرًا لهروب الجمّالة الذين كانوا يرافقونه ، ثم وصل إلى القاهرة التى وافته المنيه فيها .

المترجم فى سطور

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت في المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها :

له مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل – الرياض – المملكة العربية السعودية ، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربيـة – الريـاض – المملكة العربية السعودية ، والمجلة العربية – الرياض – المملكة العربية السعودية ، ومجلة الهلال – القاهرة – جمهورية مصر العربية .

وله كتب مترجمة إلى العربية منها :

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية .

١– التفكيكية : النظرية والممارسة ، تأليف كرسيتوفرنوريس ، دار المريخ ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

٢ – الشاعر والشكل ، تأليف : جدسون جيروم ، دار المريخ .

٣– الإستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه ، دار المريخ .

٤ – الأطفال والمخدرات ، دار المريخ .

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر ،الرياض ، المملكة العربية السعودية .

١– الموظف المشاكس .

٢ – عمل الفريق الفعال .

(جـ) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال . القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- هارون الرشيد ، تأليف : فيلبي .

٢- الكوكائين والمراهقين .

٣ - بنات مدمني ومدمنات المسكرات .

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال .

١- حلم ليلة إفريقية .

(هـ) كتب وروايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، جمهورية مصر العربية.

١- سبعة أنماط من الغموض ، تأليف : وليم أمبسون .

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها ، تأليف : بالجريف (جزءان).

٣ - حركات التحرر الإفريقي ، تأليف : ريتشارد جبسون .

٤ - إرادة الإنسان في علاج الإدمان .

٥ - قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦ - سيرتي الذاتية ، تأليف أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، جمهورية مصر العربية .

١- سكين واحد لكل رجل .

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣ - المهمة الاستوائية .

المراجع فى سطور :

محمد صابر إبراهيم عرب

أستاذ تاريخ العرب الحديث بقسم التاريخ والحضارة - جامعة الأزهر ١٩٩٤ - حتى الآن .

أستاذ بمعهد البحوث والدراسات العربية ١٩٩٤ - ٢٠٠٥

رئيس دار الوثائق القومية ١٩٩٩ حتى نهاية ٢٠٠٤

رئيس مكتب النادى العربى للمعلومات - مكتب القاهرة .

عضو مجلس أكاديمية الفنون .

رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية يناير ٢٠٠٥

من أهم مؤلفاته :

١ - "المتغيرات الاجتماعية فى المجتمع المصرى خلال الحرب العالمية الثانية" .

٢ - «نهاية مملكة هرمز ١٦٢٢" .

٣ - "المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى سالم بن حمود السيابى" .

٤ - "المنهج التاريخى فى كتابات المؤرخ العمانى حميد بن رزيق" .

٥ - "تجارة الخليج العربى فى ظل السيطرة البرتغالية" .

٦ - "رؤية نقدية فى مصادر التاريخ العمانى" .

٧ - "دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية" .

٨ - "الدكتور محمد حسين هيكل بين الاعتدال والتطرف" .

٩ - "العرب فى الحرب العالمية الأولى" .

١٠ - "العلاقات المصرية العمانية فى عهد السيد سعيد بن سلطان" .

١١ - "العمد والمشايخ فى الريف المصرى خلال ثورة ١٩١٩" .

١٢ - "الحقوق التاريخية لدولة الإمارات فى الجزر الثلاث (طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى)" .

١٣ - "العلاقات العربية العربية فى ظل الحرب الباردة" .

١٤ - "دور الثقافة العربية فى دعم العلاقات العربية العربية" .

١٥ - "رواق المغاربة فى الجامع الأزهر خلال القرن التاسع عشر".

١٦ - "قراءة فى أوراق الشيخ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر)" .

١٧ - "برامج الأحزاب المصرية ١٩٢٢/١٩٥٣" (رؤية ومقارنة) .

١٨ - "التواطؤ الثلاثى فى حرب السويس ١٩٥٦" .

١٩ - "الحركة الوطنية فى مصر ١٩٠٨-١٩١٤" ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢٠ - حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ والعلاقات المصرية البريطانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ١٩٨٥ .

٢١ - "المدخل إلى تاريخ أوروبا الحديث" .

٢٢ - "تاريخ العرب الحديث" ، ١٩٨٩ .

٢٣ - "موجز تاريخ عمان" .

٢٤ - "الفكر السياسى عند عباس العقاد" .

التصحيح اللغوى : أحمد نزيه
الإشراف الفنى : حسن كامل